

دكتور قاسم عبده قاسم

الحملة الصليبية الأولى

نصوص ووثائق تاريخية

الحملة الصليبية الأولى

نصـــوص ووثـــائـــق

تحرير

د. قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

طبعة

٢٠٠١م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون – فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:ÊIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

إهــــداء

إلى ابنى عمرو .. بسمة اليوم ، وأمل الغد

قاسم عبده قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

ماهية الحركة الصليبية ـ طبيعة الحملة الأولى ـ الدوافع والأسباب ـ أحداث الحملة ـ مؤرخو الحملة الأولى ومنظورهم التاريخي ـ عوامل اختيار النصوص.

«الحروب الصليبية» عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين. فالصورة التى تتمثلها أذهان عامة المثقفين فى الغرب الأوربى عن الحملة الصليبية تشى بصورة فرسان بواسل ألهبتهم الحماسة الدينية، والشوق لتحرير قبر المسيح والأماكن التى شهدت قصته على الأرض، من أيدى المسلمين. ويتصور الكثيرون أن هؤلاء الفرسان قد فارقوا الأهل والوطن، وانطلقوا فوق جيادهم الفارهة يشنون حرباً مقدسة ضد العرب ذوى البشرة الداكنة الذين يفرون أمامهم فى جبن وتخاذل.

هذه الصورة الأخَّاذة ليست صحيحة جملة وتفصيلا. فقد جاءت نتاجًا للخيال الذى كان نصيب الحروب الصليبية منه أكبر من نصيب أية ظاهرة تاريخية أخرى. وعلى الرغم من أن هذه الصورة توافق المفاهيم الشعبية عن الحركة الصليبية فى الغرب؛ فإنها تحمل من الخيال أكثر مما تحمل من التاريخ. فلم يكن الفرسان الصليبيون عمالقة يمتطون جياداً فارهة، لأنهم كانوا أبناء مجتمع يعانى من سوء التغذية بشكل عام، كما أن خيولهم كانت هزيلة ولم تتحسن سلالاتها إلا فى وقت لاحق بفضل تهجينها بسلالات الخيول العربية. كذلك فإن المسلمين والعرب لم يكونوا جبناء أو متخاذلين، وإنما كان التشرذم السياسى، والنزاع والتخاصم بين حكام المنطقة العربية، العامل الحاسم فى إنتصار الصليبيين. ومن ناحية أخرى، كان الصليبيون من أبناء الغرب الكاثوليكى قد جاءوا إلى المنطقة تحت راية الصليب حقًا، ولكن أهدافهم لم تكن أهدافًا دينية بالفعل.

والمفهوم الشعبى فى الغرب عن الحروب الصليبية لم ينشأ من فراغ، وإنما تكون عبر عشرات السنين بفعل تراث اجتمع على مر الزمان بفضل الدعاية النزقة التى روجتها البابوية ورجال الكنيسة الكاثوليكية ضد المسلمين من ناحية، والشعر الشعبى الذى تناول الحروب الصليبية من ناحية ثانية، ثم كتابات مؤرخى الحروب الصليبية اللاتين من ناحية ثالثة. وبينما كانت الدعاية البابوية سابقة على خروج الحملات الصليبية ومواكبة لها، فإن كتابات المؤرخين والشعراء لم تُكتب سوى بعد نجاح الحملة الأولى. ويعنى هذا أن الأحداث قد كتبت من منظور غير واقعى ينشد النموذج والمثال ويحاول صياغة الظاهرة التاريخية فى إطاره.

وعلى الرغم من أن المنطقة العربية كانت هى المسرح الأساسى الذى جرت عليه أحداث هذه المواجهة الطويلة المضنية، فإن الكثيرين من عامة المثقفين العرب لا يكادون يعرفون شيئًا عن هذا الحدث التاريخى الهام؛ اللهم بعض أسماء قليلة من قادة حركة الجهاد ضد الصليبيين. والفكرة العامة عن «الحروب الصليبية» فى العالم العربى، فكرة عاطفية تدغدغ الحواس القومية وتداعب مشاعر الزهو الكاذبة عن الإنتصار العربى الإسلامى على الصليبيين وطردهم من المنطقة. وربما يكون من أسباب هذه الصورة الضبابية للحروب الصليبية فى العالم العربى، أن البحث التاريخى ظل قاصراً حتى الآن عن تكوين صورة صحيحة بشكل عام للحركة الصليبية التى كان هدفها الأساسى القضاء على العروبة والإسلام فى المنطقة العربية، وتحويلها إلى منطقة تابعة ومجال حيوى للتوسع والإستيطان الأوربى. وربما يكون من الأسباب أيضًا، عدم محاولة معظم مؤرخى الحروب الصليبية فى العالم العربى، حتى اليوم دراسة الحركة الصليبية من منظور معاصر، يربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية. وهى ، على أية حال، محاولة غير تعسفية وتقوم على أسس علمية وطيدة.

وهكذا، نجد أنفسنا بالضرورة فى مواجهة سؤال هام يطرح نفسه عن ماهية الحركة الصليبية . لقد كانت الحركة الصليبية واحدة من القوى الكبرى المحركة لتاريخنا وتاريخ الغربى الأوروبى على السواء. فقد دارت معارك الحروب الصليبية على نطاق واسع؛ سواء من حيث النطاق الجغرافى، أو المدى الزمنى، أو من حيث الأعداد التى شاركت فى هذه المعارك. وسيطرت الحروب الصليبية وأخبارها وأحداثها على مشاعر الناس وأفكارهم فى الغرب الأوربى فيما بين سنة ١٠٩٥م ، وسنة ١٢٩١م على أقل تقدير. بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن الأفكار والقيم والمثل التى تبلورت فى أتون الحروب الصليبية (والتى كانت بدورها من عوامل قيام الحركة الصليبية قبل ذلك) ظلت ماثلة فى أذهان الأوربيين ووجدانهم فترة طويلة من

الزمان، بحيث أن كل من كتب في الشئون الأوربية آنذاك، تقريبا، كان يشير بشكل أو بآخر إلى الحروب الصليبية، أو إلى الكيان الصليبي فوق الأرض العربية، أو إلى مشروع أو خطة صليبية جديدة. بل إن الفكرة الصليبية ظلت محتفظة بجاذبيتها في الغرب الأوربي حتى القرن الثامن عشر كما يقول جونثان رايلي سميث. ومن ناحية أخرى، كان التصدى للصليبيين ومحاولة القضاء على الكيان الصليبي، هو الشغل الشاغل للأمة العربية الإسلامية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بل إن بقايا الصليبيين ظلوا يهددون السواحل العربية على البحر المتوسط خلال فترة طويلة شملت معظم سنوات القرنين التاليين.

وحتى اليوم لا يستطيع أحد في الغرب أو في المنطقة العربية أن يقف موقف اللامبالاة من تاريخ الحروب الصليبية سوى عن جهل أو جهالة. فعلى مر القرون كان الأوربيون ينظرون في تاريخ الحركة الصليبية ليستلهموا الأحداث والأفكار؛ ذلك أن الفرنسيين في العصر الحالي يرون في الحملات الصليبية أول مشروعاتهم الإستعمارية. والجدير بالذكر أن غالبية جيوش الحملة الأولى كانوا من الفرنج، أجداد الفرنسيين، بحيث صار الإسم مصطلحًا يدل على كل الصليبيين أيا كانت جنسيتهم. كما أن الصليبيين أطلقوا على الكيان الصليبي في فلسطين «فرنسا ما وراء البحار» بإعتباره إمتداداً للوطن الفرنسي الأم، وهي نغمة استعمارية رددها الفرنسيون بالنسبة للجزائر وكل مستعمراتهم، وما زالوا يرددونها بالنسبة لبقية مستعمراتهم حتى اليوم. كما أن الإنجليز حين احتلوا فلسطين سنة ١٩١٧ اعتبروا أنفسهم ورثة الصليبيين. بل إن الصهاينة عندما اغتصبوا الأرض العربية ، وأقاموا دولتهم سنة ١٩٤٨، كانوا ينفذون مشروعًا شبيهًا بالمشروع الصليبي، ولكن في مصطلحات صهيونية.

وسواء بالخير أو بالشر، فقد جلبت الحركة الصليبية إلى منطقة شرق المتوسط قوى جديدة استمرت تتفاعل مع القوى القديمة في المنطقة على مدى قرون عديدة. كما أنها أدخلت عناصر جديدة في الغرب الأوربي وفي المسيحية الكاثوليكية، صارت اليوم من أهم مكوناتها. فقد كان النتاج الأساسي بالنسبة للحروب الصليبية في الغرب، أن صارت الحرب الهجومية أمراً مشروعًا، بل ومقدسًا في بعض الأحيان. وكان ذلك تكريسًا للروح العسكرية العدوانية التي تميز الحضارة الأوربية حتى اليوم.

وعلى الرغم من مرور ما يقرب من ألف سنة على بدء الإهتمام العام بالحركة الصليبية، وعلى الرغم من مرور قرون طويلة من بدء محاولة الدراسة الأكاديمية لهذه الظاهرة التاريخية

الفئة، فإن عدداً قليلاً من الناس، فقط، لديهم فكرة واضحة عن «الحروب الصليبية»؛ سواء فى الغرب أو فى المنطقة العربية والعالم الإسلامى.

وتحديد مصطلح جامع مانع مشكلة ليست سهلة على أية حال بالنسبة لأية ظاهرة تاريخية. وفيما يتعلق بالحركة الصليبية ، أو الحروب الصليبية ، أو الحملات الصليبية، أو حتى لفظ «صليبى» تبدو المشكلة أكثر تعقيداً. ذلك أن محاولة صياغة تعريف محدد لأى منها محاولة محفوفة بالمخاطر الجسيمة. فوضع تعريف بسيط لظاهرة تاريخية معقدة وممتدة فى رحاب الزمان والمكان مثل «الحركة الصليبية» أمر قد يجردها من الكثير من دلالاتها التاريخية ومضامينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. فقد سيطرت هذه الحركة وأحداثها على الفكر والمشاعر فى الغرب الأوربى وفى المنطقة العربية طوال عشرات السنين، كما نتجت عنها عشرات الأحداث الفرعية على كافة المستويات. كذلك فإن القيم والمثل والأفكار، التى سبقت أو صحبت مولد الحركة الصليبية، تبلورت وتطورت فى خضم أحداثها بحيث صارت أساسًا لتيارات أخرى إنبثقت عنها، وصارت من أهم قوى التغيير فى أوربا ذاتها سواء على المستوى السياسى أو على المستوى الثقافى والاجتماعى. ومن ناحية أخرى، فإننا لا يمكن أن نعتمد على ما كتبه المؤرخون المعاصرون للحملات الصليبية لوصفها، أو لتحديد مدلول «الحملة الصليبية»، وذلك لأن إشاراتهم فى هذا الصدد كانت مختصرة جدًا، فقد كانوا يتحدثون عن شىء يعايشونه ويفهمونه جيداً، ولم تكن بهم حاجة لوضع تعريف جامع مانع له. ولذلك فإننا لا نجد مصطلحاً واحداً استخدمه المعاصرون جميعًا بشكل مُنَّسق لوصف «الحملة الصليبية» أو «الصليبيين». بل إن الكتاب اللاتين ظلوا حتى القرن الثالث عشر يستخدمون كلمة Per-egrinus (ومعناها الحاج) للدلالة على الصليبى وعلى الحاج المسلح معًا. ولم يحدث قبل القرن الثالث عشر أن ظهرت الكلمة الدارجة Croiserie فى اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، ومعناها «صليبى». وطوال الفترة السابقة استخدمت مصطلحات وكلمات عديدة للدلالة على «الحملة الصليبية»؛ فقد كانت تسمى أو peregrinatio أى الحج ، كما استخدمت عبارة الحرب المقدسة guerre sainte أو bellum sacrum والرحلة Passagium أو الرحلة العامة passagium generale، وحملة الصليب expeditio crucis، أو عمل يسوع المسيح nego-tium jhesu. والجدير بالذكر أن كثيراً من هذه العبارات قد صيغت بدافع من الحذلقة، ولم تكن مصطلحات اتفق عليها المعاصرون. ولم يحدث سوى فى أخريات القرن الثانى عشر أن

ظهرت كلمة crucesignati (ومعناها الموسوم بعلامة الصليب) لتحديد الصليبى بشكل دقيق، بيد أن كلمة حاج لم تختف فى تلك الفترة وإنما ظلت تدل على الصليبى بعد ذلك بوقت طويل، ولاسيما بالنسبة للمشاركين فى الحملات الصليبية المتوجهة إلى المنطقة العربية.

ومشكلة المصطلح وتعريف «الحركة الصليبية» و«الحملة الصليبية» و«الصليبى» تستدعى إلى الذهن مباشرة مشكلة المصطلح والتعريف التى واجهها مؤرخو الإقطاع أيضًا. فقد إنتابتهم الحيرة وهم يحاولون تعريف فترة فائقة الأهمية من حيث التنظيم السياسى والإقتصادى والإجتماعى بسبب تلك الكثرة من الإختلافات ومدى التباين من إقليم لإقليم فى تطبيق تلك النظم التى اصطلح هؤلاء المؤرخون على تسميتها بالنظام الإقطاعى. ولم يكن من عاصروا هذا «النظام الإقطاعى» وعاشوا فى إطاره يعرفون أنه «نظام إقطاعى»، وإنما كانت لهم مسميات أخرى مختلفة ومتعددة. وليس من المدهش أنه يمكن وصف النظام الإقطاعى بعدة تعريفات مختلفة، ولكن المهم أن محاولة وضع مثل هذه التعريفات قد زاد من فهمنا للعصور الوسطى على الرغم من أنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة.

ولا شك فى أن المعاصرين لمولد الحركة الصليبية وتطوراتها المختلفة كانوا يعرفون ماهية «الحملة الصليبية» على الرغم من أنهم لم يستخدموا هذه المصطلح سوى فى القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من أنهم إستخدموه بجانب العبارات الأخرى التى أشرنا إليها. ولا يهمنا فى هذه الدراسة أن نتناول التحديد أو التعريف القانونى «الحملة الصليبية» (وهو على أية حال تحديد ظل يتطور وفقًا لتطورات الحركة الصليبية ذاتها)، وإنما يهمنا فى المقام الأول أن نحدد مدلولها بالنسبة لمن شاركوا فيها، وبالنسبة لمعاصريهم ، وما أدى إليه ذلك على مستوى الواقع التاريخى. وهذه كلها يمكن أن نجدها فى كتابات المؤرخين وخطب المبشرين ، وخطابات البابوات ومراسيمهم ومنشوراتهم الدورية ، فضلاً عن الأشعار الشعبية. فالبداية دائمًا هى دعوة الناس لأخذ شارة الصليب؛ وهو ما يعنى أن يقسموا على الإنضمام لحملة عسكرية ذات هدف دينى معلن. وكان هذا القسم يتم فى إحتفال عام (كان يختلف من مكان لآخر) حيث يقوم الرجال والنساء، الأغنياء منهم والفقراء، والقساوسة والعلمانيون يالتطوع للمشاركة فى الحملة. ومن المهم فى هذا المقام أن نوضح أن الجيوش الصليبية لم تكن قاصرة على أولئك الذين أقسموا على حمل شارة الصليب، ولكنها كانت تضم أيضًا هذه الأعداد المألوفة من غير المحاربين الذين كانوا يسيرون فى ركاب جيوش ذلك الزمان لأداء المهام والخدمات التى تؤديها

أسلحة الخدمات فى الجيوش الحديثة من ناحية، كما كانوا يجدون رزقهم فى ركاب تلك الجيوش من ناحية أخرى. كذلك كانت الجيوش الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تضم أعداداً من المرتزقة؛ إذ صار من الممكن للصليبى أن يدفع مبلغاً من المال لتجنيد من يقوم بدلاً منه بالوفاء بقسمه الصليبى. وكان هذا فى الواقع تطوراً هاماً أدى فيما بعد إلى ظهور «صكوك الغفران». على أية حال، كان الدعوة إلى المشاركة فى الحملة الصليبية سمة أساسية من سماتها بشرط أن تكون هذه الدعوة صادرة عن البابا.

هذه هى أهم مدلولات عبارة «الحملة الصليبية»، وهى تكشف عن نوع من الإلتزام المتبادل بين الصليبى والبابوية. إذ يقوم الصليبى بتلبية دعوة البابوية، ويقسم على أداء المهمة المطلوبة، لقاء حصوله على الغفران وعدة امتيازات دنيوية أخرى. وهذه العناصر الأساسية هى التى جعلت بعض مؤرخى الحروب الصليبية يمدون نطاق الحركة الصليبية بحيث تشمل أيضاً الحملات الصليبية التى جرت على حدود أوربا أو داخل حدودها ضد المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية. بيد أننا لا نستطيع أن نوافق على هذا الرأى. فقد نشأت الحركة الصليبية أصلاً بهدف الزحف على الشرق لتخليص الأرض المقدسة من أيدى المسلمين والقضاء على الوجود الإسلامى فى مناطق شرق المتوسط. ولذا فإننا نرى أن عبارة «الحركة الصليبية» تنطبق فقط على الحملات التى جردت صوب فلسطين والمنطقة العربية بهدف الإستيلاء عليها، كما تنطبق أيضاً على تلك الحملات التى أرسلها الغرب الأوربى دفاعا عن مكاسب الحملة الأولى ومساندة للكيان الصليبى على الأرض العربية. كما أننا نرى أن الحملات «الصليبية» التى دعت إليها البابوية فى داخل أوربا أو على حدودها، كانت حملات سياسية بحتة ينبغى معالجتها بشكل منفصل، وذلك على الرغم من أن البابوية دعت إليها باعتبارها حملات صليبية من ناحية، وتوفر الأسس القانونية التى توفرت للحملات الشرقية من ناحية أخرى.

أما السمة الأساسية الثانية للحملة الصليبية فتتمثل فى الإمتيازات القانونية التى كان يحصل عليها الصليبيون. فقد كان الصليبى يتمتع بحماية البابوية لأملاكه وعائلته ومصالحه طوال فترة غيابه فى الحملة الصليبية. ومع مرور الزمن تطورت هذه الإمتيازات واتسع نطاقها، ولكن الغفران ظل، منذ البداية، أهم هذه الإمتيازات؛ على الرغم من أنه صار يمنح فى فترة متأخرة لقاء المال فقط.

ومن الخطأ أن ننكر المكانة الفريدة التى تبوأتها القدس فى الدعوة للحركة الصليبية؛ إذ

كانت للمدينة التى شهدت قصة المسيح جانبيتها الطاغية، والتى كانت أهم عناصر الدعاية البابوية لبدء الحركة الصليبية. فهل كان يمكن أن تكون لأية مدينة أخرى جاذبية القدس فى ذلك العصر الذى كان أريجه مزيجاً من الرؤى الإعجازية وأخبار التنبؤات، والذى كانت تحكمه مفاهيم غيبية وأخروية آمن بها المجتمع؟ لقد كانت جاذبية القدس الطاغية هى التى اجتذبت المشاركين فى الحملة الأولى، ومن جاءوا بعدهم. وعلى الرغم من أن البابوات أنفسهم، ورجال القانون فى البلاط البابوى، وعلماء اللاهوت ـ جميعًا كانوا يرون أن الحملات الصليبية التى جردت على أوربا أو داخلها تستحق نفس المكانة القانونية التى تستحقها الحملات التى خرجت صوب المنطقة العربية، فإننا نرى أن التعريف القانونى وحده ليس عاملاً هامًا فى تحديد ماهية الحركة الصليبية. لقد كانت الحركة الصليبية فى نشأتها وأهدافها مرتبطة بالأرض المقدسة والمنطقة العربية والأهداف الإستيطانية، أكثر من إرتباطها بأية عناصر قانونية أخرى داخل أوربا نفسها، وأكبر من ضمانات البابوية للصليبيين. والدليل على صدق هذا القول يبدو جليًا واضحًا من خلال أخبار الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين التى بذل البابا إربان محاولات كثيرة لمنع خروجهم. لقد كانت دعوة إربان الثانى فى كليرمون تطرح أمام المجتمع الأوربى الذى مزقه الانقسام وأرهقته المشكلات هدفًا عاما يمكن لكل قوة من القوى الفاعلة فى هذا المجتمع أن تعبر عن نفسها من خلاله. وكان الطريق الذى سارت عليه الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين، ثم حملة الأمراء، طريقًا للأمل فى الخلاص الدنيوى والأخروى معًا. ولم تكن الصياغات القانونية المتحذلقة لتحول دون مسيرة الطمع والأمل تحت راية الصليب.

ومن ناحية أخرى، كانت الحملات الصليبية الأوربية أدوات سياسية استخدمتها البابوية فى صراعاتها ضد أعدائها من حكام الغرب الأوربى، أو ضد المذاهب الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكى، ولم تكن لها جاذبية الحملات الذاهبة إلى الشرق. وإذا كانت حماسة الأوربيين للحملات الصليبية ضد المنطقة العربية قد فترت بسبب نجاح المسلمين فى القضاء على الكيان الصليبى نهائيًا سنة ١٢٩١م، فإن ذلك لم يكن يعنى أن القدس قد فقدت جاذبيتها بالنسبة لهم. والأهم من ذلك كله أن الحملات الصليبية الأوربية قد جاءت تطوراً متأخراً عن الحركة الصليبية الأصلية وأهدافها الإستيطانية للتوسع على حساب العروبة والإسلام.

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن محاولة تحديد المصطلح، أو وضع تعريف للحملة الصليبية سوف يقتصر على الحملات التى جردت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فقط. وذلك لأن الحملة

الأولى كانت فى حد ذاتها مثالاً ونموذجًا تم تكريسه بعد نجاح هذه الحملة، بحيث صيغت على منوالها الحملات التالية. وبعبارة أخرى، فإن الحملة الأولى لم تكن هى «الحملة الصليبية الأولى» بالنسبة لمن شاركوا فيها. إذ إنهم خاضوا أحداثها دون أن تكون لديهم فكرة مسبقة عما ينبغى أن تكون عليه، وحين إنتهت هذه الحملة بالنجاح بدأ المعاصرون يحاولون إستخلاص المثال والنموذج النظرى من الأحداث التى شكلت الحملة الأولى على أرض الواقع. فلم يكن المشاركون في الحملة الأولى يعرفون أنه سوف تتلوها حملات أخرى على مثالها ولكن النجاح المذهل الذى حققته هذه الحملة، جعلها نموذجًا ومثالاً جردت أوربا الحملات التالية وهى تهتدى به، على الرغم من بعض التطورات والتعديلات التى طرأت عليه بفعل الظروف التاريخية المتغيرة . لقد عاشت الأفكار والمثل التى ميزت الحملة الأولى بعدها بزمن طويل حقًا، ولكن هذه الأفكار والمثل ظهرت وتطورت فى خضم أحداث هذه الحملة.

وعلى الرغم من الخلاف الذى ثار بين المؤرخين حول المدى الزمنى والمجال الجغرانى للحركة الصليبية، فالثابت تاريخيًا أنها بدأت بالحملة الأولى ضد المنطقة العربية تحت زعم تحرير الأرض المقدسة من أيدى المسلمين. ويميل معظم المؤرخين فى العصر الحديث إلى القول بأن المثال الصليبى يجمع فى ثناياه بين عناصر قديمة وأخرى جديدة ؛ وأهم العناصر القديمة فى المثال لصليبى هو المفهوم القائل بأن الحملة الصليبية «حرب مقدسة» ، يدعو إليها البابا «للدفاع» عن العالم المسيحى. أما العناصر الجديدة فتتمثل فى إدخال مفهوم الحج وإسباغ الجانب الروحى عليه بسبب إزدياد حركة الحج المسيحى إلى فلسطين إبان القرن الحادى عشر. وأهم تلك العناصر الجديدة التى أدخلتها البابوية تتعلق بدوافع البابوية نفسها ومحاولتها لفرض «حركة السلام» من خلال «هدنة الرب» و«سلام الرب» على الفرسان الإقطاعيين المتحاربين فى فرنسا وبعض مناطق غرب أوربا آنذاك.

وإذا كنا نرى أن الأيديولوجية الصليبية قد تشكلت من ثلاثة روافد أساسية: هى الحرب المقدسة والحج كتيار مسيحى، ثم الحروب الإقطاعية وحركة السلام التى كانت نتيجة مباشرة لها كتيار جرمانى، ثم المؤثرات الإسلامية غير المباشرة كتيار خارجى، فإن هذه التيارات والروافد الأساسية الثلاثة كانت متداخلة متشابكة بشكل يصعب تحديد مداه، وعلى نحو جعل تفاعلها سويًا يحول دون أية محاولة لفصل أى رافد من هذه الروافد الثلاثة عن غيره، ومن ناحية أخرى، ينبغى أن ندرك أن هذه الروافد الثلاثة لم تكن وحدها صانعة المثال الصليبى؛ أو

الخلفية الأيديولوجية التى خرج منها المثال الصليبى والحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر. فقد أسهمت عوامل فرعية كثيرة فى صياغة هذه الأيديولوجية بحيث جاءت فى النهاية تعبيراً عن المجتمع الأوربى فى تلك الفترة. وعلى الرغم من أن البابوية والدعاة الكنسيين قد لعبوا الدور الأكبر فى صياغة المثال الصليبى والترويج له، فإن البابوية لجأت إلى مخاطبة الأطماع الدنيوية فى نفوس الناس وهى تدعوهم إلى «الحملة المقدسة».

وحين طرحت البابوية دعوتها فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥، كانت تستهدف من العمل الصليبى شيئًا، وفهم الفرسان الإقطاعيون شيئًا آخر، أما جماهير العامة من المقهورين والمطحونين من الفلاحين وسكان المدن الناشئة، فكانت الدعوة بالنسبة لهم تعنى شيئًا يختلف عما دعت إليه البابوية، وما فهمه الفرسان الإقطاعيون، ولم يكن ممكنًا أن يجتمع هؤلاء وأولئك جميعًا سوى فى ظل الأيديولوجية السائدة والصياغة الفضفاضة للمثال الصليبى، كما طرحها إربان الثانى على جمهوره من الكنسيين والعلمانيين فى كليرمون.

والحركة الصليبية منذ بدايتها نتاج لمجموعة عوامل متشابكة ومعقدة إلى أقصى الحدود، كما أن هذه الحركة نفسها كانت ظاهرة بالغة التعقيد؛ ومن ثم فإن أية محاولة لتفسيرها فى ضوء عامل واحد، أو مجموعة عوامل محدودة؛ مثل التدين العاطفى والحماسة الدينية، أو جوع زعماء الصليبيين إلى الأرض، أو الأحوال والظروف الإجتماعية التعسة التى عاش فى ظلها الفلاحون وفقراء أوربا، أو رغبة تجار المدن الإيطالية فى الحصول على الإمتيازات التجارية، أو المآرب السياسية للبابوية، أو الطموح الشخصى.. وما إلى ذلك ـ هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل؛ على الرغم من أن هذه العوامل جميعًا كانت بالفعل من بين العوامل والأسباب التى أدت إلى بروز الحركة الصليبية على سطح التاريخ.

ومن ناحية أخرى، فليس بمقدورنا أن نميز بخط فاصل بين أهداف الزعماء وأهداف العامة فى الحركة الصليبية؛ لأن كلاً منهما قد أظهر من دلائل التدين، ومن مظاهر الطمع الدنيوى ما يجعلنا نتخبط فى حيرة وارتباك إذا افترضنا سلفا أن تصرفات العامة، أو تصرفات الزعماء، كانت تسير فى إتساق على نهج واحد. ففى تاريخ الحركة الصليبية، وفى تاريخ أوربا العصور الوسطى عمومًا، يواجه المؤرخ خليطًا مذهلاً من التدين والوحشية ، وهذا التناقض الصارخ غالبًا ما يقف عائقًا فى طريق أية محاولة لفهم هذه الأمور.

ومن المسلم به، أنه ليست هناك أيديولوجية يمكن أن تجتذب الجماهير مثل الإيديولوجية التى ترتدى مسوح الدين؛ على الرغم من أن الدوافع الإقتصادية والسياسية والإجتماعية؛ بل والأهداف الشخصية، قد تكون أكثر أهمية من الدافع (المتسر بل برداء) الدين والذى يحظى بالقبول الشعبى الواسع. وفى الحركة الصليبية تمت صياغة الإيديولوجية على أساس دينى، وعندما أخذت عجلة الحرب فى الدوران بدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقية التى كانت متوارية خلف غبار الضجة الإعلامية للحرب.

لقد كانت الحركة الصليبية إنعطافًا خطيرًا فى الغرب الأوربى؛ إذ كانت تلك هى أول حرب يخوضها الغرب تحت راية إيديولوجية بعينها. وكان طبيعيًا أن تفسد هذه الأيديولجية وتُزيف بمرور الوقت. بيد أن الحقيقة تظل تفرض نفسها معلنة أن اعتناق القوى الإجتماعية المختلفة لهذه الأيديولوجية جاء تعبيرًا عن صراع تلك القوى ضد بعضها البعض من ناحية، كما كان تعبيرًا صريحًا عن التفاعلات الإجتماعية الناجمة عن هذا الصراع نفسه من ناحية أخرى. ولما كانت الحركة الصليبية إفرازًا للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، فإنها كانت تسعى لتحقيق أهداف هاتين المؤستين الحاكمتين فى المجتمع الغربى أنذاك. وإذا كانت البابوية تمثل الكنيسة وتجسدها، فإن الفرسان والأقنان والفلاحين كانوا يمثلون الإقطاع ويجسدونه، على الرغم من تداخل كل من المؤسستين فى الأخرى. وقد شاركت القوى التجارية فى إيطاليا فى المشروع الصليبى أيضًا.

ولكن حين دعا البابا إربان الثانى إلى مشروعه بشن «حملة مقدسة» ضد المسلمين فى الشرق كانت هذه الدعوة رد فعل إزاء بعض الضرورات السياسية والدينية العاجلة. لقد كانت الحملة الصليبية مشروعًا كنسيًا خالصًا؛ إذ كانت البابوية تهدف من ورائه إلى فرض سيطرتها على المسيحيين فى الشرق، وإنهاء الشقاق بين كنيسة بيزنطة وروما وتوحيدهما من جديد تحت زعامة البابا. كذلك استخدمت البابوية «المشروع الصليبى» كأداة من أدوات السياسة الداخلية أثناء صراع الكنيسة مع القوى الأخرى فى المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر. فقد أراد البابا أن يؤكد الزعامة البابوية وتثبيت وضعه إزاء الإمبراطور الألمانى الذى كان مشتبكًا معه فى صراع أورثه إياه سلفه البابا جريجورى السابع. وكان الصراع بين الإمبراطورية والبابوية من أهم حوافز البابا على هذه المحاولة لفرض زعامته على أوربا من خلال مشروع دينى الطابع مثل «الحملة المقدسة». كذلك عمل البابا على توجيه طاقات الفرسان نحو أهداف خارج أوربا ليضمن خروجهم من دائرة التبعية لعدوه الإمبراطور من

ناحية، واربطهم وربط أملاكهم برباط التبعية للكنيسة من ناحية أخرى. وهكذا كان على البابا إربان الثانى أن يخاطب المحاربين فقط، فى كليرمون سنة ١٠٩٥. لقد كانت الحملة الصليبية «فعلة كنسية»، ولكن العوامل الدنيوية هى التى حسمت أمرها وجعلتها أمرًا واقعًا.

ومن ناحية أخرى كانت دوافع العلمانيين من الفرسان والفلاحين والأقنان على نفس الدرجة من التنوع والإختلاف. ومما لا شك فيه أن كثيرين من الفرسان الأوربيين الذين شاركوا فى الحملة الأولى كانوا يتلظون شوقًا بالرغبة فى قتل المسلمين الذين أشاعت الدعاية البابوية أنهم يقتلون المسيحيين الشرقيين ويدمرون الكنائس. وبغض النظر عن أن الحقيقة التاريخية كانت أبعد ما تكون عن الدعاية الكنسية؛ فإن الأخبار والقصص التى روجتها الدعاية الكنسية جعلت الناس فى غرب أوربا يأخذون هذه الأنباء مأخذ الجد، وكانت صورة المسلمين لدى أهل الغرب تنطق بملامح وحشية عابسة قاسية بحيث تجعلهم يستحقون القتل والتدمير. ولكن هذا السبب لم يكن السبب الوحيد فى استجابة الفرسان لدعوة إربان فى المشروع البابوى، فقد كان الكثيرون منهم يتحرقون شوقًا للمغامرة فى الخارج بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع فى داخل أوربا ضئيلة ومحفوفة بكثير من المخاطر بسبب حركة السلام التى كانت تتبناها البابوية، وبعض أمراء أوربا. كما أن زيادة عدد السكان كان يعنى زيادة عدد الفرسان الذين لا يملكون أية إقطاعيات، وكان أولئك على استعداد للمشاركة فى الحملة إلى فلسطين أملاً فى الحصول على الأملاك والضياع هناك. ومن بين الفرسان كان هناك من يريد إستعادة الهيبة التى فقدها فى وطنه من خلال إنتصار حربى يحققه فى الشرق. بل إن ستيفن كونت بلوا وشارتر، شارك فى الحملة الصليبية لأن زوجته أرادت له أن يشارك فى أعظم مشروعات العصر، وإضطر للرحيل هربًا من سلاطة لسان زوجته الطموح إبنه وليم الفاتح. ويخبرنا بعض المؤرخين اللاتين أن بعض الفرسان قد وجدوا فى انضمامهم للحملة الذاهبة إلى الشرق فرصة للهرب من العدالة، أو الفرار من دائنيهم. كما أن البعض إنضموا تحت راية الحملة خوفًا من أن يظن الناس أنهم كسالى، أو رغبة منهم فى صحبة أصدقائهم، أو لأى سبب آخر من هذه الأسباب التافهة.

وكانت الظروف الإجتماعية والإقتصادية السيئة فى غرب أوربا القرن الحادى عشر وراء مشاركة تلك الأعداد الغفيرة من عامة الناس فى ريف أوربا ومدنها الناشئة آنذاك. ولأن أحلام المقهورين فى أوربا العصور الوسطى لم تكن تتحقق سوى فى القليل النادر، فقد اعتقد العامة

والفقراء أن هجرتهم إلى الشرق المقدس فى ظل مباركة الكنيسة ورعايتها لن تجعلهم يخسرون شيئًا. فلم يكن ينتظرهم فى غرب أوربا سوى الموت جوعًا أو قهرًا تحت وطأة السيطرة الإقطاعية. لقد كانوا يأملون فى أن تتحسن أحوالهم المعيشية فى فلسطين «الأرض التى تفيض باللبن والعسل» كما يقول الكتاب المقدس. أما الموت فقد كان يعنى الخلاص فى الآخرة كما وعدهم البابا فى خطبته. لقد جاءت فكرة «الحرب المقدسة» لتحرير قبر المسيح من أيدى المسلمين فرصة هائلة لتحرير المقهورين فى غرب أوربا؛ إذ لم يكن من المعقول أو المقبول أن يحرر قبر المسيح من تقيدهم الأغلال والقيود الإقطاعية.

ويرى بعض المؤرخين أن الحملة الشعبية، التى ضمت هؤلاء المقهورين، قد خرجت ضد أهداف الكنيسة. فمن الواضح أن البابا كان يوجه خطابه فى كليرمون إلى المحاربين فقط، ولم يكن ليتصور أن يخرج غيرهم للمشاركة فى هذه الحرب. بل إنه بذل جهده لكى يحول دون خروج جماهير العامة والفلاحين بدعوى أنهم سيكونون عائقًا فى سبيل تحقيق الهدف بضرب المسلمين، والذى لا يستطيع تحقيقه سوى الفرسان كما ذكر فى خطاباته. ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من هذه الإجراءات. فقد كانت الأوضاع الإجتماعية السيئة آنذاك فى صالح الحركة الصليبية، ولكن دوافع الفلاحين والعامة كانت تتناقض تمامًا مع أهداف الكنيسة والنبلاء. فبينما رأت الكنيسة والنبلاء الإقطاعيون فى الحملة الصليبية فرصة لزيادة سلطانهم وتوسيع رقعة نفوذهم، رأى الفلاحون فى هذه الحملة نفسها فرصة هروبية من إسار الطبقية الإقطاعية، وظروفهم الإقتصادية والإجتماعية المتردية.

والحقيقة أن كثيرين من الناس فى العالم الغربى ما يزالون ينظرون إلى الحروب الصليبية نظرة رومانسية حتى اليوم؛ لأنهم يتصورون أنها كانت تجسِّد العقيدة وهى تسير بأسلحتها المشرعة تتألق تحت الشمس، ويرون فى الجيش الصليبى جيشًا من الرجال النبلاء الذين هذبتهم تقاليد الفروسية على الرغم من حبهم للقتال. ولكن الصورة الفعلية للحروب الصليبية تحمل الكثير من الملامح القاتمة، كما أن قصتها حافلة بمشاهد الطمع والخسة وصور الخزى والعار؛ فقد كان الصليبيون قومًا من الهمج المتوحشين، حتى بمقاييس ذلك الزمان، وكما صورتهم أقلام المؤرخين من بنى جلدتهم. وعلى الرغم من أنهم زعموا أنهم جنود الرب العاملون فى خدمته، فإن الصور التى ترسمها المصادر التاريخية الصليبية نفسها، تكشف عن أنهم قد صدَّروا أحقادهم وحروبهم الإقطاعية إلى الأرض التى شهدت خطوات المسيح.

ويميل معظم مؤرخى الحروب الصليبية إلى إتخاذ خطبة البابا إربان الثانى فى كليرمون نقطة بداية لبحثهم . وقد ثار جدل كبيرين المؤرخين حول ما قاله إربان فى خطبته. ذلك أن النص الأصلى لهذه الخطبة لم يصلنا، وإنما وصلتنا صياغات لها كتبت بعد نجاح الحملة الأولى ، وفى ضوء هذا النجاح، بحيث جعلها كل مؤرخ تنطق بمفاهيمه وتصوراته الشخصية لما كان ينبغى للبابا أن يقوله فى هذا المناسبة، بغض النظر عما قال إربان الثانى بالفعل. ولكن قراءة هذه الروايات جميعًا تكشف عن عدة نقاط أساسية اتفقت عليها الروايات بشكل يكشف عن أنها وردت فى خطاب الباب الأصلى. لقد خاطب إربان الجمهور المحتشد فى الحقول الفسيحة خارج الكنيسة باسم الرب باعتباره نائبًا عنه، وبرر دعوته للحرب بأنها حرب مقدسة لتحرير المسيحيين والأرض المقدسة فى الشرق، كما امتدح الفرنجة وحثهم على عدم محاربة بعضهم البعض ووجههم إلى قتال المسلمين، ووعدهم بالغفران لقاء المشاق والصعاب التى سوف يلاقونها فى الطريق إلى بيت المقدس.

وتخبرنا المصادر التاريخية أن الإستجابة كانت حماسية وعاطفية أثناء خطبة البابا وبعد أن أنتهى منها . وسرعان ما سرت الأخبار بهذا المشروع البابوى فى شتى أرجاء الغرب الأوربى كما تسرى النار فى الهشيم. وكانت الإستجابة الشعبية لخطبة البابا أكثر من كل التوقعات. ففى أنحاء فرنسا ، وفى الأراضى الواطئة وألمانيا وغرب إيطاليا، ترددت أصداء الدعوة التى أطلقها البابا فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م. وإذا كانت إستجابة النبلاء متوقعة إلى حد ما؛ فإن إستجابة جماهير العامة فاقت كل التوقعات. فقد كان الجو الفكرى والنفسى والظروف الإجتماعية البائسة وراء هذه الإستجابة الجماهيرية المذهلة. لقد فهم الناس دعوة إربان باعتبارها فرصة لمستقبل جديد فى الشرق المقدس، وفرصة لخلاص الروح فى الآخرة إذا مات الإنسان وهو على الطريق إلى هذا الشرق المقدس نفسه. ومن المحتمل أن الصليبيين الفقراء وقعوا فى شباك الطمع وراودتهم أحلام امتلاك الضياع فى الأرض المقدسة.

ومن الخطأ أن نظن أن الموقف الشعبى من الحملة الصليبية كان موقفًا دنيويًا خالصًا يتذرع بالدين مثل موقف الكنيسة والنبلاء الذين كانوا يفضلون مصالحهم الشخصية على الأهداف المشتركة للحركة الصليبية. أما جماهير العامة فكانوا يعتبرون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء. وكان هذا المظهر الدينى العاطفى هو الذى ميز موقف الفقراء من الحركة الصليبية؛ ولكن ذلك لم يمنعهم فى الوقت نفسه من ارتكاب أحط ضروب الجرائم بالشكل الذى

كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية. لقد كان تدينهم من ذلك النوع العاطفى الذى يشوبه التعصب المقيت. وظنوا أن التدين يعنى التعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى، بل ضد كل من لا يؤمنون بالعقيدة الكاثوليكية. ومن ناحية أخرى، كانت جماهير العامة تخلط بين التدين العاطفى المتعصب وحقائق حياتهم التعسة فى ظل المجتمع الإقطاعى الذى يظلم الطبقة الفقيرة ظلمًا فادحًا.

لقد كانت إستجابة الناس من أبناء الطبقة الدنيا سريعة وحماسية، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم «بطرس الناسك» فى بداية الأمر. وكان بطرس هذا راهبًا ترك ديره وأخذ يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين غيره فى تلك الفترة التى شهدت صحوة وإنتعاش المشاعر الدينية ، وانتشار حركة التدين الشعبى العاطفى فى شتى أرجاء أوربا. وقد تكونت حول هذا الراهب أسطورة ظلت مراحًا لخيال الأدباء والفنانين من جهة، كما تعامل معها المؤرخون الأوربيون باعتبارها حقيقة تاريخية من جهة ثانية. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل الدعوى إلى الحملة الصليبية. وإذا كانت الدراسات التاريخية النقدية منذ منتصف القرن التاسع عشر قد كشفت عن زيف هذه الأسطورة ؛ فإن بطرس الناسك ما يزال يحظى بإهتمام المؤرخين باعتباره تجسيدًا للحماسة الدينية الشعبية فى الحركة الصليبية من ناحية، وبسبب تناقض تصرفاته من ناحية أخرى. ذلك أن هذا الرجل الذى يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبى الحركة الصليبية قد بادر إلى الفرار من المعسكر الصليبى فى أنطاكية حين اشتدت المتاعب التى واجهها الصليبيون، وتم القبض عليه وأعيد إلى المعسكر فى شكل مهين.

لقد أطلق البابا إربان الثانى فى كليرمون دعوته الشهيرة للحروب الصليبية. وبدأ المبشرون الشعبيون يواصلون الدعوة إستجابة لخطبة إربان. وبدأ بطرس تجواله للدعوة قبل نهاية ١٠٩٥م. وكان خطيبًا مفوهًا فصيحًا، قادرًا على تحريك الجماهير، على الرغم من أنه كان زرى الهيئة. وكان وجهه الطويل المتغضن يجعله شبيهًا بحماره الذى اعتاد أن يصحبه فى جولاته. وعندما كان يتواجد فى منطقة ما، كان الناس يتدافعون لسماعه، وتمتد أياديهم تتسابق فى انتزاع شعيرات من جسد حماره الهزيل أو ذيله على سبيل البركة.

ومع تباشير ربيع سنة ١٠٩٦م. بدأت رحلات الفلاحين والعامة التى عرفت باسم الحملة الشعبية صوب الشرق . فمنذ أطلق البابا دعوته أخذ النبلاء يدبرون الأموال ويستعدون للرحيل فى حملة البابا التى تحدد الخامس عشر من أغسطس سنة ١٠٩٦م. موعدًا لرحيلها. ومن هذه

القمم الإجتماعية كانت الأنباء تتسرب إلى أكواخ الفلاحين الطينية مشوبة بقدر كبير من الإثارة والخيال. وبات الريف الأوربى فى حال من التوتر والقلق من أخريات شتاء تلك السنة. وحين جمع الفلاحون محاصيلهم لم يخزنوها تحسبًا لشتاء الجوع الطويل كما جرت عادتهم عبر سنوات طوال. وإنما حملوها فوق عرباتهم التى تجرها الثيران، مع زوجاتهم وأطفالهم ومتاعهم الهزيل، لتكون لهم الزاد والقوت فى رحلتهم صوب الشرق المقدس، وتحركت مجموعات كبيرة من الفلاحين ومن جماهير العامة فى مدن الراين القذرة.

وتزايدت أعداد هذه الجماعات بحيث صارت فرقًا وجيوشًا، واختار بعضهم قادة من أقرانهم، على حين سار البعض الآخر تحت قيادة أحد الفرسان، وتحرك بعضهم دون قيادة. وكانت أول فرقة من فرقهم هى تلك التى قادها فارس شرس نبيل المولد هو والتر المفلس. وقد تألف جيشه من عدد كبير من المشاة وغير المحاربين، ولم يكن يضم سوى ثمانية فرسان فقط. ولم تواجه هذه المجموعة سوى متاعب قليلة فى نهاية رحلتها عبر بلاد المجر. ولكن الصليبيين بدأوا يقومون بأعمال السلب والنهب فى بلغاريا، فهاجمهم البلغاريون وقتلوا منهم أعدادًا كبيرة وتفرقوا هاربين فى غابات بلغاريا . وأخيرًا انتهت رحلة الألف ومائتى ميل بالنسبة لحملة والتر المفلس، بأن أقام تحت أسوار مدينة القسطنطينية إنتظارًا لوصول جيش بطرس الناسك. بعد أن أذن الإمبراطور البيزنطى له بأن يعسكر خارج العاصمة الإمبراطورية.

وغادر بطرس ألمانيا فى حوالى ٢٠ أبريل سنة ١٠٩٦م. بجيش كبير من المشاة والفرسان ترافقهم أعداد كبيرة من المعدمين من أهل الريف وسكان المدن. وسمح له ملك المجر بعبور بلاده على شرط ألا يقوم الصليبيون بإثارة المتاعب. وعبر بلاد المجر كان بطرس يقود مسيرة الفقراء وهو يمتطى حماره الذى يشبهه، وخلفه الفرسان يعتلون جيادهم، تتبعهم العربات الثقيلة التى تحمل المؤن، وخلفهم جميعًا سارت غالبية جيش الفقراء على أقدامهم. وعند مدينة سملين على حدود المجر المشتركة مع الإمبراطورية البيزنطية كشف «جيش الرب» عن وجهه القبيح، فارتكب مذبحة راح ضحيتها أربعة آلاف قتيل ، وعدد لا يحصى من الجرحى. وتحولت مدينة سملين إلى خراب يتصاعد دخان الحرائق التى أشعلها الصليبيون فى كل ركن منها أنفاسا غاضبة من الجريمة التى ارتكبها «جيش المسيح». وكانت هذه المذبحة ضد «الأخوة المسيحيين» الذين زعم الصليبيون أنهم جاءوا لتحريرهم.

وخشى بطرس من إنتقام ملك المجر فآثر أن يسير بجيشه فى ظلمات الغابات حتى وصل

إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية. وخاف حاكم مدينة نيش البيزنطية على مدينته عندما علم باقتراب هذه الجموع الخرقاء التى اكتسبت سمعة سيئة للغاية فى تلك الأنحاء. وعلى الرغم من أن الحاكم سمح للصليبيين بالشراء واستقبلهم بود شديد؛ فإن بعض صانعى المشكلات أحرقوا عدداً من مساكن القرويين فى تلك الأنحاء وأحرقوا سكانها أحياء بداخلها. وقد وجد الحاكم البيزنطى أن كرم الضيافة الذى قابل به الصليبيين لم يثمر غير الدمار لبلاده، فهاجم مؤخرة جيش بطرس، وأعمل الجنود سيوفهم فى جنود الحملة الشعبية وأسروا منهم أعداداً كبيرة. وعاد بطرس أدراجه لمهاجمة المدينة ولكن جيشه لقى هزيمة نكراء فقد فيها الكثير من رجاله فضلاً عن الأموال التى قد جمعها من أثرياء الغرب الأوربى لتمويل حملته.

وأخيراً وصلت الشرائم المتبقية من حملة بطرس إلى أسوار القسطنطينية. وقابل هذا الناسك العجيب عاهل الإمبراطورية البيزنطية «اليكسيوس كومنينوس» الذى أدرك بخبرته أن هذه الجموع الهوجاء لن تصمد أمام المسلمين الذين طالما أذاقوا جيوشه المدربة المنظمة مرارة الهزيمة. ونصح بطرس بأن ينضم إلى جيش والتر المفلس ويقبع فى إنتظار حملة الأمراء، ولكن بطرس الذى غرته كثرة أتباعه تقبل هدايا الإمبراطور البيزنطى ورفض نصيحته.

وكان على الإمبراطورية البيزنطية أن تعانى من جموع الجماهير المشاغبة القادمة من الغرب الكاثوليكى بحجة مساعدة البيزنطيين وتحرير المسيحيين الشرقيين. فقد أخذ الصليبيون ينهبون قصور المدينة ويحرقونها، ويسرقون محتويات الكنائس. ووجد الإمبراطور نفسه مضطراً لنقلهم على وجه السرعة إلى آسيا الصغرى. وهناك تصرف «جنود الرب» بطريقة لايرضى عنها الرب، وارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين. وتكفل الطمع والجشع وسيوف الأتراك السلاجقة بهؤلاء الذين قطعوا رحلة الألف ومائتى ميل. واستضافت أرض الشرق المضيافة أجسادهم التى حصدتها سيوف الأتراك. وفى هذه المعركة قتل والتر المفلس ونجا بطرس الناسك من الموت لسبب أو لآخر. وهكذا إنتهت الحملة الشعبية على تراب الشرق الذى داعب خيال الفقراء منذ بداية الدعوة الصليبية وعلى طول الألف ومائتى ميل..

وفى تلك الأثناء كانت جماعات شعبية أخرى تتجمع فى غرب أوربا بقصد الرحيل إلى الشرق المقدس، ولكن هذه الجماعات أخذت على عاتقها مهمة قتل اليهود فى مدن الراين وسائر أنحاء الغرب الأوربى. وعندما إنتهت من هذه المهمة، بدأت تسير على نفس طريق حملة والتر المفلس وبطرس الناسك. ولكن ملك المجر الذى تجرع مرارة التجربة من مسلك جيش كل

من والتر ويطرس، تصدى لهذه الفرق المشاغبة وقضى عليها تماماً قبل أن تحاول الخروج من مملكته. وبرزت أسماء جوتشولك وفولكمار واميكو فى تاريخ الحملة الصليبية الشعبية التى ارتكبت كثيراً من الفظائع على الطريق إلى بيت المقدس. وحيثما تواجدت جيوش الحملة الشعبية: فى حوض الراين، وفى المجر والبلقان، وضواحى القسطنطينية، وآسيا الصغرى ـ ترك أفرادها بيوتًا تحترق، وقرى تنعى سكانها، وخرائب، وجثثًا ترصع طريق «جيش الرب»؛ فقد كان الطريق الذى سارت عليه تلك الفرق الهائجة، مرصعاً بالقرى المحترقة والمدن المنهوبة، وأكوام جثث الضحايا....

كانت البابوية والفرسان مشغولين آنذاك بالإستعداد لخروج حملة الفرسان. وقد غضوا النظر عن ذلك الزلزال الإجتماعى الذى أحدثته حملة الفقراء أو الحملة الشعبية. وكانت مشكلة تمويل الحملة الرسمية من أكبر المشكلات التى واجهت حملة الفرسان؛ وكان على كل أمير ممن أخذوا شارة الصليب أن يبحث عن حل لمشكلة التمويل بطريقته الخاصة. فقد لجأ جودفرى البويونى أمير اللورين إلى إبتزاز اليهود وحصل منهم على مساعدة مالية كبيرة لتمويل حملته إلى فلسطين. وقام آخرون ممن من الفرسان الذين أخذوا شارة الصليب بالتخلى عن أملاكهم للكنيسة ومؤسساتها نظير الحصول على النفقات اللازمة لهذه «الحملة المقدسة».

وعلى أية حال، كانت جيوش الأمراء جاهزة للتحرك صوب فلسطين فى أواخر صيف سنة ١٠٩٦م. وتكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية، وعلى أساس من الروابط الإقطاعية من ناحية ثانية. فقد تولى جودفرى البويونى دوق اللورين الأدنى قيادة الجيش الذى جمعه من هذه المناطق وانضمت إليه فرسان الفلاندرز وإقليم اللورين كله فضلاً عن فرسان المناطق الشمالية الغربية من فرنسا، واشترك معه أخوه بلدوين. وتولى روبرت دوق نورماندى، شقيق الملك الإنجليزى، قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا، ونورماندى، وبعض مناطق الشمال، فضلاً عن الكثير من الفرسان الإنجليز من أتباع أخيه وليم روفوس. أما الجيش الثالث الذى تولى قيادته هوف أمير فرماندوا فكان أصغر الجيوش الصليبية عدداً وأولها فى الرحيل. وتولى هذا الأمير قيادة الفرسان الذين تجمعوا من أقليم وسط فرنسا . وتكون الجيش الرابع تحت قيادة ريمون السانجيلى أمير تولوز الذى كانت قواته تتألف أساساً من فرسان جنوب فرنسا وإقليم البروفنسال. ومن إيطاليا خرج جيش خامس من النورمان تحت قيادة بوهيموند ومعه ابن اخيه تنكرد.

وكان هوف أول الراحلين، وأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى رسالة تفيض غروراً وغطرسة يطلب فيها مقابلته بما يليق بمكانته السامية. وفى الطريق انضم إليه بعض الناجين من الحملة الصليبية الشعبية. وعندما وصل هذا الأمير إلى مدينة درازو البحرية البيزنطية أحاطت به قوات المدينة فيما يشبه الحراسة، وأخذوا إلى القسطنطينية حيث أحسن الإمبراطور استقباله ثم جعله يقسم له يمين الولاء على الطريقة الإقطاعية. وكان جيش جودفرى البويونى هو ثانى الجيوش الصليبية التى تصل إلى القسطنطينية بعد أن عبر بلاد المجر دون مشاكل بسبب إصرار الملك المجرى على أخذ بلدوين شقيق الدوق وعدد آخر من الفرسان رهينة لديه. وبعد مسيرة هادئة وصل جيش جودفرى إلى أسوار القسطنطينية ثم جاءته رسل الإمبراطور تدعوه للقاء. ولكن جودفرى رفض فأمر الإمبراطور بمنع المؤن عن الصليبيين. وبعد أن لقنت القوات البيزنطية جيش الصليبيين درسًا قاسيًا ، رضخ الدوق وأقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى.

لقد آثر الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس أن يتعامل مع قادة الصليبيين بشكل إنفرادى، وعقد اتفاقية معهم الواحد تلو الآخر. وتنوعت أساليبه فى التفاهم معهم ما بين الهدايا، وقطع المؤن والإمدادات، وتوجيه الضربات العسكرية حتى نجح فى أن يحصل منهم جميعًا على يمين الولاء باستثناء ريمون السانجيلى الذى أقسم بحماية شرف الإمبراطور وحياته.

ثم بدأ الصليبيون الذين تكاملت جيوشهم فى عبور المضيق إلى آسيا الصغرى. وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم فى «أرض العدو» للمرة الأولى. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشراذم الناجين من حملته. واعتذر الإمبراطور عن قيادة جيوش الصليبيين، ولكنه زودهم بالأدلاء والمرشدين الخبراء بالطريق ، وواصل إرسال المؤن والإمدادات لهم براً وبحراً.

وفرض الصليبيون حصارهم على مدينة نيقية ولكن أهلها سلموها للبيزنطيين بعد أن رأوا أن فرصتهم فى النجاة ضئيلة. وعوض الإمبراطور الصليبيين بالهدايا التى أغدقها عليهم بدلاً من الغنائم والأسلاب التى كانوا ينتظرون الحصول عليها عند استيلائهم على المدينة. وبعد ذلك انقسم جيش الصليبيين إلى قسمين : ضم أحدهما بوهيموند وتنكرد وروبرت النورماندى، على حين ضم الجيش الآخر ريمون السانجيلى واديمار المندوب البابوى، وهوف، وروبرت كونت الفلاندرز. وفى ضوروليوم أحرز الصليبيون نصراً مدوياً. وكانت تلك معركة فاصلة حسمت

مصير الحملة الأولى إلى حد كبير؛ إذ توقفت كل مقاومة منظمة منذ ذلك الحين. ولكن الهجمات الخاطفة التى كان الفرسان المسلمون يشنونها كلفت الصليبيين كثيراً من جنودهم وأرهقت أعصابهم. أما المناخ فكان هو العدو الرئيسى للصليبيين، لاسيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام والمياه.

وفى الطريق إلى أنطاكية انفصل كل من بلدوين وتنكرد بقواتهما عن الجيش الرئيسى، وراح كل منهما ينافس الآخر فى الإستيلاء على بعض المدن والمناطق لنفسه، ووصل التنافس بينهما إلى حافة القتال، بل إنهما قاتلا بعضهما فى وحشية أمام مدينة المصيصة فى أعالى الشام، كما لو كانا من ألد الأعداء. ثم استطاع بلدوين أن يحصل لنفسه على مدينة الرها بعد أن تبناه حاكمها الأرمنى، فردَّ له الجميل واشترك فى مؤامرة راح الحاكم الأرمنى العجوز ضحية لها. وهكذا قامت أول إمارة صليبية فى الشرق، ورفعت شعار بيت اللورين فى أعالى دجلة والفرات.

وواصل الجيش الصليبى مسيرته حتى وصل أنطاكية. وفى ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧م. بدأ الصليبيون فى فرض حصارهم على المدينة. وعندما كان الصليبيون يحتفلون بعيد الميلاد فى نهاية ذلك العام، كانت المجاعة قد أنشبت مخالبها القاسية فى معسكرهم. واتفق الزعماء على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة. كما أن المسلمين من العرب والأتراك، من ناحية أخرى، أخذوا ينظمون وسائل الدفاع عن أملاكهم، وهو الأمر الذى جعل الصليبيين فى مأزق حقيقى لأنهم لم يجدوا ما ينهبونه، كما أن المسلمين قضوا على بعض هذه الفرق الصليبية بأكملها فى بعض الأحيان.

وفى غمرة البؤس الذى حاق بالصليبيين حاك بوهيموند النورماندى خيوط المؤامرة التى رأى فيها تحقيقًا لحلمه الشخصى ببناء إمارة نورماندية فى الشرق. وأعلن القائد النورماندى الداهية عن عزمه على الرحيل، وارتعدت فرائص الصليبيين الآخرين هلعًا على حين تظاهر هو بالإستجابة لمطالبهم. وبدأ كثيرون من «جيش الرب» يهربون، وكان بطرس الناسك من بينهم.

وكان بوهيموند قد تآمر مع أحد الأرمن على فتح البرج الذى يتولى حراسته. وتحت جنح الليل تم تنفيذ المؤامرة وسقطت المدينة. ولكن القلعة صمدت فى مواجهة الهجوم الصليبى. وفى اليوم التالى مباشرة شن جيش الإنقاذ الإسلامى، الذى كان قد جاء من الشرق بقيادة كربوغا، هجومًا سريعًا على المدينة، ولكنه فشل فى إنقاذها. وفى داخل المدينة التى اكتظت بالجثث

وعضها الجوع، بدأت متاعب الحصار المزدوج الذى تعرض له الصليبيون. ثم بدأت عمليات الهروب الكبير داخل المعسكر الصليبي. وبدا أن الصليبيين بحاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة. وخرج أحد رجال الدين الصغار من إقليم البروفنسال على الفرنج بحكاية عن رؤيا مقدسة تخبره عن مكان الحربة التى كانت قد اخترقت جسد المسيح منذ أحد عشر قرنًا. وتم العثور على الحربة المقدسة بسهولة. وقد أدت هذه الحادثة إلى رفع معنويات الصليبيين فخرجوا لملاقاة جيش كوبوقا الذى كانت قد مزقته الإنقسامات. وتفرق الجيش التركى المهزوم. ولم يكن هناك جيش إسلامى آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس.

وحين توقفت الحرب كشف الطمع الإنسانى عن نفسه فى أبشع صورة، وتجلى الإفلاس الأيديولوجى للحركة الصليبية . وتجسد فى بؤرة شريرة من الصراعات والدسائس والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين الزعماء الصليبيين. فقد تحدى ريمون السانجيلى بوهيموند، صاحب الفضل فى الإستيلاء على أنطاكية، وأدعى أن المدينة من حقه. واجتمع الزعماء الصليبيون وقرروا تأجيل السير إلى بيت المقدس حتى نوفمبر سنة ١٠٩٨م. ثم تفرق الجيش الصليبى ، وأخذ كل أمير يحاول أن يحقق آماله ببناء إمارة خاصة به. وتجدد النزاع بين بوهيموند وريمون السانجيلى الذى كان قد استولى على أحد أبراج أنطاكية. وأخيراً استخدم بوهيموند القوة لطرد أتباع ريمون من هذا البرج. وتسبب هذه فى تأجيل مسيرة الحملة صوب القدس مرة أخرى.

ويبدو أن زعماء الحملة قد استطابوا المقام فى هذه المنطقة من شمال الشام، فنسوا القدس، هدف رحلتهم الكبير. وثارت بين عامة الصليبيين مشاعر الإحباط عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار لتأجيل الزحف صوب بيت المقدس، واتهموهم بنسيان القدس، ثم هددوهم بعزل ريمون السانجيلى عن قيادة الجيش وإحراق مدينة أنطاكية. وهنا تذكر القادة هدف الرحلة الأصلى الذى أعلنوه فى أوربا. وبعد تسعة أشهر أو يزيد تحركت جموعهم صوب مدينة بيت المقدس. وبعد التكفير والتوبة تحرك الجيش الصليبى صوب فلسطين ولبنان وجنوب بلاد الشام. ولم تبذل القوى الإسلامية فى هذه المناطق أية محاولات لوقف تقدمهم. ومر الصليبيون فى طريقهم إلى القدس بمدن مثل طرابلس التى فرضوا عليها الحصار ولم ينجحوا فى الإستيلاء عليها، وبيروت وصيدا وصور. وأخيراً وصلوا إلى فلسطين، وساروا بحذاء الساحل حتى وصلوا إلى عكا التى أمدهم حاكمها الفاطمى ببعض المؤن والأموال ليتقى شرهم. وتملك الخوف سكان يافا والرملة فهجروا المدينتين اللتين سقطتا فريسة باردة فى أيدى الصليبيين.

وأخيراً صافحت عيون الصليبيين المدينة المقدسة من فوق ذلك التل الذى أطلقوا عليه اسم «تل الفرح».

كان الفصل الأخير فى قصة الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذى فرضه الصليبيون على بيت المقدس على مدى خمسة أسابيع (٧يوليو سنة ١٠٩٩م). ومرة أخرى شاعت أنباء الأحلام المقدسة والرؤى الدينية لتشد من أزر الصليبيين. وفى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو سنة ١٠٩٩م، تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة. وجرت على السكان مذبحة فظيعة تحدث عنها المؤرخون الصليبيون من شهودها بفخر...

وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب، والعفن المنبعث من الجثث الطريحة فى شوارع المدينة، اجتمع الصليبيون لأداء صلاة الشكر فى كنيسة القيامة، وأياديهم تقطر دمًا.

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى...

* * *

وقصة هذه الحملة هى التى نتناولها من خلال النصوص التاريخية المعاصرة والوثائق التى أوردناها فى هذا الكتاب. وقد حرصنا على تتبع قصة الحملة الأولى منذ البداية، وقبل البداية. وأعنى بهذا أننى تناولت قصة هذه الحملة، منذ بداية القرن الحادى عشر. فقد كان هذه القرن فترة التفاعلات العميقة السريعة التى خلقت أوربا فى صورتها الأولية، كما كانت هذه التفاعلات هى التى أنجبت الحملة الصليبية. ولذا فإن النصوص تحاول رصد ملامح المجتمع على كافة المستويات ، إجتماعية أو إقتصادية، أو سياسية، أو ثقافية. ثم تتبعنا الدعوة إلى الحملة ، فأحداثها ـ حتى تحقيق هدفها النهائى بالإستيلاء على مدينة بيت المقدس.

بيد أننا ينبغى أن نتوقف قليلاً للحديث عن مؤرخى الحروب الصليبية، وفكرة التاريخ لديهم. فقد كانت للحروب الصليبية أثرها على التدوين التاريخى فى أوربا العصور الوسطى. إذ كان المؤرخون الأوربيون حتى عصر الحروب الصليبية أسرى الأطر القديمة التى ورثوها عن الرومان أو التى فرضها فلاسفة المسيحية الكاثوليكية ، وجاءت الحروب الصليبية لتحرير المؤرخين من هذا الأسر. ذلك أنها كانت تجديداً تاريخيًا كبيراً فى الحضارة الأوربية. وبسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة، وما تحفل به من إثارة، تحرر المؤرخون الأوربيون من الإعتماد على تقليد النماذج القديمة. وذلك لأن العصور الوسطى الباكرة لم تشهد حربًا يمكن مقارنتها بالحروب الصليبية. ومن ثم تعين على كل مؤرخ حاول أن يكتب

قصة الحروب الصليبية أن يكتب بطريقته الخاصة. وهكذا صارت الكتابة التاريخية أقل نمطية وأكثر تلقائية بفضل الحروب الصليبية. وكذلك وُجد الحافز إلى كتابة التاريخ بفضل اتساع آفاق الحروب الصليبية ورحابة مجالها. فقد اكتسب المؤرخون الذين كتبوا هذه القصة خبرات جديدة. ذلك أنهم كانوا فى حال تمكنهم من التعرف على حضارتين فى مرحلة الصدام والتفاعل المتبادل. ولأن الحروب الصليبية كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد كانت لدى المؤرخين فرصة طيبة للتعرف على أن أعداءهم بشر وليسوا من الشياطين كما أوهمتهم الدعاية البابوية.

لقد أنتجت الحروب الصليبية كُتّاباً علمانيين، كما تطور الأدب العلمانى بفضلها. وكان النمط الجديد من التدوين التاريخى، الذى أوجدته الحروب الصليبية، مناقضًا للتدوين التاريخ اللاتينى الكنسى التقليدى من عدة وجوه. وفى الوقت نفسه كان هذا النمط الجديد من التدوين التاريخى أبعد ما يكون عن الملاحم الوطنية، أو ما يعرف باسم أغانى المآثر Chansons degeste لأن هذه الملاحم كانت تتناول القصص الخيالية التى نسجت حول مضمون تاريخى حقيقى، على حين كان تاريخ الحروب الصليبية يبدأ بتناول الحقائق.

ومن ناحية أخرى، كانت الحروب الصليبية إلهامًا لأعداد لا تحصى من المؤلفات التاريخية. وربما لم يحظ أى موضوع آخر بمثل ما حظيت به قصة الحروب الصليبية من اهتمام. فمنذ بدأت عجلة الحروب الصليبية فى الدوران والمؤرخون يكتبون عن هذه الحروب، وأخرجت لنا أقلام النساخين وآلات الطباعة أعداداً لا تحصى من الكتب والمؤلفات التى تدور جميعها حول موضوع واحد؛ هو «الحروب الصليبية» . وعلى الرغم من أن الكتابات التاريخية المعاصرة للحروب الصليبية لم تكن وقفًا على اللاتين؛ إذ ساهم المؤرخون العرب والبيزنطيون والأرمن والسوريان فى كتابة هذه القصة المثيرة، فإن المؤرخين اللاتين يكتسبون أهمية أكثر من غيرهم من حيث أنهم كانوا شهوداً لبداية هذه الظاهرة التاريخية التى غيرت مجرى التاريخ وما تزال تؤثر على أحداثه حتى اليوم.

إن الحروب الصليبية تقدم لنا نموذجًا فذًا لمدى ما يمكن أن ينتج من استجابات فى مجتمع يجعل العنف شريعته. ويُلبس الحرب ثوب الدين، لتصدير فائض حيويته الحضارية خارج حدوده التى ضاقت عن إستيعاب تفاعلاته الحضارية على كافة المستويات. وفى هذا المجال ، تكتسب كتابات المؤرخين اللاتين أهمية متزايدة؛ من حيث أن كتاباتهم تقدم لنا المادة التى تساعدنا على رصد هذه التفاعلات داخل أوربا نفسها، وقبل أن تصدرها إلى المنطقة العربية.

وهو ما لا تقدمه لنا مؤلفات المؤرخين غير اللاتين. وعلى الرغم من الإنحياز الواضح فى رواية أولئك المؤرخين ـ وهو أمر نراه طبيعيًا فى ضوء الحقيقة القائلة بأن غالبيتهم كانوا من رجال الكنيسة ـ فإن أهمية التعرف على موقفهم من العرب والمسلمين من ناحية، وتوفر المصادر العربية من ناحية أخرى، تعطى لهذا العمل الذى اضطلعنا به مبررًا طيبًا.

والمؤرخون الذين اخترنا النصوص الواردة فى هذا الكتاب من مؤلفاتهم ، جميعًا من شهود العيان ومن المؤرخين اللاتين، باستثناء المؤرخة البيزنطية آناكومنينا، ابنة الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومينيوس وأحد أبطال قصة الحملة الصليبية الأولى. وقد اخترنا آناكومنينا لنقدم روايتها فيما يتعلق بأحداث المواجهة الحضارية والسياسية (والعسكرية أحيانًا)، والتى جرت بين الإمبراطور وجنود الغرب الذين زعموا أنهم جاءوا لحمايته ضد الخطر الإسلامى.

هؤلاء المؤرخون اللاتين الذين قدموا رواياتهم عن قصة الحملة الأولى (١٠٩٥ـ١٠٩٩م) فى صفحات هذا الكتاب يمثلون المصادر التاريخية لهذه الحملة. ومنذ البداية اعتمدنا عليهم باعتبارهم شهود عيان؛ ولذا فإننا اقتصرنا على روايات ثلاثة منهم فقط بعد عبور الصليبيين إلى آسيا الصغرى. فقد كانوا هؤلاء الثلاثة هم شهود العيان لما جرى بعد ذلك وحتى سقوط القدس فى أيدى الصليبيين فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م، على الرغم من أننا اعتمدنا عليهم جميعًا لرصد بداية الحركة فى أوربا ومسيرة الحملة الشعبية. وإذا كنا قد أوردنا رواية وليم الصورى بخصوص الحملة الشعبية وما راج من أساطير حول بطرس الناسك؛ فقد كان السبب فى ذلك راجعًا إلى أن وليم الصورى يعتبر واحدًا من الذين صاغوا أسطورة «بطرس الناسك».

كان الفارس الوحيد، بل الرجل المدنى الوحيد، ممن سجلوا قصة الحملة الأولى، هو «الكاتب المجهول» الذى كتب المؤلف المعروف باسم «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين[١]». Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum وهو كتاب يبدأ بمجمع كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥م، وينتهى بمعركة عسقلان ضد القوات المصرية فى أغسطس سنة ١٠٩٩م. وقد قسمه مؤلفه إلى عشرة كتب فرعية، تضمنت قصة هذه المرحلة

١ـ اعتمدنا على الترجمة الإنجليزية التى أصدرتها روزاليند هيل. انظر

Rosalind Hill, The deeds of the Franks and the other pilgrims to Jerusalem, (Thomas Nelson and Sons), London, 1962.

الرئيسية من الحملة الأولى. وكان المؤلف أحد شهود العيان لهذه الحملة. ويبدو أنه كان من عائلة نورمانية استقرت فى جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها. وانضم إلى الحملة التى قادها بوهيموند النورماني وتنكرد. وفي هذا الكتاب يروى لنا المؤلف تجربته الشخصية كواحد من الصليبيين؛ شاهد تطورات الحملة الأولى منذ البداية وحتى سقوط بيت المقدس وانتخاب حاكم وبطريريك للمدينة المقدسة ولحكم المملكة الجديدة على أرض فلسطين. ثم يتحدث عن إنتصار الصليبيين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩. وربما يكون قد مات عقب ذلك مباشرة لأن الكتاب ينتهى بذكر هذه المعركة.

ويبدو من ثنايا الكتاب أن المؤلف كان فارسًا من المرتبة الدنيا. ولكتابه قيمة كبرى من حيث أنه أول كتاب تاريخي يؤلفه رجل علماني منذ كتب إينهارد سيرة شارلمان فى القرن التاسع. وربما يكون هذا هو سبب ذلك التمايز الذى تتسم به كتابة المؤرخ المجهول. فهو صاحب أسلوب فريد يكشف بوضوح عن تناقضه وتعارضه مع المؤلفات التاريخية التقليدية التى عرفتها أوربا فى تلك العصور. فهو يخوض فى تفاصيل قصته مباشرة، ودون تلك المقدمات الإعتذارية التى درج عليها المؤرخون فى أوربا العصور الوسطى. وعلى الرغم من التستر وراء الهدف الدينى للحملة الصليبية، فإن المؤرخ المجهول أمدنا بأوصاف حية للمعارك العسكرية التى كان يفهم أساليبها على نحو أفضل من أى كاتب كنسى عادى. فهو يجعلنا نتسلق معه أسوار أنطاكية ليلاً بعد خيانة فيروز وتسليمها لعصبة بوهيموند. كما أنه يصف لنا مشاق الرحلة وكيف أن الصليبيين اضطروا لوضع أحمالهم فوق الماعز والكلاب بعد أن نفقت دواب الحمل وكيف كان منظر الفرسان بدروعهم مضحكًا مبكيًا وقد اضطروا إلى ركوب الثيران بدلاً من الخيول التى هلكت. وهو يكشف لنا بلا مواربة عن عدائه للبيزنطيين، وكراهيته المميتة للمسلمين، ولكنه يعترف بشجاعة المقاتلين من الأتراك السلاجقة.

على أن أهم ما فى هذا الكتاب أنه ينقل لنا انطباعات جندى عن أعدائه من «الكفار» الذين يستحقون «الموت» ، وأعدائه من المسيحيين «الهراطقة» مثل البيزنطيين. كما أن هذا الكتاب أوضح بجلاء أن الحملة الصليبية كانت عملاً معقداً للغاية. وأية محاولة لتفسيرها فى ضوء عامل واحد، أو دافع بعينه سوف تبوء بالفشل.

أما بقية مؤرخى الحملة الأولى، فكانوا من رجال الكنيسة، والمثال البارز فيهم هو فوشيه

الشارترى الذى ألف كتابًا أسماه «أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس»[1]

Gesta Francorum Iherusalem Peregrinatium.

وكان فوشيه واحدًا من كثيرين لبوا نداء البابا إربان الثانى لشن حرب مقدسة ضد المسلمين فى كليرمون. وكان فوشيه من منطقة شارتر فى مقاطعة إير واللوار. وقد تبع روبرت أمير نورماندى وستيفن أمير شارتر وبلوا. وفى بداية الأمر كان هو القسيس الخاص لستيفن، ثم عمل فى خدمة بلدوين الأول، الذى تولى حكم إمارة الرها الصليبية من ١٠٩٨ـ١١٠٠م، ثم صار أول ملك صليبى يحكم فى القدس من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١١٨م. وقد أقام فوشيه بمدينة بيت المقدس منذ نهاية سنة ١١٠٠م وحتى سنة ١١٢٧ حينما اختفى من مسرح الأحداث.

وتعتبر روايته عن مجمع كليرمون وتقدم جيوش الصليبيين التى قادها روبرت النورماندى وستيفن أمير شارتر وبلوا، من أكمل الروايات التى كتبها المؤرخون الصليبيون الذين شاركوا فى أحداث الحملة الأولى. وبعض أجزاء مدونته الطويلة كتبها اعتمادًا على تجربته الشخصية دون أن يستعين بأحد غيره من مؤرخى الحملة، ولكنه استعان بما كتبه المؤرخ المجهول وريمون الأجويلرى لكى يغطى أحداث تقدم الجيش الصليبى فى الفترة من مايو ١٠٩٧ إلى أغسطس ١٠٩٩م، لأنه كان آنذاك فى مدينة الرها مع بلدوين . وقد وصل فوشيه بمدونته التاريخية حتى سنة ١١٢٧م، أى أنه غطى الأحداث التى جرت للجيل الثانى من الصليبيين.

ويتميز فوشيه بأنه كان شاهد عيان على الحملة الأولى منذ بدايتها، كما أنه عاش بعد نجاحها فى الشرق العربى حتى سنة ١١٢٧ على الأقل. أما أسلوب معالجته لتاريخ الحملة الأولى فهو ذلك الأسلوب الذى يميز المؤرخين الكنسيين عمومًا . فهو، مثل ريمون الأجويلرى يميل إلى تصوير الحملة الصليبية على أنها تحكى قصة أعمال الرب التى أتاها من خلال شعبه الذى اختاره لهذه المهمة: فحين ينتصر الصليبيون تكون الملائكة والقديسون إلى جانبهم

١ـ إعتمدنا على الترجمة الإنجليزية الواردة في كتاب

Edward Peters (ed.), The First Crusade - The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials. (Univeristy of Pennsylvania press. Philadelphia), 1971, pp. 23-90.

وكذلك:

Harold S. Fink (ed.), A history of the expedition to Jerusalem 1095-1127, (Konzville 1969).

فى ميدان المعركة؛ أما الهزائم التى تعرض لها الصليبيون، فقد فسرها فوشيه على أنها توضيح كيف يعاقب الرب شعبه جزاء الخطايا والذنوب التى اقترفوها. فقد كان فوشيه رجلاً متدينًا على طريقة الصليبيين؛ إذ كان متعصبًا ضد أصحاب الديانات الأخرى، وضد أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى أيضًا. وكانت الحملة الصليبية بالنسبة له حربًا مقدسة. ومن هذا المنطلق كان يرى فى الصليبيين مجموعة من الحجاج، كما كان يرى قتلى المعارك من الصليبيين شهداء. ومن ناحية أخرى، كانت عداوته صريحة للمسلمين من الأتراك والعرب. بل إنه كان يبدى سروره، فى عبارات بليغة، لما يرتكبه الصليبيون من أعمال وحشية ضد المسلمين. ولم يخطر بباله أبدًا أن يكون لهؤلاء الناس الحق فى أوطانهم، فقد كان يرى فيهم مجموعة من الوثنيين القساة الغلاظ الذين يستحقون القتل والفناء.

وعلى الرغم من التحيز الواضح فى قصة الشارترى عن الحملة الأولى، إلا أنها تظل قصة مهمة كنموذج دال على كتابات المؤرخين الكنسيين من ناحية، ولكشف بعض أحداث القصة التى لم يدونها سواه من ناحية أخرى. وفوشيه الشارترى نموذج جيد للدلالة على نمط المؤرخين الكنسيين الذين دونوا قصة الحروب الصليبية من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية. ذلك أن التعصب المقيت، والعنصرية والتباهى بالفظائع التى ارتكبها جنود الرب ـ كلها كانت من السمات الواضحة فى كتابات أولئك المؤرخين؛ ومنهم فوشيه بطبيعة الحال.

ولم يكن فوشيه الشارترى هو القسيس الوحيد الذى كتب قصة الحملة الأولى فقد كانوا جميعًا من رجال الكنيسة بإستثناء الفارس المجهول صاحب «أعمال الفرنجة» كما أوضحنا من قبل. إذ أعتمدنا فى القسم الخاص بالدعوة إلى الحملة الصليبية على رواية روبير الراهب. وكان راهبًا من بين رهبان دير Marmoutier lez-Tours ثم صار مقدمًا لرهبان دير سان ريمى، أى رئيسًا للدير، وبعد نزاع حول رئاسته للدير استقال وقضى بقية أيامه راهبًا فى سينوك حيث كتب لنا واحدة من أشهر القصص التى كتبت عن الحروب الصليبية[1]. وكان روبير الراهب بين من حضروا مجمع كليرمون، والخطبة التى وضعها على لسان أوربان فى

---

١ ـ Robert the Monk. "Historia Iherosolimitana", RHC. Oc. III. pp. 717-782.

وقد اعتمدنا على الترجمة الإنجليزية التى أوردها رايلى سميث للخطاب الذى كتبه روبير الراهب:

Louis and Jonathan Riley-Smith (eds.), The Crusades - Idea and Reality 1095-1247. (Edward Arnold. London 1981). pp. 42-45.

هذا المجمع ، تعكس الموضوع الأول الذى يهتم به فى روايته، ذلك أنه رأى أن الحملة الصليبية كانت أعظم تجلى للتدخل الربانى فى شئون العالم وتحقيق النبوءات الواردة فى الكتاب المقدس؛ وهى بهذا تأتى مباشرة بعد الخلق وبعد تجسد المسيح.

وما يقال عن روبير الراهب ينسحب على جيوبرت النوجنتى، وبلدريك الدولى، وألبرت الأيكسى. وكان جيوبرت فرنسيًا من كليرمون، وبعد حياة لاهية عابثة فى مطلع شبابه، انكب على الدراسة، وانغمس فى الحياة الدينية فى بلاده. ومن المحتمل أنه لم يكن بين الحاضرين فى مجمع كليرمون، على الرغم من أن ما كتبه عن كليرمون يمتاز عما كتبه الآخرون حول هذا الموضوع.

وقد تأثر أسلوبه فى الكتابة بالمنهج الذى سارت عليه حياته. فقد بدأ حياة العلم والتدين راهبًا فى دير فلاى، وحاز شهرة واسعة بفضل تعليمه وثقافته فاختير مقدمًا لدير نوجنت سنة ١١٠٤م. وهو ، مثل روبير الراهب، يجعل موضوعه الأساسى بيان كيفية تجلى الرب من خلال الفرنج، الشعب الذى اختاره الرب. ومن ناحية أخرى، فإن ثقافته كواحد من علماء اللاهوت تفرض نفسها على سطور ما كتبه عن الحملة الأولى. ذلك أنه يركز فيما كتبه على لسان البابا إربان الثانى فى كليرمون على الأفكار الأخروية، ويربط هذه الفكرة بالفكرة القائلة بأن القدس، باعتبارها بؤرة الإهتمام الربانى بهذا العالم، هى السبب فى شن الحملة الصليبية. فقد كتب فقرة تحدث فيها، على لسان البابا، عن سوء معاملة الحجاج إلى المدينة المقدسة على أيدى المسلمين، كما نسب إلى البابا كلمات عن معاناة المسيحيين الشرقيين، وهو السبب الذى قال المؤرخون الآخرون إنه كان من أسباب الدعوة إلى الحملة الصليبية.

وقد ألف جيوبرت النوجنتى كتابه عن أعمال الفرنجة[1]، وعنوانه بالكامل «تاريخ الأعمال التى أتاها الرب من خلال الفرنج»، ومن المهم أن نشير إلى أن جيوبرت لم يذهب إلى القدس، ولم يشاهد شيئًا مما سجله، وإنما اعتمد على من سبقوه من المؤرخين. ولكننا أوردنا روايته عن خطبة إربان لأنها تعكس الأفكار التى كانت شائعة فى أوربا حول الحملة الصليبية بعد نجاحها.

أما بلدريك، فقد كان مقدما لدير سان بييردى بورجيى من سنة ١٠٨٩ إلى سنة ١١٠٧م.

١- Guibert of Nogent. "Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos" RHC. Oc., IV, pp. 113-263.

وقد حضر مجمع كليرمون واستمع إلى خطبة البابا إربان الثانى. وفى سنة ١١٠٧ تم إنتخابه رئيسًا لأساقفة دول فى إقليم بريتانى.

وقد إنتقص الباحثون فى تاريخ الحروب الصليبية من شأن بلدريك على نحو لم يحدث لأى مؤرخ آخر من مؤرخى الحملة الأولى. فقد كان كاتبًا ذكيًا رشيق الأسلوب، ولكن كتابه يعتبر محدود القيمة حتى اليوم. وهذا تقييم ظالم للتاريخ الذى كتبه بلدريك. ولكن بلدريك ، الراهب وكبير الأساقفة، أضفى مسحة لاهوتية واضحة على كتاباته. فقد خلط مادته التاريخية بالأفكار اللاهوتية، كما أنه ركز فى روايته لخطبة إربان على فكرة الأخوة التى تجمع المسيحيين الشرقيين والغربيين. وكتابه المعروف باسم «تاريخ بيت المقدس»[١] يمتاز بأن صاحبه كان من شهود العيان لكثير مما سجله قلمه من أحداث الحملة الصليبية الأولى. وهو يبدأ الكتاب بالحديث عن مجمع كليرمون وينهيه بسقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين، والمعركة التى أعقبت ذلك ضد المصريين.

ويحتل كتاب ألبرت الآيكسى مكانة خاصة بين تواريخ الحملة الصليبية الأولى. وعلى الرغم من أن ألبرت لم يذهب أبدًا إلى الأرض المقدسة، فإنه دون تاريخ الحملة الأولى والأحداث التى أعقبتها حتى سنة ١١٢٠ ميلادية إعتمادًا على روايات شهود العيان والمصادر الأدبية الأخرى. وقد ألف كتابه تحت عنوان «تاريخ القدس»[٢]. لكى يؤرخ لحملة جودفرى دوق اللورين الأدنى، وكان البرت هذا أحد رجال الدين فى مدينة اكس لاشابل (آخن). ويتميز هذا المؤرخ بأن كتابه يعتبر من أكثر ما كتب عن الحملة الأولى فائدة بالنسبة للمؤرخين فى العصر الحديث؛ إذ إن ألبرت الايكسى استعان فى كتابه بمصادر لم تصلنا وفقدت عبر العصور، كما استمع إلى روايات شهود العيان؛ فضلاً عن المصادر المعروفة التى استعان بها غيره من مؤرخى الحملة الأولى. ولما كان ألبرت المانيا من المنطقة التى شهدت خروج الحملات الصليبية الشعبية؛ فقد كانت التفاصيل التى أمدنا بها عن تفاصيل هذه الأحداث ذات قيمة كبيرة. وقد قصرنا إعتمادنا على ألبرت فى الجزء الخاص بالحملة الشعبية لهذا السبب. والجدير بالذكر أن ألبرت الأيكسى كان أول من نسج أسطورة بطرس الناسك وقد اعتمد عليه وليم الصورى إعتمادًا مطلقًا، بل وزاد فى تفاصيل الأسطورة التى لم يكتشف العلماء زيفها سوى فى القرن التاسع عشر.

---

(١) Baldric of Bourgueil, "Historia Jerosolimitana". RHC. Oc. IV. pp. 1-111.

(٢) Albert of Aix. "Historia Hierosolymitana". RHC. Oc. IV. pp. 265-713.

وثمة مؤرخ كنسى كان ممن رحلوا إلى فلسطين، وكان من ضمن المشاركين فى أحداث الحملة الأولى. فقد كان ريمون الأجويلرى، هو المؤرخ الذى صحب جيش ريمون السانجيلى أمير تولوز. وكتابه يحمل عنوان «تاريخ الفرنجة الذى استولوا على بيت المقدس»[١] وكــان ريمون هو القس الخاص لريمون كونت تولوز قائد الجيش البروفنسالى فى الحملة الصليبية الأولى. وكتاب ريمون لا يحمل أهمية خاصة سوى بعد أحداث سقوط أنطاكية، وهو يمدنا بمعلومات قيمة عن المراحل الأخيرة من هذه الحملة. وفى أجزاء كثيرة من الكتاب يتحدث ريمون بصيغة المتكلم باعتباره واحداً ممن شاركوا فى صنع الأحداث. فقد أورد لنا تفاصيل قصة الحربة المقدسة على نحو لم يفعله مؤرخ غيره من مؤرخى الحملة. وتكشف سطور كتابه عن مدى سطحية ثقافته، وضيق أفقه؛ فهو يفرد صفحات كثيرة لأخبار الأحلام والرؤى المقدسة، ويورد نصوصاً لما تصور أنه حوار دار بين القديسين أو العذراء أو المسيح من ناحية والأشخاص الذين اختارهم هؤلاء ليبلغوا رسالاتهم إلى الصليبيين من ناحية أخرى. حقيقة أن المؤرخين الصليبيين جميعاً قد طعموا كتاباتهم بمثل هذه الأخبار الغيبية والإعجازية، ولكن ريمون كتب هذه الأخبار بطريقة فجة تفضح مدى الإصطناع والتلفيق الذى يميزها.

وكان ريمون قد بدأ فى تدوين قصة حملة ريمون السانجيلى وأديمار أسقف لوبوى مع زميل له يدعى بيونس البلازونى، ولكن هذا الزميل لقى حتفه سنة ١٠٩٩م، فأخذ ريمون الأجويلرى على عاتقه مهمة إتمام هذا العمل بعد أن عاد إلى وطنه.

يبقى بعد ذلك أن نتحدث عن إثنين من المؤرخين أحدهما عاش فى القرن الثانى عشر؛ أى أنه لم يكن معاصراً للحملة الصليبية الأولى، والمؤرخة الثانية ليست لاتينية وإنما بيزنطية عاصرت أحداث الحملة الأولى وهى بعد فى مطلع صباها.

المؤرخ هو وليم الصورى، وعلى الرغم من أنه لم يعاصر الحملة الأولى، فإن كتابه يعتبر من المصادر الهامة لتاريخ هذه الحملة. فقد كتب تاريخه بعد مرور حوالى ثمانين سنة على الحملة الصليبية الأولى، جاءت خلالها حملات أخرى صوب المنطقة العربية ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لمساندة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. ويتسم الكتاب الذى ألفه وليم الصورى تحت عنوان« تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار»[١] بأنه كتاب تاريخ أدبى كتبه أحد كبار

---

(١) Raymond d'Aguilers, "Historia Francorum qui ceperint Iherusalem" RHC. Oc., III, pp. 231-309.

الأساقفة بلغة المثقفين. ولكن أهميته الأساسية تتمثل فى أن وليم هو المؤرخ الوحيد الذى ولد على أرض فلسطين، فقد كان سليل أسرة من المستوطنين الغربيين الذى استقروا فى فلسطين بعد الغزو الصليبى لها. وقد أمضى حوالى عشرين سنة كطالبًا يدرس فى فرنسا حيث تلقى تعليمه فى الفنون الحرة، والفلسفة واللاهوت، والقانون الكنسى والمدنى (والفنون الحرة هى المواد التى كانت الكنيسة فى العصور الوسطى تسمح بتعليمها فى مجموعتين: الثلاثية Trivium والرباعية quadrivium وتضم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى).

وقد تدرج وليم الصورى فى الوظائف الكنسية بعد عودته إلى فلسطين حيث نال إعجاب ملك بيت المقدس أماليك (عمورى)، ثم صار قاضى المملكة، ثم كبير أساقفة صور (١١٧٤ـ١١٧٥) وكان مستشارًا لأماليك ومربيًا لابنه، وتوفى سنة ١١٨٥م دون أن يتمكن من تحقيق حلمه فى أن يصبح بطريرك بيت المقدس. ومات قبل أن يشهد استرداد المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى لمدينة بيت المقدس.

وتفوح من صفحات كتاب وليم الصورى رائحة الغم والحزن والكآبة بسبب تردى أحوال الصليبيين فى مملكة بيت المقدس. وكان وليم مؤرخًا مثقفًا واسع الثقافة يعرف العربية واليونانية، فضلاً عن إلمامه باللغة العبرية. وقد ألف كتابه بهدف أخلاقى هو أن يوضح لمعاصريه من الصليبيين ما كان عليه الصليبيون الأوائل من إخلاص وشجاعة. وإلى جانب هذا العيب الذى جعله يكتب التاريخ كما كان ينبغى أن يحدث، وليس كما حدث بالفعل، كانت تشوب وليم الصورى العيوب المشتركة بين كل المؤرخين الكنسيين من تحامل وتحيز. ولكن يبقى أن هذا المؤرخ كشف عن فهم حقيقى لعلاقة السببية فى الحوادث التاريخية؛ فقد كتب موضحًا أن الصليبيين لم يكونوا جميعًا يتصرفون بوازع دينى؛ إذ شارك البعض فى هذه الحركة مجاراة لأصدقائهم، وتظاهرًا بالشجاعة حتى لا يتهمهم الناس بالتخاذل والجبن. كما أن البعض فعلوا ذلك رغبة فى الفرار من دائنيهم، على حين أخذ فريق آخر شارة الصليب هربًا من العدالة.

وقد أوردنا بعض النصوص التى توضح الخروج الصليبى من أوربا، وبعض جوانب قصة

---

(١) William of Tyre. A History of the deeds done beyond the see. (transil. and annonated by: Emily Atwater and A.C. Krery) Colombia University Press. 1943. (2 Vols.).

الحملة الشعبية من كتاب وليم الصورى، الذى اعتمد على المصادر السابقة وصاغ مادته فى إطار أدبى رفيع يسرته له ثقافته وخبرته الواسعة.

أما الأميرة البيزنطية كومنينا Anna Comnena، إبنه الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس أحد أبطال قصة الحملة الصليبية الأولى، فهى المؤرخ البيزنطى الوحيد الذى أوردنا له نصوصاً حول الحملة الأولى. وقد ثار جدل شديد بين المؤرخين المحدثين حول قيمة ما كتبته كومنينا. ولكن الجدل قد حسم الآن لصالح أنا وكتابها عن أبيها الإمبراطور والذى أعطته عنوانًا معبراً عن قصة حياة أبيها(١).

ولدت أنا فى ديسمبر سنة ١٠٨٣م، وكانت أكبر سبعة أبناء للإمبراطور أليكسيوس، وقد كتبت مؤلفاتها فى سن متأخرة بعد وفاة والديها، وكانت أنذاك إمرأة مسنة ترثى نفسها، وحتى سنة ١١٤٨ كانت ما تزال عاكفة على كتابة الكتاب الذى كرسته لحياة أبيها. وعلى الرغم من البؤس الكامن بين سطور هذا الكتاب وميلها إلى المبالغة فى مديح والدها، فإن الكتاب مايزال مؤلفًا تاريخيًا جيد الطراز.

وتتميز أنا كونينا بالحيوية الدافئة فى أسلوبها، وبقدرتها الفذة على تصوير الشخصيات التى تتناولها. وقد قدمت لنا تقارير ممتازة تعبر عن وجهة النظر البيزنطية فى أحداث الحملة الأولى وأبطالها، مما يتيح لنا قدراً من التوازن فى مواجهة الإنحياز والتحامل اللاتينى الواضح. وقد إعتمدنا على ما كتبته أنا عن الحملة الصليبية الشعبية، وعن زعماء الجيوش الصليبية الذين استقبلهم الإمبراطور اليكسيوس كونينوس فى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية، ثم ما قدمته لنا من تفصيلات عن نهاية الحملة الشعبية، والإستيلاء على نيقية.

وأنا كومنينا كانت شاهدة على كل ما كتبته عن الحملة الأولى، على الرغم من أن هذه الأحداث قد جرت وأنا كومنينا فى الرابعة عشرة من عمرها، ولم تدون ذكرياتها عن حياة أبيها الحافلة، وبينها قصة الحروب الصليبية بطبيعة الحال، سوى بعد أن مضت حوالى خمسين سنة على تلك الأحداث.

أولئك هم المؤرخون الذين اعتمدنا على كتاباتهم فى هذا الكتاب الذى يحاول رسم صورة

---

(١) Anna Comnena. The Alexiad, (transl. from Greek by: E. R. A. Sewter) Penguin 1979.

حية من خلال النصوص التاريخية والوثائق الأصلية للحملة الصليبية الأولى. وبطبيعة الحال، فإننا اعتمدنا على نصوص أخرى لمؤرخين آخرين، كما اعتمدنا على بعض الوثائق والخطابات التى سيجدها القارئ مثبتة فى أسفل كل نص مع تعريف بسيط بالمؤرخ أو المصدر الذى أخذنا عنه تلك النصوص أو الوثائق.

وقد إتبعنا منهجًا موضوعيًا فى اختيار هذه النصوص، إذ قسمنا الكتاب إلى أربعة أقسام يتناول كل قسم منها موضوعًا من موضوعات الحملة الصليبية الأولى وفقًا لموقعها الزمانى: فالقسم الأول: يتناول أحوال أوربا السياسية والإقتصادية والإجتماعية والفكرية، على إعتبار أن الفكرة الصليبية والحملة الصليبية نفسها كانت نتاجًا للتفاعلات التى جرت على هذه المستويات داخل أوربا القرن الحادى عشر. وقد أوردنا نصوصًا عن الحج، والحرب الإقطاعية، وسلام الرب وهدنة الرب، وحياة الفلاحين، والجو الفكرى والنفسى السائد فى أوربا حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية، ثم أوردنا بعض النصوص التى تتناول النزاع بين البابوية والإمبراطورية؛ محاولين بذلك رصد الظروف التى أفرزت الحركة الصليبية.

ويتناول القسم الثانى: الدعوة إلى الحملة الصليبية ؛ فنورد فيه الروايات المختلفة للخطاب الذى ألقاه البابا إربان الثانى فى كليرمون ، موضحين كيف أن كل مؤرخ كتب بعد نجاح الحملة ما تصور أن البابا كان ينبغى أن يقوله فى هذه المناسبة. كذلك تناولنا بعض خطابات البابا إربان الثانى حول الحملة التى اقترحها.

أما القسم الثالث ، فيتناول قصة الحملة الشعبية ، أو حملة الفلاحين، بأقسامها المختلفة. وفى هذا القسم حاولنا تقديم النصوص التى تتناول أحداث هذه الحملة من ناحية، وترسم صورة حية لزعماء جيوش الحملة الشعبية من ناحية أخرى. وقد عمدنا إلى جمع أكبر عدد ممكن من روايات المصادر التاريخية المختلفة للحدث الواحد منذ بدء خروج هذه الجيوش الشعبية حتى نهايتها على أرض آسيا الصغرى.

والقسم الرابع والأخير: يتناول قصة حملة الفرسان منذ خروجها من غرب أوربا حتى نجاح الصليبيين فى الإستيلاء على مدينة بيت المقدس، والمذبحة المروعة التى ارتكبوها فى حق سكان المدينة. وفى هذا القسم حرصنا على تقديم الموضوع كوحدة واحدة لدى كل مؤرخ كما حرصنا على توفير أكبر قدر من المقارنة بين الروايات المختلفة، كما أننا لم نعتمد فى هذا القسم سوى

على روايات المؤرخين الذين شاهدوا الأحداث وشاركوا فيها، لاسيما بعد سقوط أنطاكية بأيدى القوات الصليبية.

وقد اتبعت منهجًا يقوم على أساس تقديم موضوع كل قسم، ثم تقديم كل نص على حدة بحيث تتضح للقارئ الفكرة التى يقوم عليها كل نص من نصوص الكتاب؛ وذلك فى إطار الحفاظ على وحدة الموضوع ككل. وإننى إذ أقدم هذا الكتاب للقارئ العربى فى وطننا الكبير أرجو أن أكون قد وفقت إلى إسهامة متواضعة فى المكتبة العربية عن الحروب الصليبية، والله الموفق والمستعان.

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم ٢٠٠١م

القسم الأول

ما قبل الحركة الصليبية

الحج إلى الأراضى المقدسة (*)

كانت الحركة الصليبية إفرازًا لأحوال أوربا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية فى القرن الحادى عشر. هذه الأحوال كانت، بدورها ، نتاجًا للتفاعلات التى جرت على أرض الواقع الأوربى طيلة العصور الوسطى الباكرة. وإذا كان بعض الباحثين يرى فى الحركة الصليبية نتاجًا للتفاعل بين المؤسستين الرئيسيتين فى أوربا العصور الوسطى؛ أعنى الكنيسة والإقطاع، فإن هناك روافد جانبية خلقت الأفكار والقيم والمثل والظروف التى جعلت الحركة الصليبية أمرًا واقعًا. ومن أهم روافد هذه الحركة الحج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين؛ فقد تطور الحج المسيحى من ممارسة فردية، بفعل الشوق والحنين إلى الأرض التى شهدت خطوات المسيح، إلى ممارسة تكفيرية تباركها الكنيسة وتنظمها لأولئك الخطاة الراغبين فى التوبة. وهذا النص المأخوذ عن جلابير الذى كان من رهبان دير كلونى بعد سنة ١٠٠٠ ميلادية يكشف عن أن المسيحيين الكاثوليك فى غرب أوربا اعتبروا الحج تتويجًا لإنجازات المرء فى الحياة الدنيا. والجدير بالذكر أن المصادر اللاتينية المعاصرة للحملة الأولى كانت تطلق على جنود الصليبيين إسم «الحاج»، وهو مصطلح ظل يرد فى ثنايا المصادر التاريخية اللاتينية حتى أواخر القرن الثانى عشر على الأقل.

* * *

«.. فى الوقت نفسه بدأت أعداد لا تحصى تتجه إلى ضريح سيدنا المُخلِّص فى القدس قادمين من شتى أنحاء المعمورة، وكانت أعدادهم أكبر مما كان أى إنسان يظن أنها يمكن أن تكون فى الماضى. ولم يكن العامة وأبناء الطبقات الوسطى فقط هم الذين يذهبون إلى هناك، بل كان بينهم العديد من الملوك الكبار والكونتات والنبلاء. وفى النهاية انطلق بعض الفقراء ـ وهذا لم يحدث من قبل. وكان كثيرون يتمنون أن يلاقوا الموت هناك بدلاً من العودة إلى الوطن.

(*) Rodulf. Glabert, History _ Extracts, in Jerusalem Pilgrims p. 147.

«وهكذا، حدث أن رجلاً من أهل أوتون فى برجنديا، وكان اسمه لتبالد، كان من بين الذين سافروا إلى هناك. وبعد أن شاهد كل هذه الأماكن المقدسة وصل فى النهاية إلى المكان الذى صعد فيه السيد المسيح إلى السماء فوق جبل الزيتون، وكان ذلك على مرأى من الجميع. وهناك وعد بأن المسيح سوف يأتى إلى هذا المكان ليعدل بين الأحياء والموتى.

«هناك وجد نفسه طريحًا على الأرض، منتشراً مثل الصليب، واندمج مع الرب فى فرح يفوق الوصف. ثم انتصب قائمًا، ورفع يديه إلى السماء، وحاول قدر طاقته الوصول إليها. ثم نطق بهذه الكلمات التى تعبر عن الرغبة التى تعتمل فى قلبه: «سيدى يسوع. يا من نزلت من أجلنا عن عرش جلالتك إلى الأرض لتنقذ بنى الإنسان. يا من تجسدت فى هذا المكان الذى تكتحل عيناى بمرآه لحمًا بشريًا ثم عدت إلى السموات التى جئت منها. إننى أصلى راجيًا رحمتك الفائقة وسلطانك العظيم، أنه إذا قدر لروحى أن تفارق جسدى هذا العام، فلا تدعنى أذهب بعيداً عن هذا المكان، ولكن ليحدث هذا فى إطار المكان الذى شهد صعودك. لأننى أومن أننى تبعتك بالجسد إلى هذا المكان، لكى تتبعك روحى فى الفردوس هانئة فرحة». وبعد هذه الكلمات ذهب الرجل مع رفاقه إلى المنزل.

« ثم حان وقت الغذاء، وجلس الآخرون حول المائدة، ولكنه ذهب إلى فراشه وهو يبدو فى أتم صحة وعافية، مثل أى شخص يريد أن يغفو فترة. وبينما هو يتأهب للنوم حدث أن رأى شيئًا. وتحدث فى نومه قائلاً: «المجد لك يا إلهى، المجد لك يا إلهى». وسمعه رفاقه، وطلبوا منه أن يستيقظ ليأكل شيئًا، ولكنه لم يكن يريد. واستدار قائلاً إنه يشعر بوعكة. ثم رقد حتى المساء.

«ثم جمع رفاق سفره، وطلب التناول. وتقبل القربان والطعام المقدس، ثم ودعهم وأسلم الروح. وعلى الرغم من أن كثيرين ممن يعودون من القدس لاينشدون سوى إعجاب الناس، فإنه كان متحرراً من هذه الآفة بحق. وباسم الرب يسوع طلب بثقة ما ناله. وقد أخبرنا رفاقه بهذه الأخبار عندما رجعوا هنا».

الأخبار والرؤى الإعجازية
والأفكار الألفية والأخروية (*)

كانت الكتب التى تتناول تاريخ أوربا العصور الوسطى حتى حوالى خمسين سنة مضت تقرر أنه حوالى سنة ألف (١٠٠٠ ميلادية) كان الناس فى أوربا مقتنعين بأن العالم يقترب من نهايته، وأن يوم الدينونة الأخيريات وشيكًا. والواضح أن هذا الاعتقاد قد نشأ لدى الناس بسبب الفقرة الشهيرة فى سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتى) التى تتنبأ بأن نهاية العالم سوف تأتى بعد ألف سنة من موت المسيح، وبسبب ذلك العدد الذى لا يحصى من المصائب المادية والبشرية التى حلت بأوربا آنذاك. وعلى أية حال، فإنه عندما مرت سنة ١٠٠٠ ميلادية ولم ينته العالم، تشجع الناس وأخذوا يعملون بجد ويخططون للمستقبل، هذه الحمية والنشاط المتجدد كان السبب فى الإحياء الاقتصادى والسياسى والدينى والثقافى الكبير الذى بدأ فى القرن الحادى عشر، وازدهر خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وعلى الرغم من المؤرخين فى وقتنا هذا لا يأخذون بهذا التفسير ويقدمون أسبابًا أكثر حذلقة لتفسير النمو الذى شهدته أوربا القرن الحادى عشر، فإنهم يقبلون الرواية القائلة بأن الرعب الناجم عن الكوارث التى جرت حول سنة الألف (١٠٠٠ ميلادية)، وهى الرواية التى أوردها الراهب البرجندى رالف (رودلف) جلابير، دليل على حال أوربا الغربية التعسة قبل التحسن الملموس الذى طرأ على الحياة فيها فى القرن الحادى عشر. وكانت أحداث هذه الفترة، وما شاع أثناءها من أفكارا وتوقعات حول الألف الأولى بعد المسيح ونهاية العالم من أهم روافد الأيديولوجية التى أفرزت الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر. وهذا النص من كتاب «كتب التواريخ الخمسة» لجلابير يعطينا صورة واضحة عن هذه الأفكار والتوقعات.

*   *   *

«.. وبفضل تحذير الكتاب المقدس، نرى بشكل أوضح من ضوء النهار أن الحب قد تلاشى وصار جامدًا مثل الشمع على مدى الأيام، كما استشرى الاضطراب والقلق بين الناس، وهو نذير باقتراب القيامة وبأن زمن الهلاك وشيك يتهدد أرواح البشر. ولأن آباء الكنيسة القدامى

---

(١) Ralph Glaber, Historiarum Libri Quinque -- in the High Middle Ages. 1000-1300. edited by: Bryce D. Lyon (U. S. A. 1964), pp. 34- 39.

حذرونا مراراً وتكراراً ، على حين كان الطمع يتفشى، استطاعت النواميس والأوامر الإلهية أن تنقذ من نشأوا على التقدم والإرتقاء من مخاطر التدهور والفساد.. ومن هذا الطمع، أيضاً، اندلعت الجلبة والضوضاء المستمرة والتى نجمت عن المشاجرات والمنازعات القانونية، وثارت فضائح عديدة، كما أن منازعات الرهبان كسرت رتابة صوت النظم الرهبانية المختلفة. وهكذا، فبينما تتفشى مظاهر عدم التقوى بين الكنسيين، ينمو بين رعاياهم تيار من الرغبات العارمة، لدرجة أن الأكاذيب والخداع والتزوير وارتكاب المذابح صارت أموراً شائعة فيما بينهم، تقود الجميع تقريبًا إلى الجحيم! ولأن ضباب العمى المطلق أظلم عين العقيدة الكاثوليكية (أى قساوسة الكنيسة) فإن رعاياهم الجهلة الغافلين عن سبل الخلاص يسقطون فى خرائب الهلاك... ذلك أن العقيدة حين تفشل بين القساوسة، ويغفل مقدمو الأديرة عن دستورهم الرهبانى، تخبو حماسة النظم الديرية بالتالى، ثم تسير بقية الرعية على منوالهم فتعصى أوامر الرب، فماذا، إذن ، يمكن أن نفكر فيه سوى أن الجنس البشرى كله، جذوره وفروعه، ينزلق فى خضم الفوضى المتناهية؟.. ولأن تحقيق رؤيا يوحنا سيسبب أن يتجمد الحب مثل الشمع كما يستشرى القلق بين الناس الذى يحبون أنفسهم، فإن هذه الأمور التى ذكرناها من قبل صارت تحدث بمعدلات أكثر من ذى قبل فى شتى أنحاء العالم مع إقتراب السنة الألف بعد ميلاد سيدنا ومنقذنا.

«ذلك أنه فى السنة السابعة قبل هذا التاريخ، ثار بركان فيزوفيوس (الذى يسمى أيضًا كالدرون البركان) بصورة تفوق المعتاد، وقذف عدداً لا يحصى من الحمم الصخرية التى اختلطت بألسنة اللهب المتأججة لتسقط على مسافة قدرها ثلاثة أضعاف المنطقة المحيطة بالبركان؛ وهكذا تسببت ثورته فى هروب السكان من المناطق المجاورة.. حدث هذا فى الوقت الذى تعرضت كل مدن إيطاليا وغاله لنيران الحرائق، بل إن الشطر الأكبر من مدينة روما التهمته نيران هائلة. وأثناء ذلك الحريق أحاطت النيران بكنيسة القديس بطرس، وبدأت تزحف تحت السطح البرونزى لتلتهم الأجزاء الخشبية. وعندما عرفت الجموع التى كانت واقفة هناك بهذا الأمر، وعندما أدركوا أنه لا توجد وسيلة ممكنة لمنع هذه الكارثة، التفتوا سويًا، وصرخوا فى صوت مرعب، وأسرعوا إلى مكان الإعتراف فى الكنيسة حتى وصلوا إلى مكان أمير الرسل (بطرس)، وصاحوا وهم يلعنونه، بأنه إن لم يهتم بنفسه ويوضح أنه يحمى كنيسته، سوف يدفع الكثيرين فى شتى أنحاء العالم إلى التخلى عن إيمانهم بالعقيدة المسيحية. وعند

ذلك خبت النيرات وتلاشت... وفى ذلك الوقت أنشب وباء مخيف أنيابه فى الناس، وهو عبارة عن نار خفية إذا سقطت على أطراف أحد الأشخاص، التهمتها وفصلتها عن الجسد(١). وقضى الكثيرون نحبهم فى غضون ليلة واحدة بسبب هذا الوباء الفتَّاك.. كما وقعت مجاعة رهيبة استمرت خمس سنوات فى شتى أنحاء العالم الرومانى، بحيث لم ينج إقليم واحد من المجاعة ونقص الخبز، وقد مات الكثيرون بسبب الجوع. فى تلك الأيام أيضًا، وفى مناطق كثيرة، أجبرت المجاعة الناس على أن يعتمدوا فى غذائهم على الحيوانات القذرة والزواحف؛ بل ولحوم النساء والرجال والأطفال حتى لو كانوا من أقاربهم؛ وبلغت قسوة المجاعة أن التهم الأبناء الكبار أمهاتهم، كما نسيت الأمهات حب الأمومة فالتهمن أطفالهن الصغار...[تستطرد الحولية بعد ذلك فى الحديث عن مذهبين معارضين للكنيسة ظهرا فى فرنسا وإيطاليا، ثم تتحدث عن تقوى روبير ملك فرنسا..].

« وهكذا، أعيد بناء الكنائس عند أعتاب سنة ألف بعد المسيح، وبعدها بحوالى سنتين أو ثلاث سنوات، فى جميع أنحاء العالم، لاسيما فى غالة وإيطاليا، على الرغم من أن كثيراً من هذه الكنائس كانت ما تزال بحالة جيدة ولا تحتاج إلى مثل هذه العناية، بيد أن كل أمة من الأمم المسيحية أخذت تنافس الأخرى فى بناء أفضل دور العبادة. ومن ثم بدا الأمر وكأن العالم قد هزَّ نفسه نافضًا عن العمر التليد ومظاهر الشيخوخة، وبدا يلبس ثياب الكنائس البيضاء فى كل مكان. وعندئذ قام المؤمنون بإعادة الكنائس الكاتدرائية وحسَّنوها، كما تم تكريس أديرة أخرى للعديد من القديسين، وشيدت كنائس أبرشية صغيرة... ومن ثم، فإنه عندما ازدانت الدنيا كلها بالكنائس الجديدة، كما قلنا، حدث فى الأيام التالية ـ أى فى السنة الثامنة بعد ألف سنة من تجسد مخلِّصنا المسيح ـ أن تمَّ الكشف عن الذخائر المقدسة والرفات لمختلف القديسين بعد أن ظلت دفينة فترة طويلة؛ لأن هذه الذخائر المقدسة كشفت عن نفسها وتجلت أمام عيون المؤمنين بمشيئة الرب، كما لو كانت زينة تزين حركة الأحياء هذه، وكانت بذلك سلوى وعزاء للمؤمنين. وقد بدأ هذا التجلى، كما هو معروف ، فى مدينة سان Sens فى غالة بكنيسة ستيفن المبارك، التى كانت تحكم حكم ليوتريك كبير الأساقفة فى تلك الأيام، وهو الذى اكتشف هناك بعض الذخائر الإعجازية المقدسة بين الأشياء المقدسة القديمة؛ ويقال إنه

---

(١) كان هذا الوباء يعرف فى العصور الوسطى بنار القديس أنطونيو.

جد جزءاً من عصا موسى، وعندما شاع الخبر توافدت جموع المؤمنين من شتى أنحاء بلاد الغال، بل ومن إيطاليا وبلاد ما وراء البحر أيضًا؛ وفى الوقت نفسه استرد بعض المرضى صحتهم وعافيتهم بفضل تدخل القديسين. ولكن كما كان يحدث غالبًا، اندفع الناس من هذا النبع الذى يفيض خيراً نحو تدمير أنفسهم بسبب روح الطمع التى استولت على قلوبهم وعقولهم؛ ذلك أن المدينة المذكورة حصلت، كما حكينا، على ثروة كبيرة بفضل جموع الناس التى توافدت على المدينة بدوافع تقواهم، ولكن سكانها أتوهم بإهانات كثيرة مقابل الفوائد الجمة التى كسبوها منهم.. وفى ذلك الوقت أيضًا، أى فى السنة التاسعة بعد سنة الألف المذكورة، فإن كنيسة بيت المقدس التى تضم القبر المقدس لسيدنا ومخلصنا وقعت تحت حكم أمير بابليون [مصر]... وبعد ذلك الذى حدث كما ذكرنا، وفى غضون فترة زمنية قصيرة، اتضح جليًا أن سبب هذا الإضطراب راجع إلى جنس اليهود الشرير. وعندما شاع هذا الأمر فى شتى بقاع العالم، قرر الشعب المسيحى كله طرد اليهود تمامًا من الأراضى والمدن المسيحية. وهكذا كانوا محطُ الكراهية العالمية فطردوا من المدن، وذبح بعضهم بالسيوف وهلكوا بأنماط متعددة من طرق القتل، بل إن بعضهم قتلوا أنفسهم بوسائل مختلفة، لدرجة أن اليهود نادراً ما كانوا يتواجدون فى أنحاء العالم الرومانى، بعد أن وقع عليهم العقاب الذى يستحقونه عن جدارة. ثم قام الأساقفة بإذاعة مراسيم تحظر على كافة المسيحيين أن يرتبطوا مع اليهود فى أية علاقات، كما صدرت الأوامر بالا يقبل منهم فى المجتمع سوى من ينال نعمة المعمودية [أى يعتنق المسيحية] ويطرح نهائيًا العادات والتقاليد اليهودية. وهذا ما فعله اليهود جميعًا حبًا فى حياتهم الدنيا، وتحت وطأة الخوف من الموت، ولم يكن ذلك رغبة منهم فى مباهج الحياة الخالدة؛ لأن كل اليهود الذين اعتنقوا المسيحية بهذا الشكل سرعان ما عادوا إلى أسلوب حياتهم السابقة...

« وبعد هذه الإشارات والخوارق العديدة التى مرت على العالم، بعضها مبكر وبعضها متأخر، حوالى سنة ألف بعد ميلاد سيدنا المسيح، فمن المؤكد أنه كان هناك رجال حريصون وواعون تنبأوا بعدد آخر من الخوارق التى سيتزايد عددها عندما تقترب سنة عذاب المسيح على الصليب [هنا يبدأ جلابير فى سرد الإدعاءات والمزاعم المناوئة للكنيسة البيزنطية، ويتحدث عن إزدياد الهرطقة فى إيطاليا، ثم تتابع ونجاح المعجزات المزيفة التى دبرتها الأرواح الشريرة، ويحكى لنا عن مجاعة أخرى استمرت ثلاث سنوات، وبعدها عُقدت عدة مجامع كنسية لإقرار السلام والإصلاح].. حينذاك شفى عدد لا يحصى من المرضى فى هذه

الإجتماعات التى ضمت الرجال المقدسين، وحتى لا يستخف الناس بالجلد المفتوح أو اللحم المشقوق فى الأيدى والأرجل، كان الدم الغزير يندفع أيضًا عند علاج الأطراف المكسورة ، وهو الأمر الذى قوى الإيمان فى نفوس أولئك الذين قد ساورتهم الشكوك.. هذه الأمور جميعًا أذكتها حماسة متوقدة لدرجة أن الناس رفعوا الإكليروس عاليًا بأيدى الأساقفة، على حين أخذوا يتضرعون إلى الرب وقد امتدت أياديهم، وصاحوا بصوت واحد: السلام! السلام! السلام، وهو ما قد يبدو دليلاً على ميثاق دائم لما عاهدوا الله عليه، وعلى شرط أن يتجدد الميثاق نفسه بعد سنوات خمس بين الناس فى أنحاء العالم من أجل تدعيم السلام. وفى تلك السنة أيضًا، كانت هناك وفرة عظيمة فى الغلال والنبيذ وغيرهما من ثمار الأرض، بحيث أن الناس لم يتصوروا إمكانية تكرار هذا المحصول طوال السنوات الخمس القادمة، إذ لم يكن هناك طعام يمكن إدخاره كمؤونة، وفى هذه السنة كان الأمر شبيهًا بما حدث فى عيد التحرير اليهودى القديم فى أيام موسى [عندما خرج اليهود من مصر وأعطاهم الله المن والسلوى]. وفى السنة التالية، والثالثة والرابعة أيضًا لم تكن الثمار أقل وفرة، ولكن وا أسفاه! إنه لشىء مخجل حقًا؛ إذ إن الجنس البشرى ينسى رحمة الرب المحبة، لأن الناس نزعوا صوب الشر منذ البداية، فكانوا مثل الكلب الذى يعود ليأكل قيئه، أو أنثى الخنزير التى تتمرغ فى الوحل ، فقد نكثوا عهدهم وميثاقهم الذى قطعوه على أنفسهم بعدة طرق، وصاروا غلاظًا أجلافًا وارتدوا كما هو مكتوب، لأن أمراء العلمانيين وأمراء الكنسيين تحولوا إلى الطمع، وبدأوا ينزلقون فى خطيئة السرقة والطمع مثلما كان الحال من قبل، بل وعلى نحو أسوأ من ذى قبل. أما الناس من الطبقة الوسطى والفقراء، فقد ساروا على منوال كبارهم وتدنوا إلى مستوى الجريمة المرعبة. فمن ذا الذى سمع قبل ذلك عن جرائم غشيان المحارم وارتكاب الزنا، فضلاً عن الزيجات المحرمة بين الأقارب المقربين، ومساخر المحظيات، والتشبه بالأشرار؟ ولسد هذه الفجوة الناجمة عن هذا الشر المستفحل، كان هناك عدد ضئيل بين الناس يمكنهم تقويمهم، وربما لم يكن هناك من يستطيع إصلاح الناس إطلاقًا، أو يكبح هذه الجرائم. فقد تحققت النبوءة القائلة بأن ذلك سيكون بين الناس والقساوسة على حد سواء. وسيرى الحكام جميعهم، بصفة خاصة، كنسيين وعلمانيين، أنهم كانوا مجرد أولاد عابثين. لأنه فى تلك الأيام، وبسبب خطايا الناس ، تحققت كلمات سليمان «ويل لك أيتها الأرض إذا كان ملكك ولدًا[1]، لأنه حتى

---

(١) سفر الجامعة : ١٠ ـ ١٦.

البابا العالمي نفسه في روما كان ابن أخي إثنين من البابوات هما بندكت وحنا، اللذين سبقاه على العرش البابوي، وكان صبيًا لا يتعدى عشر سنوات عمراً، وكان الفضل لأمواله في إنتخابه بابا من قبل الرومان؛ وهم أنفسهم الذين أهانوه وخلعوه عن عرشه عدة مرات على مر الايام، بحيث صار لا حول له ولا قوة. وفضلاً عن ذلك، وكما قلنا فعلاً، كان بقية الكرادلة في تلك الأيام يرقون بفضل ما يملكون من ذهب وفضة، لا عن جدارة وإستحقاق. فياللأسف وياللعار! فالكتاب المقدس يتحدث عن مثل هذه الأمور على لسان الرب الذى يقول إنهم كانوا أمراء ولم يكن يعرف. وفي هذه الوقت نفسه كانت أعداد لا تحصى من الناس قد بدأوا يتوجهون من شتى أرجاء الدنيا إلى ضريح سيدنا المُخلِّص في القدس، وبشكل لم يكن أحد يتوقعه؛ لأن الطبقات الدنيا من الناس كانت قد بدأت السفر والرحلة على الطريق؛ ثم تبعهم كل الملوك والكونتات والأساقفة الكبار. وأخيراً (وهو شيء لم يحدث من قبل) قامت كثيرات من السيدات النبيلات، والنساء الفقيرات بالرحلة إلى القدس. لأن كثيرين كانوا راغبين في الموت قبل العودة لأوطانهم.. وفضلاً عن ذلك، فإن بعض الذين اهتموا بهذه الأمور استشارهم الكثيرون ممن لفت انتباههم هذه الحشود المتجهة إلى القدس والتي كانت أكبر مما حدث في الماضي، ولم يسمع عن مثلها من قبل، أجابوا بقدر من الحذر أن هذا نذير بقدوم المسيح الدجال الفاسق، الذي تنبأ الكتاب المقدس بقدومه عند نهاية العالم...».

٢ـ الصراع بين الكنيسة والدولة

شهد القرن الحادى عشر الميلادى إحياء وبعثًا فى شتى جوانب الحياة الأوربية؛ فإلى جانب النمو الاقتصادى والاستقرار السياسى شهدت أوربا القرن الحادى عشر ازدهار الحياة الروحية وصعود البابوية إلى مكانة الزعامة الحقيقية للعالم المسيحى الغربى. هذه الزعامة مكنت البابوية من شن حرب ضد المسلمين فى الشرق العربى فيما عرف باسم الحروب الصليبية. وكانت صحوة الكنيسة، التى كانت قد تدهورت على مدى القرنين السابقين وخضعت لسيطرة الحكام العلمانيين، إنجازًا تم من خلال الصراع ذلك أن الحكام العلمانيين الأقوياء من أمثال أباطرة الإمبراطورية الرمانية المقدسة، والذين كانوا مسئولين جزئيًا عن إصلاح الكنيسة وانتخاب البابوات القادرين لم يكونوا ليعترفون بأن سلطتهم الإمبراطورية أدنى من سلطة البابوية، أو أن يعترفوا بأنه ليس من حقهم تعيين الأساقفة ومقدمى الأديرة واستغلالهم بما لأسقفيانهم وأديرتهم من أراض شاسعة. ومنذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر، نشب نزاع عنيف عرف باسم «النزاع العلمانى» بين الملوك والبابوات حول هذه القضايا.

ولأن البابوية أستخدمت الفكرة الصليبية أداة من أدوات السياسة الداخلية والخارجية لتدعيم موقفها تجاه الإمبراطورية ، فمن المهم أن نقدم بعض النصوص حول النزاع بين الكنيسة والدولة. وهذه النصوص تقدم لنا صورة واضحة عن النزاع الذى جرى بين الطرفين ومزاعم كل منهما، كما تصور لنا بعض مراحل هذا الصراع قبل الحملة الصليبية الأولى. وتتناول النصوص التالية المرسوم البابوى الصادر سنة ١٠٥٩م ليحدد شروط انتخاب البابا، وآراء جريجورى السابع بشأن سلطة البابوية سنة ١٠٧٥م، وخلع طاعة هنرى الرابع بمقتضى التنازل الذى قدمه للبابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٦، ثم عزل هنرى الرابع بقرار من جريجورى السابع فى كانوسا سنة ١٠٧٧م، ثم خطاب جريجورى السابع البليغ فى بيان السلطة البابوية سنة ١٠٨١م

* * *

(أ) البابا نقولا الثانى، مرسوم الانتخابات البابوية سنة ١٠٥٩م (*)

«.. نحن البابا نيقولاس الثانى، تقرر: ٢) أنه فى حالة موت البابا فى هذه الكنيسة

(*) Henry Bettenson, Documents of the Christian Church, (London 1950), pp. 140-41.

الرومانية العالمية، يجب أن يجتمع الكرادلة فى اهتمام دؤوب أولاً، ثم يجمعون باقى رجال الكنيسة فى روما فى اجتماع عام، وبعد ذلك بقية الكنسيين والرعية على الإنتخاب الجديد. (٤) كذلك ، ولكى لا يزحف مرض الرشوة إلى داخل الكنيسة بأية وسيلة، ينبغى على رجال الرب أن يقوموا بالجزء الأساسى فى عملية الإنتخاب البابوى، وعلى الآخرين أن يترسموا خطاهم. هذه الطريقة الإنتخابية صحيحة وتتوافق مع أحكام الآباء ومراسيمهم.. لاسيما وإن كلمات سان ليو تقول: «لا يمكن لأولئك الذين لم ينتخبهم الكنسيون، ولم يطلبهم الشعب، أو يكرسهم الأساقفة بموافقة كبار الأساقفة، أن يعتبروا من الأساقفة مهما كانت حجتهم». ولكن ، بما أن الكرسى قد يُرفع فوق كافة كنائس العالم، فليس هناك إذن أسقف أكبر من صاحب هذا الكرسى، ولاشك فى أن أساقفة روما يصلحون لهذا الدور، حين يرفعون البابا المنتخب إلى درجة السمو الرسولى. ٥) يجب أن ينتخبوا شخصاً من هذه الكنيسة الرومانية، إذا ما وجد المرشح المناسب فإذا لم يوجد ، يتم اختياره من كنيسة أخرى. ٦) ولحفظ شرف واحترام إبننا الحبيب هنرى [١]، الذى تم الإعتراف به ملكًا فى الوقت الحالى، فإننا نأمل أن يصبح إمبراطوراً بفضل الرب، مثلما أنعمنا عليه وعلى من هو مثله من خلفائه بفضل هذا الحق الذى حصلنا عليه شخصيًا بسلطة الكرسى الرسولى . ٧) ولكن، إذا كان عناد الأشرار سيجعل من المستحيل أن نقوم بانتخابات نظيفة ونزيهة وحرة فى هذه المدينة، فإن قساوسة روما ورجال الكنيسة المقدسين ومعهم العلمانيون الكاثوليك، حتى وإن كانوا قلة، من سلطتهم أن ينتخبوا البابا للكرسى الرسولى فى أى مكان آخر، ويعتبر هذا إنتخاباً صحيحاً. ٨) وبعد أن تتم عملية الإنتخابه إذا كانت شراسة الحرب أو المحاولات الحقودة ستحول بين البابا المنتخب وعرشه الرسولى، يكون من حق المنتخب أن يتمتع بسلطة البابا فى حكم الكنيسة المقدسة وأن يتصرف فى مواردها مثلما فعل جويجورى المبارك قبل تكريسه على ما نعلم..».

(ب) الإملاء البابوى Dictatus Papae ١٠٧٥م (*).

- إن الكنيسة الرومانية أسسها الرب وحده.
- إن البابا الرومانى هو وحده الذى يمكن أن يوصف بأنه عالمى بحق.

(*) E.F. Henderson, Selected Historical Documents of the Middle Age (London 1896). pp. 366-367

- إن له ، وحده، الحق فى عزل وإعادة تعيين الأساقفة.

- إن مندوبه، فى مجمع كنسى، حتى وإن كانت درجته الكنسية أقل، يسمو فوق جميع الأساقفة، ويمكنه أن يصدر أحكام العزل ضدهم.

- إن من حق البابا أن يعزل من يتغيب.

- إنه، بين أشياء أخرى، لا ينبغى لنا أن نبقى فى المنزل نفسه مع أولئك الذين أصدر الباب قرار الحرمان ضدهم.

- إنه يحق له، وحده، بمقتضى الضرورة التى يفرضها الوقت، أن يسن القوانين الجديدة، وأن يدعو لعقد مجامع جديدة، وأن ينشئ ديراً لأية منظمة رهبانية؛ ومن ناحية أخرى، من حقه أن يقسم الأسقفيات الغنية، ويضم الأسقفيات الفقيرة سوياً.

- إن من حقه أن يستخدم الشارات الإمبراطورية وحده.

- إنه يجب على الأمراء تقبيل قدمى البابا وحده.

- إنه لا ينبغى أن يُنطق إسم غير اسمه فى الكنائس.

- إن إسمه هو الاسم العالمى الوحيد فى العالم.

- إنه قد يسمح له بعزل الأباطرة.

- إنه قد يحق له نقل الأساقفة إذا اقتضت الضرورة.

- إن له سلطة رسامة أى قسيس فى أية كنيسة يريدها.

- إن من تتم رسامته قسيسا على يديه يمكنه أن يرأس أية كنيسة أخرى، ولكنه لا يتولى منصباً أدنى، ولا ينبغى لمثل هذا الشخص أن يقبل أية درجة أعلى من أى أسقف آخر.

- لا يجب أن يسمى أى مجمع كنسى مجمعاً عاماً بدون أمره.

- لا يجب اعتبار أى كتاب، أو فصل فى كتاب، قانونياً دون أمر منه.

- لا ينبغى لأحد أن يلغى أى حكم صادر منه، وهو وحده الذى يحق له سحب هذا الحكم.

- إنه هو نفسه لا يحاكمه أحد.

- لا يجب أن يجرؤ أحد على إدانة شخص لجأ إلى الكرسى الرسولى.

ـ إن الكنيسة الرومانية لم تخطئ أبدا؛ ولن تخطىء أبدًا ، بشهادة الكتاب المقدس.

ـ إن البابا الرومانى، إذا تمت رسامته بشكل قانونى، يكون قد صار قديسًا دونما شك وذلك بفضل سان بطرس؛ ويشهد على ذلك سان إنوديوس أسقف بافيا ويوافقه كثيرون من الآباء المقدسين. على نحو ما ورد فى مراسيم البابا سان سيماخوس.

ـ أنه بأمره وموافقته يمكن للخاضعين لسلطته، قانونًا، أن يوجهوا الاتهامات.

ـ أنه يمكن أن يعزل الأساقفة ويعينهم دون أن يدعو مجمعًا كنسيًا لذلك.

ـ إن ذلك الذى لا يتعايش سلميًا مع الكنيسة الرومانية لن يعتبر كاثوليكيًا.

ـ أنه هو الذى يمكنه أن يحرر الرعايا من التزاماتهم تجاه الأشرار من الرجال.

(ج) خطاب مجمع ورمس إلى البابا جريجورى السابع (يناير ١٠٧٦م) (*).

«... من سيجفريد كبير أساقفة ماينز، وأدو أسقف ترير، ووليم أسقف أوترخت، وهرمان أسقف ميتز، وهنرى أسقف لييج، وريتشارد أسقف ڤيرون، وبيبو أسقف تول، وهوزمان أسقف سباير، وبوركهارد أسقف هالبرشتد، وفيرنر أسقف ستراسبورج، وبورشارد أسقف بازل، وأوتو أسقف كونستانس، وأدالبرو أسقف فورزنبرج، وروبرت أسقف بامبرج، وأوتو أسقف ريجنسبرج، واللينارد أسقف فريزيا، وأودالبريك أسقف إيشتاد، وفردريك أسقف مونستر، وايلبرت أسقف مندن، وهيزيل أسقف هيلدشيم، وبينو أسقف أوزنبروك، وإيبو أسقف ناومبرج، وإيمادوس أسقف بانبورن، وتيبدو أسقف بادنبورج، وبورشاد أسقف لوسان، وبرونو أسقف ڤيرونا ـ إلى الأخ هيلدبراند.

«على الرغم من أنه كان واضحًا، عندما توليت السلطة على الكنيسة فى بادئ الأمر كيف أن ثمة شيء غير عادى وشرير قد بادرت بعمله مناقضًا الصواب والعدل بغطرستك المشهورة، فقد ظننا، مع هذا ، أنه من الأنسب أن نسدل ستارًا من صمت الغفران على البدايات الشريرة لبابويتك ، آملين أن تنمحى هذه البدايات المضطربة بعد فترة من المثابرة والاستمرار فى بقية فترة حكمك. ولكنك ما زلت حتى الآن سادرًا فى غيك وماضيًا على طريق بدايتك، كما يتضح

(*) Henry Bettenson, Documents. pp. 141 - 44.

من أحوال الكنيسة المحزنة التى تستحق الرثاء، وهو ما تكشفه حال الاضطرابات المتزايد الناجمة عن تصرفاتك وقرارتك... إن شعلة الفوضى، التى أشعلتها أنت والفئات المخربة فى الكنيسة الرومانية، والتى أشعتها ونشرتها فى غضب متهور فى كافة كنائس إيطاليا وألمانيا وبلاد الغال وإسبانيا. فقد جردت الأساقفة من كل سلطة من أجل تكريس سلطتك أنت، وهى السلطة التى يعرف الناس أنها منحت لهم بفضل الروح القدس، التى تسمو فوق الجميع وهى تعمل لرسامة الأساقفة. لقد تغاضيت عن كل الشئون الكنسية استرضاء لمشاعر الغوغاء العاطفية. وليس هناك أحد يجد من يعترف به قسيساً أو أسقفًا ما لم يحصل على منصبه من نيافتكم لقاء خضوعه المزرى لك. لقد رميت الحماسة للنظام الرسولى برمته فى أتون الفوضى الشريرة، الذى ألقيت فيه أيضًا بذلك التراحم التام الكامل بين أعضاء شركة المسيح التى كثيرًا ما امتدحها معلم الأميين. وهكذا ، كاد إسم المسيح أن يتلاشى بسبب قراراتك الطموحة، وهو ما يجب أن نقوله بالدموع. من ذا الذى لم يروعه سلوكك المشين عندما انتزعت لنفسك سلطة غير قانونية ومبتدعة تفرضها على كافة الإخوان؟ لأنك تؤكد إذا ما ترامت إلى سمعك شائعة عن واحد منا، أنه ليس لأحد منا أن يربط أو يحل فى أمره، وإنما تقول إن هذا حق لك أنت وحدك أو من ينوب عنك لهذا الغرض بصفة خاصة. فمن ممن قرأوا الكتاب المقدس لا يرى أن هذا القرار قد تعدى حدود الجنون؟ وبناء على ذلك.. قررنا بالإجماع، أن نحيطك علمًا، بأن ما سكتنا عنه حتى الآن ، وهو رئاسة الكرسى الرسولى، لن يكون فى مقدورك أبداً أن تتولاه بعد الآن. فقد ألزمت نفسك بيمين شخصى، وأقسمت على ألا تقبل منصب البابوية لنفسك، ولن تدفع أحداً غيرك إلى قبوله، سواء فى زمن الإمبراطور هنرى [1] طيب الذكر، أو إبنه مليكنا الحالى [2]، دون موافقة الإمبراطور الأب عندما كان حيًا، أو بغير موافقة الإبن. ويوجد اليوم أساقفة كثيرون ممن شهدوا على هذا القسم الذى أقسمته؛ فقد رأوا بعيونهم وسمعوا بآذانهم. وتذكر أيضًا كيف أنه عندما حرك الطمع عدة كرادلة للتطلع إلى كرسى البابوية، أقسمت أن لا تتولى البابوية أبدًا بشرط أن يقسموا مثلك ، وذلك لكى تزيح كل منافسة من طريقك. وتأمل كيف حافظت بأمانة على قسمك وعهودك!

---

(١) الإمبراطور هنرى الثالث (١٠٣٩ ـ ١٠٥٦)

(٢) هنرى الرابع (١٠٥٦ ـ ١١٠٦م).

Henry Bettenson, Documents, pp. 144 - 45.

«وفضلاً عن ذلك، فعندما عقد مجمع كنسي في عهد البابا نيقولاس واجتمع ١٢٥ أسقفًا، تقرر الأ يعتلي العرش البابوية أحد دون أن ينتخبه الكرادلة وإلا تعرض لعقوبة الحرمان، كما يجب أن يحظى بقبول الرعية وموافقة الملك الذى يمنحه السلطة. وكنت أنت نفسك الذى صغت هذا القرار والمرسوم وأعلنته وتبنيته ووقعت عليه.

«كما أنك تسببت في فضيحة فاحت رائحتها النتنة في كل الكنائس بسبب علاقتك العاطفية الوطيدة بامرأة غريبة عنك. وهذه مسألة سلوك قويم أكثر منها مسألة أخلاق، ومع ذلك ارتفعت الشكوى في كل مكان بأن كافة الأحكام والقرارات الصادرة عن الكرسي الرسولي من صنع امرأة، وأن الكنيسة بأسرها تحكمها هذه المرأة...

«ومن ثم، وبناء على ما تقدم، نعلن الآن، والمستقبل، أننا نخلع طاعتنا عنك ـ وهي الطاعة التي لم نعدك بها إطلاقًا في حقيقة الأمر، وبما أنك لم تعترف بأحد منا أسقفًا، كما أعلنت على الملأ ، فإنك لا تعتبر البابا في نظر أي منا».

(د) البابا جريجوري السابع يخلع هنري الرابع عن عرشه (فبراير ١٠٧٦م) (*).

« يا بطرس المقدس، يا أمير الحواريين، استمع لنا، أتوسل ، أتوسل إليك أن تصغي لي أنا خادمك الذي أخذت بيده منذ الطفولة، والذي خلصته حتى هذا اليوم من يد الشرير الذي كرهني ويكرهني بسبب إخلاصي لك.

« ... وخصوصًا بالنسبة لي أنا نائبك، بفضل نعمة الرب عليك، أعطيت أنا سلطة الحل والعقد في السماء وعلى الأرض. ومن ثم، فإنني اعتمادًا على هذا الإعتقاد، وفي سبيل شرف الكنيسة ودفاعًا عنها وباسم الرب العظيم، والآب، والإبن، والروح القدس، وبفضل القوة والسلطة أسحب صلاحيات الحكم في كل مملكة الألمان وفي إيطاليا من هنري الملك إبن هنري الإمبراطور. لأنه تصدى لكنيستك بحمية لم يسمع عنها من قبل. وأنني أحل كافة المسيحيين من قيود اليمين الذي قطعوه له، أو سوف يقسمون له به. كما أنني أمنع أي فرد من خدمته كملك. لأنه حق أن ذلك الذي يحاول النيل من شرف أية كنيسة، سوف يفقد هو نفسه الشرف

(*) Ephraim Emerton, The correspondence of Pope Gregory VII. Selected letters from the Registum (New York 1932), pp. 111 - 112.

الذى يبدو أنه يتمتع به. وبما أنه احتقر المسيحية وتعالى عن طاعتها، ولم يرجع إلى الرب الذى هجره محتفظًا بعلاقاته مع المحرومين ومرتكبًا قلاقل واضطرابات عديدة، ضاربًا عرض الحائط بالتحذيرات التى أرسلتها إليه لضمان روحه، وأنت شاهدى على هذا، فاصلاً نفسه عن كنيستك ومحاولاً أن يبث فيها الفرقة والشقاق ـ فإننى باسمك أوقع عليه عقوبة الحرمان. وإننى إذ أثق فيك أوقع عليه هذه العقوبة حتى يعرف الناس ويعترفون بأنك أنت بطرس وأنه على صخرتك بنى ابن الإله الحى كنيسته، وأن بوابات الجحيم لن تقف فى مواجهتها.»

(هـ) خطاب من جريجورى السابع ـ إلى الأمراء الألمان يصف خضوع هنرى الرابع فى كانوسا (١٠٧٧) (*).

« بما أنكم، بدافع من حب العدالة ، قد عملتم قضية مشتركة معنا وأخذتم على عاتقكم نفس المخاطر فى الحروب من أجل خدمة المسيحية، فإننا أولينا اهتمامًا خاصًا بأن نرسل إليكم هذا التقرير الدقيق عن إذلال الملك وتحقيره طلبًا للتوبة، وخضوعه، ومجرى الموضوع كله منذ الدخول إلى إيطاليا حتى الوقت الحالى.

« فوفقًا للترتيبات التى تم إقرارها مع المندوبين الذين أرسلوا إلينا من جانبكم جئنا إلى لمبارديا قبل حوالى عشرين يومًا من التاريخ الذى كان محددًا لمقابلة بعض زعمائكم عند الممر [فى جبال الألب] وانتظرت وصولهم لكى يساعدونا على عبور هذه المنطقة. ولكن عندما مضى الوقت وعرفنا أنه بسبب الاضطرابات ـ وهو ما نصدقه فعلاً ـ لن يمكن إرسال أية فرقة عسكرية لنا، وإذ لم يكن هناك وسيلة أخرى للقدوم إليكم، فقد غشينا قلق كثير حول الطريق الواجب أن نسلكه.

«وفى الوقت نفسه تلقينا معلومات مؤكدة أن الملك قادم فى الطريق إلينا. وقبل أن يدخل إيطاليا أرسل أنه سوف يقدم ترضية إلى الرب والقديس بطرس وعرض أن يعدل أسلوب حياته وأن يستمر فى طاعته لنا، بشرط أن يحصل منا على الغفران والبركة الرسولية. وقد أجلنا إجابتنا فترة طويلة وقمنا بمشاورات مطولة، وأنبناه تأنيبًا مريرًا من خلال الرسل المتبادلة بيننا بسبب سلوكه الخاطئ الطائش، حتى جاء فى نهاية الأمر ومعه عدة من رفاقه إلى قلعة كانوسا التى كنا نقيم بها، وهناك، وعلى مدى ثلاثة أيام متوالية، كان واقفًا أمام بوابة القلعة وقد خلع كل شارات الملك، حافى القدمين مرتديًا كسوة خشنة، وأراق دموعا كثيرة وهو يبكى طالبًا

المساعدة الرسولية والراحة لدرجة أن كل الحاضرين وكل من سمعوا القصة حركتهم نوازع الشفقة والعطف لدرجة أنهم أبدوا مطالبه بالصلوات والدموع. وقد تعجب الجميع لقسوتنا غير المألوفة، بل إن البعض صاح بأننا لا نظهر جدية السلطة الرسولية ، ولكننا نظهر قسوة طاغية متوحش.

«وأخيراً تغلبت علينا مظاهر التوبة التى أبداها هنرى وإلحاح الحاضرين، فحررناه من قيود عقوبة الحرمان، وتقبلناه فى رحمة الكنيسة الأم المقدسة، وقبلنا منه الضمانات الواردة أدناه(١) وشهد عليه مقدم دير كلونى بتوقيعه، كما شهدت أيضًا إبنتنا الكونتيسة ماتيلدا وإبنتنا الكونتيسة أوديلا ، وغيرهما من الأمراء والأساقفة والعلمانيين الذين كانوا فى خدمتنا.

والآن، وبعد أن تم ترتيب هذه الأمور، فإننا نرغب فى القدوم إلى بلادكم عند أول فرصة وبمساعدة الرب قد نتمكن من إرساء كل الأمور المتعلقة بسلام الكنيسة وبحسن النظام فى البلاد. لأننا نريدكم أن تفهموا بوضوح أن المفاوضات كلها قد تمت فى جو من الإثارة كما ترون من خلال الضمانات المكتوبة، وهو ما يجعل قدومنا وموافقتكم المطلقة أمراً ضرورياً للغاية. ومن ثم ، فيجب عليكم جميعًا أن تناضلوا، بدافع من حبكم للعدالة ، فى سبيل الحفاظ على الإلتزامات التى التزمتم بها. وتذكروا أننا لم نربط أنفسنا بالملك بأية وسيلة سوى بالعبارات الصريحة ــ كما هى عاداتنا ـ أنه يمكن أن يعول على مساعدتنا لضمان سلامته وشرفه، عن طريق العدالة أو عن طريق الرحمة، ودون أن يعرض روحه أو روحنا لخطر التهلكة.

---

(١) الإشارة هنا إلى القسم الذي أقسمه هنرى الرابع فى كانوسا.

النظم والمثل الإقطاعية

تسببت القلاقل السياسية والإجتماعية التى شهدتها أوربا فى العصور الوسطى الباكرة فى مولد مجموعة من النظم ـ مثل السيادة والتبعية الإقطاعية، والإقطاعيات ـ عرفت منذ القرن الثامن عشر باسم الإقطاع Feudslism. والإقطاع يعنى بالتحديد شكلاً من أشكال الحكومة اللامركزية التى تنتقل فيها السلطة الإدارية والعسكرية والقضائية إلى أيدى الإقطاعيين. وعلى مستوى أكثر اتساعًا فإن الإقطاع يعنى مجموعة الأخلاقيات والمثل التى تحرك الطبقة الحاكمة فى مجتع العصور الوسطى؛ كان هو أسلوب حياة النبلاء الأوربيين منذ القرن التاسع على الأقل (إن لم يكن قبل ذلك) وحتى القرن الثالث عشر (إن لم يكن بعد ذلك). ولأن الحروب الصليبية كانت فى جانب منها على الأقل نتاجًا لمثل وقيم ومفاهيم الطبقة الإقطاعية من جهة ، كما كانت حلاً لمشكلة الحروب الإقطاعية من جهة أخرى، فقد اخترنا هذا النص الذى يرسم لنا صورة أخاذة عن بداية واحدة من تلك الحروب الإقطاعية العنيفة والتى كانت تبدو بلا نهاية، وهى الحروب التى كانت تمثل الشغل الشاغل والحرفة الوحيدة لمعظم النبلاء الأوربيين حتى مطلع القرن الثانى عشر على الأقل. هذه الرواية مأخوذة من الملحمة الفرنسية الكبيرة راؤول الكامبرى Raoul de Combrai ، التى كُتبت فى صورتها الحالية فى مطلع القرن الثانى عشر. وإن كانت قد بنيت على أساس من الأحداث التاريخية التى وقعت فى أخريات العصر الكارولنجى. ويمكن الاعتماد عليها كصورة معبرة عن سلوك ومواقف النبلاء الأوربيين فى عصر الإقطاع.

* * *

١ـ راؤول الكامبرى: أصول الحرب الإقطاعية (*)

«سوف تسمع الآن عن القلق والفوضى التى تسببت فيها الحرب الكبرى التى لا تنتهى.

(*) Raoul de Combrai, transl. J. Crossland (London, 1926), pp. 4-10, 11, 17-20, 22-6. Norman F. Cantor, (ed.), Med. World. (Macmillan New York 1968) 2nd ed., pp. 177-183.

كان لدى ملك فرنسا شاب نبيل في خدمته يسميه الفرنسيون جيبوان المانسى Gibouin de Mans وكان يخدم الملك بسيفه الطيب، ويتّم الكثيرين خلال الحروب التى خاضها. وخدم ملكنا النبيل خدمة جيدة وبأسلوب الفرسان لدرجة أهلته للحصول على مكافأة كاملة. وتشاور أولئك القادمون من وراء نهر الراين واتفقوا على أنه يجب أن يأخذ إقطاع كامبرى الذى كان بحوزة Alais قاهرة قلوب الرجال، من عائلة لافاردين. والآن إذا لم يمنع الرب الذى يحول الماء إلى نبيذ حدوث هذا فإن الإقطاع الذى سيمنح سوف يتسبب فى أن يتسربل فرسان كثيرون برداء الموت.

« واستمع إمبراطورنا إلى البارونات وهم يتحدثون وينصحونه بأن يعطى آليس الجميلة إلى بارون مانس الذى كان يخدمه جيداً. وعمل بمشورتهم، وهو ما ينبغى لومه عليه؛ وأعطى القفاز إلى جيبوان الذى شكره من أجل ذلك وانحنى ليقبل حذاءه. ثم قال ملك فرنسا : «يا أخى جيبوان إننى استحق شكرك، لأننى منحتك هبة عظيمة. ولكن بشرط واحد أمنحها: لا أريد أن أحرم الصبى راؤول من ميراثه. إنه ما يزال صغيراً ، فتول حمايته جيداً حتى يأتى الوقت الذى يمكنه فيه أن يحمل السلاح. وسوف يأخذ كامبرى؛ ولا يستطيع أحد أن يمنعها عنه وسوف أعطيك أرضاً غيرها» قال جيبوان: «إننى أقبل على شرط أن تزوجنى من السيدة» ولكنه تصرف بحماقة لأنه جرؤ على أن يتوقع ذلك، لأن هذا كان سبباً فى القضاء على حياة كثيرين من الفرسان الشجعان فيما بعد. إذ أن السيدة الجميلة لم تكن لتقبله حتى وإن مزقوها إرباً.

« وفعل الملك شيئا غاية فى الحماقة عندما إنتزع ميراث ابن أخته، كا أن جيبوان من جانبه تصرف كمجرم عندما رغب فى أن يأخذ أرض غيره كإقطاع له. وكان هذا سبباً فى أن يموت ميتة مزرية فيما بعد. وعندئذ استدعى الإمبراطور رسوله وقال له : «إذهب وأسرج الفرس العربى وأخبر أختى الجميلة وارثة كامبرى أن تتزوج جيبوان المانسى الشجاع. وبين هذه البلاد وبين قرطاج لن تجد فارساً مثله، وأخبرها أننى أعطيته كل الأرض مهراً للزواج. وأخبرها أن تأتى بسرعة إلى بلاطى وأن تحضر حرسها معها، وسوف أجمع عدداً كبيراً من أقاربى. ولكن إذا خذلتنى بسبب كبريائها ، فإننى سوف استولى على الأرض والميراث».

« ورحل الرسول فوق فرسه؛ ثم ترك باريس وتجه مباشرة صوب كامبرى، ودخل المدينة من البوابة الرئيسية عند كنيسة سان جيرى. ووجد السيدة النبيلة فى الفضاء المفتوح أمام

الكنيسة ويصحبتها عدد من الفرسان. فأوقف حصانه وترجّل عنه، ثم حيا السيدة بإسم الملك قائلاً: «إن الملك، راعينا وحامينا، يصلى للرب الذى خلق السماء والأرض وكل ما بينهما من مخلوقات، أن يحمى الكونتيسة وكل من تحبهم» فردت قائلة «حماك الله ورعاك يا أخى! أخبرنى بطلبات الملك ولا تخف شيئًا» ـ «باسم الرب، ياسيدتى، سوف أخبرك. رسالة الملك أنه سوف يزوجك من جيبوان. ولتعلمى حقًا أن هذا أمر الملك» وانهارت السيدة آليس على الأرض، وتساقطت الدموع من عينيها وتنهدت بعمق. ثم استدعت مستشاريها وقالت «يا إلهى، إليكم هذه الرسالة الشريرة.. ».

« قال البارون جيرى «أيها الإمبراطور هل قررت أن تحرم ابن اختك من ميراثه لأنه لا يستطيع أن يمشى أو يركب فرسًا؟ بحق الإخلاص الذى أدين لك به، فإنك سوف ترى ألف فارس قد انقلبوا عليك قبل أن يستطيع فارس مانس هذا أن يخطو مختالاً فى البلاط. أيها الإمبراطور العادل، إننى أعلن أنه إذا شوهد فى كابرى فمن المؤكد أنه سوف يفقد رأسه. وأنت أيضًا، أيها الملك الأحمق، تستحق اللوم على هذا. إن الطفل ابن أختك، وكان الواجب عليك ألا تفكر فى شىء من هذا القبيل أبدًا». ولكن الملك أجاب «ليكن ما يكون! لقد منحت الهبة ولا أستطيع الرجوع فيها الآن». وهكذا رحل جيرى إذ لم يكن يرغب فى البقاء، وكان رحيله مشئومًا! فقد كانت الجياد جاهزة أسفل الدرج وركب البارون فرسه. وصاح جيرى بأعلى صوته: «والآن فلتستعدوا أيها المحاربون الشبان الراغبون فى القتال المحتدم! لأننى أقسمت بالرب الذى سمح لنفسه أن يعانى، أننى أفضل أن أمزق إربًا على أن أتخلى عن ابن أختى طالما كنت حيًا».

امتلأ جيرى الأحمر غضبًا وحنقًا. وعاد إلى كامبرى وترجل أمام الكنيسة. ورأت السيدة آليس الفارس قادمًا وتحدثت معه نحو ما تسمع أنت الآن « : سيدى جيرى هل تخبرنى بحقيقة ما حدث؟» قال «سيدتى ! إننى لا أريد أن أكذب عليك، إن الملك مصمم على أن يستولى على ميراثك لصالح جيبوان، لعنة الله عليه ـ فلتتخذيه زوجًا لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكنك أن تقيمى بها السلام مع لويس ملك فرنسا». وقالت السيدة «يا إلهى إننى يمكن أن أموت غمًا وحزنًا! إننى أفضل أن أحرق حية على أن يجبر الملك كلبة سلوقية على أن ترقد مع كلب حراسة، إن الرب سوف يسمح لى أن أربى طفلى حتى يأتى الوقت الذى يستطيع فيه أن يحمل السلاح». وعندئذ قال جيرى «سيدتى، فليباركك الله لجرأتك على هذا القول، ولن أتخلى عنك فى محنتك الكبرى».

« وتكلم جيرى ذو القلب الجسور مرة أخرى: «سيدتى اليس، إننى أقسم بالرب المخلص أننى لن أخذلك ما حييت، أين ابن أخى؟ أحضريه هنا أتوسل إليك» وصعد سيدان شابان إلى أعلى واحضرا الطفل إلى الفناء الأمامى. كان عمره ثلاث سنوات، وأنا أقول لكم الحق، وكان يرتدى حريراً ناصعاً وعليه سترة من قماش قرمزى، ولا يمكن أن يكون هناك طفل أجمل منه. وأخذه جيرى بين ذراعيه فى الحال وتنهد من أعماق قلبه، وقال «أيها الطفل، إنك لم تكبر بعد. وفارس مانس يحمل نوايا سيئة تجاهك، لأنه يحرمك من أرضك». وقال الطفل «ياعم ، سوف أسترد هذه الأرض، إذا ما عشت حتى أحمل السلاح الموضوع فى خزانتى». قال جيرى : «حقا لن تفقد قدماً من هذه الأرض قبل أن يموت فى سبيله عشرون ألفًا من الفرسان أولاً» ثم طلب الفرسان ماء وجلسوا إلى المائدة.

« تجلس السيدة آليس والطفل جيرى والبارونات إلى المائدة. وقد قام خدم القصر بواجبهم خير قيام، لأنهم كانوا مدربين على الخدمة جيداً. وبعد الوليمة أعطت السيدة ثيابًا غالية للبارونات. ثم رحل جيرى القوى؛ وهو يقبل السيدة قبل أن يرحل. وذهب مباشرة إلى آرامس بسرعة فائقة. وبعد ذلك مرت سنوات كثيرة وأيام عديدة ولم يكن هناك صوت حرب أو قلاقل فى البلاد. وعندما بلغ راؤول الكابرى الخامسة عشرة من عمره صار شابًا نبيلاً مهذبًا للغاية، وأحبه رجاله والنبلاء حبًا جمًا.

« مضت الآن خمس عشرة سنة والسيدة آليس ترى إبنها طويلًا عريضًا حسن الهيئة. وكان هناك رجل نبيل فى المملكة، إسمه بيرت، وهو رجل ذو روح مقدامة. وكان له ولد سمى بيرنييه عندما كان صغيراً. وقد كبر الآن وصار محبوبًا، وعندما بلغ الخامسة عشرة كان هو أيضًا طويلاً وقويًا. وقد أحبه الكونت راؤول كما أن السيدة آليس بدافع من طيبة قلبها تعهدته بالرعاية منذ نعومة أظفاره. وذهب الإثنان إلى باريس لكى يتعرفا على فرسان النبلاء، وكان يقوم على خدمة راؤول بالنبيذ والكأس المعطر. وكان من الأفضل له، وأنا أقول لكم هذا، أن تفصل رأسه عن جسده، على أن يذبحه بطريقة محزنة مزرية فى النهاية.

« كان الكونت راؤول الشاب المهذب يحمل وداً كبير للشاب برنييه. وكان برنييه ابن بيرت أمير ريبمورت ولم يكن هناك شاب أجمل منه فى أى أرض، كما لم يكن هناك من يفوقه فى استخدام الترس والرمح، ولم يكن هناك من يفوقه فى الكلام الحكيم فى بلاط الملك، ومع ذلك فكان يعرف بابن الزنا. وقد أحبه راؤول ورحب به وصيفًا لمرافقته، ولكنهما برهنا على إنهما رفاق سوء.

« وكانت السيدة آليس ترقب ابنها وهو ينمو، وهي الآن ترى أنه قادر على حمل السلاح، وهكذا خاطبته قائلة : «اجمع رجالك حتى يجتمعوا في كامبري، وسوف نرى من ذا الذي يتخلف عن الخدمة». وجمعهم راؤول وحدثهم بما يدور في خلده قائلاً: «يجب ألا تخذلوني عندما أحتاج إليكم».

« لقد نصب الإمبراطور الصبي فارسًا وهو الآن يستدعي خدم القصر قائلاً: «إحضروا السلاح، فهذا أمر مني لكم»... ثم تحدث الإمبراطور إلى أبن أخته: «يا ابن اختي، يا راؤول إنني أراك قد كبرت وصرت طويلاً قويًا شكراً لله الأب القادر على كل شيء»...

« ثم قلده الملك سيفًا قويًا. كان مقبضه وحده من الذهب وكان قد تشكل في وادي مظلم على يد كالانت، الذي بذل في صناعته كل ما يستطيع. وفيما عدا ديورندال، الذي كان أفضل السيوف جميعًا، كان هذا السيف أفضل من كل السيوف الأخرى، ولم يكن هناك سلاح في العالم يمكن أن يصمد أمامه. وهكذا كانت الأسلحة التي تقلدها. لأن راؤول كان جميلاً ونبيلاً في هيئته، ولكن بسبب التطرف الكامن في شخصيته، فلم يكن بوسع أي فصل(*) آخر أن يحكم أرضه بطريقة أفضل. ولكن بسبب تطرفه كان الحصاد حزينًا، لأن الرجل الطائش يقضي أيامه في حزن وأسف...

« وتكلم راؤول، الذي كان ممتلئًا بالغيظ، كما يلي : «أيها الإمبراطور العادل، بحق القديس أمانت أقسم أنني خدمتك منذ حملت السلاح وأنت لم تمنحني أبداً شروى نقير. والآن فلتعطني القفاز على الأقل تعهداً بأنني سوف أمتلك أرضي التي كان أبي الباسل يمتلكها من قبل». وأجاب الملك : «إنني لا أستطيع أن أمنحك هذه الأرض، فقد أعطيتها لفارس مانس، ولن أستردها منه حتى ولو أخذت كل ثروة ميلانو مقابل ذلك». وكان جيري ينصت ثم صاح : «إنني سأحارب من أجلها أولاً، وأنا في كامل سلاحي فوق فرسي، ضد ذلك المرتزق جيبوان المانسي». وصاح راؤول، الذي أفلتت أعصابه، وتجهم وجهه، قائلاً: «بحق الحواري الذي يسعى التائبون إليه، إذ لم تأخذ أرضي الآن، اليوم أو غداً قبل غروب الشمس، فلن أحارب أبداً، أنا أو رجالي، دفاعًا عنك». هذه هي الكلمات التي كان راؤول قد حفظها جيداً والتي تسببت في الموت العاجل لكثير من البارونات. «أيها الإمبراطور العادل، إنني أخبرك بكل ذلك أولاً: فكل إمرئ يعرف أن أرض الأب يجب أن تؤول إلى إبنه. وبحق القديس أمانت، فإن كان إمرؤ

(*) الفَصَل هو التابع الإقطاعي، والكلمة Vassal من أصل قلتي، ومعناها « الولد ».

صغيراً كان أم كبيراً، سوف يحتقرني منذ الآن، إذا ما مرغت كرامتي أكثر من ذلك وأنا أرى رجلاً آخر يستولي على أرضي. بحق الرب الذي خلق السماء، إنني إذا وجدت ذلك المرتزق المانسي، فإن ميتته بسيفي ستكون غير عادية». وعندما سمع الملك هذه الكلمات حزن قلبه.

« كان فارس مانس جالساً إلى منضدة في القصر، وسمع التهديدات فامتلأ خوفاً. وارتدى عباءته المصنوعة من الفرو، وجاء إلى الملك قائلاً: «أيها الإمبراطور العادل. إنني الآن في مأزق حرج. لقد منحتني أرض كامبري بجوار أرتوا؛ ولكنك الآن لا تستطيع ضمان ملكيتها لي. وهنا الآن المتغطرس الكونت راؤول ومعه سلاحه الماضي (فهو ابن أختك كما يعرف جميع الفرنسيين)، ومعه أيضاً جيري الأحمر صديقه المخلص. وليس لي صديق بمثل هذه الخصال الطيبة في كل هذه الأرض يستحق أن يساوي شيئاً بالنسبة لي في مواجهة هذين الأثنين. لقد خدمتك طويلاً بسيفي الفييني، ولم يحدث أن حصلت منك على شروى نقير. سوف أمضي فوق فرسي النرويجي الجيد أفقر مما جئت، والألمان والجرمان، ورجال برجنديا ونورماندي وفرنسا جميعاً سوف يتحدثون عن هذا الأمر، كما أن خدمتي كلها لم تكسب لي شيئاً». وامتلأ قلب الملك لويس أسى، وأومأ بقفازه المطرز إلى راؤول ليقترب منه وقال له : «يا ابن أختي الجميل بحق الرب، مانح القوانين، أتوسل إليك أن تتركه يحوز الأرض لمدة سنتين أو ثلاث سنوات بالشروط التي سأخبرك بها وهي: إذا مات أي كونت فيا بين هذه المنطقة وفيرماندوا، أو فيما بين إكس لاشابل وسنليس، أو فيما بين مونتيللون واورليانز، فإنك سوف ترث الحقوق والأرض التي كانت له. ولكن لن تخسر شيئاً على الإطلاق في هذه المبادلة». واستمع راؤول ولكنه لم يتردد وبناء على نصيحة جيري الأرتوي قبل هذا الموعد ـ وكان هذا هو السبب في أنه رقد متشحاً ببرودة الموت في النهاية.

« واستدعى الكونت راؤول جيري ليحادثه في هذا الأمر، وقال له «ياعم ، إنني أعتمد على مؤازرتك. سوف أقبل هذه المنحة ولن يحدث تراجع عنها». لقد كان شيئاً كبيراً ذلك الذي طلبه في مقابل إقطاعية أبيه، كما كان هذا أمراً خطيراً قضى على العديد من البارونات في نهاية الأمر. وعندئذ طلبوا رهائن من الملك لويس؛ وانصاع لويس للنصيحة السيئة وسمح لراؤول أن يختار بعضاً من أفضل الفرسان وأعلاهم شأناً...

« والآن، فإن الرهائن ملك يمينه؛ وكان عددهم كبيراً مثلما أراد ، وعلى مدى فترة من الزمان ظل الأمر على هذا النحو ـ وهي فترة امتدت سنة وأسبوعين على ما أعلم ـ ثم عاد

راؤول إلى كامبرى، ولكن خلال الفترة التى أتحدث عنها مات كونت هربرت القوى وكان رجلاً مخلصًا وحكيمًا وله أصدقاء عديدون، وكانت فيرماندوا بأسرها تمثل الميراث الذى تركه، إلى جانب روى، وبيرون، وأوريجنى، وريبمونت، وسان كوينتال، وكليرى، وهو رجل محظوظ له أصدقاء كثيرون! وسمع راؤول بموته وتحرك من فوره، وسرعان ما اعتلى ظهر حصانه وجمع رهائنه؛ وصحبه عمه جيرى الأحمر ومعه مائة وأربعون رجلاً فى أغلى الملابس، ولم يتوقف لكى يطلب من الملك لويس المنحة القاتلة. كان راؤول على حق كما أخبرتكم، أما المخطئ فكان هو ملك سان دونى [1]. عندما يكون الملك سيئًا يعانى الكثيرون من الرجال المخلصين من هذا السوء. ووصل البارونات إلى البلاط الملكى فى باريس وترجلوا عن خيولهم تحت أشجار الزيتون، ثم صعدوا درج القصر وطلبوا مقابلة الملك. ووجدوا الملك لويس جالسًا على عرشه، فنظر وشاهد جميع أولئك النبلاء قادمين، يتزعمهم راؤول القلق الذى قال : «تحياتى إلى الملك العظيم لويس بحق الرب الذى عانى فوق الصليب». وأجاب الملك فى بطء: «فليسبغ الرب الذى خلق الفردوس حمايته عليك يا ابن اختى».

« وتحدث راؤول البارونى النبيل وقال: «أيها الإمبراطور العادل! إننى أرغب فقط فى الحديث معك: إننى ابن أختك ويجب ألا تظلمنى. لقد سمعت بوفاة هربرت سيد فيرماندوا وحاكمها. والآن أعطنى أرضه فى الحال، لأن هذا هو ما أقسمت بأن تفعله، وقد تعهدت بذلك لى وأعطيتنى الرهائن ضمانًا لذلك». وقال البارون لويس: «لا أستطيع يا أخى. فإن هذا النبيل الذى تتحدث عنه له أربعة أبناء شجعان، لا يمكن أن تجد فرسانًا أفضل منهم، فإذا ما أعطيتك أرضهم الآن، فسوف يلومنى كل رجل عاقل لهذا ولا أستطيع جمعهم فى بلاطى، لأنهم سيرفضون خدمتى أو تكريمى. وفضلاً عن ذلك، فإننى أخبرك إننى لا أرغب فى تجريدهم من ميراثهم ولا أريد أن أغضب أربعة رجال من أجل رجل واحد». وكان راؤول ينصت وقد ظن أنه سيصاب بالجنون، وكان عاجزًا عن التفكير فقد كان غاضبًا ومهتاجًا، ويتصرف فى ثورة غضبه ولا يتوقف حتى يصل إلى قصره ويجد الرهائن فى إنتظاره، ودعاهم إلى الإنضمام إليه وفاء بعهودهم.

« كان الكونت راؤول غاضبًا جدًا، واستدعى درون وجيوفرى الجسور أمير أنجو، اللذين

---

(١) نظرًا للعلاقة الوطيدة بين التاج الفرنسى، ودير سان دونى فى باريس، حيث كانت شعائر البيت المالك الفرنسى تحفظ فى هذا الدير.

أفزمتهم الأنباء، وكذلك استدعى هربرت الميني وجيرارد وهنرى وسمسون وبرنار العجوز «تعالوا أيها البارونات، أنني أطلب منكم، بناء على عهودكم التى قطعتموها لى. فغدًا عند بزوغ النهار أجمعكم بمقتضى عهودكم إلى برجي، وبحق القديس جيرى، سوف تمتلئون يأسًا» وعندما سمع جيوفرى هذه الكلمات إرتجف فزعًا ، وقال : «أيها الصديق لمذا تهددنى هكذا؟» وأجاب راؤول : «سوف أخبرك .. فإن هربرت الذى كان يملك أوريجنى ، وسان كوينتن، وبيرون وكليرى ، وهام وروى، ونسل وفاليفى، قد مات. فهل تظنون أننى أخذت هذه الإقطاعية الغنية؟! إننى أخبركم بأن هذا لم يحدث، لأن الإمبراطور خذلنى تمامًا». وأجاب البارونات جميعًا: «إمنحنا بعض الوقت ؛ لأننا سوف نذهب إلى لويس ونسمع من شفتيه هو كيف يعتزم حمايتنا». وقال راؤول « إننى أمنحكم هذا بمقتضى إيمانى». وذهب برنييه إلى القصر، على حين توجه الرهائن مباشرة إلى الملك. وكان جيوفرى أول المتحدثين وناشد الملك الرحمة قائلاً: «أيها الإمبراطور العادل، إننا فى مأزق حرج شرير، لماذا جعلتنا رهائن لهذا الشيطان، أكبر مجرم أرتدى لباس الفروسية على الإطلاق؟ إن هربرت أفضل البارونات قد مات، وهو يريد أن يستولى على كل إقطاعه».

«ثم تحدث جيوفرى الجسور مرة أخرى فقال: «أيها الإمبراطور العادل لقد ارتكبت حماقة كبرى حين أعطيت ابن أختك ميراثًا ولقبًا بأرض شخص آخر. إن الكونت هربرت قد مات، وكان يحكم ضيعة كبيرة. إن راؤول محق فى موقفه؛ والمخطئ هو أنت. يجب عليك أن تمنحه هذه الضيعات ـ فإننا رهائن لديه فى مقابل ذلك». وقال الملك «يا إلهى لقد كدت أجن من جراء التفكير فى أن أربعة رجال سيفقدون ميراثهم إرضاء لرجل واحد! إننى أقسم بالذى أنطلق التمثال أن هذه الهبة سوف تؤدى إلى هلاكه. وإذا لم تحدث زيجة تكبح جماحه، فإن الحزن سوف يخيم على بيوت العديد من النبلاء».

« ويتحدث الملك والحزن يعتصر قلبه؛ فيقول : «يا ابن أختى العادل، تعال هنا. أننى أعطيك القفاز، ولكن الأرض لك بالشروط التى سألتها عليك: أنت تتأكد أننى لن أساعدك أنا أو رجالى بأية وسيلة». ويجيب راؤول: «إننى لا أطلب ما هو أفضل من ذلك». ولكن برنييه سمع كلماته ووثب واقفًا، وتكلم بصوت عال ليسمعه الجميع: «إن أبناء هربرت فرسان أشاوس، وأغنياء ولهم أصدقاء كثيرون، ولن يهزموا على يديك». ويتكلم الفرنسيون الموجودون فى القصر حول المسألة، سواء كانوا كبارًا أم من الشباب» ويقولون : «إن الصبى راؤول يملك عقل رجل،

إنه يطلب بدلاً عادلاً لأرض أبيه. إن الملك يحرك حرباً سوف تكسر بالحزن قلوب الكثير من السيدات الجميلات».

« ويتكلم برنييه الشجاع بصوت عال مرة أخرى: «أيها الإمبراطور العادل، أنظر ما إذا كان هناك سبب فى كل هذا. إن أبناء هربرت لم يرتكبوا أى خطأ. ولا يجب أن يظلموا فى بلاطك. فلماذا تفرط فى أرضهم هكذا؟ إن الرب لن يسامحهم إذا لم يدافعوا عن أرضهم ضد رأؤول». وقال الملك بسرعة «فيلكن، ما دام قد قبل الهبة ضد إرادتى، ولن أخرج للقتال من أجله أبداً».

ويتحدث برنييه إلى رأؤول الكاميرى: «إننى رجلك ولا أنكر ذلك. ولكنى لا أنصحك أبداً بأن تأخذ أرضهم. الجأ الآن إلى القانون قبل أن يرتكب أحد خطأ ما. فإذا ما سفهوك فسوف أصحح لهم. إننى بدافع من حبى لك سوف أكون ضامناً لهم». وأجاب رأؤول «بحق دينى لن أفكر فى هذا. لقد تمت الهبة، ولن أتنازل عنها بأى ثمن» فقال برنييه : «إذن يا سيدى، لن أزيد فى الكلام حتى يأتى الوقت الذى أرى فيه دفاعهم القوى».

حركة السلام

عندما كانت الحروب الإقطاعية تمزق أوربا بسبب حال الجوع إلى الأرض فى القرنين العاشر والحادى عشر، ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال تيارين أساسيين: سلام الرب، وهدنة الرب. وهذه الحركة هدفت إلى تقييد الحروب الإقطاعية فى أيام معينة لتحديد نطاقها ومحاصرة أضرارها، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الحركة تهدف إلى حماية العناصر المنتجة والتجار ورجال الدين من الحرب وأضرارها.. وقد تولت الكنيسة الكاثوليكية دوراً هامًا فى حركة السلام هذه ، واستخدمتها كوسيلة لزيادة سلطانها ونفوذها. بل إن الكنيسة كونت لنفسها فرقا لفرض السلام بالحرب ضد من ينتهكون هدنة الرب وسلام الرب، وكانت هذه خطوة هامة نحو عسكرة الكنيسة الكاثوليكية، وإرهاصا لدورها الكبير فى الدعوة إلى الحروب الصليبية وتوجيهها واستخدامها أداة فى خدمة سياستها الداخلية والخارجية على السواء. وقد أوردنا نصين لمعاهدتين. إحداهما تتعلق بسلام الرب والأخرى تتعلق بهدنة الرب.

* * *

سلام الرب فى مجمع شارو سنة ٩٨٩م (*)

«سيراً على نهج أسلافى، دعوت أنا جنبالد كبير أساقفة بوردو، الأساقفة لحضور مجمع دينى فى شارو.. وهناك اجتمعنا باسم الرب وأصدرنا القرارات التالية:

١ـ الحرمان ضد أولئك الذين يقتحمون الكنائس: إذا اقتحم أى فرد كنيسة، أو سرقها، سوف يكون محروماً من الكنيسة ما لم يقدم ترضية.

٢ـ الحرمان ضد أولئك الذين يسرقون الفقراء: إذا سرق أى فرد من فلاح، أو أى شخص فقير آخر، خروفًا، أو ثوراً، أو بغلاً، أو بقره، أو عنزة، أو خنزيراً. يحرم من الكنيسة ما لم يقدم ما ترضيه.

٣ـ الحرمان ضد من يسيئون لرجال الكنيسة: إذا قام شخص ما بمهاجمة، أو إمساك، أو

(*) Briant Tierney (ed), The Middle Ages, I. p. 136.

ضرب ، قسيس أو شماس، أو أى فرد من رجال الكنيسة الذين لا يحملون سلاحًا (مثل درع أو سيف ، أو رداء معدنى، أو خوذة)، وهو يمضى مسالمًا ، أو يقبع فى منزله، فإن المعتدى يجب أن يحرم ويقطع من الكنيسة، ما لم يقدم ترضية، أو ما لم يكتشف الأسقف أن رجل الكنيسة قد جلب هذا على نفسه نتيجة لخطأ إرتكبه».

هدنة الرب ـ أسقفية تيروان سنة ١٠٦٣(١)

«دروجو، أسقف تيروان، والكونت بلدوين أرسيا هذا السلام بالتعاون مع رجال الكنيسة والشعب فى هذه الأرض.

«أيها الأخوة الأعزاء فى الرب. هذه هى الشروط التى يجب عليكم مراعاتها خلال فترة السلام التى تسمى عادة هدنة الرب، والتى تبدأ بغروب شمس الأربعاء وتمتد حتى شروق شمس الاثنين.

١ـ خلال هذه الأيام الأربعة والليالى الخمس لا يجب أن يهاجم رجل، أو امرأة، أو يجرح، أو يذبح آخر. كما يجب ألا يهاجم أو يستولى على، أو يدمر قلعة، أو حصنًا، أو قرية، بالحيلة أو بالعنف.

٢ـ إذا خرق أى فرد هذا السلام وعصى أوامرنا هذه، ينفى ثلاثين يومًا للتكفير عن ذنبه، وقبل أن يترك الأسقفية يجب أن يقدم تعويضًا عما سببه من أذى. وإلا سيحرم من الرب ويطرد من الشركة المسيحية.

٣ـ وكل من يساعده، أو يشاركه ، بطريقة ما، سواء بمشورتهم أو بالمعاونة أو بالمناقشة، ما لم يكن ذلك بقصد نصحة بالتكفير عن ذنبه وترك الأسقفية، سيحرمون ما لم يقدموا ترضية.

٤ـ إذا سقط أى مخالف للسلام مريضًا، أو مات، قبل أن يتم التكفير عن ذنبه، فلا يجب أن يزوره أى مسيحى، ولا يجب أن يحرك جثمانه من المكان الذى رقد به، أو أن يتقبل شيئًا من أملاكه.

٥ ـ بالإضافة إلى ذلك ، أيها الأخوة يجب مراعاة السلام بالحفاظ على الأراضى والحيوانات وكافة الممتلكات. وإذا أخذ أحد من آخر حيوانًا، أو مالاً أو ثوبًا خلال أيام الهدنة،

---

(١) Briant Tierney (ed.), The Middle Ages, Vol. I, pp. 136-137.

يحرم ما لم يقدم ترضية. فإذا أراد أن يقدم ترضية عن جرائمه فيجب عليه أولاً أن يعيد ما سرقه من أشياء، أو قيمتها ذهبًا. ويجب أن يكفر عن ذنبه سبع سنوات داخل الأسقفية. فإذا مات قبل أن يقوم بالترضية ويتم التكفير عن ذنبه، يجب ألا يدفن جسده، أو ينقل من موضعه، ما لم تقم عائلته بالترضية عنه للشخص الذى آذاه.

٦ـ خلال أيام هذا السلام. لا يجب أن يقوم أحد بغارة عدوانية على ظهور الخيل، ما لم يكن ذلك باستدعاء من الكونت، وكل من يذهبون فى سبيل الكونت يأخذون ما يكفيهم وخيولهم فقط من المؤن.

٧ـ كل التجار الذين يمرون عبر أراضيهم يجب أن يتمتعوا بالسلام فى ظلكم.

٨ـ يجب عليكم أيضًا حفظ هذا السلام طوال أيام الأسبوع من الآحاد الأربعة التى تسبق عيد الميلاد، حتى عيد الغطاس، ومن عيد التراتيل حتى عيد الخمسين.

٩ـ ونحن نأمر جميع القساوسة فى أيام الأعياد ويوم الأحد أن يصلوا من أجل جميع من يحفظون السلام، وأن يلعنوا جميع من يخرقونه، أو يساندون من يخرقونه.

١٠ـ إذا اتهم أى فرد بانتهاك السلام، وأنكر هذه التهمة، فيجب أن يتناول ويتعرض لمحنة الحديد الساخن[1]، وإذا وجد مذنبًا يجب أن يكفر عن ذنبه داخل الأسقفية، طوال سنوات سبع.

حياة الفن فى العصور الوسطى(*)

صورة طبيعية للطريقة التى كان الأقنان يمارسون بها مختلف مهامهم من خلال حوارين سيد إقطاعى وواحد من أقنانه. والنص يرجع إلى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية.

* * *

* السيد : ما الذى يعرفه رفاقك؟
* الفلاح : إنهم يعملون على المحراث، ورعاة أغنام، ومربوا ثيران، وقناصون وصيادو سمك، ومدربو صقور، وتجار محليون، وإسكافيون، وملاحون ، وخبازون.

(*) Wright, Thomas, Anglo -- Saxon and old English Vocabularies, Trubner and Co., London 1884), VOL., I, P. 88.

(١) كانت هناك محاكمة جرمانية تقضى أن يمسك المتهم بقطعة من الحديد الملتهب، فإذا شفيت يده قبل مرور ثلاثة أيام كان بريئًا، وإذا لم تشف كان مذنبًا. ومع تدهور مستوى العلاج آنذاك ، لم يكن أحد ينجو من العقاب .

* السيد: فما الذى تقوله أنت يا رجل المحراث؟ كيف تؤدى عملك؟

* رجل المحراث: سيدى ، إننى أبذل جهداً فائقًا ، فإننى أخرج مع ضوء الفجر، أسوق الماشية إلى الحقل، ثم أربطها فى المحراث، وحتى لو كانت الطقس سيئًا فى الشتاء؛ فإننى لا أجرؤ على البقاء بالمنزل خوفًا من سيدى،، ولكن عندما أضع النير فى أعناق الثيران، وأثبت سلاح المحراث به، يجب أن أحرث حقلاً كاملاً، أو أكثر، فى اليوم .

* السيد : هل لك مساعدون؟

* رجل المحراث : معى صبى يقود الثيران بمنخس، وهو أيضًا مبحوح الصوت بفعل البرد والصياح.

* السيد : ماذا تفعل غير ذلك فى يومك؟

* رجل المحراث: من المؤكد أننى أودى مزيداً من العمل. إذ يجب أن أملأ مذود الثيران بالتبن، ثم أسقيها وأخرج الروث.

* السيد : إن هذا لعمل شاق حقًا.

* رجل المحراث: ومع هذا ، فإنه عمل شاق لأننى لست حراً.

* السيد : ماذا لديك لتقوله أيها الراعى؟ هل عملك شاق أيضًا ؟

* الراعى: إنه كذلك بالفعل. ففى الفجر الرمادى أقود أغنامى إلى المرعى وأقف لأراقبها، سواء فى الحر أو فى البرد، ومعى كلابى، حتى لا تلتهمها الذئاب. ثم أعيدها إلى الحظيرة وأحلبها مرتين يوميًا. ثم أنظف حظيرتها، وأصنع الجبن والزبد، كما أننى مخلص لسيدى.

* السيد : يا مربى الثيران ما هو عملك؟

* مربى الثيران: يا سيدى إن عملى مرهق. فعندما يحل رجل المحراث الثيران من المحراث، أقودها إلى المرعى، وأظل أحرسها من اللصوص طوال الليل. ثم أسلمها فى الصباح لرجل المحراث وقد أكلت وشربت جيداً.

* السيد : ما هى حرفتك؟

* صياد السمك : إننى صياد سمك.

* السيد : ما الذى تحصل عليه من عملك؟

* صياد السمك: الطعام والملابس والنقود.

* السيد : كيف تصيد السمك؟

* صياد السمك: أذهب فى قارب، وأضع شباكى فى الماء، ثم أرمى مرساتى وخيوطى، وأحتفظ بما فيها.

* السيد : كيف يكون الحال لو أن السمك لم يكن نظيفًا؟

* صياد السمك: أرمى السمك غير النظيف وآكل النظيف.

* السيد : كيف تبيع أسماكك؟

* صياد السمك : فى المدينة.

* السيد : من يشتريها؟

* صياد السمك: سكان المدينة، فأنا لا أستطيع أن أصيد القدر الذى يمكننى أن أتاجر فيه.

* السيد : ما هى الأسماك التى تصيدها؟

* صياد السمك: الرنجة والسلمون، وخنزير البحر، وسمك الحفش ، والمحار، وأبو جلمبو.

* السيد: هل تحب صيد الحوت؟

* صياد السمك: لا.

* السيد : لماذا ؟

* صياد السمك: لأننى أفضل أن آخذ سمكة أستطيع قتلها بدلاً من سمكة تستطيع بضربة واحدة أن تقتلنى، أو تغرقنى، أنا وجميع رفاقى.

* السيد ومع ذلك فإن كثرة من الناس يمكن أن تصيد الحيتان دون أن تتعرض للخطر، ويحصلون على ثمن كبير لقاء عملهم.

* صياد السمك: حقًا حقًا ما تقول، ولكنى لا أجرؤ بسبب جبنى.

القسم الثانى

الدعوة إلى الحملة الصليبية

١ـ البابا إربان الثانى فى مجمع كليرمون

كان إربان الثانى (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م) من أكبر البابوات المصلحين فى القرن الحادى عشر؛ ذلك أن إصلاحاته البعيدة المدى على المستوى الإدارى والقضائى، والمالى، أعادت للبابوية سلطتها وفعاليتها بعد ذلك الانكسار الذى حاق بها بعد بابوية جريجورى السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥م). وقد استدعى مجمع كليرمون ليواصل عملية الإصلاح الكنسى. وفى الجلسة الأخيرة فقط سمح للعلمانيين أن يستمعوا إلى الدعوة الكبرى التى أطلقها للدفاع عن العالم المسيحى ضد الفساد فى الداخل، والمسلمين فى الخارج. وكانت هذه أول دعوة للحروب الصليبية.

وكل الروايات التى تحدثت عن خطبة إربان فى كليرمون فى فرنسا، كتبت بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى؛ ومن ثم فإن الكلمات التى وضعها المؤرخون على لسان البابا فى رواياتهم لهذه الخطبة تعكس الأحداث التاريخية التى كانت قد وقعت بالفعل بعد الحملة الأولى. ونحن نقدم فى الصفحات التالية خمس روايات، وكان ثلاثة ممن كتبوها قد حضروا مجمع كليرمون.

١ـ رواية فوشيه الشارترى

(كتبت ما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٦) (*)

كان فوشيه ممن حضروا مجمع كليرمون وشارك فى الحملة الصليبية حيث كان قسيساً خاصاً لستيفن بلوا، ثم صار القسيس الخاص لبلدوين البولونى، وذهب معه إلى الرها. وهو الأمر الذى يفسر لنا لماذا كان هو المؤرخ الوحيد الذى لم يجعل خطبة إربان تتناول احتلال المسلمين للقدس كسبب للحملة الصليبية. وهو فى كتابه يكشف عن إخبارى ومراقب واقعى، وإن كان لم يتخلص من التأثير الدينى والغيبى لعصره، وكان واحداً من

(*) Fulcher of Chatres, Historia Hierosolymitana -- A history of the expedition to Jerushalem 1095 -- 1127 (transl. by : Frances Rita Ryan. with an introduction by Harlod S. Fink) Xnoxville, Tenn. 1969, pp. 61 - 69.

اثنين من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى أبديًا شكوكًا حول قصة الحربة المقدسة التي وجدها الصليبيون في أنطاكية. ويرى بعض المؤرخين أن فوشيه كان يمتلك نُسخًا لقرارات مجمع كليرمون.

* * *

« في سنة ١٠٩٥ بعد تجسد سيدنا، بينما كان هنرى الإمبراطور المزعوم يحكم ألمانيا، والملك فيليب يحكم في فرنسا، وكانت الشرور من كل جنس ونوع تتكاثر في شتى أنحاء أوربا بسبب تأرجح العقيدة، في ذلك الحين كان البابا إربان الثاني يحكم في مدينة روما، وكان رجلاً يستحق الإعجاب بحياته وعاداته، وقد ناضل بشدة وجسارة ليرفع من شأن الكنيسة المقدسة أكثر فأكثر.

« وفضلاً عن ذلك ، فإنه رأى الجميع يتجرأون على العقيدة المسيحية بشكل متزايد سواء من الأكليروس أو من العلمانيين، وانتهك السلام تمامًا، لأن أمراء الأرض كانوا في حال من التحارب الدائم ضد بعضهم البعض. ورأى الناس يسرقون متاع الدنيا من بعضهم، لدرجة أن بعض الأسرى أخذوا ظلمًا وغدرًا، وألقى بهم في غياهب السجون في همجية شديدة طلبًا لفدية باهظة وإلا تعرضوا في سجونهم للعذاب بشرور ثلاثة: هي الجوع والعطش والبرد، ثم يعدمون سرًا. كما أنه رأى الأماكن المقدسة تستباح، والأديرة والقصور تفترسها النيران التي لا تبقى ولا تذر ، وكذلك وجد الأمور الإنسانية والإلهية محط المهانة والإزدراء.

« وعندما سمع أن المناطق الداخلية من رومانيا(١) قد احتلها الأتراك، وأن المسيحيين قد خضعوا لغزو مدمر ساحق، اهتز إربان كثيرا بسبب تقواه وتدينه العميق وزيادة حبه للرب، فعبر الجبال، وهبط في بلاد الغال، وأمر بعقد مجمع في أوفريني بكليرمون، كما هو اسم المدينة. وقد تم الإعلان عن هذا المجمع بطريقة سليمة من خلال الرسل الذين أرسلوا إلى كافة الأنحاء ، وحضره ثلاثمائة وعشرة من الأساقفة ومقدمي الأديرة الذين يحملون العصا المعقوفة...

«وعندما تم إقرار هذه الأمور، وأمور غيرها كثيرة على نحو طيب، شكر كل الحاضرين، سواء من رجال الكنيسة أو من الشعب، شكروا الرب بحرارة على كلمات السيد البابا، ووعدوه

---

(١) يقصد الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) آنذاك.

مخلصين بالحفاظ على قراراته ومراسيمه التى أصدرها فى هذا المجمع. ولكن البابا أردف قائلاً فى الحال إن هناك محنة أخرى ليست أقل شأناً ، وإنما هى أعظم وقعا مما ذكره؛ بل إنها من أسوأ ما عرف من محن ومصائب تمسك بخناق المسيحية الآن فى جزء آخر من العالم.

«قال: بما أنكم يا أبناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم، وأن تخلصوا فى الحفاظ على حق الكنيسة المقدسة أكثر من ذى قبل، فإنه ما يزال أمامكم، يا من بعثتم الإصلاح المقدس حديثاً، مهمة عاجلة منوطة بكم وتتعلق بالرب أيضاً، ومن خلال هذه المهمة يمكنكم إظهار قوة إرادتكم وحسن نواياكم، إذ يجب أن تسارعوا بمساعدة إخوتكم المسيحيين فى الشرق والذين يحتاجون مساعدتكم وطالما طلبوها.

«وذلك لأن الأتراك ، وهم شعب فارسى [١]، كما يعلم الكثيرون منكم، والذين توغلوا داخل الأراضى الرومانية حتى ذلك الجزء من البحر المتوسط والمعروف باسم ذراع القديس جورج[٢]. وقد استولوا على المزيد من أرض المسيحيين، وهزموهم سبع مرات وفى معارك عديدة، وقتلوا وأسروا الكثيرين، ودمروا الكنائس، وخربوا مملكة الرب. وإذا سمحتم لهم بالتمادى فى ذلك أكثر فإنهم سوف يهزمون شعب الرب من المؤمنين أكثر وأكثر.

«ومن ثم فإننى بصلاة خاشعة، لست أنا ولكن الرب هو الذى يحثكم باعتباركم قساوسة المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات؛ من الفرسان ومن الجنود المشاة، من الأغنياء والفقراء، بأن يسارعوا لاستئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا، وأن تساعدوا السكان المسيحيين قبل فوات الأوان.

« إننى أخاطب الحاضرين؛ وأعلن لأولئك الغائبين ، فضلاً عن أن المسيح يأمر بهذا، أنه ستغفر ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء فى مسيرتهم على الأرض أو أثناء عبورهم البحر أو فى خضم قتالهم ضد الوثنيين. هذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطان الذى أسبغه الرب علىّ.

---

(١) هذا الخلط بين الأتراك والفرس يمكن تفسيره فى ضوء ما نعرفه عن جهل أوربا ذلك الزمان بحقائق الجغرافيا والتاريخ فى الشرق الإسلامى، هذا الجهل الذى كان من أسباب التعصب المقيت الذى ميز الحروب الصليبية التى شنها الغرب ضد الشرق، كان أيضاً من مظاهر هذا التعصب. وقد ظن فوشيه أن الترك شعب فارسى لأنهم دخلوا الأناضول وبلاد الشام عن طريق فارس، كما أنهم تأثروا بمظاهر ثقافية فارسية.

(٢) يقصد بذراع القديس جورج البسفور وبحر مرمرة.

« ياله من عار إذا ما قام جنس مثل هذا خسيس، منحل تستعبده الشياطين، بالتغلب على شعب يتحلى بالإيمان بالرب العظيم ويزهو ويتألق باسم المسيح. يا لها من تهم ستوجه ضدكم من الرب نفسه إذا لم تساعدوا أولئك الذين يعدون مثلكم من أتباع الديانة المسيحية.

وقال «فليبادر أولئك الذين اعتادوا شن الحرب الخاصة ضد المؤمنين بالمسير ضد الكفار فى حرب يجب أن تبدأ الآن لتنتهى بالنصر. وأولئك الذين ظلوا لصوصاً لفترة طويلة ينبغى أن يتحولوا الآن إلى جنود للمسيح. وليبادر الذين حاربوا ذات مرة ضد الإخوة والأقارب فيحاربون الآن بحق ضد البرابرة. وأولئك الذين كانوا مرتزقة مأجورين من أجل حفنة من النقود الفضية يجب أن يسرعوا للحصول على مكافأة خالدة. وأولئك الذين كانوا يجهدون أنفسهم لإيذاء الجسد والروح. ينبغى أن يعملوا من أجل مجد الجسد الروح معًا. بلى فى ناحية سيكون الحزانى والفقراء ، وفى ناحية أخرى سيكون الفرحون والأثرياء؛ هنا أعداء الرب، وهناك أصدقاؤه.

«لا ينبغى لشىء أن يؤجل سفر الراغبين فى الرحيل. فلينتهوا من تدبير شئونهم، ويجمعوا الأموال، وعندما ينقضى الشتاء ويهل الربيع، فليبدأوا رحلتهم فى حماسة برعاية الرب».

(ب) رواية المؤرخ المجهول (كتبت حوالى سنة ١١٠٠ ـ ١١٠١م) (*)

«عندما حان الوقت الذى كان السيد المسيح يحدده يوميًا للمؤمنين به لاسيما فى الإنجيل بقوله: إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى (١) كانت هناك حركة هائلة تعتمل فى قلوب الناس فى شتى أنحاء الأرض الفرنجية، بحيث إذا كان ثمة رجل، بكامل قلبه وعقله، مستعداً حقًا لأن يتبع الرب وأن يحمل الصليب خلفه بإيمان، فإن مثل هذا الرجل لم يكن قادراً على أن يتأخر فى السير على طريق الضريح المقدس بأسرع ما يمكن. لأن البابا نفسه (٢) عبر جبال الألب بأسرع ما يستطيع ، ومعه كبار أساقفته، والأساقفة ومقدمو الأديرة والقساوسة وبدأ يلقى عدة خطب فصيحة قال فيها «إذا كان هناك رجل يبتغى إنقاذ روحه، فيجب ألاّ يتردد فى أن يأخذ طريق الرب فى تواضع، وإذا ما كان بحاجة إلى المال، فإن

(*) Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum: The Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusolem (edited and transl. by Rosalind M. Hill, London 1962). pp. 1-2.

(١) إنجيل متى ـ ١٦ : ٢٤.

(٢) إربان الثانى (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩).

الرحمة الإلهية سوف تعطيه ما يكفيه» وقال السيد البابا أيضاً «يا أيها الأخوة، يجب أن تعانوا أموراً كثيرة فى سبيل اسم الرب مثل الشر، والفقر، والعرى ، والاضطهاد ، والحاجة ، والمرض والعطش وما شابه ذلك من متاعب ومصاعب. لأن الرب يقول لحوارييه: يجب أن تعانوا عدة أمور من أجلى» [1] ويقول أيضاً: لا تخجلوا من الكلام أمام الناس «لأننى أنا أعطيكم فما وحكمة[2] ثم قال فيما بعد: «لأن أجركم عظيم فى السموات [3]. وحينما بدأت هذه الكلمة تنتشر وتشيع فى شتى أنحاء دوقيات وكونتيات الأراضى الفرنجية. بدأ الفرنجة بمجرد سماع هذه الكلمات، يخيطون الصليب على الكتف الأيمن لعباءاتهم قائلين إنهم جميعاً سوف يقتفون أثر خطوات المسيح سوياً، لأنه هو الذى خلصهم من سلطان الجحيم. ولذا فإنهم إنطلقوا فوراً من منازلهم فى أراضى الفرنجة.

(جـ) روبير الراهب (كتبت سنة ١١٠٧م) (*)

كان راهباً فى دير مارموتييه ـ ليز ـ تور Marmoutier_ Lez_ Tours، ويعرف عادة باسم روبير الراهب، وأحياناً باسم روبير الريمسى نظراً لأنه تولى رئاسة ديرسان ريمى Saint _ Rémi ولكنه بعد نزاع حول قيادته للدير تركه إلى دير سينوك Senuc . حيث كتب واحداً من أكثر الكتب التى عاصرت الحملة الصليبية رواجاً. فقد كان حاضراً فى مجمع كليرمون، والخطبة التى وضعها على لسان إربان الثانى تعكس الموضوع الرئيسى لروايته حيث يدور الموضوع حول الرب القادر الذى اختار الفرنجة ليعمل من خلالهم، وبذلك فهو يرى أن الحملة الصليبية هى أكبر دليل على تدخل العناية الإلهية فى أمور هذا العالم وتحقيق النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس، بعد أن تجلت هذه العناية من قبل فى الخلق ثم تجسد المسيح. وقد تميزت روايته بذلك النوع من المبالغة فى تصوير المسلمين ووحشيتهم، وهى المبالغة التى كانت تميز كتابات رهبان العصور الوسطى عموماً بما تحمله من تعصب وجهل.

* * *

---

(١) جاء فى أعمال الرسل ٩: ١٦ «لأنى سأريه كم ينبغى أن يتألم من أجل اسمى». ويجب أن نلاحظ أن المؤرخ المجهول دأب على تحريف اقتباساته من الأناجيل بسبب طبيعته كفارس، وربما كان يعتمد على سماعها فقط.

(٢) لوقا: ٢١ : ١٥.

(٣) متى ٥ : ١٢.

(*) Robert of Rheims, "Historia Iberosolimitana", RHC., Oc., III, pp. 727-30.

«يا شعب الفرنجة، أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب، يا من اختاركم الرب وأحبكم، كما تجلى واضحًا من خلال أعمالكم الكثيرة. يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وبعقيدتكم الكاثوليكية وكذلك بالشرف الذى أوليتموه للكنيسة؛ فلكم نوجه خطابنا ونستحثكم. نريدكم أن تعلموا أن سببًا محزنًا أتى بنا إلى بلادكم، والسبب الذى جاء بنا إلى هنا هو الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين. فقد ورد خبر حزين من البلاد المحيطة بالقدس ومن مدينة القسطنطينية ـ وسمعنا هذا الخبر يتردد بالفعل ـ مؤداه أن شعبًا من مملكة الفرس(١) وهو جنس أجنبى ، جنس غريب على الرب تمامًا. جيل لا يضع قلبه على طريق الحق.، وروحه ليست مخلصة للرب، قد غزا أرض أولئك المسيحيين، وأخضع الناس بالسيف ، والتدمير والحريق، كما حمل بعضًا منهم أسرى إلى بلاده، وذبح البعض الآخر بوحشية كما سوى كنائس الرب بالأرض، أو استخدمها ليمارس فيها شعائر ديانته. هؤلاء الناس قد دمروا المذابح التى نجستها ممارستهم الخرقاء. لقد أجروا عمليات الختان للمسيحيين وكانوا يسكبون دماء الختان على المذابح أو يصبونها فى أوانى التعميد. وقد شقوا بطون أولئك الذين اختاروا أن يعذبوهم بالموت البطئ المثير للإشمئزاز، وكان ينزعون معظم الأعضاء الحية ويربطون ضحاياهم إلى العصى المدببة، ثم يسحبوهم وهم يضربونهم بالسياط قبل أن يقتلوهم وهم راقدون على الأرض وقد خرجت أحشاؤهم. ويربطون البعض إلى الأعمدة ويرمونهم بالسهام؛ ويأمرون الآخرين بتعرية رقابهم ثم يهاجمونهم بالسيوف المسلولة، ليروا ما إذا كان بوسعهم أن يفصلوا رقابهم بضربة واحدة. ترى ماذا أقول عن العنف الذى يمارسونه ضد النساء ؟ فالحديث عنه أكثر شرًا من الصمت. لقد تعرضت مملكة اليونان لهجمات عديدة منهم وخضعت لممارستهم بحيث لا يمكن عبورها فى شهرين. فعلى من إذن تقع مهمة الإنتقام من هذا، ومهمة الخلاص من هذا الموقف، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد فى السلاح وجسارة القلب. وقوة الجسد، والقدرة على من يتعرض لكم بالمقاومة؟

لتكن قصص أسلافكم العظام حافزًا لكم يحرككم ويثير أرواحكم صوب القوة؛ من أمثال شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم الذى دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود الكنيسة المقدسة داخلها. وربما تتحركون بشكل خاص بحافز من الضريح المقدس لسيدنا ومنقذنا الذى

(١) انظر ما سبق تعليقًا على رواية فوشيه الشارترى.

يرقد أسيراً فى أيدى أجناس قذرة، وربما حركتكم الأماكن المقدسة التى تنتهك حرماتها الآن بممارستهم القذرة. يا أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتنحدرون من صلب آباء لا يشق لهم غبار، لا ترضوا لأنفسكم مظهراً أضعف من أسلافكم ولكن تذكروا قوتهم. إذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم تذكروا ما يقوله سيدنا فى الإنجيل: «من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب إبنًا أو إبنة أكثر منى فلا يستحقنى» [1]. وكل من ترك بيته أو أباه أو أمه أو زوجته أو أطفاله فى سبيل إسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الدائمة. فلا تجعلوا أية ممتلكات تقعد بكم عن المضى فى سبيله، ولا تعبئوا بالشئون المنزلية، لأن هذه الأرض التى تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، وتحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بأعداداكم الكثيرة؛ وهى لا تفيض بالثروة الطائلة وإنما لا تكاد تحقق من الطعام ما يكفى زراعها فقط. وهذا هو السبب فى أنكم تشنون الحرب ضد بعضكم البعض، بل وتقتلون بعضكم بعضًا وأنتم تتبادلون الضربات. فلتوقفوا هذه الكراهية فيما بينكم، وكفوا عن النزاع، واخمدوا نيران الحرب، وضعوا حداً لكل المشاحنات. انطلقوا على طريق الضريح المقدس، إنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم، لأن هذه الأرض التى تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدس أعطاها الرب ملكًا لبنى إسرائيل[2].

القدس هى مركز العالم، وهى الأرض التى تسمو فوق غيرها، مثل جنة أخرى حافلة بالمتع. لقد جعلها مخلص البشرية مشهورة بميلاده، وزانها بحياته، وقدسها بعذابه ومعاناته، ثم طهرها بموته، وترك خاتمه عليها حين دفن بها. هذه المدينة الملكية، بمكانها فى مركز العالم، أسيرة الآن فى أيدى أعدائها، ومسخرة لخدمة الطقوس الوثنية لشعب لا يعترف بالرب. ولذا فهى تسأل وتصلى من أجل تحريرها. وتناديكم دومًا لتهبوا لنجدتها. والحقيقة أنها تسألكم أنتم بصفة أساسية لمساعدتها، لأن الرب ، كما ذكرنا من قبل ، قد أسبغ عليكم دون سائر الأمم مجداً فائقًا فى السلاح. ولذا سيروا على هذا الطريق من أجل التطهر من خطاياكم، وكونوا على ثقة فى المجد الخالد لملكة السماء.

---

(١) متى ١٠ : ٢٧ : ٢٨.

(٢) يقصد المسيحيين لا اليهود. وذلك لأن المسيحية نزلت لهداية اليهود فقد جاء بإنجيل متى ٢٤:١٥، على لسان المسيح «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة» وعلى هذا سميت الجماعات المسيحية الأولى باسم الإكليزيا أى المختارين من بنى إسرائيل؛ على حين فقد اليهود امتيازهم بسبب اضطهادهم للمسيح وعدم إيمانهم به.

« وحينما ذكر البابا إريان هذه الأمور وكثيراً غيرها بطريقة بليغة، كان كل إمرئ يتحرك بدافع من شعور موحد وصاح الجميع في صوت واحد «الرب يريدها! الرب يريدها!» وحينما سمع البابا المبجل هذه الصيحة رفع عينيه صوب السماء، وشكر الرب، وأشار بيديه طالبًا الصمت، ثم قال: (يا أيها الأخوة الأعزاء لقد وضح لنا اليوم ما قاله الرب في الإنجيل: «لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك اكون في وسطهم»[1] لو لم يكن الرب حاضراً في عقولكم لما نطقتم بصوت واحد، فعلى الرغم من أن الصيحة خرجت من أفواه كثيرين منكم، فإن مصدر الصوت كان واحداً؛ ولذا فأنا أقول لكم إن الرب الذي بذر هذا الشعور في قلوبكم، هو الذي أخرجه الآن علنًا. فليكن هذا النداء في الحرب هو صيحة القتال التي تجمعكم، لأن الرب هو الذي صاغها. وعندما يزحف الجيش ليهاجم العدو سوف تنطلق هذه الصيحة من أجل الرب تتردد في كل الجنبات «الرب يريدها! الرب يريدها!» ولكننا لا نأمر بحث الرجال المسنين أو العاجزين أو غير اللائقين لحمل السلاح على الذهاب في هذه الرحلة كما لا ينبغي للنسوة أن تذهبن إطلاقًا دون موافقة أزواجهن أو أخواتهن أو بإذن رسمي؛ فإن مثل أولئك الناس سيكونون عقبة أكثر منهم عونًا، وعبئًا أكثر منهم فائدة. ويجب على الغني أن يساعد من هو أقل ثروة من قادة القتال الذين يجهزون أنفسهم بأنفسهم. والقساوسة ورجال الكنيسة أيا كان النظام الذي ينتمون إليه ممنوعون من الذهاب دون إذن من أساقفتهم، لأن هذه الرحلة لن تفيدهم ما لم يكن لديهم تصريح بها. أما العلمانيون، فلا ينبغي أن يذهبوا لرحلة الحج دون مباركة قساوستهم. وكل من قرر القيام بهذه الرحلة. وقطع وعداً للرب وأقسم أنه سوف يقدم نفسه له ضحية حية مسرورة مقدسة يجب أن يحمل شارة صليب الرب على جبهته أو صدره. وكل من يفي بقسمه ويرغب في العودة يجب أن يضع الشارة على ظهره بين كتفيه. مثل هؤلاء الناس، سوف ينفذون أمر الرب إذا فعلوا هذا، وهو الأمر الذي أمر به الإنجيل حيث يقول: «ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني» [2].

(١) إنجيل متى ١٨ : ٢٠.
(٢) إنجيل متى : ١٠ : ٢٨.

(د) رواية جيوبرت النوجنتى (كتب قبل سنة ١١٠٨م)(*)

من المحتمل أن جيوبرت لم يكن حاضراً فى مجمع كليرمون، ولكنه من عدة جوانب كان أبرز الذين كتبوا عن هذا المجمع. وقد ولد سنة ١٠٥٣م، وانضم إلى دير فلاى Flay . وقد تفوق على أقرانه بسمعته وعلمه وثقافته بحيث انتخب مقدماً لدير نوجنت سنة ١١٠٤م. وهو مثل روبير الراهب يدور موضوعه الأساسى فى كتابه حول دور الفرنجة كشعب اختاره الرب. ومن أهم ما يميز ما كتبه عن خطبة إربان هو الحاحه على الجوانب الأخروية، وربطه بين هذا الجانب وبين أن بيت المقدس هى بؤرة تدخلات الرب فى هذا العالم من أجل الحركة الصليبية. والواقع أنه قد وضع فقرة عن سوء معاملة الحجاج فى بيت المقدس محل الأخبار المعتادة فى كتابات الآخرين عن معاناة المسيحيين الشرقيين، وهى المعاناة التى جعلوها سبباً للحملة الصليبية.

* * *

« إذا كانت بعض الكنائس مبعثرة فى شتى أنحاء العالم تستحق التبجيل أكثر من غيرها بسبب الشعب والأرض التى ترتبط بها ـ أقول بسبب الشعب، لأن أعظم الميراث ورثتها تلك الأماكن التى أسس بها الحواريون أسقفياتهم؛ وأقول بسبب الأرض لأن نفس الكرامة قد أضيفت على المدن الملكية مثل مدينة القسطنطينية بالنسبة للملوك ـ ولذا يجب أن نكرس أعظم تكريم لكنيسة تلك المدينة التى تلقينا منها نعمة الخلاص والتى كانت منبعاً للمسيحية. وإذا كان ما قاله الرب ما يزال صحيحاً، أن الخلاص من اليهود حق، وإذا كان ما يزال صحيحاً من أن رب الجيوش قد ترك لنا البذرة لئلا نصبح مثل سدوم ونصير مثل مدينة (عمورة)(١) ـ والمسيح هو بذرتنا الذى فيه خلاص وبركة جميع الأمم ـ فالأرض نفسها والمدينة التى عاش فيها المسيح وعانى معروفة بقدسيتها بدليل من الكتاب المقدس. والواقع ، أن المرء إذا قرأ فى الكتابات المقدسة والنبوءات أن هذه الأرض كانت هى الميراث وأن المعبد المقدس للرب قبل أن يمشى السيد المسيح ويظهر هناك، فكم تكون القداسة والتبجيل التى يجب أن نكرسها إذا ما وضعنا فى إعتبارنا أن رب الجلالة قد تجسد هناك، وأنه ترعرع ونما، وفى طبيعته المادية مشى هنا وسافر من مكان لمكان؟ وهكذا فيما يتعلق بالإختصار فى أمور يمكن أن نحكيها فى فترة طويلة، فما هو التبجيل الذى سنضعه فى حسابنا للمكان الذى شهد إراقة دم ابن الرب،

(*) Guibert of Nogent, "Historia quae dicrtur Gesta Dei per Francos", RHC, Oc., IV., pp. 137_40.

(١) مثال للمدينة الشريرة.

الأكثر قداسة من السماء والأرض، وشهد جسده الميت يتوارى فى المقبرة؟ فإذا كانت المدينة تسمى مقدسة، على حين كان ربنا قد قتل منذ فترة يسيرة، وكانت المدينة ما تزال بأيدى اليهود، وكان الإنجيلى هو الذى أسماها مقدسة حين قال: «والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين(*) وكما قال النبى أشعيا أن ضريحه سيكون ممجداً ، فإن أى شر لاحق لن يستطيع أن يزيل عن المدينة قداستها طالما الرب نفسه هو الذى أضفى عليها القدسية. كما أن شيئًا لا يمكن أن ينقص من مجد ضريحه.

« أنتم أيها الأخوة الأعزاء، يجب أن تقوموا بأكبر جهدا لتؤكدوا أن قداسة المدينة ومجد ضريحه سوف تتحرر من نير الأميين الذين يدنسون المدينة والضريح بوجودهم بقدر ما يستطيعون. وسوف تحققون ذلك إذا كانت لديكم الرغبة فى التقرب من هذه القدسية وهذا المجد، وإذا كنتم تحبون هذه الأشياء التى تركت على الأرض آثاراً دالة على خطواته، وإذا كنتم تبحثون عنها والرب أمامكم يحارب من أجلكم. وإذا كان المكابيون فى سالف العصر والزمان قد اشتهروا بتقواهم بسبب قتالهم من أجل المعبد المقدس، فإنكم أيضًا، أيها الجنود المسيحيون يجب أن تدافعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقًا وعدلاً. وإذا كنتم تعتبرون أنكم يجب أن تتحملوا مشاق كبيرة للقيام برحلة حج إلى مقابر الحواريين [فى روما] أو إلى أضرحة غيرهم من القديسين، فما هو الثمن الروحى الذى ترفضون دفعه فى سبيل إنقاذ الصليب والدم والضريح، والقيام برحلة حج؟ فحتى الآن خضتم حروبًا غير عادلة: غالبًا ما وجهتم حرابكم فى وحشية ضد بعضكم البعض فى مجازر متبادلة بسبب الطمع والكبرياء فقط، وهو الأمر الذى تستحقون بسببه الدمار الأبدى واللعنة الأبدية! والآن نحن نقترح عليكم أن تشنوا الحرب التى تجلب لكم مجد الشهادة، التى يمكنكم من خلالها أن تحوزوا لقب المجد الحاضر والمجد الأبدى. إفرضوا فقط أن المسيح لم يمت أبداً، ولم يدفن، ولم يعش فى أى زمن فى القدس. إذا لم يكن أى من هذه الأمور قد حدثت بالفعل، فإنكم مع هذا مطالبون بالتحرك لنجدة الأرض والمدينة بهذه الفكرة فقط : فكرة أن الناموس سوف يخرج من صهيون وأن كلمة الرب سوف تخرج من بيت المقدس. وإذا ما كان حقًا وصدقًا أننا نستمد كل تعاليمنا المسيحية من نبع القدس، فإن قلوب الكاثوليك أجمعين يجب أن تتحرك بوازع من الروافد التى تنتشر

(*) متى ٢٧/ ٥٢: ٥٣.

فى شتى أنحاء الدنيا لتذكر بالدين الذى يدينون به لهذا النبع السخى. وإذا كانت الأنهار تعود إلى المكان الذى نبعت منه، لكى تفيض مرة أخرى، على حد تعبير كلمات سليمان الحكيم، فيجب عليكم أن تفكروا فى أنه أمر مجيد أن تنظفوا مرة أخرى المكان الذى منه رتب الرب لكم قوة التعميد التى تطهركم ورضى لكم بهذه الديانة.

« ويجب أن تفكروا وتتدبروا بقدر ما يمكنكم فى هذا : إذا كان الرب يتصرف من خلالكم ، بحيث تنتعش أم الكنائس من جديد بفضل تعاونكم لتنتشر المسيحية فى آفاق جديدة، فهل يرغب الرب فى إستعادة بعض أقاليم الشرق إلى رحاب العقيدة فى مواجهة إقتراب زمن المسيح الدجال؟ لأنه من الواضح أن المسيح الدجال لن يشن الحرب ضد اليهود أو الأميين، ولكن وفقًا لمدلول إسمه سوف يهاجم المسيحيين، ولكن إذا لم يجد المسيح الدجال أى مسيحى هناك، مثلما هو الحال اليوم؛ إذ أن الإعتقاد الشائع أنه ربما يكون هناك مسيحى واحد فى المكان، فلن يكون هناك من يقاومه ولا حتى من يتعرض لهجومه. ووفقًا لما ذكره دانيال، وما ذكره جيروم الذى شرح ما قال دانيال وفسره، فإن المسيح الدجال سوف يقيم خيامه فوق جبل الزيتون. ومن المؤكد، كما يقول القديس بولس، أنه سوف يجلس فى أورشليم فى معبد الرب، كما لو كان هو الرب، وكما يقول النبى دانيال نفسه، لا شك فى أن كل من سيقتلهم سيكونون ثلاثة ملوك، ملك مصر ، وملك أفريقيا، وملك الحبشة، وسيقتلهم أمام الآخرين جميعًا لأنهم مسيحيون. ولا يمكن أن يحدث هذا ما لم تحل المسيحية محل الوثنية. ومن ثم، فإذا كرستم أنفسكم لخوض المعارك المقدسة، بحيث تسددون لأورشليم الدين الذى به تدينون لها بسبب الرحمة التى منحتها لكم ــ فمن هذا المكان غرست فيكم معرفة الرب لأول مرة ـ وبفضلكم يمكن للإسم الكاثوليكى، الذى سيقاوم غدر وخيانة المسيح الدجال وأعوانه، أن ينتشر. هذا الإسم الذى لا يمكنه إلا أن يستنتج أن الرب، الذى يفوق قدرته وسلطانه آمال الجميع، سوف يحرق بشرارتكم مُثُل الشراذم الوثنية بحيث ينشر مبادئ قانونية فى كل من مصر ، وأفريقيا والحبشة، التى انتزعت من عالمنا المسيحى. وهل سيجد الرجل الخاطئ ابن الجحيم عصاة آخرين؟ تأمل ما يصرخ به الحوارى من أن أورشليم يجب أن تكون موطئًا لأقدام الأميين حتى يأتى زمن الأمم، وزمن الأمم هذه عبارة يمكن أن تفهم بطريقتين. إما أنها أظهرت المسيحيين فى مسراتهم وتتبعت تمرغهم بأساليبهم الدنسة وراء شهواتهم، بحيث لم يوقفهم شىء عن هذه الأمور جميعًا؛ لأن الذين يتبعون أهواءهم فى كل الأمور يقال إنهم يأخذون وقتهم وفى هذا «وقتى لم يأت بعد، ولكن وقتكم جاهز دائمًا» وهى العبارة التى بسببها نقول لمن يتبع شهواته

«الآن أنت تأخذ زمنك». أو من ناحية أخرى، تعنى بكلمة زمن الأمم إنجاز الأمميين الذين سيدخلون خلسة قبل إنقاذ إسرائيل. أيها الأخوة الأعزاء، ربما لن تتحقق هذه الأزمنة سوى حين يتم دفع الوثنيين على أيديكم، وبمساعدة الرب لكم. ونهاية العالم وشيكة حقًا، على الرغم من أن الوثنيين لم يتحولوا إلى الرب: ووفقًا لما يقوله بولس الرسول يجب أن تكون هناك ثورة من الدين. ولكن أولاً قبل قدوم المسيح الدجال لابد من تجديد الإمبراطورية المسيحية فى هذه الأرجاء وفقًا لما تقوله النبوات، سواء عن طريقكم أو عن طريق أولئك الذين يختارهم الرب، حتى يكتشف رئيس الأشرار، الذى سيعتلى عرش المملكة فى هذا المكان، أن هناك دعمًا للعقيدة التى يحاربها. واعتبروا وتدبروا فى أن الرب العظيم ربما اختاركم لهذه المهمة، حتى يمكن أن يُعيد القدس بعد أن عانت كثيراً من الإمتهان. فكروا ، أتوسل إليكم، فى الفرح الذى سيغمر القلوب حين نرى المدينة المقدسة تعاود الحياة بمساعدتكم ، وحين نرى النبوءات الرسولية ، تتحقق فى زماننا. وربما ينبه ذاكرتكم ما قاله السيد المسيح نفسه للكنيسة. حيث قال إنه سيحضر بذرتكم من الشرق، وسوف يجمعكم من الغرب. لقد قاد الرب بذرتنا من الشرق، لأن هذا الأقليم الشرقى منحنا نمو الكنيسة الباكر عن طريقين. ولكن لأننا نظن أنه يمكن فعله بواسطتكم وبمساعدة الرب، فإنه يجمع الكنيسة سويًا من الغرب حين يعيد خرائب أورشليم عن طريق أولئك الذين آمنوا أخيراً بمبادئ العقيدة: وهم الغربيون.

وإذا لم تكن أقوال الكتاب المقدس تحرككم، وإذا لم تكن تحذيراتنا تصل إلى عقولكم، فإن البؤس الشديد الذى يعانيه أولئك الذى يرغبون فى زيارة الأماكن المقدسة ينبغى أن يكون حافزاً لكم. فكروا فى أولئك الذين يسافرون للحج عبر البحر المتوسط. كم من النفقات، وأى عنف يخضع له الأغنياء منهم، حين يجبرون على دفع إتاوات وضرائب فى كل ميل تقريبًا عند بوابات المدن، ومداخل الكنائس والمعابد يضطرون إلى دفع الرسوم؛ وكيف يضطرون إلى الرحيل من مكان لآخر وقد اتهموا بارتكاب شىء ما؛ وكيف أن عادة حكام الأمميين أن يجبروهم بوحشية وبالضربات على أن يدفعوا لإطلاق سراحهم إذا ما رفضوا الرشوة! وما الذى يمكن أن نقوله عن أولئك الذين لا يملكون شروى نقير والذين يسعون للحج فى فقر وعرى، وليس لديهم شىء يخسرونه سوى أجسادهم؟ فالنقود غير الموجودة تستخرج منهم بالتعذيب القاسى، فيشق جلد كعوبهم الخشن وينزع لئلا يكونوا قد دسوا شيئا تحت هذا الجلد. بل إن قسوة هؤلاء الرجال الكفار لتصل إلى حد أنهم يظنون أولئك التعساء قد ابتلعوا الذهب أو الفضة، فيضعون فى شرابهم مادة مسهلة ويجبرونهم على أن يتقيأوا أو يتبرزوا، أو

ـ وهذا شيء لا يمكن الحديث عنه ـ يمزقون إربًا كل الأمعاء بعد أن يبقروا بطونهم بحيث ينكشف كل سر مخبوء. أتوسل إليكم أن تتذكروا الآلاف الذين قضوا نحبهم بطريقة مرعبة، وأن تتصرفوا من أجل أورشليم التي جاءت منها الأسس الأولى لديانتكم، وآمنوا أن المسيح، مرشدكم وحامل رايتكم وسوف يتقدمكم أنتم يا من ستذهبون في حربه».

* * *

(هـ) رواية بلدريك الدوللي (كتبت حوالي سنة ١١٠٨م)(*)

اعتمد بصفة أساسية على المؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنجة. وهو أقل مؤرخي الحملة الصليبية الأولى شأنًا. وكان مقدمًا لدير سان بييردي بورجي من سنة ١٠٨٩ حتى سنة ١١٠٧ وحضر مجمع كليرمون. وفي سنة ١١٠٧ انتخب كبيرًا لأساقفة دول في بريتاني. وكان كاتبًا رشيق العبارة، ولكن كتابه عن الحملة الصليبية يعتبر اليوم عملاً ضئيل القيمة، ولكن بعض الباحثين يرون أن هذا ظلم لأن بلدريك يفيد من مادته بشكل ممتع، وأنه يكتب روايته من وجهة نظر لاهوتية للغاية. وفي روايته عن خطبة إربان يركز على أخوة جميع المسيحيين؛ شرقيين وغربيين على السواء.

* * *

«لقد سمعنا أيها الأخوة الأحباء، وسمعتم أنتم أيضًا، ما لا نستطيع أن نحكيه مرة أخرى دون أن تعترينا مشاعر الأسف العميق ـ لقد سمعتم أن أخوتنا المسيحيين، تعرضوا للقمع، والضرب بالسياط، والإيذاء في أورشليم، وفي أنطاكية، وغيرها من مدن الشرق. إن إخوتكم في الدم، رفاقكم، شركاءكم (لأنكم جميعًا أبناء نفس المسيح ونفس الكنيسة) يتعرضون إما للإخضاع في إوطانهم الموروثة لسادة آخرين، وإما يطردون من ديارهم، أو يفدون إلينا كشحاذين؛ أو ما هو أسوأ من ذلك كله، يضربون بالسياط وينفون كعبيد يباعون بسوق النخاسة في أوطانهم، إن الدم المسيحي، الذي افتداه المسيح بدمه، قد أريق، واللحم المسيحي، الذي يرتبط بلحم المسيح قد أخضع لمهانة وعبودية لا توصف. ففي كل مكان بهذه المدن يشيع الأسى، والبؤس، والأنين (وهو أمر أذكره وأنا أتنهد). إن الكنائس التي كانت تحتفل بالأسرار المقدسة في الأيام الخوالي، تستخدم كحظائر لحيوانات هذه الشعوب بكل أسفا إن الرجال المقدسين لا يملكون مدنهم: ولكن الأتراك السفلة، أولاد الحرام، يتحكمون في رقاب إخواننا. إن بطرس المبارك كان يقيم أولا هناك أسقفًا لأنطاكية، تذكروا أن الأمميين

(*) Baldric of Dol, "Historia, Jerosolimitana" RHC, Oc., IV, PP. 12 - 16.

أقاموا خرافاتهم فى كنيسته، أما الديانة المسيحية، التى كانت أولى بهم أن يرعوها فقد حالوا بينها وبين كل المؤمنين بالرب، فى خسة وضاعة. والضياع التى منحت لدعم القديسين وميراث النبلاء الذى خصص لإعالة الفقراء كلها خضعت لطغيان الوثنيين، على حين يقوم السادة القساة بإساءة إستخدام عوائد هذه الأراضى. وقد تمرغ قساوسة الرب فى تراب الأرض، وقدسية الرب (يا للعار الذى لا يوصف) قد انتهكت فى كل مكان. وإذا كان ما يزال هناك مسيحيون فى الخفاء، فإن وسائل التعذيب التى لم يسمع عنها تستخدم للكشف عنهم.

ونحن لا نجرؤ أيها الأخوة أن نتحدث عن أورشليم، لأننا فى خوف وخجل متزايدين من أن نتكلم عنها. إن هذه المدينة نفسها، التى عانى المسيح نفسه فيها من أجلنا، كما تعلمون جميعا، لأن خطايانا استوجبت ذلك، قد أُخضعت لدنس الوثنية ، وسحبت من خدمة الرب، وهو ما أقوله لعارنا وخزينا. كم هو كبير رزء اللوم الذى يقع على عاتقنا وكم نستحقه! من يخدم الآن كنيسة مريم المباركة فى وادى يوشيفاط، التى دفن جسدها بداخلها؟ ولكن لماذا نمر على معبد سليمان، بل معبد الرب، الذى يضع فيه البرابرة أصنامهم مخالفين بذلك الناموس البشرى والإلهى؟ لقد أحجمنا عن الكلام عن ضريح الرب، طالما أن بعضكم رأوا بعيونهم مدى الفظائع التى حاقت به. لقد أخذ الأتراك بعنف الهبات التى قدمتموها هناك كصدقات ونذور بكميات كبيرة فضلا عن أنهم كثيراً ما يهزأون بدينكم. ومع ذلك فإن فى هذا المكان (أننى أتحدث فقط عما تعرفونه بالفعل) استقر الرب؛ وهناك مات من أجلنا؛ وهناك دفن. كم سيكون غاليا المكان الذى نشتاق إليه، المكان الذى لايُضاهى حيث دفن الرب، حتى إذا لم يشأ الرب أن يتم هناك معجزته السنوية! لأنه فى أيام عذابه ومعاناته، أضاءت كل الأنوار فى الضريح وحول الكنيسة، وهى التى قد أطفئت ، فأعيد ضوؤها بأمر إلهى. فمن هو صاحب القلب الحجرى، أيها الأخوة ، بحيث لا تحركه معجزة عظيمة كهذه؟ صدقونى ، إنه رجل معتوه ولا عقل له الذى لا تُحرك قلبه للإيمان حالة كهذه تتبدى فيها الرحمة الإلهية واضحة ! ومع هذا فإن الأمميين يرون هذا مع المسيحيين ولا يتحولون عن طريقهم. والواقع أنهم خائفون ، ولكنهم لم يعتنقوا الدين المسيحى، كما يجب ألا تندهش لأن عمى العقول يسيطر عليهم. ما المصائب التى أخطأوا بها فى حقكم يا من عدتم وموجودون هنا الآن؟ إنكم تعرفون تمامًا، أنتم يا من ضحيتم بمالكم وبدمائكم هناك من أجل الرب.

«هذا أيها الأخوة الأحباء هو ما يجعلنا نقول إنكم شهود على كلماتنا . إن حجم معاناة إخوتنا وتخريب الكنائس أكبر من أن نتحدث عنه بحيث نذكر كل حالة، لأن الدموع والأنين يقهرنا، وتعتصرنا التنهدات والزفرات. وأسفاه إننا نبكى وننتحب أيها الأخوة، مثل داود

النبي، في أعماق قلوبنا! إننا تعساء لا نعرف السعادة، وفينا تحققت النبوءة : «أيها الرب، إن الأمم جاءت لميراثك ، وقد دنسوا معبدك المقدس، وقد حولوا أورشليم إلى أكوام، وصارت أجساد خدامك طعامًا لطيور السماء ولحم أجساد قديسيك صار طعاما لوحوش الأرض، وقد أريقت دماؤك كالماء من حول أورشليم حيث لم يكن هناك من يواريهم التراب». عار علينا أيها الأخوة ، نحن الذين صرنا بالفعل مصدر خزي لجيراننا ، ومحلاً لسخريتهم واستهزائهم، ويجب علينا على الأقل أن نطلب لهم الرحمة والمغفرة بدموعنا . نحن الذين أصبحنا محطًا لاحتقار كل الشعوب، بل وما هو أسوأ من ذلك، ينبغي علينا أن نندب الخراب الوحشي الذي حاق بالأرض المقدسة. هذه الأرض التي أسميناها مقدسة عن جدارة حيث باركتها كل خطوة واحدة لجسد المخلص أو روحه كما مجدها؛ هذه الأرض التي احتضنت الجسد المبارك لأم الرب، وإجتماعات الحواريين والرسل، وتشربت بدماء الشهداء التي أريقت هناك. يا لها من أحجار مقدسة تلك التي تتوجك، يا اسطفان يا أول الشهداء ، كم هي سعيدة، يا يوحنا المعمدان، مياه نهر الأردن التي خدمتك وأنت تعمد المسيح المخلص! إن بني إسرائيل الذين سيقوا خارج مصر، والذين كانوا سابقة لكم حين عبروا البحر الأحمر، قد استولوا على هذه الأرض بسلاحهم، والمسيح يقودهم ، طردوا اليبوسيين وغيرهم من السكان وسكنوا أورشليم الأرضية التي هي صورة أورشليم السماوية [١].

« ما الذي نقوله ؟ اسمعوا أنتم يا من تختالون بشارة الفروسية، وقد ملأكم الغرور الشديد؛ إنكم تحاربون اخوتكم وتمزقون بعضكم البعض إربًا . ليست هذه هي الجندية الحقة في سبيل المسيح لأنها تمزق قطيع خراف المسيح. إن الكنيسة المقدسة حفظت لنفسها نمطًا من الجندية لمساعدة شعبها، ولكنكم ترتكبون الشر الذي يؤذيها ويهبط بها. فلنعترف بالحقيقة، من الذي يجب أن نكون مساعديه ؟ حقًا أنكم لا تسيرون في الطريق الذي يؤدي إلى الحياة. أنتم يامن تقهرون الأطفال، وتنهبون النساء الأرامل، أنتم يا من غرقتم في خطيئة الزنا، يا من تسرقون حقوق الآخرين؛ أنتم يا من تنتظرون ما يدفع اللصوص مقابل إراقة الدم المسيحي ـ ومثلما تشم النسور الجثث العفنة، فإنكم أيضًا تحسون بالمعارك من بعيد وتندفعون إليها بشغف وشوق. حقًا إن هذه هي أسوأ طريقة، لأنها بعيدة تمامًا عن الرب. وإذا كنتم حقًا تريدون أن تحرصوا على أرواحكم ، فإما أن تطرحوا شارة هذا النمط من الفروسية، وإما أن تتقدموا بجسارة، فرسانًا للمسيح، وتندفعوا بأقصى سرعة ممكنة للدفاع عن الكنيسة الشرقية. لأن منها نبعث كل أفراح خلاصكم ، وصبت في أفواهكم ألبان الحكمة المقدسة، وهي التي وضعت

---

(١) اليبوسيون هم أول شعب استوطن القدس وهم من العرب الكنعانيين والنص هنا يشير إلى استيلاء داود عليها بعد ألف وخمسمائة سنة من بنائها .

أمامكم تعاليم الأناجيل المقدسة. إننا نقول هذا أيها الأخوة، لعلكم تكفون أياديكم القاتلة عن تدمير أخوانكم، وتعادون الأمميين من أجل إخوانكم فى الدين. وتحت قيادة يسوع المسيح قائدنا تناضلون من أجل مدينتكم أورشليم، فى خط قتال مسيحى، خط منيع ، بل وبنجاح أكثر مما فعل أبناء يعقوب فى الزمن القديم ــ ناضلوا فربما هزمتم الأتراك وطردتموهم ، بطريقة أفظع من طرد اليبوسيين من هذه البلاد، وربما اكتشفتم أنه أمر جميل أن نموت من أجل المسيح فى الأرض التى مات فيها هو من أجلنا. وسواء جاءتكم المنية فى المدينة أو فى الطريق إليها، فالأمر واحد إذ وجدكم المسيح بين جنود جيشه، فالرب يعطى الثواب نفسه ، سواء فى الساعة الأولى أو فى الساعة الحادية عشرة. أيها الأخوة يجب أن ترجفوا فزعًا حين ترفعون يدا بالعنف ضد المسيحيين؛ فإن تجريد سيوفكم ضد المسلمين أقل شرًا. إنها الحرب الوحيدة الصائبة؛ لأنه من الخير والإحسان أن تخاطروا بحياتكم من أجل إخوانكم. وكونكم لا تهتمون بما قد يأتى به الغد من متاعب، فاعلموا أن أولئك الذين يخشون الرب لا يريدون شيئًا، وكذلك أولئك الذين يتقونه بالحق. كما أن أملاك العدو ستكون لكم، طالما أنكم ستغنمون كنوزهم وترجعون ظافرين إلى ذويكم، وإذا ما خضبتكم دماؤكم ، فقد كسبتم المجد الأبدى. يجب أن تحاربوا فى سبيل مثل هذا القائد، فهو قائد لا تعوزه القوة أو الثروة ليكافئكم. قصير هو الطريق، وقليل هو العمل، ومع ذلك فسوف تثابون عليه بالتاج الذى لا يذبل. ومن ثم فإننا نتكلم بسلطان النبوءة التى تقول للرب أن يتقلد سيفه، فتقلدوا سيوفكم ، أولها لكم جميعًا، وكونوا أبناء شجعان ؛ لأنه من الأفضل لكم أن تموتوا فى المعركة من أن تتحملوا وزر الأسف لجنسكم ولأماكنكم المقدسة. لا تدعوا الممتلكات ، ولا سحر زوجاتكم الأخاذ يقعد بكم عن الذهاب؛ ولا تدعوا المحاولات التى سوف تجرى تعوقكم بحيث تبقون هنا».

والتفت إلى الأساقفة، وقال « أنتم أيها الأخوة الأساقفة، أيها الأخوة القساوسة وشركاءنا فى المسيح، أعلنوا هذا فى كل الكنائس الخاضعة لكم، وبشروا بالرحلة إلى أورشليم بكل ما فى نفوسكم من حماسة. وحينما يعترفون بعار خطاياهم، فلتمنحوهم أنتم غفرانًا سريعًا يا من أمنكم المسيح. وفضلاً عن ذلك فيجب عليكم يا من ستذهبون أن تجعلونا نصلى من أجلكم؛ لأنكم ستقاتلون من أجل شعب الرب. إنه واجبنا أن نصلى، وواجبكم أن تحاربوا ضد المسلمين، ومع موسى ، سوف نمد يدًا لا تكل فى صلاة وابتهال إلى السماء، على حين تتقدمون وتمتشقون السيوف مثل المحاربين المغاوير ضد أعداء بنى إسرائيل ».

وعندما سمع الحاضرون هذه الكلمات وغيرها مما قاله السيد الرسولى ، أغرورقت عيون البعض بالدموع، وارتعش البعض الآخر، ومع ذلك فإن البعض ناقشوا الأمر. على أية حال، فإنه بحضور الجميع فى نفس المجمع ، وأمام عيوننا ، قام أسقف لى بوى، وهو رجل ذو سمعة

رنانة، ومقدرة فائقة ، وتوجه صوب البابا ووجهه يتهلل فرحًا ثم ركع على ركبته طالبًا البركة والإذن بالرحيل . وفضلاً عن ذلك ، كسب من البابا ، رئاسة كل من سوف يطيعونه، وقيادة الجيش بأسره لحساب البابا، لأن الجميع عرفوا عنه أنه كان أسقفًا ذا تقوى وإجتهاد غير عادي...»

٢ ـ خطابات إربان للدعوة إلى الحملة الصليبية.

قضى البابا إربان الثانى ثمانية شهور عقب مجمع كليرمون فى محاولة نشر دعوته لشن حملة صليبية فى أرجاء الغرب الأوربى ولاسيما غرب وجنوب فرنسا . وقد تنوعت وسائل البابوية ما بين المجامع الدينية، والخطابات الصادرة عن البلاط البابوى، وحث رجال الكنيسة على الدعوة للحملة. وفى خطاباته جدد البابا دعوته إلى الحملة الصليبية وحدد بعض تصوراته لهذه الحملة وكيفية المساهمة فيها. ونحن نقدم هنا أربعة خطابات لإربان الثانى بهذا الخصوص.

* * *

٤) خطاب من إربان إلى كونتات بيسالوا ، وامبورياس، ووسيللون، وسردانيا ، وفرسانهم (ما بين يناير ١٠٩٦ إلى ٢٩ يوليو ١٠٩٩ تقريبًا) (*)

« إننا نتوسل إلى سيادتكم بحرص شديد لصالح المدينة أو لصالح كنيسة تراجونا، ونأمركم أن تبذلوا جهدًا حماسيًا لاستعادتها بكل وسيلة ممكنة لمحو خطاياكم. لأنكم تعلمون كم ستكون دفاعًا عظيمًا لشعب الرب وكيف ستكون ضربة مرعبة للمسلمين، إذا ما شاءت رحمة الرب، إذا ما تمت استعادة موقع هذه المدينة الشهيرة. وإذا كان الفرسان فى ولاية أخرى قد قرروا جميعًا أن يذهبوا لمساعدة الكنيسة الآسيوية وأن يحرروا إخوانهم من طغيان المسلمين، فكذلك يجب عليكم جميعًا وبتشجيعنا أن تبذلوا قصارى جهدكم لمساعدة كنيسة قريبة منكم هكذا لمقاومة غزوات المسلمين. ولا ينبغى لأحد أن يشك فى أنه لو مات فى هذه الحملة حبًا فى الرب وفى إخوانه، فإن خطاياه سوف تغتفر، وسوف ينال بالتأكيد نصيبه فى الحياة الخالدة بفضل رحمة الرب الواسعة. ولذا ، فإذا كان أحدكم قد قرر أن يذهب إلى آسيا، فإنه يجب أن يفى بقسمه هنا وليس هناك، لأنه ليس من الخير فى شىء أن تنقذ

(*) Riley-Smith, The Crusades, p. 40.

وهذه الرسالة موجهة إلى الفرسان الذين يقاتلون ضد المسلمين فى الأندلس.

المسيحيين من المسلمين، فقط لكى تعرضهم فى مكان آخر لطغيان المسلمين واضطهادهم. فليوقظ الرب العظيم في قلوبكم حب إخوتكم ويكافئكم على بسالتكم بالنصر على الأعداء.

خطاب البابا إربان الثانى إلى كل المؤمنين فى الفلاندرز ديسمبر ١٠٩٥ (*)

« إننا نعتقد ، أيها الأخوة، أنكم علمتم منذ زمن طويل من مصادر عديدة بالأخبار المحزنة عن أن البرابرة، فى هياجهم، قد غزوا ونهبوا كنائس الرب فى الأقاليم الشرقية. والأسوأ من ذلك أنهم استولوا على مدينة الرب المقدسة التى ازدانت بعذابه وقيامته، وأنهم ـ وهذا قول فيه تجديف ـ باعوا كنائسها فى عبودية مقيتة. وإذْ فكرنا بإخلاص فى هذا المصيبة، وحزنا بسببها، فإننا زرنا بلاد الغال وحرضنا السادة والرعايا بحماسة فى هذا الأقليم على تحرير الكنائس الشرقية. وفى مجتمع عقد فى أوفرنى، كما هو معلوم، فرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع العسكرى لمحو كافة خطاياهم. وعينا نائبًا عنا قائدًا لهذه الحملة وهذا العمل، وهو إبننا العزيز أدميار، أسقف لى بوى. ويترتب على هذا أن كل من يقرر أن يذهب فى هذه الرحلة يجب أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا، ويجب أن يخضع لسلطانه تمامًا فى الحل والعقد فى أية قرارات صادرة منه ومتصلة بعمله. وإذا نادى الرب أو رجال من بينكم لأخذ هذا العهد [بالذهاب فى الحملة]، فإنهم يجب أن يعلموا أنهم سوف ينطلقون، بعون الرب فى عيد صعود مريم العذراء (١٥ أغسطس) وأن ينضموا إلى رفاقهم فى هذا اليوم».

خطاب إربان الثانى إلى أتباعه فى بولونيا ١٥ سبتمبر ١٠٩٦م (*)

«نقدم شكرنا إلى نيافتكم ، لأنكم على الرغم من وجودكم بين الإنشقاقيين والهراطقة، وقف بعضكم دائمًا بصلابة فى الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية، على حين أن الآخرين ممن تجلت لهم الحقيقة برحمة الرب تركوا سبيل الخطأ، وهم الآن حكماء فى مذاهب العقيدة الكاثوليكية.

(*) Riley - Smith, op. cit., p. 38.

(*) Ibid. pp. 38 - 39.

ومن ثم فإننا نشجعكم يا أحبّاء الرب على أن تواصلوا بشجاعة السير على درب الحقيقة، وأن تحاولوا إنهاء ما بدأتموه على هذا الشكل الطيب، فى نهاية أفضل. لأنه ليس ذلك الذى يبدأ، وإنما ذلك الذى يواصل حتى النهاية هو الذى سينال الخلاص. وقد عينا خاصة لمحبتكم أخانا المبجل الأسقف برنارد، الذى تناسب رعايته المقدسة، نيابة عنا، جماعتكم كرعية. وإذا كنتم تحبون الرب، فإنكم يجب أن تظهروا هذا الحب لنائبه، لأن المسيح نفسه قال عن مثل هذا الشخص: أن من يسمعكم يسمعنى. وقد سمعنا أن كثيرين منكم قد هاجهم الشوق للذهاب إلى أورشليم، وهو ما يجب أن تفهموا أنه قد سرنا كثيراً. ويجب أن تعلموا أيضاً أنه إذا ذهب أى رجال منكم إلى هناك ، لا لرغبتهم فى المكاسب الدنيوية، وإنما فقط لخلاص أرواحهم لتحرير الكنيسة، فإننا بمقتضى سلطتنا، وسلطة كل كبار الأساقفة، وكل أساقفة بلاد الغال، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية، نعفيهم من التكفير المفروض عليهم لقاء خطاياهم التى اعترفوا بها اعترافاً كاملاً، لأنهم خاطروا بأملاكهم وحياتهم فى حب الرب وحب جيرانهم. ولكننا لا نسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب ما لم يحصلوا على إذن من أساقفتهم ومقدمى أديرتهم. كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا أبرشياتهم بالذهاب بدون النصيحة وبدون علم القساوسة المسبق. كما يجب أن تراعوا أن الشباب المتزوجين لا يجب أن يندفعوا فى رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم. وليساعدكم الرب العظيم. فى خشيته وفى حبه، وليقودكم هو وقد تحررتم من الآثام والأخطاء، وليرشدكم إلى أن تفهموا كيف تحبونه فوق كافة الأشياء، وتبدون له الإخلاص الحقيقى».

من إربان الثانى إلى جماعة دير فالومبروسا
٧ أكتوبر ١٠٩٦م (*)

«لقد سمعنا أن بعضكم يريدون الإنطلاق مع الفرسان الذاهبين إلى القدس بقصد طيب لتحرير المسيحية. وهذا نوع من التضحية الحقة، ولكن خطته جاءت من أشخاص غير مناسبين. لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب إلى هذه الحملة، لأنهم قد يكونون قادرين على كبح وحشية المسلمين بسلاحهم ويعيدون للمسيحيين حريتهم السابقة: ونحن لا نريد أولئك الذين هجروا العالم ونذروا أنفسهم للحرب الروحية أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى

(*) Riley - Smith op, cit., pp. 39 - 40.

هذه الرحلة، بل إننا نمنعهم من عمل ذلك. كما أننا نمنع المتدينين ـ من القساوسة الرهبان ـ من أن ينطلقوا فى هذه الصحبة دون إذن من أساقفتهم أو مقدمى أديرتهم وفقًا لحكم القوانين الكنسية المقدسة. فإن سلامة التقدير فى مهنتكم الدينية يجب أن تمنعكم من المخاطر بإهانة الكرسى الأسقفى أو تعريض أرواحكم للخطر. وقد سمعنا أن زميلكم، مقدم ديرسان ريبارتى، يفكر فى ترك جماعتكم وترك نظامكم الديرى بأسره. وهكذا، فإننا فى هذا الخطاب نُرسل له أمراً، وبه نعنى أننا نمنعه من أن يجرؤ على حكم نفس الدير بعد ذلك دون إذن من رئيسكم العام، الذى تسمونه المقدم الأسمى. وإذا لم يمتثل بالطاعة، هو وكل من يجرؤ على ترك جماعتكم، يجب قطعه بسيف الحرمان الرسولى.

تحرر فى كريمونا فى السابع من أكتوبر. ونحن نريد منكم قراءة هذا الخطاب على الرهبان المجتمعين والأخوة العلمانيين، ولتعلم الأديرة الأخرى بمحتواه».

شاعر مجهول يعبر عن حب الصليبى للرب (*)

١

أنتم يا من تحبون الحب الحقيقى
أفيقوا وكفاكم نوماً
فقد أعلن الطائر عن النهار
ويقول لنا فى أغنياته
أن يوم السلام قد جاء
وسيمنحه الرب برحمته الواسعة
لأولئك الذين فى حبه
سوف يأخذون الصليب ومن أجل خطاياهم
سوف يعانون الألم أثناء الليل وأطراف النهار
والآن سننظر صوب أولئك الذين هم حقًا أحباؤه

(*) قصيدة عنوانها : «أنتم يا من تحبون الحب الحقيقى» "Vous qui ameis de vraie amour
J. Bédier and P. Aubry, Les Chansons des Croisades (Paris, 1909), pp. 20 - 22.

٢

إن من يهجر سيده وقت الحاجة

يستحق الدينونة

وسوف يكون هكذا، وتذكروا جيداً

وسوف يتحمل الألم ويعانى إهانات كثيرة

فى يوم حسابنا الأخير

حينما ينظر الرب مخضبا بالدم

حيث أن ذلك الذى سيكون له الفعل الأحسن

فى هذه الحياة، سوف يرتعد هلعًا

سواء عن رضى أو كراهة

٣

ذلك الذى وضع على الصليب من أجلنا

لم يحبنا حبًا مزيفًا

ولكن فى حب كامل

ومن أجلنا ، فى رحمة هائلة

وفى رقة ، حمل الصليب المقدس

بين ذراعيه وأمام صدره، رغم الكرب

ثم سُمِّرَ من نواحٍ ثلاث...

من اليدين والقدمين التى ثقبت بالألم تمامًا

٤

لقد سمعت مثلاً سائرًا يقول:

« التاجر العاقل ينفق المال من حافظته»

و« صاحب القلب الطائش هو

الذى يرى الحسن فيختار القبيح»

هل تعرفون بم وعد الرب
أولئك الذين سيأخذون صليبه؟
إنه لثواب حسن بالتأكيد
الفردوس، وكان وعداً صادقًا
ذلك الذي يمكنه أن يربح مكافأته
أحمق إذا انتظر حتى الغد

٥

فليس الغد لنـا
ويمكن أن نتأكد من ذلك
فكم رجل يتصور أن قلبه سليم تماماً
وبعد أربعة أيام لا يستطيع أن يأخذ
شيئًا من أملاكه أو معرفته
لأنه يرى الموت يمسك بلجامه
حتى أنه لا يستطيع أن يحرك يداً ولا قدماً
ويترك فراشه الوثير
ويفضل مرقداً من القش
ولكنه يثوب إلى الإقرار بذنبه بعد فوات الأوان.

القسم الثالث

الحملة الشعبية

الحملة الشعبية (مارس / أكتوبر ١٠٩٦)

كان الفلاحون الذين استجابوا لدعوة إربان الثانى للقيام بالحملة الصليبية قد تشبعوا منذ وقت طويل بأفكار الوعاظ الجوالين الذين نشروا الدعوة إلى التقشف والبساطة، وتوقع قيام القيامة. ولذلك كان الأمر الذى أصدره إربان فى كليرمون أشبه بأمر إلهى بالنسبة لفلاحى أوربا فى ذلك الزمان، ورأوا فيه أول المعجزات فى سلسلة الأحداث التى تمهد للمجئ الثانى للمسيح. لقد فهم العامة دعوة البابا باعتبارها فرصة لمستقبل جديد فى الشرق المقدس، أو لخلاص الروح إذا مات المرء وهو فى طريقه إلى هذا الشرق، وكانت تلك فرصة تجسد فيها التعصب الدينى لأبناء الطبقة الدنيا، كما تبلورت فيها أيضًا الثورة ضد الأوضاع الاجتماعية المحبطة.

كان العامة يعتبرون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء، وكان هذا هو المظهر الدينى المميز لموقفهم من الحركة الصليبية. ولكن هذا لم يكن ليمنعهم من إنتهاك الفكرة التى تحركوا فى إطارها وارتكاب أحط ضروب الجرائم والكشف عن أبشع الشرور المادية والدنيوية. وكانت الحركة الصليبية متنفسًا لجماهير الفلاحين، وعامة سكان المدن الذين كانت وسيلتهم الوحيدة المتاحة للتفريج عن خوفهم الدائم، وقلقهم المستمر، وإفتقارهم للأمن، أن يطلقوا العنان لعواطفهم الجياشة الهادرة العنيفة. وغالبًا ما يرى أولئك الناس فى التصرفات العنيفة المفاجئة مناسبة ووسيلة فعالة للتنفيس عن القلق الجاثم على صدورهم من جراء مصاعب حياتهم اليومية الرهيبة. ولا يكون ذلك ممكنًا عادة سوى فى ظل حركة جماعية؛ وإذا جاءت هذه الحركة تحت ستار الدين، فإنها تكون فرصة مثالية..

وهكذا كان الأمر فى الحركة الشعبية التى أعقبت كليرمون. فإن مشهد الحملة الشعبية بتطوراتها المختلفة يوحى بأن روحًا من الجنون كانت تحلق فى سماء الغرب الأوربى آنذاك. وقد تصدى لقيادة هذه الحركة الشعبية زعماء وقادة من طراز بطرس الناسك ووالتر المفلس وجوتشوك وأميخو الذين عكسوا روح التعصب المقيت الذى ميز الحركة الصليبية كلها.

ولما كانت جماهير الناس فى ريف ومدن أوربا الغربية قد فهمت الدعوة إلى الحملة الصليبية على أنها تعبير عن آمالها وطموحها؛ فقد كان طبيعيًا أن تجيء الحملة الشعبية ضد أهداف

الكنيسة. ومن ثم يحاول البابا أن يمنع هذه الأعداد الغفيرة من التحرك صوب الشرق، ولكنه فشل لأن محاولته كانت أضعف كثيراً من الحافز الذى دفع المطحونين من أبناء الغرب على الرحيل.

وفى الأيام الأخيرة من شتاء ١٠٩٦م ، بدأت الجموع فى الريف والقلاع والمدن تتحرك إستعداداً للرحيل. وبينما كان هذه الجماعات الجائعة الهائجة تتحرك صوب حوض الراين والبلقان كانت أعدادها تتزايد بحيث صارت فرقًا وجيوشًا . ومجموعة النصوص التى تقدمها فى الصفحات التالية تتبع مسيرة الفرق المختلفة لحملة العامة.

بطرس الناسك

منذ القرن الثانى عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان بطرس زعيم الحملة الشعبية يعتبر بمثابة التجسيد الحى للروحانية الشعبية؛ بل إنه كان يعتبر بمثابة نبى هذه الحركة ومبشرها الأول. وقد كشفت الدراسة التى قام بها هنريخ فون سايبل سنة ١٨٤١م زيف هذه الأسطورة التى أحاطت ببطرس الناسك. ومع ذلك فإن بطرس هو الذى بدأ الحملة الصليبية فى المناطق التى شهدت نشاطه وهى مناطق شمال فرنسا وإقليم الراين فى المانيا وكان ألبرت الآيكسى الذى عاش فى هذه الأرجاء هو صاحب أقدم نص مكتوب عن هذه الأسطورة . وتقبلها وليم الصورى وزاد عليها. والنصوص التى تقدمها عن هذه الشخصية تكشف مراحل تطور هذه الأسطورة.

١ـ رواية جيوبرت النوجنتى (*)

«... ومن ثم، ففى أثناء استعداد الأمراء، الذين أحسوا أنهم بحاجة إلى نفقات كثيرة وخدمات كبيرة لمرافقيهم ، فإن عامة الناس أصحاب الأملاك الضئيلة ولكن أعدادهم كبيرة انضموا إلى شخص يدعى بطرس الناسك، وأطاعوه كسيد حين كانت هذه الأمور تجرى بيننا...

«كان من مدينة أميان، إذا لم تخنى الذاكرة، وعلمنا أنه كان ناسكًا، يرتدى مسوح الرهبان فى إحدى مناطق بلاد الغال. وبعد أن رحل هناك ـ ولست أدرى بأى قصد ـ رأيناه يجوب أنحاء المدن

(*) Peters (ed.), The First Crusade, pp. 91 - 92.

والريف بدعوى التبشير، والتفت حوله جموع كبيرة من الناس، وتلقَّى هدايا وهبات ضخمة وقد تضخمت قدسيته بدرجة عالية لم يصل إليها أحد ولم ينل هذا التشريف أحد فيما أنكر.

« وكان سخيًا جوادًا فى توزيع ما يتلقاه على الفقراء، وأعاد الخاطئات إلى أزواجهن محملاتٍ بالهبات والعطايا. وبسلطته المدهشة أعاد السلام للجميع، وأحل الوئام محل الخصام. لأنه فى كل ما يقوله أو يفعله كان يبدو وكأن هناك شيئًا مقدسًا، لاسيما حين كانت الشعيرات تنتزع من حماره على سبيل التبرك، ونحن لا نروى هذا باعتباره حقيقة، ولكننا نرويه لعامة الناس الذين تستهويهم الطرائف. كان يرتدى قميصًا من الصوف، وفوقه عباءة بلا أكمام تصل حتى عقبيه؛ وذراعا عاريان وقدماه حافيتان. وكان يعيش على النبيذ والسمك، ونادرًا، أو ربما لم يأكل الخبز على الإطلاق».

٢ـ بطـرس الناسـك

رواية فوشيه الشارترى (*)

« وثمة شخص يدعى بطرس الناسك، جمع حوله جمهرة من الناس المشاة وعددًا قليلاً من الفرسان، كان هو أول من رحل عبر بلاد المجر».

٣ـ رواية آلبرت الآيكس (*)

كان ألبرت راهبًا فى ايكسى لاشابل (آخن) فى المانيا فى منتصف القرن الثانى عشر. ولم يقم البرت بزيارة الشرق أبدًا، ولكنه جمع مدونته التاريخية التى تحكى قصة الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس اللاتينية حتى سنة ١١٢٠م من شهود العيان ومن المصادر الأدبية الأخرى. ومدونته فى مجموعة الحروب الصليبية.

ولهذا الكتاب قيمة خاصة فيما يتعلق بالحملات الشعبية التى سبقت حملة الأمراء إلى الأراضى المقدسة.

* * *

(*) Fulcher de Chartres, pp. 72 - 73.

(*) Albert d'Aix, The English Translation from Peters, pp. 94- 99.

«كان هناك قس، اسمه بطرس، وكان ناسكًا قبل ذلك. ولد بمدينة أميان، التى تقع فى الجزء الغربى من مملكة الفرنجة ، وقد عين واعظًا فى بيرى فى المملكة المذكورة. وفى كل خطبة وموعظة، وبكل ما كان يتمتع به من قدرة على الإقناع، كان يحض على الرحيل بأسرع ما يمكن. وعلى سبيل الإستجابة لدعوته وخطبه سافر الأساقفة، ومقدمو الأديرة، والقساوسة والرهبان؛ ثم تبعهم كبار النبلاء والأمراء من مختلف الممالك، ثم عامة الناس، الأطهار منهم والأخيار، الزناة والقتلة واللصوص، والنصابون وقطاع الطرق. والواقع أن كل الذين خرجوا كانوا ينتمون لكافة الطبقات المسيحية، فضلاً عن النساء وأولئك الذين مستهم روح التوبة ـ وقد انضموا جميعًا إلى هذه الحملة بسرور غامر...».

٤ـ بطرس الناســك

رواية وليم الصورى (*)

كان وليم سليل أسرة من المستعمرين ولد فى الأرض المقدسة لوالدين فرنسيين، وتلقى تعليمه فى بلاد الشام وفى الغرب الأوربى. وقد أمضى ما يقرب من عشرين سنة طالبًا فى فرنسا وإيطاليا (١١٤٥ـ ١١٦٥)، وعند عودته أصبح قسيسًا بمدينة صور، ثم ترق حتى صار كبير قضاة مملكة بيت المقدس اللاتينية وكبيرا أساقفة صور. وقد استحوذ على إعجاب أماريك، ملك بيت المقدس، وعلى ثقته فعهد إليه بتربية إبنه وأرسله فى عدة بعثات دبلوماسية إلى روما وبيزنطة ولكن وفاة أماريك جعلت وليم يفقد حظوته فى البلاط، ويفقد أمله فى أن يصير بطريرك مدينة بيت المقدس. ويعتبر أكبر مؤرخى الحروب الصليبية على الرغم من أنه عاش فى القرن الثانى عشر، ومن حسن حظه أنه لم يعش ليشهد استرداد صلاح الدين لمدينة القدس؛ وقد مات سنة ١١٨٥م تقريبًا. والنص الذى نورده هنا يوضح كيف تضخمت أسطورة بطرس الناسك بعد حوالى مائة سنة من أحداث الحملة الصليبية الأولى.

* * *

« فى الوقت الذى كانت المدينة التى يحبها الرب تتعرض للمتاعب التى وصفناها ، كان هناك بين الكثيرين الذين سافروا إلى الأماكن المقدسة من أجل التقوى والصلاة، قس يدعى بطرس من أسقفية أميان فى مملكة الفرنجة. وكان معروفًا باسم «الناسك» إسمًا وحقيقة ، وقادته إلى أورشليم الحمية الدينية التى تتأجج بها روحه. وفيما يتعلق بالمظهر الخارجى للرجل، كان

(*) Willam of Type, I, 81- 85.

ضئيل البنية زرى الهيئة؛ ولكن «في هذا الجسد الصغير، تسود حماسته الهائلة» وكان ذا حيوية دافقة كما كانت له عينان ثاقبتان، وتميز بفصاحة بالغة.

« وبعد أن دفع الضريبة التى جرت العادة على فرضها على المسيحيين الذين يريدون دخول المدينة [القدس] استضافه أحد المؤمنين من أتباع المسيح. كان بطرس رجلاً مثابراً، وكان يطرح أسئلة عديدة على مضيفه حول أوضاع المسيحيين. وعرف منه تفاصيل كاملة، لا عن الأخطار الماثلة فى الوقت الحالى فحسب، ولكن أيضًا عن الاضطهادات التى تعرض لها أسلافهم عبر سنوات كثيرة مضت. أما المعلومات التى لم يمكنه الحصول عليها بالكلمات، فقد حصل عليها من خلال الملاحظة الأمينة لما شاهده بعينى رأسه. وبينما كان يتجول بين الكنائس فى المدينة، أوضحت له تحرياته حقيقة ما سمعه من الآخرين. وعندما سمع أن بطريرك المدينة رجل تقى يخشى الرب، أراد أن يجتمع وإياه ليحادثه فى الأحوال التى كانت سائدة فى أورشليم، وكان يأمل فى الحصول على مزيد من المعلومات الكاملة فى أمور أخرى بعينها. وبناء على ذلك ، ذهب للقائه وسمح له بالمثول فى حضرته. وبفضل جهود مترجم مؤمن، استمتع الرجلان بحوار جيد. فقد عرف سمعان البطريرك من كلمات بطرس أنه رجل حصيف كثير التجارب له قدرة على الإقناع قولاً وفعلاً. وبدأ يشرح له بود المتاعب والشرور الكثيرة التى يتعرض لها بقسوة شعب الرب الساكن فى أورشليم. وقد تحركت مشاعر التعاطف الأخوية فى نفس بطرس بقوة بهذه الحكايات لدرجة أنه لم يتمكن من حبس دموعه. وبدأ يسأل بشغف أكثر ما إذا كان ممكنًا أم لا إيجاد وسيلة للخروج بهم من خضم المتاعب التى تحيط بهم.

« وأجاب الرجل الطيب «يا بطرس، إن الرب الرؤوف يرفض أن يستمع إلى نحيبنا الباكى وتنهداتنا، بسبب الخطايا التى تكبلنا. لأننا لم نتطهر بعد من شقائنا ، ومن ثم، فإن المصائب لم تتوقف فى الحاضر. ولكن بفضل رحمة الرب الأبدية، فإن قوة شعبكم الذين يعبدون الرب حقًا ما تزال قائمة ومملكتكم التى تشكل رعبًا للأعداء تزدهر وتزداد اتساعاً. فإذا ما تعاطفوا معنا بفضل الحب الأخوى فى موقفنا الراهن قدموا علاجًا للمصائب التى تضغط علينا، أو إذا تشفعوا لنا على الأقل عند المسيح فربما يكون لدينا أمل فى أن تنتهى متاعبنا. ولا أمل لدينا فى تلقى أية مساعدة من إمبراطورية اليونان (البيزنطيين)، على الرغم من أنهم كانوا أقرب إلينا بحكم رابطة الدم والجوار، فضلاً عن أن ثروتهم أكبر من ثرواتكم. فإنهم لا يكادون يقدرون على الدفاع عن أنفسهم، وقد اضمحلت قوتهم على نحو ما سمعتم أيها الأخوة، لدرجة أنهم فقدوا أكثر من نصف إمبراطوريتهم فى غضون سنوات قليلة.

« أجاب بطرس «فلتعلم أيها الأب المقدس، أنه إذا كانت كنيسة روما وأمراء الغرب يجدون رجل ثقة يخبرهم عن الكوارث التى تحيق بكم، فلا شك فى أنهم سيعملون على تقديم العلاج السريع قولا وفعلاً لتخليصكم من متاعبكم. فلتكتب بفصاحة إلى السيد البابا وكنيسة روما وكذلك إلى ملوك وأمراء الغرب، وضع خاتمك على الخطاب لتأكيده، والواقع أننى ، رغبة فى تطهير روحى، لن أتردد فى القيام بهذا العمل بنفسى، وبعون الله وبسلطانه، فإننى على إستعداد لزيارة الجميع، وأن أتوسل للجميع، وأن أحمل شهادتى على فداحة معاناتكم بكل حذر وكياسة، وأن أدعو الجميع فرداً فرداً دون تردد أو تأخير لمساعدتكم.

« هذه الكلمات جلبت السرور على قلب البطريرك وبدت له كلمات طيبة، مثلما بدت أمام المسيحيين الذين كانوا حوله. ومن ثم، شكروا للرجل تعاطفه، وأعطوه الكتاب الذى طلبه.

حقًا إنك عظيم أيها الرب سيدنا، ورحمتك بلا حدود. حقًا أيها المسيح الطيب، إن أولئك الذين يثقون فيك لن ينالهم الخذلان. لأنه متى تتأتى مثل هذه الثقة إلى حاج فقير ولا حول له، ويحتاج إلى الصفات التى تصنع التأثير، وبعيداً عن وطنه بحيث يجرؤ على أن يأخذ على عاتقه القيام بمهمة تفوق حدود قدراته، بثقة جعلته يرغب فى أن يقوم بها بنجاح! والتفسير الوحيد - هو أنه وجه أفكاره تجاهك، أنت حاميه؛ لدرجة أنه توهج بالحب، فتعاطف مع أخوته، وأحب جاره كما يحب نفسه، وبذلك تصرف لكى يحقق الناموس. ولم تكن قوته الذاتية وحدها كافية، ومع ذلك فإنه روح الإحسان هى التى أقنعته . وعلى الرغم من أن المهمة التى وضعها أخوته على عاتقه بدت صعبة وتكاد تكون مستحيلة، فإن حبه للرب ولجاره سهَّل هذه المهمة، لأن «الحب قوى كالموت». إنه الدين الذى يعمل من خلال الحب الذى يتبدى من خلالكم، والخدمات التى أسديت لم تكن عبثًا. إنك لا تسمح لخادمك أن يتردد طويلاً . ولكنك تكشف ذاتك له بحيث شجعته برؤيا تجليت أنت فيها الرب، حتى لا يخور ويتراجع بل وينهض بقوة لينجز عمل الحب.

« وقد حدث ذات يوم أن هذا الخادم من خدام الرب الذى أتحدث عنه تشوش ذهنه بدرجة غير عادية بسبب التفكير فى العودة إلى وطنه وتحمل مسئولية البعثة. ومن ثم فإنه دخل كنيسة القيامة وتحول بتقوى عميقة صوب ينبوع الرحمة. وأمضى الليل فى صلاة وتبتل وأخيراً غلبته العاطفة فاستسلم للنوم العميق الذى غلبه. وحط عليه الكرى، كما هى عادته ، رأى فيما يرى النائم سيدنا يسوع المسيح واقفًا أمامه، وهو يقول : «إنهض يا بطرس، أسرع ونفذ المهام التى أوكلت إليك دون خوف، لأننى سأكون معك. لقد آن أوان تطهير الأماكن المقدسة ومساعدة خدامى».

ونهض بطرس من نومه مستريحا فى الرب بسبب الرؤيا التى رآها، وصار أكثر استعداداً للطاعة. وفى استجابة للتجلى الإلهى، لم يتأخر ولكن استعد بنشاط للعودة فى الحال. وبعد أن قدم الصلوات المعتادة، استأذن فى الرحيل من السيد البطريرك، الذى منحه بركاته، ثم توجه صوب البحر . وهناك وجد سفينة تجارية كانت على وشك الإبحار إلى ابوليا. فركبها وبعد رحلة مريحة وصل إلى بارى. وبينما كان على استعداد للرحيل من هناك إلى روما، عرف أن البابا إربان فى تلك البقاع. ومن ثم فإنه قدم إليه الخطاب الذى أرسله البطريرك والمسيحيون فى أورشليم. ووصف معاناتهم والفظائع التى يرتكبها الشعب غير النظيف فى الأماكن المقدسة وأتم بكياسة وفصاحة المهمة التى أوكلت إليه».

والتر المفلس

كانت مدينة كولون الألمانية واحدة من أهم ميادين نشاط بطرس الناسك الذى آثر أن يبقى بهذه المدينة فترة من الوقت على أمل أن يستميل بعض أمرائها، ولكن قلة الموارد الغذائية المتاحة للأعداد الغفيرة التى سارت وراء بطرس جعلت الرحيل أمراً حتمياً. هكذا انطلقت أول مجموعة من العامة تحت قيادة والتر المفلس الذى كان فارساً نبيل المولد، ولكنه امتاز بالشراسة الفائقة.

١ـ رواية وليم الصورى (*)

«كان والتر المفلس ، وهو رجل نبيل المولد ، شجاع فى القتال، هو أول من انطلق فى رحلة الحج. فى ٨ مارس سنة ١٠٩٦ من تجسد الرب. وكان بصحبته عدد كبير من المشاة، ونفر قليل جداً من الفرسان. وبعد أن عبر مملكة التيوتون دخل المجر التى كانت بلاداً وعرة لأن المستنقعات فى كل مكان ، وتحيط بها أنهار كثيرة، وهكذا لا يجد المسافرون وسيلة للخروج من المملكة أو الدخول إليها سوى فى أماكن قليلة وضيقة للغاية.

«فى تلك الأثناء كانت المجر تحت حكم ملك مسيحى هو كولمان. وعندما عرف باقتراب والتر سمح له الملك بدخول المملكة بعد أن عرف بمهمة والتر ووافق تماماً على غرضه التقى، كما

(*) William of Tyre, I, pp. 97-99.

منحه الإذن بالمرور بحملته عبر البحر، ومنحه امتياز الشراء العام. ومر والتر بسلام عبر البلاد ووصل إلى نهر ماروس، وهذه هي الحدود المتعارف عليها بين المجر والشرق. وعبر هذا النهر ووصل بقواته أرض البلغار، في مكان يدعى بلجراد.

«وعلى أية حال، فإنه لم يدرك أن بعض رفاقه قد تخلفوا على ضفة النهر في مكان يدعى مالفيلا (سملين) لشراء الطعام وغيره من ضروريات الرحلة. وأمسك المجريون بهم وجردوهم مما معهم وضربوهم ثم أرسلوهم إلى رفاقهم بعد أن سلبوا كل ما معهم. وشعرت الجماعة كلها بتعاطف عميق تجاه رفاقهم في هذه الكارثة التعسة وحزنوا لما أصابهم. ومع ذلك أدركوا أنه سيكون من الصعب تماماً، بل من المستحيل، أن يوافقوا على اقتراح إعادة عبور النهر من أجل الانتقام..»

«ومن ثم واصلوا سيرهم حتى وصلوا بلجراد كما ذكرنا، وهنا طلب والتر امتياز الشراء من دوق البلغار الذي رفض. ولذا عسكر قبالة المدينة، ولأنه لم يستطع كبح جماح رجاله الجوعى خسر كثيرين منهم. وإذ لم يستطع أن يحصل من البلغاريين على شيء بأي ثمن خرج رجاله بحثاً عن الطعام بأية وسيلة حتى لا يموتوا جوعاً. وعندما وجدوا قطعان الماشية والأغنام المملوكة للبلغاريين ساقوها إلى معسكرهم بالقوة. وبمجرد أن عرف البلغاريون هذا، امتشقوا سلاحهم وتقدموا بروح عدائية. ولأنهم صمموا على استعادة المسروقات انهالوا على اللصوص الذين سرقوا ماشيتهم وأفنوهم عن بكرة أبيهم. وكانت مجموعة من حوالي مائة وخمسين قد انفصلوا عن الذين سبقوهم دون تدبر أو تفكير، ولجأوا إلى إحدى الكنائس. وأشعل العدو النار في هذه الكنيسة، ومات المسيحيون بداخلها حرقاً. واضطرت بقية العصبة إلى الهرب.

« وإذ أيقن والتر أنه يقود مجموعة من الجامحين، ترك أولئك الذين اتبعوا أهواءهم بحيث صاروا لا يخضعون لأية قيادة ، وقاد جيشه بحكمة وحذر عبر غابات بلغاريا الكثيفة...

«وعندما وصلوا إلى القسطنطينية، مثل والتر بحضرة الإمبراطور ونجح في الحصول على إذن من جلالته بأن يعسكر جيشه قرب المدينة مع امتياز البيع والشراء. وقد منحهم الإمبراطور هذا الإذن مؤقتاً، حتى يصل بطرس الذي تحرك والتر بأمر منه»

٢ـ رواية آلبرت الآيكس (*)

«في سنة ١٠٩٦ من تجسد السيد، في الفترة الرابعة، في السنة الثالثة عشرة من حكم هنري الرابع، الإمبراطور الثالث على الإمبراطورية الرومانية، في السنة الثالثة والأربعين من عمر الإمبراطورية في عهد البابا إربان الثاني، الذي عرف في العلمانية باسم أودورد.

«في اليوم الثامن من شهر مارس، انطلق وليم وكنيته المفلس، وهو جندي معروف، في رحلته نتيجة لتبشير بطرس الناسك، ومعه جموع كبيرة من الجنود الفرنج المشاة، وحوالي ثمانية فرسان فقط، وفي بداية رحلته إلى أورشليم دخل مملكة المجر. وحينما علم الملك كولمان ملك المجر المسيحي التقي بقصده وسبب قيامه بالرحلة ، استقبله بترحاب، ومر بسلام خلال المملكة وسمح له ولجيشه بحرية التجارة. وهكذا دون أن يشن هجوماً، ودون أن يتعرض لهجوم انطلق من بلجراد[1]، وهي مدينة بلغارية، ثم مر بمالفيلا [2] حيث تنتهي حدود مملكة المجر. ثم عبر نهر مورافا في سلام

« ولكن ستة عشر رجلاً من أتباع والتر تخلفوا في مالفيلا، لكي يشتروا بعض الأسلحة. ولم يكن والتر يدري شيئًا عن هذا، لأنه كان قد عبر النهر قبلهم بوقت طويل. وحينئذ قام بعض المجريين من أصحاب العقول المنحرفة بالهجوم على أولئك الأشخاص الستة عشر، منتهزين غياب والتر وجيشه، وسرقوهم واستولوها على أسلحتهم وعتادهم وما معهم من ذهب وفضة، ثم تركوهم يرحلون عرايا خاويي الوفاض. وأسرع أولئك الحجاج التعساء الذين جردوا من سلاحهم وممتلكاتهم حتى وصلوا إلى بلجراد، التي ذكرت من قبل، حيث كان يعسكر والتر بكامل جيشه. وأخبروه بما جرى عليهم من سوء، ولكن والتر استمع إلى شكواهم دون مبالاة لأن الرجوع للإنتقام كان سيستغرق وقتًا طويلاً.

« وفي نفس الليلة التي استقبل فيها أولئك الرفاق العرايا خاويي الوفاض، فكر والتر في أن

(*) Peters, pp. 95 - 96.

(١) كانت جزءً من بلغاريا في العصور الوسطى، وهي الآن عاصمة يوغسلافيا.

(٢) سملين Semlin الحالية.

يشترى الضروريات من رئيس البلغار وحاكم المدينة؛ ولكن أولئك الرجال ظنوا أن هذه خدعة واعتبروهم جواسيس ومنعوا بيع أى شيء [للصليبيين]. وحينئذ، فإن والتر وأتباعه الذى ملك عليهم الغضب مشاعرهم، بدأوا يستولون على قطعان الماشية والأغنام التى كانت تمر هنا وهناك خلال الحقول بحثًا عن المرعى. ونتيجة لهذا نشب نزاع خطير بين البلغار وبين الحجاج الذين كانوا يسوقون قطعان الماشية والأغنام، واحتكموا إلى السلاح. وعلى أية حال، فإنه بينما وصلت قوة البلغاريين إلى مائة وأربعين، إنفصل جزء من جيش الحجاج عن الجيش الرئيسى، ولاذوا بإحدى الكنائس هربًا من البلغاريين. ولكن البلغاريين الذين كان جيشهم يتزايد عددًا، على حين كانت عصبة والتر تضعف ويتبعثر رفاقه، حاصروا الكنيسة وأحرقوا ستين شخصًا [من الصليبيين] بداخلها، وألحق البلغاريون جروحًا خطيرة بمعظم الآخرين الذين هربوا بحياتهم فرارًا من الأعداء ومن الكنيسة.

« وبعد هذه المصيبة والخسارة التى لحقت بجماعته، وبعد أن قضى حوالى ثمانية أيام هاربًا فى غابات بلغاريا، انسحب والتر صوب نيش، وهى مدينة ثرية وسط مملكة بلغاريا، تاركًا رجاله مبعثرين فى الأرجاء. وفى نيش وجد دوق البلاد وأميرها وأخبره بما جرى عليه من أذى وخسارة، وحصل من الدوق على العدل للجميع، بل إن الدوق منحه أسلحة ونقودًا على سبيل التعوض، كما قام سيد هذه البلاد نفسه بتأمين رحلته عبر مدن بلغاريا، صوفيا، فليبوبوليس، وأدرنة، كما منحه تصريحًا بالشراء والتجارة.

« وواصل سيره بعصبته كاملة حتى مدينة القسطنطينية الإمبراطورية، وهى عاصمة الإمبراطورية اليونانية بأسرها. وعندما وصل إلى هناك، بكل شغف وبكل تواضع طلب من السيد الإمبراطور نفسه السماح بأن يبقوا بسلام فى مملكته، وأن يسمح لهم بشراء ضروريات الحياة، حتى يصل بطرس الناسك، الذى بدأ رحلته بسبب قوة إقناعه وفصاحة بيانه، ليكون له رفيقًا. وتوسل إلى الإمبراطور أيضًا، أنه عندما تتوحد القوات، تعبر على السفن البحر المسمى مجرى سان جورج(*) وبذلك يمكنهم أن يقاوموا جيوش الأتراك والأمميين. وكانت النتيجة أن وافق الإمبراطور اليكسيوس على الطلبات التى قدمها له.»

(*) مضيق البسفور. Peters, pp. 95_96

حملة بطرس الناسك (*)

« ولم يمض وقت طويل بعد هذه الحوادث، حتى كان بطرس بجيشه الكبير، الذى يفوق الحصرَ مثل رمال البحر ـ وهو جيش جمعه من مختلف أقاليم وممالك الفرنجة، والسوابيين، والبارفاريين واللوثرنجيين ـ يشق طريقه صوب أورشليم. وفى هذه المسيرة وصل إلى مملكة المجر، وعسكر بجيشه قبالة أبواب أودنبرج...

« وسمع بطرس عن هذا [ما جرى للرجال الستة عشر من أتباع والتر المفلس فى سملين] ولكنه رفض تماماً أن يصدق أن مثل هذه الجريمة الشنعاء يمكن أن تكون من فعل المجريين والبلغاريين لأنهم كانوا أخوة فى المسيحية، حتى وصل رجاله إلى ماليفيلا، ورأوا أسلحة ومتاع رفاق والتر الستة عشر معلقة على الأسوار، وهم الذين كانوا قد تخلفوا فترة قصيرة من قبل، والذين خطط المجريون لسرقتهم غيلة وغدراً . ولكن حينما تحقق بطرس من الضرر والأذى الذى حاق بأخوته، عند مشاهدة أسلحتهم ومتاعهم ، حرض رفاقه على الإنتقام لهم.

« ودق هؤلاء الطبول، واندفعوا وبيارقهم تخفق عاليًا صوب الأسوار وهاجموا العدو بوابل من السهام. وبسرعة فائقة، وبأعداد لا تحصى أطلقوا السهام فى وجوه أولئك الواقفين على الأسوار، لدرجة أن المجريين لم يقدروا على مقاومة قوة الفرنجة الذين حاصروهم فتركوا الأسوار على أمل أنهم قد يستطيعوا الصمود داخل المدينة أمام قوة الغاليين. وإذ رأى جودفرى والشهير باسم بوريل ـ وهو من مواطنى مدينة ايتاميس، وكن سيداً وحاملاً لراية مائتين من الجنود المشاة، وكان هو نفسه جنديًا من المشاة ورجلاً ذا قوة خارقة ـ هروب المجريين من الأسوار، تسلق هذه الأسوار بواسطة سلم تصادف أن وجده هناك. ثم صعد رينالد البرويى، الذى كان فارساً ممتازاً يرتدى خوذة ومعطفًا من الزرد، بعد جودفرى مباشرة وسرعان ما استبق الفرسان وجنود المشاة جميعًا لدخول المدينة. وعندما أيقن المجريون بهلاكهم، جمعوا سبعة آلاف رجل قوى للدفاع، ومروا من خلال بوابة أخرى للمدينة تتجه صوب الشرق، وتمركزوا فوق قمة جرف شاهق الإرتفاع، يتدفق من ورائها نهر الدانوب، وهناك تحصنوا تحصينًا منيعًا. وقسم كبير منهم لم يستطيعوا الهرب بسرعة عبر الممر الضيق

(*) Peters. 96 - 99.

وسقطوا أمام البوابة. والبعض الذين أملوا فى أن يجدوا ملجأ لهم فوق قمة الجبل استأصل الحجاج شأفتهم أثناء المطاردة؛ ومع ذلك فإن البعض سقطوا أمام البوابة. والبعض الذين أملوا فى أن يجدوا ملجأ لهم فوق قمة الجبل استأصل الحجاج شأفتهم أثناء المطاردة: ومع ذلك فإن البعض سقطوا من فوق الجبل، حيث دفنوا فى موجات نهر الدانوب، ولكن العديدين هربوا بالقوارب. وسقط هناك حوالى أربعة آلاف مجرى، ولكن قتلى الحجاج كانوا مائة فقط، بخلاف الجرحى.

« وبعد أن تم إحراز هذا النصر، بقى بطرس مع رفاقه فى نفس القلعة خمسة أيام، لأنه وجد هناك وفرة من الحبوب، وقطعان الماشية، والأغنام ، وكمية وافرة من النبيذ، وعدداً لا يحصى من الخيول...

« وعندما عرف بطرس بغضب الملك. وأنه يجمع قواته غادر ماليفيلا بكل أتباعه وخطط لعبور نهر مورافا بكل الغنائم وقطعان الماشية والخيول التى نهبها. ولكنه لم يجد على الشاطئ كله سوى عدد قليل من القوارب، حوالى مائة وخمسين قارباً فقط، يجب أن تعبر هذه الأعداد الغفيرة بواسطتها وتهرب، حتى لا يدهمهم الملك بقواته. ومن ثم حاول كثيرون ممن لم يتمكنوا من العبور بالقوارب أن يعبروا على العوامات التى صنعوها من جذوع الأشجار والأعمدة التى ربطوها سويا. ولكن الأمواج تقاذفتهم هنا وهناك لعدم وجود دفة فى كل من هذه العوامات، وكانوا ينفصلون عن رفاقهم أحياناً، فهلك كثيرون، حين أصابتهم سهام البشناق، الذين كانوا يسكنون بلغاريا. وعندما رأى بطرس ما حل برجاله من غرق ودمار، أمر الباڤاريين، والألمان وغيرهم من التيوتون، بمقتضى الوعد الذى قطعوه على أنفسهم بالطاعة، أن يهبوا لمساعدة إخوانهم من الفرنجة. وحملتهم إلى ذلك المكان سبع طوافات، ثم أغرقوا سبعة قوارب صغيرة للبشناق بمن فيها، ولكنهم لم يأخذوا سوى سبعة رجال. وقادوا أولئك الرجال السبعة إلى حضرة بطرس الذى أمر بقتلهم.

« وعندما انتقم لرجاله على هذا النحو، عبر بطرس نهر المورافا ودخل الغابات الكبيرة الكثيفة فى بلغاريا ومعه مؤن الطعام، وكل ما هو ضرورى ، فضلاً عن الغنائم التى نهبوها من بلجراد. وبعد تأخير ثمانية أيام فى هذه الغابات والمراعى الشاسعة اقترب هو ورجاله من نيش، وهى مدينة ذات أسوار محصنة جيدة. وبعد أن عبروا النهر قبالة المدينة على جسر حجرى احتلوا الحقل واستمتعوا بامتداده ونضارته، وأقاموا خيامهم على ضفة النهر..

« وأطاع بطرس مرسوم الإمبراطور ، فتقدم من مدينة صوفيا وانسحب هو ورجاله جميعًا

إلى مدينة فليبوبوليس، وعندما حكى كل ما تعرض له من سوء للمواطنين اليونانيين، تلقى منهم هدايا عديدة باسم المسيح وخوفًا من الرب. ثم سار إلى أدرنة بعد ثلاثة أيام وقد غمره الفرح والسرور لوفرة كل ما يحتاج إليه. وهناك أقام فى معسكر خارج أسوار المدينة لمدة يومين فقط، ثم انسحب بعد شروق الشمس فى اليوم الثالث. ووصلت رسالة ثانية من الإمبراطور تستحثه على أن يسرع بالمسير إلى القسطنطينية، لأن الإمبراطور كان يتحرق بالرغبة فى رؤية بطرس هذا بسبب التقارير التى وصلته. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية، صدرت الأوامر إلى جيش بطرس بأن يعسكر على مسافة من المدينة، وتم منحهم تصريحًا بالتجارة».

وليم الصورى ـ حملة بطرس الناسك (*)

« ... ولم يمض وقت طويل بعد الحوادث التى حكينا عنها، حتى بدأ بطرس مسيرته عبر لوثرنجيا وفرانكونيا وباڤاريا، وذلك الإقليم الذى يسمى أوستريا. وكان يقود جيشًا ضخمًا يصل عدده إلى حوالى أربعين ألفا، جمعه من كل شعب وقبيلة ولغة ووطن. وعندما وصل إلى حدود المجر أرسل رسالة إلى ملك تلك البلاد وحصل منه بدون صعوبة على إذن بالدخول شريطة أن يمر بالبلاد دون أن يسبب اضطرابًا أو صراعًا. ووافق بطرس على ذلك الشرط، وأفاد من الإذن ودخل المملكة بقواته. وقدم السكان طعامًا وفيرًا بأسعار معقولة وبشروط مقبولة. وتقدم الجيش بهدوء حتى سملين، وهو المكان الذى ذكرناه من قبل. وعلى أية حال، فإنهم عرفوا فى ذلك المكان بما جرى على رفاقهم الذين سبقوهم تحت قيادة والتر من معاناة على أيدى سكان هذا المكان والمعاملة السيئة التى لاقوها منهم. وفضلاً عن ذلك، فإن القوات عندما تعرفت على أمتعة وأسلحة أصدقائهم التى نهبها السكان وعلقوها على الأسوار كغنائم حرب، استشاطوا غضبًا. ولقى معظم السكان حتفهم إما بالسيف وإما غرقا فى النهر القريب. وفى الشغب الذى ثار ذلك اليوم هلك حوالى أربعة آلاف بلغارى على ما يقال، وهو عقاب يستحقونه عن جدارة. وتقول الرواية إن بطرس فقد مائة فقط من رجاله. وبعد هذا الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح، ظل الحجاج هناك خمسة أيام هانئة بسبب وفرة الطعام فى ذلك المكان.

« وكذا نيكيتا [نكيتاس] دوق البلغاريين هو الذى منع البيع لوالتر وجيشه. وعندما علم بالإنتقام الذى أوقعه جيش بطرس على سكان مدينة سملين جزاء المعاملة التى عاملوا بها جيش والتر، خشى لئلا يقوم هؤلاء بتوقيع نفس العقوبة عليه، لأنه لم يكن بريئًا من الذنب فى هذه

(*) Williamof Tyre. 1. 99_106

المسألة. ولأنه لم يكن يثق فى دفاعات بلجراد، المدينة التى يحكمها، ترك المكان. وكذلك غادرها السكان بعائلاتهم، ومعهم ماشيتهم وأغنامهم، وتقهقروا فى أعماق الغابات ودروبها السرية.

« وبينما كان بطرس ما يزال يتسكع فى المدينة الأسيرة ، وصلته تقارير بأن ملك المجر الذى أغضبته المذبحة التى حلت بشعبه، قد جمع قواته العسكرية من كافة أنحاء ذلك الإقليم وأخذ يستعد للإنتقام من المذبحة. وفى الحال جمع بطرس القوارب التى وجدها على ضفتى النهر وجعل جيشه يعبر عليها بأسرع ما يمكن. وأخذوا معهم الأغنام والماشية والمنهوبات القيمة التى نهبوها من المدينة المقهورة، وأخذوا ما يفوق حاجتهم من المؤن والأغذية. وعندما تم نقل الجميع إلى الشاطئ المقابل، أقاموا معسكرهم قبالة بلجراد، التى وجدوها خاوية مهجورة. ومن هناك قاد بطرس جيشه فى رحلة على مدى ثمانية أيام خلال غابة كثيفة شاسعة حتى نيش. وكان الجيش بأسره يتبعه بالعربات والماشية والأغنام. وكانت هذه المدينة جيدة التحصين تحرسها حامية قوية من الرجال الشجعان. وعبر الجيش النهر فوق قنطرة حجرية وعسكر قريبًا من المكان. وبدأت الأقوات تتناقص ، وواجه الجيش مشكلة نقص الأقوات . ومن ثم أرسلت رسالة إلى حاكم المدينة تطلب فى أدب السماح بالشراء من الأسواق، لاسيما المواد الضرورية للحياة اليومية، بأثمان عادلة وتحت شروط حسنة، وذلك من أجل قوم من الحجاج ينفذون الأوامر الإلهية. وأجاب الحاكم أن هذا الإذن غير ممكن ما لم يضمن الجيش أولاً، بتقديم الرهائن، أنه لن يحدث أذى أو عنف ضد السكان فى السوق. وقبل الفريقان هذا الشرط، وتم تقديم الرهائن. وحينئذ خرج السكان من المدينة ومعهم بضائعهم.

« والآن صارت هناك وفرة من الطعام فى متناول الجيش، وكانت عمليات البيع والشراء تتم بروح من الود المتبادل. ومضى الليل فى هدوء بينما جرت عمليات التبادل التجارية فى جو من الصداقة، وفى الصباح الباكر عاد الرهائن واستعد الجيش للمسير. وكانوا على وشك السير ـ والواقع أن معظم الجيش، بل إن الجيش كله، كان قد انطلق بالفعل ـ عندما أخذ بعض صناع المشاكل، ممن يستحقون العقاب الإلهى، يذكرونهم بمشاجرة تافهة حدثت فى الليلة السابقة عندما كانوا يشترون من أحد البلغاريين. ولذا فإنهم انسحبوا قليلاً من خطوط الجيش الذى كان قد سار فى طريقه فعلاً ، وأضرموا النيران فى سبع طواحين كانت بالقرب من القنطرة المقامة على النهر الذى ذكرناه من قبل. وسرعان ما تحولت هذه الطواحين إلى رماد.

« هؤلاء الأشرار كان عددهم حوالى مائة من التيوتون. وحتى هذا الفعل الشرير لم يرض غضبهم المجنون. ولذا فإنهم أضرموا النيران أيضًا فى منازل بعض الناس خارج أسوار

المدينة وأحرقوها بوحشية مماثلة. وبعد أن ارتكبوا هذه الجريمة، أسرعوا ليلحقوا بالجيش، كما لو كانوا غير مدركين للخطأ الذى ارتكبوه.

« وعندما عرف حاكم المدينة، الذى استقبلهم بود وترحاب كامل فى الليلة الماضية، أنهم لم يحفظوا له الجميل، اضطر إلى إنزال العقاب بهم بدلاً من أن يسدى إليهم مزيداً من المساعدة. ومن ثم، فإنه بحكم غير عادل اعتبرهم جميعًا لصوصًا واعتبرهم مسئولين عن الحرائق، فقد ألصق خطايا قلة من الأفراد بالجيش كله. وجمع سكان المدينة وأمرهم بحمل السلاح. وقادهم بنفسه على الطريق وشجعهم بالكلمة والقدوة على الإنتقام من المسيحيين بسبب تدنيسهم الحرمات. وكما لو كانوا يتحركون بعقل واحد، اندفع سكان المدينة وهاجموا القوات التى كانت قد سارت فى طريقها بالفعل. وانقضوا بوحشية على مؤخرة الجيش وأعملوا فيهم سيوفهم. ووجدوا المجموعة المذنبة التى لم تكن قد لحقت بعد بالجيش، وكانت بعيدة عن الجيش إلى حد ما، وبغضب شديد قضوا عليهم. ولكنهم وقعوا نفس العقوبة على كثيرين من الأبرياء سواء عن قصد أو مصادفة، وهكذا أخذوا البرىء بذنب المجرم. واستولوا على العربات التى كانت محملة بالطعام وشتى المعدات، وربطوا بها الرجال المسنين والمرضى والنساء والأولاد والبنات الذين لم يستطيعوا البقاء مع بقية الجيش. وبعد هذه المذبحة عادوا إلى المدينة ملطخين بدماء المذبحة، ومعهم غنائمهم.

« وفى الوقت نفسه كان بطرس قد سار مع مقدمة الجيش ورؤساء حملته، ولم يعرف على الإطلاق بالكارثة التى جرت على رفاقه. وفجأة وصل رسول ينهب الأرض مسرعًا بنبأ الكارثة. وحكى التفاصيل الحزينة لقصة القبض على رفاقه والمذبحة التى راحوا ضحية لها. وعندما سمع بطرس هذه الأنباء، استدعى فرق الجيش، وبناء على نصيحة رجاله المجرّبين عاد الجيش على نفس الطريق الذى تقدموا عليه طوال النهار. وبينما كانت عيونهم تقع على أجساد إخوتهم القتلى، التى كانت بمثابة برهان ساطع على المذبحة، لم يتمكنوا من حبس دموعهم أو كبت نحيبهم. وأخيراً ، وقفوا مرة أخرى قبالة المدينة حيث كانوا يعسكرون فى الليلة الماضية.

« وكان بطرس ومن يتحكمون فى مشاعرهم من رجاله مشغولين بأمر واحد وغرض واحد فيما يتعلق بهذه المسألة. فقد رجعوا ليعرفوا سبب هذه المصيبة وليعملوا على إزالة أسباب النزاع والشقاق. وكانوا يأملون فى أنه إذا ما حل السلام تمامًا بين الشعبين، ويتصافى الجميع فإنهم سيواصلون حجهم فى أمان أكثر. وبناء على هذه الرغبة أرسلوا عدة رجال عقلاء

ومسئولين إلى حاكم المدينة وكبارها ليحققوها الظروف التى أدت إلى نشوب الشغب المفاجئ وإلى إراقة كل هذه الدماء البريئة.

« وعندما عرفوا السبب، اقتنع الرسل بأن سكان المدينة لم يلجأوا إلى السلاح إلا بسبب الغضب. ولأنه لم يكن وقتًا مناسبا لطلب الثأر من أخطائهم، جاهد الرسل فى سبيل إقرار السلام من جديد بكل طاقاتهم، حتى يعود لرفاقهم كل ما خسروه من متاع وبضائع. وكان هذا الاضطراب بسبب الحمية المجنونة واندفاع بعض الأفرد المتهورين الذين كانوا يرغبون فى أن ينتقموا بالقوة من الأخطاء التى عانوها.

« وعلى أمل تهدئة غضبهم وإزالة كل الأسباب التى يمكن أن تؤدى إلى مذبحة جديدة، أرسل بطرس بعض الرجال المسئولين من أصحاب النفوذ القوى فى محاولة لمنع الغوغاء فى غضبهم المجنون من مهاجمة سكان المدينة. ولكن هذه المحاولة لم تفلح لأنهم رفضوا الاستماع إلى نصيحته. وحينئذ أصدر أوامر صارمة إلى الجيش، بأنه لا ينبغى لأحد ، بمقتضى قسم الطاعة الذى أقسموه له، أن يساعد بأية وسيلة أولئك الذين جرؤوا على انتهاك السلام الذى تم إقراره مرة أخرى لأنهم تمادوا فى سلوكهم الخاطئ.

« وتقبل الجيش هذا الأمر كما لو كان صادرًا عن أحد القضاة. وفى الوقت نفسه، ظل الجميع ساكنين إنتظارًا لنهاية الشغب المفاجئ ونهاية الأمر برمته. ورأى الرسل الذين كانوا قد أرسلوا إلى الحاكم لكى يرتبوا المعاهدة أن الإثارة بين الناس لا يمكن تهدئتها، ولكنها على العكس كانت تزداد عنفًا. وإذ أدركوا أن مهمتهم لن تنجح كما كان مقدرًا، أوقفوا المعاهدة وعادوا إلى المعسكر لمساعدة بطرس، رجل الرب، فى إخماد الشغب. ولكن هذا كان مستحيلاً. فقد انطلق حوالى ألف رجل فى هذه المحاولة المجنونة. وجابه هؤلاء عددًا مماثلاً من سكان المدينة، وكانت النتيجة معركة كبرى جرت أمام المدينة.

« وأدرك الناس بداخل المدينة أن قسمًا من الجيش قد قام لقتال أولئك الذين خارج المدينة. ولأن الشغب حدث ضد رغبة بطرس وأوامره المباشرة ، فقد راودهم الأمل فى ألا يقدم الجيش أية مساعدة للمشاغبين. وفتحوا البوابات واندفعوا ليقتلوا حوالى خمسمائة من رجالنا فوق القنطرة، وكل الباقين تقريبًا غرقوا فى النهر بسبب جهلهم بالمكان ومسالكه. وعند هذا المشهد، اندفع الجيش كله إلى سلاحه، لأن الجنود لم يتحملوا ما كان يجرى على رفاقهم. وتقابلت القوات المتعادية فى معركة رهيبة، وجرت مذبحة مرعبة لدرجة أن هذه الكارثة كانت أشد وطأة

من الكارثة السابقة. وكان عامة الناس والغوغاء غير قادرين على التصدى لضغوط الهنغاريين. فانهاروا وهربوا. وتأثر بهروبهم المجنون آخرون ممن كانوا يحاربون ببسالة وهربوا مثلهم.

وهكذا هرب الجيش كله، وإذ انهارت الصفوف لم يبق أحد يقاوم. وفى خضم الفوضى، فقد بطرس كل الثروة التى كان قد جمعها من عطايا الأمراء المتدينيين، والنقود التى كان ينوى استخدامها لشراء الضروريات للفقراء والمحتاجين على الطريق. لأن العربة التى كانت تحمل كل متاعه سقطت بأيدى الأعداء وضاع كل شيء.

« واستمر البلغاريون فى غضب؛ وقتلوا حوالى عشرة آلاف مسيحى واستولوا على العربات وكافة البضائع والأمتعة، وسبوا كثيراً من الناس والأطفال. أما أولئك الذين هربوا فقد اختبأوا فى الأماكن الكثيفة من الغابات التى لا يمكن اختراقها، وبصعوبة تم تجميعهم فى اليوم الثالث بأصوات الطبول والنفير. وتجمعوا حول بطرس والآخرين الذين هربوا معه ولجأوا إلى تل منخفض يرتفع برفق فوق الوادى.

« وأخيراً، وفى اليوم الرابع، عندما تم تجميع القوات المبعثرة، وظهر الهاربون من الأماكن السرية التى قبعوا فيها ثلاثة أيام، تجهز الجيش للمسير، وعدده الآن حوالى ثلاثين ألفاً. وعلى الرغم من أن سلوكهم المتهور قد أفقدهم حوالى ألفى عربة، فإنهم رأوا أنه سيكون عاراً عليهم أن يتخلوا عن رحلة الحج التى يقومون بها؛ ولذا فإنهم واصلوا رحلتهم، على الرغم من الصعوبات العنيفة التى اكتنفتها وكانوا على وشك البدء، على الرغم من افتقارهم الشديد للمؤن والأغذية، عندما وصل رسول من الإمبراطور إلى المعسكر، ومعه أوامر الإمبراطورية إلى بطرس وغيره من قادة جيشه. وخاطبهم علانية فقال: «أيها الرجال النابهين، هناك إشاعة بلغت مسامع الإمبراطور الصقت بكم تهماً خطيرة ذات طبيعة رديئة. فهناك زعم بأنكم ارتكبتم أعمال عنف كبيرة فى إمبراطوريته ضد سكان البلاد، رعاياه، وسببت المنازعات والاضطرابات، ولهذا، فإذا كنتم تأملون فى أن تجدوا ترحيباً من جلالته، فإننا نبلغكم بسلطته بأنه لا ينبغى لكم البقاء أكثر من ثلاثة أيام فى أيام مدينة من مدائنه، وأن تتوجوا بحملتكم بأسرع ما تستطيعون صوب القسطنطينية فى نظام وانضباط تام. وسوف ندل الجيش على الطريق، وسوف نمدكم بما تحتاجونه من الطعام بأسعار عادلة».

« هذه الكلمات رفعت من معنويات الناس، الذين كانوا قد بدأوا فعلاً يحسون بالضياع بسبب نقص الطعام؛ وجعلتهم رحمة الإمبراطور فى حالة عقلية تنبض بالأمل. وشرحوا

للرسول الإمبراطوري بعض الظروف المتعلقة بالمتاعب التى جابهتهم مؤخرا، وأكدوا على براءتهم وتكلموا عن الصبر الذى تحملوا به إيذاء البلغاريين لهم، ثم تخلصوا من كل المعوقات وتبعوا دليلهم حتى وصلوا إلى القسطنطينية. وهناك وجدوا والتر وقواته حيث كانوا فى انتظارهم. وانضمت قوات الجيشين وعسكروا فى المكان المحدد لهم.

« وبناء على استدعاء الإمبراطور ذهب بطرس إلى المدينة ومثل أمام الحضرة الإمبراطورية. وعندما سئل عن قصده والدافع وراء مثل هذا المشروع العظيم، ناقش الموضوع طويلاً، وأظهر أنه رجل يتمتع بالفصاحة وثبات الروح. وأوضح أنه سوف يتبعه أمراء الغرب الكبار، وهم من المؤمنين بالرب. وقد أبدى من الفصاحة وثبات الجنان ما جعل حتى رؤساء رجال القصر يعجبون بحكمته وشجاعته. وكان الإمبراطور نفسه معجبًا به وأثنى على هدفه. وبعد هذا الاستقبال الطيب، أنعم عليه بعطايا كريمة، وأمره الإمبراطور بالعودة إلى قواته.

« وبقى الجيش فى هذا المكان عدة أيام حتى يحصل الناس على حظهم من الراحة، ويستمتعوا بالطعام والراحة. وبعد ذلك عبروا البسفور فوق سفن أمر بإعدادها الإمبراطور، إلى بيثينيا، أول مقاطعات ولاية آسيا التى يحدها البحر (البسفور). وفى مكان يدعى كيفيتوت على البحر، أقاموا معسكرهم».

فولكمار وجوتشولك (*)

١ـ رواية البرت الآيكس (*)

بعد رحيل بطرس من المانيا ظلت جذوة الحماسة الصليبية مشتعلة فى نفوس العامة. ولم يكد يمضى وقت طويل على رحيل الناسك العجوز وجيشه العجيب حتى قام قسيس ألمانى من أهل الراين بالسير على هدى خطاه، وكذلك فعل فولكمار. وقد ارتكب جيشاهما من الفظائع والأهوال ما جعل جيش المجر يمزق عصابات فولكمار وبعدها بأقل من يومين فتك بعصابة جوتشولك. والنص الذى نقدمه برواية ألبرت الآيكسى يكشف كيف كشفت مسيرة «جيش الرب» عن وجهها القبيح، وبدأ الواقع يطل بوجهه ساخراً من المثال الذى أهانه أصحابه.

* * *

(*) Albert of Aix. Peters. pp. 99_100.

«لم يمض وقت طويل بعد رحيل بطرس، حتى قام قس يدعى جوتشولك، من التيوتون ومن سكان بلاد الراين، ألهبته دعوة بطرس بالحب والرغبة فى القيام بنفس الرحلة إلى أورشليم، وبدأ هو نفسه يدعو للرحلة فجذب عدداً كبيراً جداً من الناس من مختلف الأوطان للذهاب فى الرحلة. وجمع من مختلف أقاليم اللورين، وشرق فرنسا، وبافاريا، وألمانيا أكثر من خمسة عشرة ألفًا من الرجال فرسانًا، ومشاة عاديين جمعوا مبلغًا ضخمًا من المال، بالإضافة إلى ما يلزمهم من ضروريات، وواصلوا طريقهم بسلام حتى وصلوا إلى مملكة المجر.

« وعندما وصلوا إلى فيسيلبرج وقلعتها استقبلوا بحفاوة بفضل الملك كولمان. وكذلك منحوا الإذن بشراء ضروريات الحياة، وتم إقرار السلام للجانبين بأمر من الملك، لئلا ينشب أى نزاع من مثل هذا الجيش الكبير. ولكن أثناء تأخرهم هناك لعدة أيام، بدأوا يحومون فى المنطقة، وشرب البافاريون والسوابيون وهم قوم حماسيون، وشرب معهم أناس آخرون ممن لا يعقلون، وأفرطوا فى الشراب بحيث سكروا ونقضوا السلام الذى كان قد استقر. ورويداً رويداً، سرقوا من خمر المجريين ومن غلالهم، ومن لوازمهم الأخرى؛ وأخيراً خربوا الحقول، وقتلوا الماشية والأغنام، كما قتلوا من قاوموهم ، أو من حاولوا دفعهم، وكإناس أجلاف، غلاظ فى سلوكهم، همج غير منتظمين ارتكبوا جرائم أخرى كثيرة، لا يمكن أن نحكى عنها كلها. وكما يقول بعض الذين كانوا حاضرين ، ثبتوا شاباً مجرياً فى مكان السوق بعصا مرروها خلال جسده. ووصلت إلى مسامع الملك وقادة المجر الآخرين شكوى من هذه المسألة وغيرها من الأخطاء...

« وعندما سمع جوتشولك وغيره من الرجال العاقلين هذا الأمر، وضعوا ثقتهم بإيمان خالص فى هذه الكلمات [طلب التسليم الذى أرسله الملك المجرى]، وكذلك لأن المجريين كانوا مسيحيين، واتفقوا على تسليم أسلحتهم للملك على سبيل الترضية، بناء على أوامره. وهكذا يمكن أن يعود كل شيء إلى السلام والهدوء..

« ومع ذلك فإنه حين تم تسليم أسلحتهم وأغلقت المخازن عليها، نقض المجريون أيمانهم وكافة تعهداتهم التى قطعوها على أنفسهم بأن الملك سوف يظهرها للصليبيين، وعلى العكس من ذلك انقضوا عليهم فى وحشية وأغمدوا فى رقابهم السيوف، وحصدوا فى مذبحتهم المرعبة أولئك الذين لا يملكون سلاحًا يدافعون عن أنفسهم ، لدرجة أن (كما يؤكد الذين كانوا حاضرين وهربوا بأعجوبة) سهل بلجراد بأكمله امتلأ بالجثث وغطته دماء القتلى. وهرب أفراد قلائل من الاستشهاد...»

٢ـ رواية إيكهارد الأورى (*)

كان إيكهارد راهبًا فى دير كورفى، وقد ذهب بنفسه إلى الأرض المقدسة سنة ١١٠١م، أى بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى، والعالم الذى كتب عنه ايكهارد فى حوليته متسع بشكل يسمو إلى الإعجاب ، على الرغم من أن النص الذى نورده فيما يلى يكشف عن أحد جوانب حملة الفلاحين.

* * *

«والآن، كما سبق القول، قامت عصابة تتبع فولكمار عبر بوهيميا. وفى مدينة نيترا، فى بانونيا، حدث شغب، قتل فيه عدد من الناس، وتم أسر عدد آخر، على حين أن الناجين تعودوا على أن يشهدوا بأن علامة الصليب، التى تجلت فى السماء فوقهم، أنقذتهم من موت محقق.

ثم دخل جوتشولك، الذى لم يكن خادمًا حقيقيًا للرب ولكنه كان مزيفًا، إلى بلاد المجر ومعه رفاقه، حتى وصل إلى شرق نوريكوم ولحق بهم بعض الأذى. وبعد ذلك، وتحت هالة مذهلة من التدين المزيف، حصن بلدة معينة فى مكان مرتفع ووضع بها حامية، وبدأ ومعه بقية رفاقه فى نهب بانونيا. هذه المدينة، وقعت حقًا بأيدى سكان البلاد بسرعة، وقتلت أعداد كبيرة، كما أسر كثيرون على حين تفرق الآخرون أشتاتًا، ولأنه هو نفسه كان أجيرًا مرتزقًا، ولم يكن راعيًا للشعب، فقد هرب ملطخًا بالعار...»

رواية وليم الصورى (*)

«لم يكن قد مضى وقت طويل على دخول بطرس إلى إقليم بيثينيا، حتى قام قس تيوتونى اسمه جوتشولك، يسير على درب بطرس، يتحرق بالشوق للقيام بنفس رحلة الحج. ولأنه كان يتمتع بموهبة البلاغة، فقد أقنع كثيرين من التيوتون من شتى أرجاء تلك المنطقة بأن يقوموا بنفس المهمة. وبحوالى خمسة عشر ألفًا جمعهم للمسير، دخل بلاد المجر حيث سمحوا له دون مصاعب. وبناء على أوامر ملك المجر، قدم المجريون البضائع والمتاجر بأسعار مناسبة لجيشه. وأساء [الصليبيون] إستخدام الطعام الوفير، وأسلموا أنفسهم للفراغ والخمر. وارتكبوا كثيرًا من الأخطاء فى حق سكان البلاد. فقد مارسوا النهب، واغتصبوا بالعنف البضائع التى كانت معروضة للبيع فى الأسواق العامة، وذبحوا الناس فى تجاهل مزرى لقوانين الضيافة.

(*) Ekkhard of Aura. in Peters. pp. 100_101.

(**) William, I. pp. 112.

« وعندما وصلت أنباء هذه الإضطرابات إلى الملك، استشاط غضبًا. وأمر باستدعاء كل المملكة، وأصدر توجيهاته بأنه يجب على الشعب وعظماء الرجال فى البلاد سواء بسواء أن يحملوا السلاح للإنتقام من هذه الأخطاء الفاضحة. وارتكبت تجاوزات كثيرة فى أماكن كثيرة، وهى تجاوزات مخجلة بحيث لا يمكن أن نحكيها. ولم يكن ممكنًا أن يتغاضى الملك عن مثل هذه الجرائم دون أن يجلب على نفسه وصمة الجبن ودون أن يجلب على نفسه كراهية شعبه. ولذا، تم استنفار جميع القوات المسلحة فى البلاد. وبنظام موحد شنوا هجومهم الغاضب العنيف ضد المسيحيين بإعتبارهم أعداء يستحقون أقصى عقاب، وصمموا على ذبحهم جزاء وفاقًا لما ارتكبوه من آثام.

« وأخيرًا وفى مكان يدعى بلجراد[1] ، يقع فى منتصف المملكة تمامًا، انقضت قوات الملك على جمع غير منظم من أولئك الرجال المجانين. وكانوا قد عرفوا بالفعل بتقدم الملك وكانوا على على وعى تام بأنه لابد أن يكون غاضبًا؛ كما أنهم كانوا يخشون ضمائرهم بسبب جريمتهم. وبعد ذلك خطفوا أسلحتهم واستعدوا لدفع القوة بالقوة وأن يدفعوا الخطر عن أنفسهم. وعندما رآهم المجريون يندفعون إلى سلاحهم ، وقد عزموا على المقاومة الشرسة، رأوا أنه سيكون من المستحيل أن يقاتلوهم دون أن تلحق بهم خسارة فادحة. لأن المسيحيين كانوا بالفعل رجالاً شجعانًا متمرسين على استخدام السلاح، ولن يسلموا حياتهم يأسًا دون قتال. ووفقًا لعاداتهم عولوا على أن ينفذوا بالخديعة ما لم يقدروا على إنجازه بالسلاح فأرسلوا وفدًا إلى جودشوالك، وقادة جيشه ، وخاطبهم أفراد الوفد بكلمات معسولة فى دهاء ومكر. «لقد بلغت الملك شكوى مريرة من جيشكم. ويقال إنكم الحقتهم كثيرًا من الأذى والضرر والمتاعب الجمة برعاياه وأنكم رددتم المعاملة الطيبة لمضيفكم بمعاملة ظالمة من جانبكم.» ومع ذلك فإن الملك بحكمته مقتنع أنكم لستم جميعًا مذنبين فى هذه الجرائم. هو يعتبر أنه من المؤكد أن بينكم رجال أتقياء يخشون الرب، أغضبتهم تصرفات الآخرين الخرقاء وأن هذه الجرائم التى أشعلت الغضب الملكى قد ارتكبت ضد رغبات وسلوكيات هؤلاء الرجال. ولئلا تنسب خطايا الأفراد إلى الجميع، ويؤخذ البرئ بذنب المجرم قرر أن يكبح جماح غضبه، وفى الوقت الحاضر، سيحقن دماء أخوته فى المسيحية. بناء ذلك، ولكى يهدأ غضبه تمامًا، نشير عليكم بأن تسلموا أنفسكم، وكل ما معكم من متاع هنا، بما فى ذلك أسلحتكم، دون قيد أو شروط، للملك. وإلا ، فلن ينجو

---

(١) يبدو أن هذا خطأ وقع فيه وليم الصورى، إذا أثبت البحث الحديث أن المكان هو مارتينسبرج لأن بلجراد فى صربيا بيوغوسلافيا الحالية. .

أحد منكم من الموت لأنكم فى وسط مملكته، كما أنكم لستم فى مثل قوتنا العسكرية، ولن تستطيعوا الهرب» (١).

« وكان جوتشولك وقادة جيشه قد غضبوا بسبب التصرفات المجنونة للناس الذين ركبهم العناد. وببساطة قلوبهم أخذوا كلمات الملك الطيبة مأخذ الجد دون مناقشة، وكادوا أن يرغموا الناس بالقوة على الموافقة على فكرة تسليم أنفسهم بأسلحتهم وكل ممتلكاتهم للملك وبذلك يكفرون عن كل الخطايا التى ارتكبوها فى حقه. وعلى الرغم من أن الناس كانوا يحتجون بعنف وكانوا على إستعداد للقتال فى سبيل حياتهم فإنهم جميعًا وافقوا فى النهاية. ولكن بعد أن سلموا أسلحتهم وكل متاعهم لقادة ورسل الملك، وجدوا الموت حيث توقعوا الترحيب. ذلك أن المجريين انقضوا على الناس الذين لم تخالجهم أية شكوك، والذين كانوا يعولون على رحمة الملك بالرغم من أنهم جردوا من سلاحهم. وبدون تفرقة بين الطيب والشرير، أوقعوا بهم مذبحة لا إنسانية للغاية. وكانت شاملة بحيث أن المكان كله كان ملطخاً بدماء وجثث المذبوحين، ولم يبق أثر تقريبًا لذلك العدد الغفير من الناس. وكان هناك البعض، نجوا من الموت الشامل، وهؤلاء قادتهم رحمة الرب إلى تجنب المجريين وعادوا إلى بلادهم. وعندما حكوا قصة المذبحة والمصير التعس الذى لقيه رفاقهم، أخبروا أولئك الذين ربطوا أنفسهم بإيمانهم، والذين كانوا على وشك الرحيل فى نفس رحلة الحج. ونصحوا أولئك الحجاج الجدد، وخيانة أولئك الناس الأشرار ما تزال ماثلة فى أذهانهم، بأن يمضوا بحكمة وأن يتعلموا كيف يتصرفون بمزيد من الحذر....»

إميكو

١ـ رواية ايكهارد الأوربى (*)

كان الكونت أميكو واحداً من زعماء تلك العصابات التى ضمتها الحملة الشعبية. وهو وعصابته اشتهروا بأسوأ سمعة بين العصابات الشعبية الأخرى. فقد انضم إليه مغامر آخر هو وليم النجار وعدد من النبلاء المتعطشين للدماء من فرنسا وألمانيا، وتألف جيشهم من ذلك الخليط المعتاد من المغامرين والمعدمين. وضم رجالاً ونساء فضلاً عن الشيوخ والأطفال؛ فرسانا ومشاة ، إلى جانب الفلاحين والعامة المشاغبين. وفى الصفحات القادمة نورد نصين عن هذا المغامر وعصابته.

---

(١) أطال وليم فى صياغة هذا الخطاب على الرغم من ألبرت الأيكسى الذى أعتمد عليه وليم الصورى قد أورده مختصراً.

(*) Ekkehard of Aura. Peters. 101 _ 102.

«.. فى ذلك الوقت تماماً ظهر جندى إسمه أميكو، هو كونت الأراضى الواقعة حول نهر الراين، وهو رجل ذو سمعة سيئة للغاية منذ زمن طويل بسبب أسلوب الطغيان الذى يعيش حياته به. وزعم أن العناية الإلهية قد دعته مثل شاول، لكى يقوم بممارسة دينية مشابهة، فقد اغتصب لنفسه السلطة على حوالى إثنى عشر ألفاً من حملة الصليب. وبينما قادهم عبر مدن الراين والمين والدانوب أيضاً، فإنهم كانوا يهاجمون جنس اليهود المنفيين حيثما وجدوهم (بدافع من غيرتهم الدينية وحماستهم للدين المسيحى)، أو يجبرونهم على اعتناق المسيحية. وعندما وصلت قواتهم، التى كانت قد تزايدت فعلاً بانضمام أعداد كبيرة من الرجال والنساء، إلى حدود بانونيا، منعتهم الحاميات المحصنة من دخول تلك المملكة، التى كانت تحيط بها المستنقعات من ناحية والغابات من ناحية أخرى. لأن شائعة كانت قد سبقتهم وجعلت الملك كولومان يحذر منهم؛ هذه الشائعة مؤداها ، أنه لم يكن هناك فرق عند التيوتون بين قتل الوثنيين وقتل المجريين. وهكذا، حاصروا قلعة فيسبلبرج على مدى ستة أسابيع. وقاسوا كثيراً من المصاعب هناك؛ ومع ذلك فإنهم فى أثناء هذه الفترة نفسها انشغلوا فى نزاع أخرق حول من سيكون منهم ملكاً على بانونيا. وبينما هم مشغولون فى الهجوم الأخير، وعلى الرغم من أن الأسوار كانت قد تحطمت بالفعل، وبدأ السكان فى الهرب، وبدأ جيش المدينة المحاصرة يضرم النيران فى مدينته، مع ذلك كله فبقدرة الرب العظيم هرب جيش الحجاج رغم انتصاره. وخلف الحجاج وراءهم كل معداتهم، ولم يحمل أحد معه شيئاً سوى حياته الشريرة.

« وهكذا ، بدأ بنو جنسنا، الذين كانوا غيورين للرب دونما شك، على الرغم من عدم إمتثالهم لمعرفة الرب، يضطهدون المسيحيين الآخرين مع أنهم كانوا ما يزالون فى الحملة التى قدمها المسيح لتحرير المسيحيين. وبفضل رحمة الرب فقد نجوا من إراقة دم إخوتهم؛ كما تحرر المجريون أيضاً. وهذا هو السبب فى أن بعض الإخوة ممن تميزوا بسلامة الطوية، والذين لم يعرفوا شيئاً عما حدث، وتسرعوا فى حكمهم تورطوا فى فضيحة وأعلنوا أن الحملة كلها كانت عبثاً وطيشاً أحمق....».

٢ـ رواية ألبرت الأيكسى (*)

« وفى بداية نفس السنة التى انطلق فيها كل من بطرس وجوتشولك، بعد أن جمع كل منهما جيشًا، تجمع هناك جيش ضخم بأعداد لا تحصى من المسيحيين من مختلف ممالك الأرض؛ وبالتحديد من ممالك فرنسا وإنجلترا والفلاندرز، واللورين.. ولست أدرى ما إذا كان بحكم من الرب، أو بسبب خطأ فى العقل، أن تقمصتهم روح من القسوة تجاه اليهود المبعثرين فى هذه المدن وذبحوهم دونما رحمة ولا سيما فى مملكة اللورين، مؤكدين أن هذه بداية حملتهم وواجبهم ضد أعداء الدين المسيحى. وتم ذبح اليهود أولاً على أيدى سكان مدينة كولون. فقد انقضّ هؤلاء فجأة على جماعة صغيرة من اليهود وقتلوا وجرحوا العديد منهم؛ كما دمروا منازل اليهود ومعابدهم وتقاسموا فيما بينهم مبلغًا ضخمًا من المال. وعندما رأى اليهود هذه القسوة، بدأ حوالى مائتين منهم الهرب فى سكون الليل بالقوارب إلى نويس. واكتشفهم الحجاج والصليبيون، وبعد أن جردوهم من كل ما يملكون ، أعملوا فيهم الذبح والقتل بحيث لم يتركوا أحدًا على قيد الحياة.

«ولم يمض وقت طويل بعد هذا حتى بدأوا رحلتهم، وفاء بقسمهم، ووصلوا بأعداد كبيرة أمام مدينة مينز. وكان الكونت الذى يرأسهم، هو أميكو، من النبلاء وصاحب سلطان عظيم فى تلك الأنحاء، فى انتظار الحجاج ومعه عصبة كبيرة من التيوتون، وبدأ الحجاج يصلون إلى هناك من أرجاء الأرض على الطريق الكبير الذى شيده الملك.

« وعندما عرف يهود تلك المدينة بالمذبحة التى جرت على إخوانهم، وأنهم لن يستطيعوا النجاة بأنفسهم من أيادى هذا العدد الغفير من الناس، هربوا على أمل النجاة إلى الأسقف روتارد. ووضعوا كنزًا ضخمًا فى حراسته، وكانوا موقنين بحمايته لهم لأنه كان أسقف المدينة. وحينئذ نحى هذا الأسقف الممتاز المبلغ الخرافى الذى تلقاه منهم جانبًا. ووضع اليهود فى قاعة فسيحة جدًا بمنزله، بعيدًا عن أنظار الكونت أميكو وأتباعه، بحيث يبقون آمنين سالمين فى مكان قوى أمين.»

« ولكن أميكو وبقية عصابته عقدوا اجتماعًا للتشاور، وبعد شروق الشمس هاجموا اليهود فى القاعة بالسهام والحراب. وبعد أن كسروا الأقفال والأبواب، قتلوا اليهود، الذين كانوا حوالى سبعمائة كانوا يقاومون بيأس قوة وهجوم هذه الآلاف العديدة. وقتلوا النساء أيضًا،

(*) Albert of Aix, in Peters, pp. 102_104.

واخترقوا بسيوفهم أجساد الأطفال أيا كان سنهم أو جنسهم. وإذ رأى اليهود أن أعداءهم المسيحيين يهاجمونهم ويهاجمون أطفالهم، وأنهم لا يبقون على أحد بسبب سنه، إنقضوا بالمثل على بعضهم بعضًا، الأخ، والأطفال والزوجات والأخوات، وهكذا هلكوا بأيدى بعضهم البعض. ومن المرعب أن الأمهات ذبحهن الأطفال الرضع بأياديهن بالسكاكين وطعنَّ الآخرين، وفضلن لهم أن يموتوا هكذا بأيديهن بدلاً من القتل بسلاح أولئك المسيحيين.

« ولم ينج من هذه المذبحة القاسية لليهود سوى أفراد قلائل؛ واعتنق آخرون المسيحية، ليس حبًا فى العقيدة المسيحية وإنما بسبب الخوف. وواصل الكونت أميكو، وكلاريبولد، وتوماس وكل رفاقهم المتعصبين من الرجال والنساء، السير صوب أورشليم محملين بغنائم كبيرة جدً نهبوها من اليهود، واتخذوا طريقهم تجاه مملكة المجر، حيث كان السير على الطريق الملكى الكبير مسموحًا للحجاج. ولكن عندما وصلوا إلى ڤيسيلبورج قلعة الملك التى تحميها المستنقعات ومياه نهر الدانوب ونهر ليتا، ووجدوا قنطرة المدينة وبوابتها موصدتين بأمر من الملك كولومان ملك المجر، لأن خوفًا شديدًا استبد بالمجريين جميعًا بسبب المذابح التى جرت على إخوانهم.. [حاصر أميكو المدينة ستة أسابيع تم أثناءها بناء قنطرة ثم شن هجومه عليها].

« ولكن عندما أوشك كل شىء على أن يتحول لصالح المسيحيين، وبينما كانوا يخترقون أسوار المدينة من خلال فتحات ضخمة كبيرة، حدثت صدفة أو سوء حظ، لا أدرى ما هو، سيطر خوف عظيم على الجيش بأسره بحيث بدأ الجنود فى الفرار، مثل خراف تبعثرت وهاجمتها الذئاب. وإذ بدأوا يبحثون عن ملجأ يحتمون به هنا وهناك نسوا رفاقهم..

« واستمر أميكو وبعض رفاقه فى الهرب على طول الطريق الذى جاء منه. وهرب توماس وكلاريبولد وكثيرون من رجاله تجاه كارينثيا وإيطاليا. وهكذا نعتقد أن يد الرب كانت ضد الحجاج، الذين ارتكبوا كثيرًا من الآثام والمعاصى، والذين ذبحوا اليهود المنفيين جشعًا وطمعًا فى المال، وليس من أجل عدالة الرب على الرغم من أن اليهود أعداء المسيح. والرب قاض عادل ولا يأمر دون رغبة منه أو تحت القهر بالدخول فى رحاب العقيدة الكاثوليكية.

« وكانت هناك جريمة أخرى نكراء نتجت عن اجتماع هؤلاء الناس الذين كانوا حمقى معتوهين. ولا شك فى أن الجريمة مكروهة من الرب ويرفضها المؤمنون. فقد كانوا يؤكدون أن أوزة معينة تلهمها الروح المقدسة، وأن هناك عنزة تسيرها نفس الروح المقدس. وقد اتخذوا من الأوزة والعنزة دليلين لهما فى الرحلة المقدسة إلى أورشليم. وكانوا يعبدوهما وتبعهم معظم

الناس فى ذلك، مثل الحيوانات وآمنوا بكل عقولهم أن هذا كان مسلكًا طيبًا. فلتحرر قلوب المؤمنين من فكرة أن الرب يسوع أراد أن يكون ضريحه الذى يضم جسده المقدس مزاراً للحيوانات التى لا تعقل، أو أن تكون هذه الحيوانات مرشداً لأرواح المسيحيين التى دفع دمه ثمنًا لخلاصها من دنس الأصنام».

نهاية الحملة الشعبية

كان على الإمبراطورية البيزنطية أن تعانى من تطرف الجموع الكاثوليكية المتعصبة القادمة من غرب أوربا تحت راية الصليب، هذه الجموع التى قدمت من غرب أوربا بزعم مساعدة البيزنطيين ضد المسلمين. وفى الطريق من غرب أوربا تضافر المرض والجوع مع مقاومة أهالى البلقان والبلاد التى مر بها الصليبيون للفتك بأعداد كبيرة من جيوش الحملة الشعبية؛ فقد هلكت أعداد كبيرة من جيش والتر المفلس وجيش بطرس الناسك، على حين قضى المجريون على جيوش جوتشواك وفولكمار وأميكو التى لم تصل أبداً إلى الأراضى البيزنطية. وهكذا لم تصل إلى القسطنطينية سوى جموع هزيلة بقيادة كل من والتر المفلس وبطرس الناسك. وإذا أدرك الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس بخبرته الطويلة فى القتال ضد المسلمين أن هذه الجموع الخرقاء التى جمعها الناسك العجوز الأتراك السلاجقة الذين مزقوا صفوف الجيش الإمبراطورى أكثر من مرة، فإنه أحسن لبطرس بالمال والنصيحة وأوصاه أن ينتظر قدوم قوات الأمراء.

ولكن بطرس الذى أعجبته كثرة أتباعه، رفض نصيحة الإمبراطور وقبل هداياه. لقد كان أتباع بطرس يتحرقون شوقًا لقتال المسلمين وهم واثقون من النصر، أليسوا هم جند الرب السائرين على طريق الخلاص الذى بناه؟ لقد كان «جنود الرب» فى الحملة الشعبية أسرى للوهم الذى أنبته التعصب فى نفوسهم، وباتوا يظنون أن المعركة ضد المسلمين ستكون فى صالحهم؛ ولذا فإنهم رفضوا نصائح الإمبراطور. ومن ناحية أخرى كانت تصرفات هذه الجموع المشاغبة فى القسطنطينية من أهم أسباب نقلهم إلى آسيا الصغرى عبر البسفور، وعلى رمال آسيا الصغرى كانت نهاية مسيرة الفقراء ذات الألف ومائتى ميل. والنصوص التى نقدمها هنا تكشف عن هذه النهاية.

* * *

١ـ رواية أنا كومنينا (*)

أنا كومنينا هى إبنة الإمبراطور اليكسيوس الأول الذى عاصر أحداث الحملة الصليبية الأولى، وعندما وصل الصليبيون إلى القسطنطينية كان عمرها أربعة عشر عامًا، وعندما تعدت الخمسين من عمرها كتبت مؤلفها عن عصر أبيها، هو الذى يعرف باسم الاليكسياد Alexiad، وعلى الرغم من بعض العيوب التى تشوب كتاب أنا، فإنه يعطى القارئ صورة حية عن انطباعات الفرنج فى القسطنطينية.

«... وفضلاً عن ذلك ، فإن اليكسيوس لم يكن قد استراح، أو استراح قليلاً، من مشاغله، عندما وصلته شائعة عن وصول جيوش فرنجية بأعداد لا تحصى. كان يخشى غارات هؤلاء الناس، لأنه كان قد خبر بالفعل الغضب الوحشى الذى يميز هجومهم، كما كان يعرف تقلب مزاجهم، واستعدادهم لمعالجة أى شىء. بالعنف...

«وأخيرًا ، احتفظ فى عقله بهذه المعلومات، التى غالبًا ما تكررت وكانت حقيقية ـ أنهم كانوا معروفين بأنهم دائمًا متطرفون إذا ما أرادوا شيئًا، كما أنهم ينقضون بسهولة شديدة، ولأى سبب، المعاهدات والإتفاقيات التى عقدوها. ومن ثم فإنه لم يسترح على الإطلاق، ولكنه جعل قواته تستعد بكل وسيلة، حتى إذا ما اقتضت الضرورة يكون مستعدًا للمعركة. لأن المسألة التى نقلت إليه أخبارها آنذاك كانت أكبر وأكثر رعبًا من المجاعة. حقًا، إن الغرب بأسره، ولأن أراضى الشعوب البربرية تمتد من خلف البحر الأدرياتى حتى عمودى هرقل (١) ـ كل هذه المنطقة ، اندفع سكانها إلى آسيا فى أعداد غفيرة، ومعهم كل ممتلكاتهم، وشقوا طريقهم عبر مناطق أوربا الداخلية.

«وكان هناك رجل من الغال، اسمه بطرس، وشهرته بطرس الصغير، كان قد انطلق من وطنه ليتعبد فى الضريح المقدس. وبعد أن عانى أخطاء ومخاطر كثيرة من الأتراك والمسلمين، الذين كانوا ينهبون آسيا كلها ، عاد إلى بلاده وقد امتلأ قلبه حزنًا وكمدًا . ولم يستطع أن يتحمل أن يرى نفسه وقد منع من أداء الحج وقرر أن يذهب بحملة فى المرة الثانية...

«وبعد أن نجح بطرس فى تكوين الحملة، كان أول من عبر مضيق اللمبارد ومعه ثمانون ألفًا

(*) Anna Comnena, Alexiad, pp. 311_313.

(١) مضيق جبل طارق حالياً.

من الجنود المشاة، ومائة ألف فارس. وبعد أن مر بأراضي المجر وصل إلى المدينة الملكية. لأن جنس الغال، كما يستطيع أى امرئ أن يستنتج من النتائج، ليس فقط جنسًا متهورًا وانفعاليًا من عدة جوانب، ولكنهم أيضًا حين يستفزون بأدنى شيء لا يمكن السيطرة عليهم. ولأن إمبراطورنا كان مدركًا لما عاناه بطرس على أيدى الأتراك من قبل، فقد حثه على الإنتظار ريثما يصل الكونتات الآخرون..

«ولكنه اعتمادًا على كثرة أعداد أولئك الذين تبعوه، لم يستمع إلى النصيحة، وبعد أن عبر المضيق (البسفور) أقام معسكره فى بلدة صغيرة تدعى هيلينوبوليس Helenoplois.

« ولكن لأن جيشه كان يضم النورمان أيضًا، وكان عددهم يقدر بحوالي عشرة آلاف ، فقد فصلوا أنفسهم عن بقية جيشه، ونهبوا الإقليم المحيط بمدينة نيقية، وأشاعوا الشغب بقسوة وبكل وسيلة. إذ أنهم مزقوا بعض الأطفال إربًا إربًا، ونزعوا الأطراف، واخترقوا أجساد الآخرين بالعصى الخشبية، ثم شووهم على النار؛ كما أنهم أوقعوا صنوفًا من التعذيب على كبار السن. وعندما رأى من بالمدينة هذه الأمور تحدث ، فتحوا أبواب المدينة وخرجوا لقتالهم. ونتيجة لهذا حدثت معركة رهيبة، ولأن النورمان كانوا يقاتلون بضراوة فقد تقهقر السكان إلى داخل القلعة. وبعد أن جمع النورمان كل الغنائم عادوا مرة ثانية إلى هيلينو بوليس. وهناك نشب نزاع بينهم وبين غيرهم من الحجاج الذين لم يخرجوا معهم، وهو أمر يحدث عادة فى مثل هذه الظروف، فقد ألهب الحسد قلوب أولئك الذين لم يخرجوا، ونشب قتال عنيف عقب النزاع. وانفصل النورمان المتوحشون مرة أخرى عن الباقين، واستولوا على مدينة اكسيروجورد Xerogord وهم فى طريقهم بعد أول هجوم.

« وعندما ذاع نبأ هذا الحادث أرسل السلطان قائده ضدهم ومعه القوات اللازمة. ولما وصل إلى مكانهم استعاد اكسيرجورد، وقتل بعض النورمان بالسيف ، وأخذ الباقين أسرى، وخطط فى الوقت نفسه لمهاجمة أولئك الذين بقوا مع بطرس الصغير. وأكمن الكمائن فى أماكن مناسبة يقع فيها الصليبيون على غرة إذا ما رحلوا لمهاجمة نيقية. ولكن لأنه كان يعرف أيضًا مدى جشع الغال أرسل إثنين من رجاله يمتازان بجسارة الروح وأمرهما بالذهاب إلى معسكر بطرس الصغير لكى يعلنا أن النورمان قد استولوا على نيقية، وأنهم ينهبونها عن آخرها. وإذ وصل هذا النبأ إلى معسكر بطرس، أثار الجميع فى عنف؛ لأنه عندما جاء ذكر الغنائم والثروات، اندفعوا مباشرة فى فوضى على الطريق المؤدى إلى نيقية، وقد نسوا تدريباتهم العسكرية ومراعاة النظام عند خوض المعركة. لأن اللاتين ليسوا مغرمين بالثروات

فحسب، كما ذكرنا من قبل، ولكنهم عندما يقررون شن غارة على أية منطقة بقصد السلب والنهب، فإنهم لا ينقادون لسلطان العقل، أو أية ضوابط أخرى. ومن ثم، فلأنهم لم يحافظوا على النظام، ولم يشكلوا خطوط قتال، وقعوا فى الكمين الذى أعده الأتراك حول دراكو ومزقتهم سيوف الأتراك شر ممزق. والواقع أن عدداً كبيراً جداً من الفال والنورمان قتلوا بسيوف الإسماعيليين[1]، وعندما جمعت جثث القتلى التى كانت مطروحة فى أرجاء المكان سوياً، كونت كومة كبيرة أو تلاً، أو مكان استطلاع، مرتفعاً مثل جبل، وكانت تشغل مساحة شاسعة عرضاً وعمقاً. وكان حجم تل الموتى كبيراً ، لدرجة أن بعض البرابرة من جنس القتلى شيدوا فيما بعد حائطاً من العظام بدلاً من الحجارة، وبذلك جعلوا هذه القلعة نوعاً من الضريح لضحايا هذه المعركة. وما يزال قائماً حتى اليوم سياج من الأسوار التى بنيت بخليط من الصخور والعظام.

« وهكذا ، بعد أن تم اكتساح الجميع فى المذبحة، عاد بطرس بعد قليل إلى هلينوبوليس. ولكن الأتراك رغبة منهم فى القبض عليه، أعدوا له كميناً آخر. ولكن عندما سمع الإمبراطور بالأمر كله وعرف كيف كان عدد القتلى من الرجال كبيراً، رأى أنه سيكون من الخطأ أن يدع بطرس أيضاً يسقط فى أيديهم. ومن ثم ، فإنه استدعى فى الحال كتاكالون قنسطنطين ايوفوربينوس، الذى ورد ذكره كثيراً فى هذا الكتاب، وأرسله مع القوات اللازمة فوق السفن الحربية عبر البحر نجدة لبطرس. وعندما رآه الأتراك يقترب، فروا هاربين...»

رواية المؤرخ المجهول(*)

« كان بطرس المذكور هو أول من وصل إلى القسطنطينية فى أول أغسطس عام ١٠٩٦م ومعه كثيرون من الألمان. وهناك وجدوا قوماً من شمال وجنوب إيطاليا وكثيرين غيرهم تجمعوا سوياً. وأمر الإمبراطور بإمدادهم ببعض المؤن الموجودة بالمدينة، وقال «لا تعبروا البسفور حتى يصل جيش المسيحيين الكبير، لأن عددكم لا يكفى للقتال ضد الأتراك». ولكن أولئك المسيحيين تصرفوا بطريقة مخزية، إذ أخذوا ينهبون قصور المدينة ويحرقونها، كما سرقوا الرصاص من

---

١) تستخدم آنا هذه الكلمة للدلالة على المسلمين باعتبارهم أبناء إسماعيل، كما تستخدم كلمات أخرى سنشير إليها عند ورودها.

*) Gesta Francorum, pp. 2 _ 5.

أسقف الكنائس وباعوه إلى اليونانيين، ولذا استشاط الإمبراطور غضبًا، وأمرهم بعبور البسفور. وبعد أن عبروا لم يكفوا عن أفعالهم الشائنة، فأحرقوا المنازل والكنائس ونهبوها. وأخيراً وصلوا إلى نيقوميديا، وهناك انفصل الإيطاليون والألمان عن الفرنجة، لأن الفرنجة كانوا متكبرين بشكل لا يحتمل . واختار الإيطاليون قائداً اسمه رينالد؛ كما اختار الألمان أيضًا قائداً، ودخلوا جميعًا إلى الروم Rum(١) واستمروا فى سفرهم أربعة أيام حتى وصلوا إلى ما بعد مدينة نيقية، حيث وجدوا قلعة مهجورة تدعى اكسيرو جوردو فاستولوا عليها، ووجدوا بها كميات من الغلال والنبيذ واللحم، ووفرة من الأشياء الطيبة. ولكن عندما سمع الأتراك أن المسيحيين داخل القلعة، جاءوا لحصارها. وأمام بوابتها كان هناك بئر، كما كانت هناك عين تحت أسوارها، وهناك ذهب رينالد ليعد كمينًا للأتراك ، ولكنهم عندما وصلوا فى عيد القديس ميخائيل أمسكوا برينالد ومن معه؛ وقتلوا كثيرين منهم. وهرب الناجون إلى داخل القلعة، التى فرض عليها الأتراك الحصار فى الحال، وقطعوا عنها إمدادات المياه. ولذا عانى رجالنا من العطش معاناة رهيبة لدرجة أنهم كانوا يجرحون خيولهم وبغالهم ليشربوا الدماء؛ وكان الآخرون يدلون بالأحزمة والقماش فى أنابيب المجارى ويعصرون السائل فى أفواهم؛ على حين كان البعض الآخر يمررون المياه من رجل لآخر بأيديهم المطبقة كالاكواب لكى يشربوا ، وقام غيرهم بحفر الأرض الرطبة وناموا على ظهورهم، وأهالوا التراب على صدورهم بسبب جفافهم الشديد من الحر. وكان الأساقفة والقساوسة يشجعون رجالنا لكيلا يعتريهم اليأس. واستمرت هذه الحال البائسة ثمانية أيام. ثم اتفق قائد الألمان مع الأتراك على خيانة رفاقه، وتظاهر بأنه خارج للقتال وهرب إليهم حيث تبعه كثيرون. أما الباقون ، فقد قتل منهم من لم ينكر الرب؛ والآخرون الذين أسرهم الأتراك أحياء، تم تقسيمهم بين الأتراك مثل الأغنام، ووضع بعضهم كأهداف صوبت عليهم السهام، وبيع الآخرون كما لو كانوا من الحيوانات والبهائم.

«وفيما بعد، عندما سمع الأتراك أن بطرس الناسك ، ووالتر المفلس فى كيفيتوس التى تقع وراء مدينة نيقية، قدموا إلى هناك بحمية قاصدين أن يقتلوهما ومن معهما من الرفاق، وعندما جاءوا وجدوا والتر ورجاله وقتلوهم فى الحال. وعلى أية حال، فإن بطرس الناسك، كان قد ذهب إلى القسطنطينية قبل أن يحدث ذلك بوقت قصير، لأنه لم يستطع السيطرة على مثل هذا

(١) Rum إسم محرف عن رومانيا Romania التى تعرف باسم آسيا الصغرى.

الخليط من الناس الذين رفضوا أن يطيعوه أو يستمعوا إلى ما يقوله. وانقض الأتراك على رجاله وقتلوا معظمهم ـ وقد وجدوا بعضهم نياما، والبعض الآخر عرايا، فذبحوهم جميعًا. وبين الباقين وجدوا قسيسًا يتلو القداس فقتلوه فوراً على المذبح. أما أولئك الذين استطاعوا الهرب، فقد فروا إلى كيفيتوس. وقفز البعض إلى البحر، على حين أختبأ آخرون فى الغابات والجبال. وطارد الأتراك بعض رجالنا إلى داخل القلعة، وكوموا الأخشاب لكى يحرقوهم مع القلعة، ولكن المسيحيين الذين بداخل القلعة هم الذين أشعلوا النيران فى كومة الأخشاب، وهبت ألسنة اللهب تجاه الأتراك وحرقت بعضهم، وأنقذ الرب رجالنا من هذه النيران. وأخيراً أخذهم الأتراك أحياء، وقسموهم فيما بينهم كما فعلوا مع الآخرين من قبل، وأرسلوهم عبر الأراضى المجاورة إلى خراسان كما أرسلوا بعضهم إلى فارس. وحدث هذا كله فى أكتوبر. وعندما سمع الإمبراطور أن الأتراك قد ألحقوا مثل هذه الهزيمة برجالنا ابتهج كثيراً (١)، وأصدر أوامره بنقل الناجين عبر البسفور. وعندما عبروا [إلى الأراضى البيزنطية] جردهم من سلاحهم تماماً.».

٣ـ رواية ألبرت الآيكسى (*)

«.. وتحركت عاطفة الإمبراطور عندما سمع هذه الحكاية المتواضعة وأمر بصرف مائتى بيـزنت (٢) لبطرس ومن هذه الأموال التى كانت تسمى تارتارون وزع جزءًا على جيشه. وبعد ذلك خرج بطرس من الإجتماع ومن قصر الإمبراطور. وعلى الرغم من أنه كان فى حماية الإمبراطورية الطيبة، فقد بقى خمسة أيام فقط فى الحقول والأراضى القريبة من القسطنطينية، حيث كان والتر المفلس أيضًا قد ضرب خيامه. وإذ صارا رفيقين منذ هذا اليوم، فإن قواتهما وأسلحتهما وكل المؤن الضرورية لهما صارت شركة لهما. وبعد ذلك بخمسة أيام، حركوا خيامهم، وبمساعدة الإمبراطور عبروا مضيق القديس جورج على متن القوارب. وعندما دخلوا حدود قبادوقيا تقدموا عبروا البلاد الجبلية داخل نيقوميديا وأمضوا الليل هناك.

---

(١) هذا الكلام يناقض كلام آنا كومنينا، ويكشف فى الوقت نفسه عن روح التعصب المتبادل بين اللاتين والبيزنطيين.

(*) Albert of Aix, in Peters, pp. 108_ 112.

(٢) عملة ذهبية بيزنطية.

وبعد ذلك، أقاموا معسكرهم فى الميناء الذى يسمى كيفيتوت. وهناك كان التجار يجلبون باستمرار السفن المحملة بإمدادات النبيذ والغلال والزيت والشعير، وكميات وفيرة من الزبد، ويبيعون هذا كله للحجاج بسعر معقول.

« وبينما كانوا ينعمون بوفرة الضروريات ويريحون أجسادهم المرهقة، جاءتهم رسل الإمبراطور المسيحى التقى. وبسبب أخطار الكمائن وهجمات الأتراك منعوا بطرس وجيشه من السير تجاه الإقليم الجبلى المحيط بمدينة نيقية حتى تلحق بهم أعداد أكبر من المسيحيين. وسمع بطرس الرسالة، وامتثل هو وجميع المسيحيين لنصيحة الإمبراطور. ومكثوا هناك على مدى شهرين يعيشون فى سلام ومرح، وينامون آمنين من كل الهجمات المعادية.

«وهكذا بعد شهرين، وقد أصبحوا طائشين جامحين بسبب الراحة ووفرة الطعام الهائلة، ولم يستمعوا لصوت بطرس، وإنما دخلوا إقليم مدينة نيقية وممتلكات سليمان ضد إرادته. ونهبوا قطعان الماشية والأغنام والماعز وقطعان الحيوانات التى يملكها اليونانيون العاملون فى خدمة الأتراك، وحملوا هذا كله إلى رفاقهم. وعندما رأى بطرس هذا، إمتلأ قلبه أسفًا، لأنه عرف أن هذا لن يمر دون قصاص. وكان غالبًا ما ينهاهم عن الإستيلاء على أية غنائم أخرى ولا يخالفوا نصيحة الإمبراطور، بيد أن كلامه كان يذهب سدى لأنه كان يخاطب قومًا حمقى مشاغبين...

«ولكن التيوتون حين رأوا أن الأمور كانت تسير على خير وجه بالنسبة للرومان والفرنجة، وأنهم كانوا يعودون مرات عديدة مثقلين بغنائم، توقدت بداخلهم رغبة عارمة فى القيام بأعمال السلب والنهب. وتجمع حوالى ألفين من الجنود المشاة وحوالى مائتى فارس..

«وهكذا ، بعد أن تم الإستيلاء على القلعة بأكملها وأخرج سكانها، تنعم [الصليبيون] بما وجدوه من طعام وفير. وإذ اغتبطوا بهذا النصر، تشاوروا فيما بينهم بأنهم إذا بقوا فى هذه القلعة يمكنهم بسهولة أن يحصلوا على أراضى وأملاك سليمان بفضل بسالتهم؛ إذ إنهم سوف يجمعون الأسلاب والطعام من كل الأنحاء، وبهذا يضعفون سليمان بسهولة، حتى يصل جيش القادة الكبار الموعود. وعندما سمع سليمان قائد جيش الأتراك بوصول المسيحيين، وما قاموا به من أعمال السلب والنهب، جمع من كافة أنحاء رومانيا [١] وأراضى خراسان خمسة عشر

---

(١) آسيا الصغرى.

ألفا من الأتراك ، معظمهم من الرماة المهرة جداً فى استخدام القوس... ويقال إنه بعد شروق شمس اليوم الثالث ، وصل سليمان وأتباعه من نيقية إلى القلعة التى كان التيوتون قد غزوها ..

«ومن ثم، فإن الأتراك الذين لم يستطيعوا إخراج الألمان بهذا الهجوم ووابل السهام، جمعوا كل أنواع الأخشاب عند بوابة القلعة. وأضرموا فيها النيران وأحرقوا البوابة ومبانى كثيرة داخل القلعة. وعندما كبرت ألسنة اللهب احترق البعض حتى الموت؛ وقفز الآخرون من الأسوار آملاً فى النجاة. ولكن الأتراك الذين كانوا خارج الأسوار مزقوا بسيوفهم أولئك الهاربين وأسروا حوالى مائتين ممن كان مظهرهم حسنًا وأجسامهم شابة؛ وقضوا على الآخرين جميعًا بالسيف والسهم..

« وفى الوقت نفسه ، اكتشفت الحقيقة وثارت ضجة فى المعسكر بين الناس. وجاء الجنود المشاة مجتمعين إلى ريناك البروبى ووالتر المفلس، ووالتر البريتيلى، وأيضاً فولكر الأورلياتزى الذين كانوا قادة جيش بطرس، وحرضوهم على أن يهبوا سويًا لتحرير إخوانهم ضد وقاحة الأتراك. ولكنهم رفضوا الذهاب دون حضور بطرس ومشورته. وحينئذ، فإن جودفرى بوريل ، قائد الجنود المشاة أكد عندما سمع هذه الإجابة، أن من يهاب لا يمكن أن يسود فى الحرب مثل الجسور؛ وفى كلمات قاسية وبخ أولئك الرجال الذين منعوا رفاقهم الآخرين من مطاردة الأتراك انتقامًا لإخوانهم. ومن ناحية أخرى، فإن قادة الجيش الذين لم يستطيعوا تحمل توبيخه وإهانته أكثر من هذا ، ولا أن يتحملوا إهانات رفاقهم، حركهم الغضب العنيف والكبرياء فوعدوا بالخروج ضد قوة الأتراك وعتوهم ، حتى لو اقتضى الأمر أن يموتوا فى المعركة.

«ولم يكن ثمة تأخير، ففى فجر اليوم الرابع، صدرت الأوامر لكل الفرسان والمشاة فى المعسكر بتسليح أنفسهم، ودقت الطبول، وصدرت الأوامر بالتجمع للمعركة. ولم يمكث فى المعسكر سوى غير المسلحين والمرضى العديدين، والنساء. ولكن جميع الرجال المسلحين الذين وصل عددهم إلى خمسة وعشرين ألفًا من المشاة وخمسمائة من الفرسان المدرعين، شقوا طريقهم سويًا صوب نيقية، لكى ينتقموا لإخوانهم باستفزاز سليمان وبقية الأتراك لدخول المعركة. وهكذا قسموا أنفسهم فى ستة صفوف، وارتفعت البيارق فوق كل من هذه الصفوف، وتقدموا من اليمين ومن الشمال».

«وكانوا يصيحون ويزعقون فى جلبة وضوضاء شديدة، وما كادوا يتقدمون عبر القلعة

المذكورة والإقليم الجبلى ثلاثة أميال من ميناء كيفيتوت، مكان تجمعهم (وكان بطرس غائبًا ولم يعرف شيئًا عن هذا كله)، حتى دخل سليمان على غرة ومعه كل رفاقه القساة القلعة نفسها من الجانب الآخر. فقد كان قادمًا من مدينة نيقية لينقض فجأة على الغال فى المعسكر وفى قصده أن يكتسحهم ويدمرهم فى غفلتهم وعدم استعدادهم. وعندما سمع جلبة وضوضاء المسيحيين وهم يقتربون ، تعجب كثيراً عن مغزى هذه الضوضاء، لأنه لم يكن يعرف بكل ما قرره المسيحيين. وإذْ اكتشف أنهم من الحجاج خاطب سليمان رجاله قائلاً : «قفوا ، فإن الفرنج الذين كنا نسير ضدهم فى متناول أيدينا. دعونا ننسحب من الغابة والجبال إلى السهل المفتوح، حيث يمكننا أن نخوض المعركة ضدهم، وحيث لا يجدون لأنفسهم ملجأ ولا ملاذاً». ومن ثم، فعلوا هذا دون تأخير بأمر سليمان، وفى صمت عميق انسحبوا من الغابة ومن الجبال.

«ولكن الفرنج، الذين لم يعلموا باقتراب سليمان، تقدموا من الغابة والجبال صائحين فى جلبة وضوضاء شديدة. وهناك رأوا لأول مرة خطوط القتال فى جيش سليمان فى منتصف الميدان، بانتظارهم لخوض المعركة. وعندما رأوا الأتراك، بدأوا يشجعون بعضهم بعضًا باسم الرب..

« وهناك سقط والتر المفلس وقد اخترقت جسده سبعة سهام تغلغلت فى معطف الزرد الذى كان يرتديه. وسقط ريناك البرويى وفولكر الشارترى، اللذان كانا مشهورين للغاية فى وطنهما، شهيدين بسلاح العدو، بعد أن قتلا عدداً كبيراً من الأتراك. ولكن والتر البروتيلى ابن والتر أمنوس وجودفرى بوريل قائد الجنود المشاة هربا عبر الأشواك والأحراش الجبلية، وتقهقرا بطول الممر الضيق الذى سحب الجيش كله عن طريقه من المعركة، واجتمعا سويا، وعندما شاع خبر هروب هذين الرجلين، ولى الجميع فراراً، وأسرعوا صوب كيفيتوت على نفس الطريق الذى جاءوا منه، ولكن دون قتال كثير ضد العدو.

«وهكذا ، فإن الأتراك الذين اغتبطوا بنصرهم، أخذوا يجدون فى القضاء على عصبة الحجاج التعسة، وطاردوهم على مدى أميال ثلاثة بالقتل حتى معسكر بطرس. ودخلوا إلى الخيام، ليقضوا بسيوفهم على كل من وجدوه ، الضعيف والعاجز، القساوسة والرهبان، النساء المسنات، والأطفال الرضع، والأشخاص من كل سن. ولكنهم اقتادوا البنات اللاتى كانت وجوههن وأجسادهن تروق فى عيونهم، والشباب الصغار ذوى المظهر الحسن. كما حملوا إلى

نبقية الأموال والأوانى والبغال والخيول، وكل الأشياء القيمة. كما حملوا الخيام ذاتها.

«ولكن على شاطئ البحر، قرب كيفيتوت، المذكورة، كانت هناك قلعة مهجورة وقد اندفع صوب هذه القلعة ثلاثة آلاف حاج فراراً. ودخلوا القلعة الخربة على أمل أن يدافعوا عن أنفسهم فيها. ولكنهم لم يجدوا بوابات أو أية عوائق أخرى، ولأنهم كانوا قلقين ومجردين من أية مساعدة، فقد كوموا دروعهم وصنعوا منها بوابة ومعها كومة كبيرة من الأحجار؛ والحراب والأقواس الخشبية وقذائف الأحجار، ودافعوا عن أنفسهم فى شجاعة ضد العدو. ولكن الأتراك الذين رأوا أنهم لا يحرزون سوى نجاح قليل فى قتل من بالداخل، أحاطوا بالقلعة التى كانت بلا سقف، من جميع الجوانب. وصوبوا سهامهم عاليا، حتى إذا ما نزلت مثل وابل المطر، تضرب فى أجساد المسيحيين بالداخل، وتقضى على التعساء المساكين، وربما يضطر الآخرون إلى التسليم عندما يرون هذا. ويقال إن كثيرين قتلوا أو جرحوا بهذه الوسيلة؛ ولكن الآخرين خشوا أن تصيبهم معاملة أكثر سوءاً من هذا العدو القاسى، لم يستطيعوا الخروج سواء بالقوة أو بالسلاح...

«وتحرك الإمبراطور بالشفقة عندما سمع من بطرس عن حصار رجال وسقوطهم. ولذا فإنه استدعى التركبولى [1] وكل الناس فى مملكته، وأمرهم بالذهاب فى سرعة عبر المضيق لنجدة المسيحيين المحاصرين والهاربين، وأن يصدوا الأتراك المهاجمين عن الحصار. ولكن الأتراك عندما عرفوا بمرسوم الإمبراطور تركوا القلعة فى منتصف الليل ومعهم أسراهم من المسيحيين وكماً هائلاً من الغنائم وهكذا تم تحرير جنود الحجاج الذين كان الأتراك الكفار يحاصرونهم...».

---

(١) قوات من المرتزقة الأتراك كانت تعمل فى خدمة الإمبراطورية البيزنطية.

القسم الرابع: حملة الفرسان

الطريق إلى القدس

حملة الفرسان

أشاحت البابوية بوجهها عن الزلزال الاجتماعى الذى صحب خروج الحملات الشعبية، ومضى البابا إربان الثانى فى سبيله للإعداد للحملة الرئيسية التى سيقوم بها «الذين يحاربون»، والذين كان البابا قد خاطبهم بصفة أساسية فى كليرمون. وكانت الأطماع السياسية والآمال الدنيوية واضحة فى حركة الفرسان. وكان قد تم الاتفاق على تحديد يوم الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٠٩٦م موعداً لخروج حملة الفرسان. وبعد أن أتم الفرسان استعداداتهم خرجوا فى عدة جيوش قسمت على أساس التقسيمات الجغرافية واللغوية، فضلاً عن التكوين الإقطاعى لجيوش العصور الوسطى فى أوربا . وتم الاتفاق بينهم على تحديد مكان اللقاء فى الشرق، كما اتفقوا على أن يقود كل منهم جيشه بمفرده، والا يسير على نفس الطريق الذى سار عليه الآخرون حتى لا تواجههم مشاكل التموين والإمدادات الضخمة التى لم يكن هناك إقليم فى أوربا بأسرها يمكنه توفيرها لهذه الجيوش الجرارة.

ومنذ البداية واجهت حملة الفرسان مشكلة التمويل؛ إذ لم يكن بوسعهم أن يغامروا بالخروج دونما تنظيم أو استعداد مثلما فعلت جماهير الحملات الشعبية الخرقاء. وقد اعتمدوا على الصدقات والتبرعات، ولجأ بعضهم إلى رهن أملاكه لدى الأديرة والكنائس المحلية، على حين لجأ البعض الآخر إلى ابتزاز اليهود. وبينما كانت شراذم الحملات الصليبية تتخبط فى ممرات البلقان، ثم تلقى نهايتها المزرية خارج حدود الدولة البيزنطية فى قفار آسيا الصغرى، كانت حملة الفرسان الصليبية الكبرى تحشد قواتها الضاربة وفرسانها المدربين جيداً، لتسير على الطريق إلى القدس فى أواخر صيف سنة ١٠٩٦م.

أما الإمبراطور البيزنطى، الذى علمته تجاربه المريرة مع عصابات الحملة الشعبية ألا يترك شيئًا للصدفة فى علاقته مع القادمين من الغرب الأوربى ، فقد أرسل إلى قواته البرية والبحرية يأمرهم بالحذر واليقظة تحسبًا لقدوم أية جيوش . وفى القسطنطينية صافحت عيون اللاتين القادمين من الغرب الأوربى المتخلف مظاهر العظمة والثراء والرقى البيزنطية. وبدأ الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس يروض الأمراء الصليبيين بالمال والترغيب تارة، وبالقتال والتهديد تارة أخرى حتى نجح فى تحقيق هدفه.

بعد ذلك مرت الحملة الصليبية بعدة أحداث تقلبت خلالها أحوال الصليبيين بين اليأس والأمل، وحلاوة النصر ومرارة الهزيمة، وفى مسيرة هذه الجيوش التى شكلت الحملة الصليبية الأولى كان تأثير الجانب الدينى ضعيفًا على قادة الجيوش الصليبية وفرسانها. إذ إن المنافسات والمنازعات ، وسعيهم الدائب وراء مصالحهم الفردية كانت سمة عامة ميزت هذه الحملة . وفى غضون هذه المرحلة كادت تختفى تمامًا أنباء المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة، وبدأت العوامل الدنيوية تفرض نفسها. وطالما كانت الحملة تسير بسهولة وتحرز إنتصاراتها فى يسر، اختفت هذه الأخبار الغيبية؛ فإذا ما جابهت الحملة مشكلة ما، عادت أنباء الرؤى الإعجازية والأحلام المقدسة، والظواهر الخارقة والمعجزات. ومن المثير حقًا أن الأحلام المقدسة كانت من نصيب الفقراء الذين رافقوا الحملة.

والنصوص التى نقدمها فى الصفحات التالية تحكى قصة حملة الفرسان الصليبية، منذ خروجها فى أخريات صيف سنة ١٠٩٦م، حتى الإستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م، مرورًا بحوادث المجر والبلقان ، واللقاء فى القسطنطينية ، وحوادث أنطاكية.

أولاً : الرحلة إلى القسطنطينية (أغسطس ١٠٩٦ ـ ١٠٩٧)

الرحيل

١ـ رواية فوشيه الشارترى (*)

« فى سنة ١٠٩٦ من تجسد سيدنا، وفى شهر مارس الذى أعقب المؤتمر الذى عقده البابا إربان خلال شهر نوفمبر فى أوفرينى، بدأ البعض ممن كانوا أسرع من الآخرين فى الرحيل فى الرحلة المقدسة. وتبعهم آخرون فى أبريل ومايو، وفى يونيو أو يوليو ، بل وحتى فى أغسطس أو سبتمبر أو أكتوبر ، وفقًا لقدرة كل منهم عل تدبير وسائل الحصول على النفقات.

« وفى هذه السنة كان السلام مستتبًا، وكانت الغلال وفيرة فى جميع البلاد بفضل رحمة الرب، بحيث لم يكن هناك نقص فى الخبز أثناء الرحلة لمن اختاروا أن يتبعوا الرب بصلبانهم حسب أوامره.

(*) Fulcher of Charters, pp. 71 - 74.

«وبما أنه من المناسب أن نتذكر أسماء قادة الحجاج في ذلك الوقت أذكر هيو الكبير أخا الملك فيليب ملك فرنسا [١] ، أول الأبطال الذين عبروا البحر. وقد هبط هيو برجاله قرب درازو، وهي مدينة في بلغاريا [٢] ، ولكنه اندفع بقوات صغيرة فقبض عليه سكان المنطقة وقادوه إلى الإمبراطور في القسطنطينية. وهناك استقر لبعض الوقت دون أن يطلق سراحه تماماً.

« وبعده بوهيموند أمير أبوليا، وهو أحد أبناء روبرت جويسكارد، من وطن النورمان، الذي مضى بجيشه على نفس الطريق.

« ثم جودفرى، دوق اللورين، الذى سافر عبر بلاد المجر بقوات كبيرة.

« أما ريمون، كونت البروفنسال، ومعه القوط والجاسكون، وكذلك أديمار أسقف لي بوي، فقد عبرا خلال دالماشيا.

«وثمة رجل يدعى بطرس الناسك، جمع حوله جمعًا من المشاة وعددا قليلاً من الفرسان كان أول من عبر المجر. وبعده والتر المفلس، الذى كان جنديًا ممتازًا بالتأكيد، وكان قائد أولئك القوم. وقد لقى مصرعه فيما بعد بين نيقوميديا ونيقية على أيدى الأتراك.

« وفى شهر أكتوبر ، بدأ روبرت كونت النومان ، وأحد أبناء وليم ملك إنجلترا، رحلته. وقد جمع جيشًا كبيرًا من النورمان والإنجليز والبريتون. وذهب معه سيتفن، كونت بلوا النبيل، صهره [٣] ، ومعهما روبرت كونت الفليمنج، وكثيرون غيرهم من النبلاء.

« ومن ثم جاءت جموع كثيرة من شتى بلدان الغرب، وكبر الجيش رويداً رويداً، ويومًا بعد يوم بحيث صار مجموعة من الجيوش. وكان باستطاعتك أن ترى أعداداً لا تحصى من بلدان عديدة تتكلم بلغات شتى. ومهما يكن من أمر، فإنهم لم يجتمعوا فى جيش واحد حتى وصلنا مدينة نيقية.

« ماذا عساى أن أقول؟ لقد تحركت جزر البحر وكافة ممالك الأرض بشكل يجعل المر-

---

(١) هيو كونت فرماندوا ، الأخ الأصغر لفيليب الأول ملك فرنسا .

(٢) هى حاليا فى ألبانيا، وكانت ضمن بلغاريا حتى قضى الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى الشهير بسفاح البلغار على المملكة البلغارية سنة ١٠١٨م.

(٣) كان ستيفن كونت بلوا وشارتر قد تزوج من أديلا إبنة وليم الفاتح، وأخت الكونت روبرت.

يعتقد أن نبوءة داود قد تحققت ، إذ قال في المزامير: «كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يارب ويمجدون اسمك» (١). وما قاله الذين وصلوا بعد ذلك حقًا وصدقًا: «لندخل إلى مساكنه. لنسجد عند موطئ قدميه» (٢). وعن هذه الرحلة قرأنا كثيرًا في النبوءات التي لا نملُّ ترديدها.

«أواه! يا له من حزن ، ويا لها من زفرات وبكاء، ويا له من أسى بين الأصدقاء حين يترك الزوج زوجته الحبيبة، ويترك أطفاله ، وممتلكاته مهما كبرت، وحين يترك المرء أباه وأمه، وإخوته وغيرهم من الأقارب.

« ولكن مهما كانت الدموع التي أراقها الباقون من أجل أصدقائهم الراحلين، فإن أحدًا لم يحجم عن الرحيل لأنهم كانوا يتركون كل ما يتركون في سبيل حب الرب لأنهم كانوا مقتنعين تمامًا بأنهم سينالون ضعفها مائة مرة حسبما وعد الرب من يحبونه.

« ثم أخبر الزوج زوجته عن الوقت الذي يتوقع فيه الرجوع، مؤكدًا أنه إذا نجا بفضل الله فسوف يعود إليها. وقد تركها في رعاية الرب وقبلها، ووعدها حين بكت أنه سيعود. وهي، إذ خشيت ألا تراه مرة ثانية لم تتمالك نفسها، فسقطت على الأرض مغشيا عليها؛ تنعى حبيبها الحي كما لو كان ميتًا. وهو يبدو عليه عدم التأثر لبكاء زوجته، أو عدم الشعور بالألم لحزن أصدقائه، ومع ذلك فإنه يعاني هذه المشاعر سرًا، ويمضي في طريقه عاقدًا العزم على الرحيل.

« وعلى أية حال، فإن الحزن الذي أصاب الباقين، كان سرورًا للراحلين. فما الذين يمكن أن نقوله إذن؟ « من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا» (٣).

٢ـ رواية المؤرخ المجهول (*)

« جيشنا الثاني جاء عبر أراضي دلماشيا (٤). وكان يقوده ريمون كونت سان جيل وأسقف

---

(١) مزامير ـ ٨٦ : ٩.

(٢) مزامير ـ ١٣٢ : ٧.

(٣) مزامير : ١١٨ : ٢٣.

(*) Gesta Francorum, pp. 5 - 6.

(٤) يوجسلافيا الحديثة. وهو هنا يعتبر أن الحملة الشعبية كانت هي الجيش الصليبي.

لى بوى. الجيش الثالث سار عبر الطريق الرومانى القديم (١). وفى هذه المجموعة كان بوهيموند وريتشارد صاحب الإمارة (٢) ، وروبرت كونت الفلاندرز وروبرت النورمانى، وهيو الكبير، وايفرارد البويستى، وأشارد المونتمرلى، وايزارد الموزونى ، وكثيرون غيرهم، وقدم بعضهم إلى ميناء برنديزى، على حين جاء الآخرون إلى بارى أو أوترانتو. وقد أبحر هيو الكبير ووليم ابن الماركيز (٣) من بارى إلى درازو، ولكن حاكم ذلك المكان، عندما سمع بوصول محاربين مُجَرَّبين كهؤلاء ، وضع خطة خيانة فى الحال، وقبض عليهم وأرسلوهم تحت الحراسة إلى الإمبراطور فى القسطنطينية، حتى يقسموا يمين الولاء له.».

٣- رواية وليم الصورى (*)

« وعندما انقضى الشتاء وبدأت بشائر الربيع، وعندما انتهى الطقس البارد وأفسح مكانه للطقس المنعش الذى عاد للأرض، جهزوا خيولهم، وأعدوا أسلحتهم، وجمعوا متاعهم. وأولئك الذين كانوا سيرحلون سويًا اتصلوا ببعضهم البعض ورتبوا فى حرص للوقت الذى يتحتم فيه أن يبدأوا ، وموعد اللقاء ، والطريق الذى يمكنهم أن يسيروا عليه فى سهولة وبسرعة. طالما أنه لا يوجد إقليم واحد يمكن أن يقدم ضروريات المعيشة لهذه الآلاف العديدة؛ تم الترتيب بعناية على أن يقوم كل من القادة البارزين بتوجيه قواته بشكل منفصل ولا يسلك نفس الطريق الذى سلكه الآخرون، ولم يكن للجيوش أن تتقابل قبل أن تصل إلى مدينة نيقية. لأنه كما سنشرح فيما بعد، ذهب الدوق بجيشه عن طريق المجر، على حين ذهب القادة الآخرون عبر أبوليا. وهكذا جاءوا جميعًا، و لكن فى أوقات مختلفة، إلى القسطنطينية.

« وفى الوقت نفسه، جهزوا المعدات التى ظنوا أنها ستكون كافية لمثل هذه الرحلة، وحاول كل منهم أن يقدر مبلغ المال الضرورى للسفر، وفقًا لطول الطريق، جاهلين أن سبل الرب ليست بأيدى الإنسان. لأن الإنسان فى ضعفه لا يعرف ما يخبئه له الغد.

« وفى كل أقاليم الغرب، لم يكن هناك منزل واحد بلا عمل؛ لأن كل رجل كان مشغولاً

---

(١) طريق via Egnatia

(٢) ابن عم بوهيموند وأمير سالرنو.

(٣) ابن أخت بوهيموند Emma

(*) Wiliam. I. pp. 96-97.

بترتيب شئونه الخاصة التى كانت تقلقه. فهنا رب الأسرة ، وهناك الإبن ، وهنا الأسرة بكاملها تعد عدتها للرحيل.

«وأرسلت خطابات عديدة، شجع فيها أولئك الراحلون سويًا بعضهم البعض، ويحثون بعضهم على عدم التأخير، وينصحون بالرحيل المبكر. وعندما جمع أولئك الذين تم تعيينهم قادة لمختلف الفرق بقية أتباعهم، انتزع هؤلاء أنفسهم من أحضان أعزائهم بالبكاء والتنهدات، وبعد أن تبادلوا كلمات الوداع الأخيرة والقبلات، رحلوا. وبالدموع والنحيب بينما كانت الزوجات تحملن الأطفال فى أياديهن. تودعن أزواجهن. وبعد كلمات الوداع الأخيرة، تابعوا بنظرات ثابتة أولئك الذين لم يستطيعوا أن يذهبوا معهم فى الواقع إلى أبعد من ذلك».

رحلة روبرت كونت نورماندى إلى القسطنطينية (*)

« بعد أن تركنا بلاد الغال ورحلنا خلال إيطاليا، وصلنا نحن الفرنجة الغربيين حتى لوكا، وهى مدينة شهيرة جدًا. وبالقرب منها قابلنا البابا إربان الثانى؛ وتكلم معه روبرت النورمانى - وستيفن كونت بلوا وغيرهما ممن رغبوا فى ذلك. وبعد أن منحنا بركاته واصلنا مسيرتنا فرحين إلى روما.

« وعندما دخلنا إلى كنيسة بطرس، قابلنا أمام المذبح رجالاً من أتباع ويبرت البابا المزيف[1]، وكانت معهم السيوف بأيديهم فاختطفوا القرابين التى قدمت على المذبح. وكان هناك آخرون يجرون فوق سقف الكنيسة ذاتها جيئة وذهابا ، ومن هناك يقذفون الأحجار علينا بينما كنا نصلى. لأنهم عندما كانوا يرون أحداً مخلصًا لأربان، يريدون ذبحه فوراً.

« وفى أحد أبراج الكنيسة كان يوجد رجال السيد إربان، وكانوا يحرسونه من أجله بإخلاص، ويصمدون فى وجه خصومهم قدر طاقتهم. وانتابنا حزن شديد عندما رأينا مثل هذه الأفعال الشنيعة ترتكب هناك، ولكننا لم نكن نرغب فى شىء سوى أن يحل بهم عقاب من الرب. وبناء على ذلك، فإن كثيرين ممن جاءوا معنا حتى هذا المكان انتابهم الضعف والجبن، فعادوا إلى ديارهم دون تردد.

(*) Fulcher de Chartres. pp. 74 - 78.

(١) بسبب النزاع بين البابوية والامبراطورية ، قام الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع بتعيين بابا مناوئ لإربان الثانى فى روما هو ويبرت هذا.

« ومن ناحية أخرى ، فإننا مضينا عبر كامبانيا حتى وصلنا إلى بارى، وهى مدينة غنية تقع على شاطئ البحر. وهناك فى كنيسة سان نيقولاس صلينا للرب بحرارة، وبعد ذلك اقتربنا من الميناء وفى ظننا أن نعبر البحر فى ذلك الوقت. ولكن معارضة البحارة، وسوء الحظ، وطقس الشتاء تكاتفت علينا. وعرضتنا للخطر، فكان من الضرورى أن ينسحب الكونت روبرت نورماندى إلى كالابريا ويقضى الشتاء القاسى هناك. ومع ذلك، فإن الكونت روبرت أمير الفلاندر عبر بجيشه البحر فى ذلك الوقت.

«وكثيرون من الناس الذين تركهم قادتهم وخشوا ما قد يحمله المستقبل من سوء باعوا أقواسهم، وخلعوا شارات الحج، وعادوا أدراجهم إلى بلادهم كالجبناء. ولهذا السبب ظهروا بلا قيمة أمام الرب وأمام الناس، وحل بهم خزى وعار كبير.

« وفى سنة ١٠٩٧ من سنوات الرب ، وعندما كان طقس الربيع يهل بصحبة شهر مارس إتجه روبرت النورماندى والكونت ستيفن أمير بلوا ، اللذان كانا ينتظران تحسن الأحوال الجوية برجالهما صوب البحر فى الحال. وتم تجهيز الأسطول، وفى أبريل فى يوم عيد الفصح المبارك، ركبوا السفن من ميناء برنديزى.

« ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء .» (١) لأننا شاهدنا قاربًا واحدًا بين القوارب الأخرى، كان قرب الشاطئ ولم يكن يبدو أن هناك ما يعوقه، وفجأة انشق من منتصفه. وكان عليه أربعمائة شخص من الجنسين هلكوا غرقًا ولكنهم حمدوا الله وسبحوه بسرور فى الحال بصوت عال.

« ذلك أنه حين تمكن الموجودون بالمكان من جمع الجثث التى استطاعوا جمعها، اكتشفوا أن الصلبان قد وسمت فوق اللحم على أكتاف بعضهم، وأن ما كان يحمله الأحياء على ملابسهم كان ينبغى بإرادة الرب أن تظل معهم العلامة المنصورة (الصليب)، لأنهم قضوا نحبهم هكذا وهم فى خدمته بفضل دينهم. وفى الوقت نفسه، فإن العقل يجعل الأمر واضحًا لمن يتدبر ويفكر فية، أنه كان من المناسب، أنه بمعجزة كهذه ، حصل أولئك الموتى فعلاً بفضل الرب ورحمته على سلام الحياة الخالدة بالدليل الواضح الذى حقق النبوءة التى قالت إن العادل، سيجد السلام، ولو مات قبل الأوان.

---

(١) رسالة بولس الرسولى إلى أهل رومية: ١١ : ٣٣.

« أما الآخرون الذين كانوا يصارعون الموت، فلم ينج منهم سوى عدد قليل. وقد أهلكت أمواج البحر الخيول والبغال، كما فقدت أموال كثيرة. وعندما رأينا هذه الكارثة، تملكنا خوف شديد لدرجة أن كثيرين من ضعاف القلوب، الذين لم يكونوا قد صعدوا على متن السفن بعد، عادوا أدراجهم إلى بلادهم، وتخلوا عن رحلة الحج، قائلين إنهم لا يمكن أن يضعوا أنفسهم أبداً تحت رحمة مياه البحر الغادرة».

«ولكننا إذ وضعنا أملنا فى الرب العظيم فى أعماقنا، مع الأشرعة وقد رفعت مرة أخرى، ودوى صوت الطبول عاليًا، اندفعنا إلى البحر، على حين كانت الريح تهب فى لطف. وبعد أن توقفنا فى أعالى البحار ثلاثة أيام بسبب سكون الريح، وفى اليوم الرابع [١] وصلنا إلى أرض تبعد حوالى عشرة أميال عن مدينة درازو Durazzo حسب تقديرى . وقد أرسينا أسطولنا فى مينائين. ثم واصلنا رحلتنا البرية فى سرور واقتربنا من المدينة التى ذكرناها من قبل.

« وقد مضينا فوق أرض البلغار، فى مناطق جبلية وأماكن صحراوية إلى حد ما. ثم وصلنا جميعًا إلى النهر السريع الذى يسميه سكان تلك الأماكن بنهر الشيطان، وهو اسم يستحقه. لأنه كان هناك إناس عديدون، غالبهم التيار القوى فجأة، فهلكوا وهم يحاولون الخوض فيه خطوة فخطوة. ولم يستطع أحد من الذين شاهدوا المنظر مساعدتهم. وهناك أرقنا دموعًا غزيرة حزنًا عليهم وشفقة بهم، ولو لم يقدم الفرسان مساعدتهم للسائرين على أقدامهم، لفقد كثيرون حياتهم بنفس الطريقة. ثم أقمنا معسكرنا قرب ضفة النهر، وهناك توقفنا ليلة واحدة. وكانت الجبال الشاهقة غير المألوفة تطل علينا كالأبراج من كل اتجاه.

« وفى الصباح الباكر عندما لاح ضوء النهار، ومع دقات الطبول والإشارات ، بدأنا نتسلق التى يسمونها الباجولاتس [الباجورا] . وبعد أن عبرنا المدن الجبلية مثل لوكريتيا، وبوتيلا، وبونفينات، وستيلا، وصلنا إلى نهر يسمى بارديابوس [فردار]. وكان من المعتاد عبوره بواسطة القوارب فقط، ولكن بمساعدة الرب أمكننا أن نعبره، وفرحنا لهذا. وعندما عبرناه ضربنا خيامنا فى اليوم التالى قبالة تسالونيكا ، وهى مدينة تنعم بكل البضائع.

« وبعد أن تأخرنا هناك أربعة أيام [٢] ، ذهبنا من هناك إلى مقدونيا عبر وادى فيليبى[٣].

---

(١) التاسع من أبريل سنة ١٠٩٧م.

(٢) من ٢٢ إلى ٢٦ أغسطس .

(٣) وادى نهر سترايمون.

ثم عبرنا كريسوبوليس إلى خريستوبوليس، وبارتيوريا، ومسينوبوليس، وماكرا، وترايانا بوليس وينابوليس، وباناذوكس، وهيراكليا، وسالوميريا، وناتورا ثم القسطنطينية(١). وبعد أن ضربنا خيامنا أمام المدينة استرحنا على مدى أربعة عشر يوماً.

« ولأنه لم يكن باستطاعتنا أن ندخل المدينة، لأن الإمبراطور لم يسمح بهذا (إذ كان يخشى أن ننتهز الفرصة ونتآمر للإضرار به) ، فقد كان من الضرورى أن نشترى من خارج الأسوار ما نحتاج إليه من مؤن يوميا، وكان سكان المدينة يحضرون إلينا بناء على أوامر الإمبراطور. ولم يكن مسموحًا سوى لخمسة أو ستة أفراد بالدخول إلى المدينة مرة كل ساعة وهكذا كان البعض يخرجون ثم يدخل البعض الآخر للصلاة فى الكنائس.

« آه . يا لها من مدينة ممتازة وجميلة ! كم بها من الأديرة والقصور، التى شيدت بمهارة وفقًا لطرز مدهشة . وكم من الأعمال الباهرة تصافح النظر فى شوارع المدينة وأحيائها! سيكون أمراً مضجراً أن نعدد وفرة كل أصناف البضائع الموجودة هناك ! من الذهب، والفضة، وأنواع عديدة من العباءات ، والذخائر المقدسة. وفى كل فصل من فصول السنة، يحضر التجار ، الذين يفدون كثيراً عن طريق البحر، إلى هذا المكان كل ما يمكن أن يحتاجه الإنسان. وفى ظنى أن بالمدينة حوالى عشرين ألف خصى يقيمون هناك باستمرار..»

رحلة بوهيموند النورمانى (*)

« بالنسبة لبوهيموند، ذلك المحارب العظيم، فقد كان يحاصر أمالفى عندما سمع أن جيشًا ضخمًا من الحجاج الفرنجة قد وصل، وفى طريقه إلى الضريح المقدس وقد تأهب لقتال الوثنيين. ومن ثم بدأ يستفسر بحذر عن الأسلحة التى يحملونها، والشارة التى يتقلدونها فى حجهم للمسيح وصيحة الرب التى يصيحونها فى المعركة. وقيل له « إنهم مسلحون جيداً، وهم يضعون شارة صليب المسيح على سواعدهم اليمنى أو بين أكتافهم، وصيحة الحرب التى يصيحون بها جميعًا هى «إرادة الرب، إرادة الرب». وحينئذ أمر بوهيموند، بوحى من الروح القدس، بأن تمزق أغلى عباءة يملكها لتصنع صلبانًا، وبدأ معظم الفرسان الذين كانوا فى الحصار يلحقون به فى الحال، فقد ملأتهم الحماسة، لدرجة أن الكونت روجر (٢) كاد أن يبقى

---

(١) فى ١٤ مايو سنة ١٠٩٧م.

(*) Gesta Francorum, pp. 7-12.

(٢) هو عم بوهيموند والأخ الأصغر لأبيه روبرت جويسكارد.

بمفرده، وعندما عاد إلى صقلية حزن ونعى حظه لأنه فقد جيشه. وذهب سيدى بوهيموند إلى وطنه [١]، وبدأ يستعد بحرص للإنطلاق على الطريق إلى الضريح المقدس. وبعد ذلك عبر البحر بجيشه وذهب معه تانكرد ابن الماركيز[٢]، وريتشارد الذى من الإمارة وأخوه رانولف، وروبرت الآنسى، وهرمان الكانسى، وروبرت السورديفالى، وروبرت فيتز ـ رالف، وريتشارد ابن الكونت رانولف، وكونت روسينجلو وأخوته، بويل الشارترى وأوبرى الكاجنانوى وهومفرى أمير جبل سكاجليوسو [٣]. وقد عبر أولئك جميعًا على نفقة بوهيموند ووصلوا إلى غرب مقدونيا، حيث وجدوا وفرة من الغلال والنبيذ وغيرها من أنواع الطعام، ثم واصلوا سيرهم حتى وادى اندرونوبوليس وانتظروا رجالهم حتى استكملوا العبور ثم دعا بوهيموند مجلسًا للإنعقاد لتشجيع رجاله ولكى يحذرهم بوجوب إتباع السلوك المهذب وأن يحجموا عن النهب فى هذه الأراضى التى يمتلكها المسيحيون ، وقال إنه لا يجب أن يأخذ أحد أكثر مما يحتاجه لطعامه[٤].

« ثم انطلقنا ورحلنا عبر بلاد غنية جداً من قرية لأخرى، ومن مدينة إلى غيرها، ومن قلعة إلى أخرى حتى وصلنا إلى كاستوريا حيث احتفلنا بعيد الميلاد ومكثنا بضعة أيام نحاول شراء المؤن والأطعمة، ولكن السكان رفضوا أن يبيعونا شيئًا، لأنهم كانوا يخافوننا كثيراً، فقد ظنوا أننا لسنا حجاجًا، واعتقدوا أننا لصوص نهابون جئنا نخرب الأرض ونقتل الناس. ولذا استولينا على الثيران والخيول والحمير وكل ما وجدناه ثم تركنا كاستوريا لندخل بالاجونيا حيث كانت هناك قلعة للهراطقة. وهاجمنا هذا المكان من كل الجوانب وسرعان ما سقط فىّ أيدينا وأشعلنا فيه النيران التى أحرقت القلعة بسكانها سويًا[٥]. وبعد ذلك وصلنا إلى نهر

---

(١) تارنتو

(٢) إبن أخى بوهيموند، وكان أصغر القادة الصليبيين، فلم يكن قد بلغ العشرين فى ذلك الوقت.

(٣) كان أولئك هم الأمراء النورمان والفرنجة الذين يحوزون إقطاعات فى جنوب إيطاليا، وبحكم القانون الإقطاعى ، كان عليهم الذهاب فى حملة بوهيموند.

(٤) كان بوهيموند قد حارب ضد الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس من قبل سنة ١٠٨٤/ سنة ١٠٨٥م. ويبدو أنه كان حريصًا على أن يترك انطباعًا جديداً لدى الإمبراطور ليكسب ثقته، لأنه كان يأمل فى أن يحصل لنفسه على إمارة فى أراضى الإمبراطورية.

(٥) ربما كانوا من المانوية الذين كانوا تتواجد منهم أعداد كبيرة فى البلقان. والكاتب هنا كاثوليكى متعصب أعتقد أن قتل الهراطقة أمر صحيح وعادل، ولهذا غضب تمامًا عندما قامت القوات البيزنطية بالإنتقام لما فعله الصليبيون بهذه القلعة عندما هاجمت جيش بوهيموند عند نهر فاردار فيما بعد.

فاردار، وعبر سيدى بوهيموند ببعض رجاله، ولم يعبر بهم جميعًا لأن كونت روسيجنولو وأخوته بقوا بالمؤخرة. وجاء جيش الإمبراطور وهاجم الكونت وأخوته ورجالهم، وعندما سمع تنكرد بهذا عاد للخلف وغاص فى النهر وسبح حتى عبره ليلحق بالآخرين ومعه ألفان من رجاله. ووجدوا التركبولى والبشناق مشتبكين فى القتال ضد رجالنا، ولذا قاموا بهجوم مفاجئ جسور، ولأنهم كانوا رجالاً مجربين هزموا العدو وأخذوا عديداً من الأسرى وقيدوهم وساقوهم إلى سيدى بوهيموند. وقال لهم «أنتم أيها الأوغاد، لماذا تقتلون رجال المسيح ورجالى؟ ليس بينى وبين إمبراطوركم أى نزاع» فأجابوا : «إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا غير ذلك. نحن تحت أمر الإمبراطور، ويجب علينا أن نطيع أوامره أيا كانت». وتركهم بوهيموند يذهبون. وقد جرت هذه المعركة فى اليوم الرابع من الأسبوع ...» (١).

« وأمر الإمبراطور الشرير واحداً من رجاله كان مقربًا جداً إليه وكانوا يسمونه Kyriopalatios [أى سيد القصر] لكى يصحب رسلنا حتى يرشدنا ويقودنا عبر بلاده بسلام حتى نصل القسطنطينية. وحيثما كنا نمر بأية مدينة من مدنهم كان هذا الرجل يطلب من الناس أن يحضروا لنا المؤن والأغذية مثلما كان يحدث من قبل كما ذكرنا. وكان واضحا أن خوفًا كبيراً من قوة سيدى بوهيموند كان يملك عليهم قلوبهم لدرجة أنهم لم يكونوا يسمحون لأى من رجالنا بالدخول إلى المدن. وأراد رجالنا أن يهاجموا إحدى القلاع ويستولون عليها، لأنها كانت مليئة بالبضائع من كل نوع، ولكن بوهيموند الجسور لم يكن ليسمح بذلك، لأنها كان يريد أن يعامل البلد بعدالة وأن يحفظ عهده مع الإمبراطور، ولذا فإنه استشاط غضبًا من تنكرد والآخرين. وقد حدث هذا ذات مساء ، وفى الصباح التالى ظهر سكان القلعة فى مسيرة، وهم يحملون الصلبان بأيديهم، حتى وصلوا إلى حضرة بوهيموند الذى استقبلهم بمرح وجعلهم ينصرفون فرحين بلقائه لهم. وبعد ذلك وصلنا إلى بلدة تدعى سيرس، وهناك عسكرنا وكان معنا من المؤن ما يكفى فترة الصيام الكبير. وبينما كنا فى هذا المكان عقد بوهيموند اتفاقًا مع اثنين من رؤساء القصر Kyriopalatioi، وبسبب صداقته معهم ورغبته فى أن يعامل البلاد بعدالة أمر بإرجاع كل الحيوانات التى كان رجالنا قد سرقوها واحتفظوا بها. وبعد ذلك وصلنا إلى مدينة روسا. وخرج السكان اليونانيون واقتربوا من سيدى بوهيموند وهم فرحون، وجلبوا لنا كمية وافرة من المؤن، ولذا فقد ضربنا خيامنا هناك فى يوم الأربعاء

(١) ١٨ فبراير ١٠٩٧م.

من الأسبوع المقدس (١). وبينما كنا هناك ترك بوهيموند جيشه، وذهب رأساً إلى القسطنطينية مع قلة من الفرسان لكي يتشاور مع الإمبراطور. وبقى تنكرد فى الخلف مع جيش المسيح، وعندما رأى أن الحجاج يشترون الطعام راودته فكرة الإنحراف عن الطريق حتى يصل بالناس إلى مكان يمكنهم أن يعيشوا به عن سعة ؛ ولذا دخل فى وداى معين به كل صنوف الخيرات والأطعمة وهناك احتفلنا بعيد الفصح بتقوى عظيمة ».

رحلة ريمون أمير تولوز وأديمار أسقف لوبوى

١ ـ رواية ريمون الأجويلرى (*)

كان ريمون هو القسيس الخاص لريمون السانجيلى، كونت تولوز، وقائد الفرقة البروفنسالية فى الحملة الصليبية الأولى، والذى كان من أوائل الأمراء الذين أخذوا شارة الصليب. والكتاب الذى كتبه ريمون الأجويلرى يكتسب أهمية خاصة فى متابعة أحداث الحملة الأولى بعد أحداث أنطاكية، وهو من أفضل المصادر عن المراحل الأخيرة من الحملة الصليبية الأولى، وإن كانت كتابته ذات طابع دعائى منحاز (**).

« بينما كان الصليبيون يتقدمون فى أراضى السلاف عانوا كثيراً من الخسائر على الطريق، لاسيما وأن الرحلة جاءت فى فصل الشتاء. وكانت سلافونيا صحراوية بلا مسالك وجبلية بحيث لم نر فيها حيواناً أو طيراً على مدى أسابيع ثلاثة. وكان سكانها أجلافاً خشنى الطباع لدرجة أنهم رفضوا أن يبيعوا لنا أو يشتروا منا، كما رفضوا أن يقدموا لنا الأدلاء والمرشدين، ولكنهم كانوا يهربون من قراهم وقلاعهم. والواقع أنهم كانوا يذبحون كالسائمة المسنين الضعفاء، أو الفقراء المنهكين الذين اقتضى ضعفهم أن يتخلفوا بمسافة خلف جيشنا. وفى وسط الجبال المنحدرة والغابات الكثيفة لم يكن من السهل على فرساننا المسلحين أن يطاردوا العصابات غير المسلحة من اللصوص العارفين بالبلاد. ولكنهم عانوا منهم باستمرار، لعدم قدرتهم على قتالهم أو الإمتناع عن القتال. ويجب ألا نغفل عملاً رائعاً قام به الكونت ذلك

(١) أول أبريل ١٠٩٧.

(*) Peters, pp. 118- 121.

(**) فهو ينحاز بصراحة ضد الآخرين مثل المجريين وسكان الإمبراطورية البيزنطية، على حين يمتدح الأعمال الوحشية لسيده الكونت ريمون السانجيلى.

أنه حينما راوغ السلاف الكونت وبعض فرسانه لوقت قصير، هاجمهم وقبض على ستة منهم. وحينما ضغط عليه السلاف لهذا السبب بعنف أكثر، واضطر الكونت لمتابعة جيشه، أمر بأن تسمل عيون بعض الأسرى، وقطع أرجل البعض، ونزع أنوف وأيادى البعض الآخر، وهكذا فإنه بينما كان المطاردون من السلاف مأخوذين بهذا المشهد وانشغلوا بأحزانهم ، مكن من الهرب بسلام هو ورفاقه. وهكذا، فإنه بفضل رحمة الرب نجا من الموت ومن هذا الموقف الصعب....

« والواقع أنه ليس من السهل أن نحكى عن الشجاعة والحكمة التى أبداها الكونت فى الإقليم. لأننا قضينا فى سلافونيا ما يقرب من أربعين يومًا، واجهنا أثناءها سحبًا بلغت من الكثافة أننا كنا نشعر بها وندفعها أمامنا بحركة خفيفة. وفى خضم هذا كله، كان الكونت يقاتل بلا انقطاع فى مؤخرة الجيش دفاعًا عن قومه. ولم يكن الأول أبدًا ، وإنما كان هو دائمًا آخر من يضرب خيامه، وعلى الرغم من أن الآخرين كانوا يذهبون للراحة فى منتصف النهار، أو فى الأمسيات، فإن الكونت غالبًا ما كان يؤجل وقت راحته إلى منتصف الليل، أو عندما يصيح الديك (أى وقت السحر) . وأخيرًا ، وبفضل رحمة الرب ، وبفضل عمل الكونت ونصيحة الأسقف، عبر الجيش سلافونيا سالمًا بحيث لم نفقد أحدًا بسبب الجوع، ولم نخسر أحدًا فى معركة مفتوحة.. وبهذا الخصوص أشهد بأن الرب أراد لجيشه أن يعبر سلافونيا، حتى يدرك المتهورون الذين لا يعرفون الرب، شجاعة وصبر فرسانه، وبذلك إما يقللون من وحشيتهم أو يقعون تحت طائلة العدالة الربانية دون أن يكون لديهم عذر ما. ثم وصلنا، بعد مشاق عديدة إلى ملك السلاف فى سكوتارى، وأقسم الكونت يمين الصداقة معه، ودفع له جزية كبيرة، حتى يمكن أن يشترى ويحصل على ضرورياته بسلام. ولكن هذه التوقعات ذهبت سدى، لأننا دفعنا الثمن الكافى للسلام الذى ننشده ، و لكن السلاف الذين كانوا يثيرون المتاعب بطريقتهم المعتادة، أخذوا يقتلون رجالنا، ويسلبون غير المسلحين كل ما يمكنهم أخذه. ولم نكن نريد الثأر أو الإنتقام، ولكننا كنا ننشد مكانًا نحتمى فيه. وهكذا فهناك الكثير يحكى عن سلافونيا.

« ووصلنا إلى دورازو، وكنا نظن أننا فى بلادنا، لأننا اعتقدنا أن الإمبراطور وتابعيه إخوة وأعوان لنا . والواقع أنهم كانوا يهاجمون الناس المسالمين، الذين كان السلاح آخر ما يفكرون فيه، وكأنهم أسود ضارية. وكانوا يذبحونهم فى أماكن سرية؛ ويسرقون ما يقدرون عليه ليلاً،

فى الغابات ، وفى القرى البعيدة عن المعسكر، وعلى الرغم من أنهم كانوا يثيرون الشغب على هذا النحو، فإن زعيمهم وعد بالسلام. ولكن خلال فترات السلم، قتلوا بونتيوس رينالد، وأحدثوا بأخيه بطرس ، جرحًا قاتلاً، وكان هذان أميرين نبيلين للغاية. وعلى أية حال، حينما سنحت لنا فرصة الإنتقام، آثرنا أن نواصل الرحلة بدلاً من أن ننتقم لأخطائنا. وفى الطريق تلقينا من الإمبراطور رسائل تدعو للسلام، والإخوة ، والتحالف أيضًا؛ وعلى أية حال، كان هذا مجرد تلاعب بالألفاظ. لأنه من الأمام والخلف، وعن اليمين والشمال، كان الأتراك والكومان، والأوزى والتناك والبشناق والبلغار يعدون لنا الكمائن والفخاخ.

« وذات يوم ، عندما كنا فى وادى بلاجونيا ، وقع أسقف لوبوى الذى كان قد ابتعد مسافة قصيرة عن المعسكر سعيًا وراء مكان مريح يستجم فيه من التعب ـ وقع أسيرًا فى أيدى البشناق. فقد طرحوه أرضًا عن بغله، وسرقوا ما معه، وضربوه بوحشية فوق رأسه. ولكن لأن أسقفًا عظيمًا كهذا كان شعب الرب بحاجة إليه فإن الرب برحمته أنقذ حياته. لأن البشناق تولوا حمايته من الآخرين بغية الحصول على الذهب منه. وفى الوقت نفسه، وصل صوت الضجيج إلى المعسكر، وهكذا تم إنقاذه فيما بين تلكؤ أعدائه وهجوم أصدقائه.

« وعندما وصلنا فى خضم هذا النمط من الخيانة إلى قلعة تدعى بوكينات Bucinat، علم الكونت أن البشناق ينوون مهاجمة جيشنا فى ممرات أحد الجبال. ومكث مختفيًا مع بعض فرسانه حتى إذا أقبل البشناق أنقض عليهم، وبعد أن قتل عدة منهم، ألجأ الباقين إلى الفرار. وفى الوقت نفسه، كانت الخطابات السلمية تصلنا من الإمبراطور، ومع ذلك فإن العدو [البيزنطى] أحاط بنا من كل اتجاه بخطة شريرة. وعندما وصلنا إلى تسالونيكا، سقط الأسقف مريضًا وبقى بالمدينة بعد رحيلنا مع فئة قليلة من الرجال.

« بعد هذا ، وصلنا إلى مدينة معينة، اسمها روسا ، وهناك أظهر لنا أهلوها نيتهم على لقائنا بالشر، مما جعل صبرنا المعتاد ينفد. ولذا حملنا السلاح ، ودمرنا الأسوار الخارجية واستولينا على غنائم هائلة، وأجبرنا المدينة على التسليم؛ ثم أخذنا بيارقنا وأعلامنا إلى داخل المدينة ونحن نصيح «تولوز» (١) وهى صيحة القتال الخاصة بجيش الكونت ، ثم رحلنا.

---

(١) كانت هذه صيحة الحرب الخاصة بجيش ريمون الإقطاعى التى رددوها بدلاً من صيحة الحرب الصليبية. ولم تكن مصادفة أن ينسى «جنود الرب» صيحة الحرب التى اتخذوها شعارًا لحملتهم ويستخدمون صيحة الحرب الاقطاعية التى اعتادوا على استخدامها فى الغرب الأوربى. فقد كان شعور الغالبية منهم أنهم فى الطريق لخوض حرب يحققون بها مكاسب خاصة بهم.

« ووصلنا إلى مدينة أخرى ، تدعى رودوستو، وهناك حاول الفرسان العاملون فى خدمة الإمبراطور أن ينتقموا منا، وقتلنا منهم الكثيرين ، وغنمنا أسلابًا كثيرة. وهناك أيضًا، جاء إلينا الرسل الذين كنا قد أرسلناهم إلى الإمبراطور قبلنا، ولأنهم أخذوا أموالاً منه وعدونا بأن كل شىء سيكون على ما يرام مع الإمبراطور. وماذا غير ذلك؟ إن الرسالة التى أحضرها رسلنا ورسل الإمبراطور كانت تتضمن دعوة الكونت بأن يسرع للقاء الإمبراطور مع عدد قليل من رجاله تاركًا الجيش وراءه. لأنهم قالوا إن بوهيموند، ودوق اللورين، وكونت الفلاندرز، وغيرهم من الأمراء كانوا يرجون الكونت أن يسرع ليتفق مع الإمبراطور بشأن المسير إلى القدس. وأن الإمبراطور بعد أن أخذ شارة الصليب، سيكون هو قائد جيش الرب. وبالإضافة إلى ذلك، ذكروا أن الإمبراطور قال إنه سيقوم بعمل كل الترتيبيات مع الكونت، سواء فيما يتعلق بهم أو بأى شىء ضرورى للرحلة. فضلاً عن أنهم أعلنوا ، أن المعركة هائلة ، وبدون دعم من مثل هذا الرجل العظيم فربما لا تكون لصالحهم؛ ولذا فإن الكونت ينبغى أن يحث الخطى مع عدد قليلٍ من رجاله قبل جيشه، حتى إذا ما وصل الجيش ، يكون قد تم ترتيب كل شىء مع الإمبراطور، وبذلك لن يكون هناك تعطيل لأحد. وأخيراً، اقتنع الكونت بأن يسبق جيشه، وبمفرده تاركًا حرسه خلفه فى المعسكر. وهكذا ذهبنا دون سلاح إلى القسطنطينية».

رحلة جودفرى البويونى (*)

١ـ رواية وليم الصورى

« وفى هذه السنة نفسها، ١٠٩٦ من تجسد سيدنا، فى الخامس عشر من شهر أغسطس، جمع السيد النابه العظيم جودفرى [1]، دوق اللورين، رفاقه من الحجاج، ورتب متاعه بالطريقة المعتادة وبدأ مسيرته. وكان هذا بعد رحيل بطرس الناسك والكارثة المروعة التى حلت بجيشه، والتى حكينا عنها، وبعد مذبحة جيش جوتشوك التى ذكرناها أيضًا، وبعد المصيبة التى جرت على حدود المجر، والتى تحدثنا عنها من قبل، والتى قيل إنها جرت على الجيش الذى جاء بعد جيش جوتشوك.

« والرجال الكرام من الطبقة الراقية الذين يستحقون الذكر إلى الأبد، والذين انضموا إلى معسكر جودفرى، هم : السيد بلدوين أخوه من نفس الأم؛ والسيد بلدوين المونسى كونت هينولت، والسيد هيو كونت سان بول وابنه وابنة انجراند، وهو شاب ذو مقدرة طبيعية ممتازة؛ وكونت جارنيير الشهير بجراى؛ والسيد رينارد كونت تول وأخوه بطرس والسيد بلدوين البورجى، وهو من أقارب الدوق ، والسيد هنرى أمير إيسك وأخوه؛ ودودو الكونتى؛ وكونون المونتاجوى؛ وكثيرون غيرهم لا نذكر أعدادهم أو أسماءهم. وكل هؤلاء ساروا فى سلام فى عصبة واحدة متحدة ووصلوا سالمين فى العشرين من سبتمبر إلى مكان فى مقاطعة أوستريا يدعى تولنبرج. وهنا يشكل نهر ليتا الخط الفاصل بين أراضى الإمبراطورية ومملكة المجر.

« وعندما وصلوا إلى هذه المدينة إنتابتهم كآبة شديدة حين عرفوا بأنباء الكارثة التى قيل إنها جرت على جوتشوك وجيشه. وتشاوروا فيما بينهم حول الطريق الآمن الذى ينبغى أن يسلكوه لكى يقوموا بالمهمة التى أخذوها على عاتقهم. وأخيرًا ، اتفقوا بالإجماع على أن

(*) William of Tyre, II, pp. 116.

(١) ولد جودفرى البويونى سنة ١٠٦٠م، فى بولونيا البحر .Boulogne-Sur_Mer على ما يرجح. وكان أبو ايوستاس الثانى كونت بولونيا، وأمه إيدا Eda إبنة جودفرى الملتحى دوق اللورين الأدنى. كان يعمل فى خدمة الامبراطور الألمانى هنرى الرابع، وشارك فى حملته على إيطاليا ١٠٨١ ـ ١٠٨٤. وفى الوقت الذى كتب فيه وليم الصورى كتابه كانت الأساطير قد جعلت من شخصية جودفرى الحقيقية صورة خفية تحت ركام الأساطير حول الرجل الذى كان أول حكام مملكة بيت المقدس اللاتينية، على الرغم من أنه لم يحمل لقب «ملك».

يرسلوا سفارة للك المجر ليتأكد بشكل أوثق من السبب الذى جعل أخوتهم الذين سبقوهم يهلكون على هذا النحو فى هذه الأرض. كذلك كان على الرسل أن يجدوا فرصة لعقد اتفاق سلام مع الملك، وأن يطرحوا جانبًا الشكاوى المتعلقة بالمنازعات السابقة، وأن يرتبوا لضمان مرورهم بحرية عبر البحر. لأن البحث عن طريق آخر، بعد أن بدأوا مسيرتهم بالفعل، سوف يسبب لهم خسارة ومضايقة شديدة. وبناء على ذلك، تم إرسال النبيل جودفرى الأيسكى، شقيق هنرى، ومعه عدد آخر من كرام الرجال للقيام بهذه المهمة، إذ كانت تربطه بالملك صداقة قبل عدة سنوات. وعندما مثل جودفرى بحضرة الملك حياه التحية الواجبة، ثم قام بأداء الواجب المنوط به فى أمانة، وبدأ يتكلم على النحو التالى :

« إن النبيل المعروف جودفرى، دوق لوثرنجيا ، وغيره من القادة، من عباد الرب الذين يرافقونه فى طاعة مخلصة للرب، قد أرسلونا إلى جلالتكم. وهم يرغبون فى أن يعرفوا عن طريقنا لماذا يلقى قوم مسيحيون، والذين وجدنا بقاياهم متناثرة على طول الطريق، يلقون مثل هذه المعاملة غير الإنسانية من جانبكم وأنتم أمة تشتهرون بأنكم مؤمنون. وربما كان حظهم من السلامة سيكون أوفر لو أنهم مروا عبر بلاد معادية. فإذا كانت أخطاء مثل أولئك الناس تستحق مثل هذا العقاب العظيم، فإن أولئك الذين أرسلونى على استعداد لتحمل هذه الخسارة بنفس راضية. لأن أى عقاب يوقع بسبب عادل لا يثير الغضب ويجب تحمله فى صبر. ولكن إذا كان الأمر غير ذلك، وإذا كنتم قد هاجمتهم الأبرياء دون سبب وقتلتموهم، فإن قادتنا لا يمكن أن يتغاضوا عن الأخطاء التى ارتكبت فى حق خدام الرب ولكنهم مستعدون للإنتقام لدماء إخوتهم. ومن ثم فإنهم ينتظرون منا إجابة على هذه المسائل وسوف يتخذون قرارهم وفقًا لمضمون الإجابة» . وبهذه الكلمات أنهى خطبته.

« وأجاب الملك الذى كان أتباعه يحيطون به، كما يلى : «إنه يسرنا ، يا جودفرى الحبيب، يا من أسدينا لك منذ زمن معروفًا تستحقه عن جدارة، إنك جئت إلينا، لا لكى نجدد صداقتنا القديمة فحسب، ولكن أيضًا لكى نؤكد براءتنا أمام قاصد حكيم مثلك. فإننا ، حقًّا كما تقول، من بين المؤمنين، وستفصح أعمالنا عن جدارتنا بهذا الإسم. ولكن أولئك الذين سبقوكم، من أتباع بطرس الناسك وأتباع جوتشوك، وأولئك الذين حاولوا الاستيلاء عنوة على إحدى قلاعنا على حدود المملكة وأن يدخلوا بلادنا بالقوة، لم يكونوا من أتباع المسيح إسمًا أو فعلاً. ففى بداية الأمر استقبلنا بطرس ورفاقه بكرم الضيافة وقدمنا لهم ما لدينا من بضائع مجانًا أو

بأسعار عادلة. ولكنهم ، مثل الثعبان فى الصدر، أو فأرًا فى خزانة الملابس، أزعجوا مضيفيهم بشكل مزرى. إذ أنهم بدلاً من أن يعبروا عن شكرهم للمكاسب التى أسبغت عليهم، انطلقوا يعبثون فى إحدى مدننا على أطراف حدود المملكة، وقتلوا أعدادًا كبيرة من السكان، ورحلوا فى عنف كاللصوص يسوقون قطعان الماشية والأغنام، وما نهبوه من المكان. وبغض النظر عن هذه المشاغبات، فإننا قابلنا جيش جوتشوك دون صعوبة أو متاعب، وكأننا لم نلق شيئًا من المتاعب والأخطاء من الجيش الذى سبقه. وفى المقابل، لم يترددوا فى القيام بأعمال السلب والنهب، وارتكاب أعمال العنف، والإحراق ، بل إنهم قاموا بارتكاب المذابح متذرعين بذرائع غاية فى التفاهة. وهكذا استجلبوا غضب الرب بسبب ضخامة جرائمهم.

«ولأننا لم نستطع أن نتحمل أكثر من ذلك الأخطاء التى ارتكبت فى حق رعايانا، فقد أولينا انتباهنا لعلاج هذه الأوضاع الخطيرة. ونظرًا لخبرتنا السابقة، رأينا أن من المناسب أن نمنع هذه الشرائح من غير الأتقياء الذين يكرههم الرب، من دخول مملكتنا، حتى لا نعانى للمرة الثالثة من الأذى على أيديهم. وذلك أفضل كثيرًا من أن نتعرض للإهانات والخسائر الجسيمة على أيديهم، أو نحاربهم كأعداء. ولذا يكفى أننا قدمنا هذه التفاصيل كعذر لنا لك أيها الرجل الحكيم الحصيف. وأقسم بالرب أننا ذكرنا الحقيقة كما هى بالضبط ».

« وبهذه الكلمات ، أمر بمعاملة الرسول بكرم واحترام عظيم حتى يستطيع ، بعد التشاور مع شعبه ، أن يرسل لزعمائنا الرسل بالإجابة المناسبة . و أخيرًا ، أرسل إلى الدوق والزعماء بعض أهل بيته مع الرسل . وحملوا هذه الرسالة :

« لقد سمعنا ، والواقع أننا عرفنا منذ وقت طويل ، أنك تعتبر بحق أميرًا عظيمًا، شهيرًا، ومحترمًا بين شعبك، وأن الرجال الحكماء ، مهما بعدت بهم البلاد ، يعجبون بإخلاص عقيدتك، وبصفاء سريرتك ، وحميد خصالك. ونحن أيضًا ، جذبنا أريج إسمك الطيب، والحمية والحماسة التى تؤدى بها عملك ، فقصدنا أن نرعاك حتى فى غيابك ، وأن نشرفك بصنيع عظيم نسدية لك. ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء فى قافلتك، الذين ألهبتهم الحماسة المسيحية مثلك، قد أخذوا على عاتقهم القيام بعمل تقى. وبما أننا لا نرغب فى أن تنتهك الفضائل التى تساعد على كسب الأصدقاء فيما بيننا، فنحن على استعداد لأن نمد تجاههم حبال المودة والعطف، وأن نرتبط معهم فى العمل برباط العطف الأخوى.

« وبناء عليه ، فطالما أن الفرصة تطرح نفسها على هذا النحو ، فإننا نرجو أن توافقوا على

الحضور إلى قلعتنا سيرون، حتى يمكننا أن نعقد معكم مؤتمراً طويلاً كما نحب ويكون بوسعنا أن نصل إلى اتفاقية ترضون عنها ».

« وبعد أن سمع الدوق مندوبى الملك وتشاور مع أصدقائه ، ذهب فى اليوم المحدد إلى المكان المحدد ومعه ثلاثمائة من فرسانه اختارهم من بين أتباعه . وبعد عبور الجسر، وجد هناك الملك الذى استقبله بمودة كبيرة وأسبغ عليه الكثير من مظاهر التشريف. وأظهر الجانبان كثيراً من دلائل المودة والصداقة ، وأخيراً تم الإتفاق على تقديم رهائن من بين النبلاء وعلى طرح جميع الضغائن جانباً ، وإقرار السلم من جديد. وبناء على هذه الشروط منح الملك للدوق الإذن بدخول المملكة بقواته .

« ولكى يضمن مزيداً من الأمن، لكى يسمح لمثل هذا الجيش الضخم الذى قد تغريه كثرته وشجاعته فيسبب الازعاج للملكة تحت أى ذريعة ، فطلب الملك أن يكون بلدوين شقيق الدوق وزوجته وأهل بيته من بين الرهائن . وقد رحب الدوق بهذا المطلب وسلم أخاه رهينة وفقًا للشروط المحددة ، وقاد قواته داخل المملكة . وعلى ذلك ، أوفى الملك بوعده فى إخلاص، وأصدر مرسوماً بأن تقدم الأغذية الضرورية للقوات حيثما مرت فى أى مكان فى جميع أنحاء المملكة بسعر عادل وبالوزن العادل، كما يجب أن يكون هناك سوق للأدوات برفقة الجيش.

« وأمر الدوق ، من جانبه ، بأن ينادى فى المعسكر ، بأن من يجرؤ على نهب القادمين إلى الجيش أو يستخدم القوة ضدهم سوف تكون عقوبته الإعدام ومصادرة متاعه، وإنما يجب فى ظل روابط السلام، أن يقوموا بعمليات التبادل التجارية بروح من الود والتراحم.

« وهكذا، وبفضل رحمة الرب ، عبروا كل أراضى المجر دون عدوان من أى من الجانبين حتى بأقل كلمة. وكان الملك يصحب الرهائن معه ورافق الجيش المتقدم من جهة اليسار بقوات كبيرة من جيشه، على استعداد لإخماد أية اضطرابات قد تنشأ بحضوره.

« وعندما وصلوا سالمين أخيراً، تمهلوا على ضفاف نهر الساف حتى يمكن إعداد معبر للقوات. وإذ لم يكن هناك سوى عدد قليل من القوارب، ولم تكن تكفى إطلاقًا لنقل مثل هذا العدد الكبير من الناس، بنيت الطوافات والعوامات لهذا الغرض. وتم نقل ألف فارس كاملى التسليح إلى البوابة لحراسة الضفة الأخرى تحسبًا لأى كمين من جانب العدو، وحتى يمكن للجيش أن يجد مكانًا مناسبًا للراحة بعد عبوره. ثم عبر الحجاج إلى الجانب الآخر.

« ولم يكد القوم يجرون عبر النهر ومعهم بعض قوادهم، حتى تقدم الملك بسرعة ، ومعه قوة حراسة كبيرة وسلم بلدوين وزوجته وكل الرهائن الآخرين للدوق ، وفقًا لما اتفق عليه منذ البداية. ثم أنعم على الدوق والقادة الآخرين بهبات تشريفية ثمينة، وقفل عائدًا إلى بلاده. وعندما وصل بلجراد ، وهي مدينة في بلغاريا أشرنا لها من قبل، أقام معسكره هناك. وبعد أن تم ترتيب الأمتعة وتجهزت القوات للمسير، مروا خلال غابات بلغاريا الشاسعة ووصلوا أولاً إلى نيش ثم ستراليكيا...

« وسار الدوق بقواته خلال داشيا الوسطى المعروفة أيضًا باسم موئيسيا. وبعد أن مروا خلال الشعاب التي تشتهر باسم ممر القديس باسيل، نزلوا إلى بلاد مستوية بها وفرة من الطعام، ووصلوا إلى مدينة فليبوليس النبيلة والآهلة بالسكان. وهناك عرف أن هيو الكبير شقيق فيليب ملك الفرنج رهين الحبس في سجون الإمبراطور ومعه بعض النبلاء الآخرين . وفي الحال أرسل رسلا إلى هناك على وجه السرعة لمقابلة الإمبراطور ، ومعهم رسائل مكتوبة وشفوية، يطلب فيها إطلاق سراح أولئك الرجال، محذرًا إياه من أنهم قد أقسموا على القيام بنفس رحلة الحج وأنهم مسجونون دونما سبب على الإطلاق.

« هذا الرجل النابه، هيو، الذي كان أول من بدأ الرحلة من الزعماء، كان قد عبر جبال الألب في إيطاليا. ومن هناك ذهب إلى أبوليا ، وعبر البحر في حراسة قليلة وتوقف في دورازو انتظارًا للقادمين من بعده. ولم يكن يتصور إطلاقًا أنه يمكن أن يحدث شيء سيء له أو لرفاقه في مملكة اليونانيين، الذين كانوا يعدون من أتباع المسيح. ولكن حاكم هذه المنطقة قبض عليه ورماه في غياهب السجن، حتى يمكن تسليمه للإمبراطور ليعامله وفقًا لمشيئته. وكان الإمبراطور يحتجزه سجينًا، مثل أي لص أو قاتل. وكان ينتظر وصول الزعماء الذين قيل إنهم في الطريق، حتى إذا ما نجحوا في الوصول إلى هناك، يبدو وكأنه أطلق سراحه إكرامًا لهم، أما إذا حدث العكس، فقد كان قصده أن يسجنه مدى الحياة.

« وفي ذلك الوقت كان ثمة رجل مخادع شرير إسمه اليكسيوس وكنيته كومنينوس، يحكم الإمبراطورية اليونانية. وكان يعيش قبل ذلك في القصر الإمبراطوري...

« واقترب رسل الدوق من الإمبراطور، ووفقًا للتعليمات التي لديهم ، طلبوا بإلحاح إطلاق سراح هيو ورفاقه. وإذ رفض الإمبراطور هذا الطلب تمامًا، عادوا إلى الجيش الذي كان قد

مر آنذاك عبر آدريانوبل واستراح فى بعض أراضى المراعى. وعندما عرف الدوق والزعماء الآخرون من مبعوثيهم أن الإمبراطور لم يطلق سراح هؤلاء الرجال، اتفقوا جميعًا على نهب هذه النواحى بجيوشهم. ولأنهم بقوا هناك ثمانية أيام متصلة فقد خربوا هذه النواحى تمامًا. وما أن بلغت أنباء هذه الحوادث مسامع الإمبراطور، بادر بإرسال رسله إلى الدوق، ورجاه أن يوقف أعمال العنف التى تقوم بها قواته وأكد له أن الرجال النبلاء سيطلق سراحهم إستجابة لطلبه. ووافق الدوق مسروراً على هذا الترتيب ومنع القوات من القيام بأى أعمال نهب أخرى. ثم سار إلى القسطنطينية وقواته تحت السيطرة التامة. وهناك نشر خيامه وأقام جيشه الكبير القوى معسكره قبالة المدينة ...».

الصليبيون فى القسطنطينية
(أكتوبر ١٠٩٦ ـ مايو ١٠٩٧)

كان نهاية المرحلة الأولى من مسيرة حملة الأمراء الصليبية، والتى انتهت بوصول قواتهم تحت أسوار القسطنطينية، بمثابة صدام حضارى وسياسى بين الصليبيين والبيزنطيين. فقد بهرت المدينة الإمبراطورية أنظار الفرسان اللاتين القادمين من الغرب الأوربى الفقير والمتخلف. كان هذا هو لقاؤهم الأول مع الشرق، ولأنهم جاءوا من بلاد لا تكاد تعرف المدن، فإن القسطنطينية خلبت ألبابهم بقبابها الذهبية التى تسمو وسط السحب، وسكانها الذين فاقوا فى أعدادهم الغفيرة كل تخيلات فرسان الغرب. لقد كانت القسطنطينية بوابة الشرق الساحر الغامض.

ومن ناحية أخرى، بهت الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس بوصول الصليبيين الذين زعموا أنهم جاءوا لإنقاذه. ولأنه يعلم تمامًا استحالة كبح جماحهم، فقد آثر أن يتعامل مع زعمائهم بشكل منفرد، وعقد اتفاقًا مع كل منهم منفرداً . وتنوعت وسائله ما بين الهدايا والوعود، والمعارك العسكرية ، وقطع الإمدادات والمؤن، حتى نجح فى أن يحصل منهم جميعاً على يمين الولاء ، باستثناء ريمون السانجيلى الذى اكتفى بأن يقسم بحماية شرف الإمبراطور وحياته على الطريقة البروفنسالية. وهذه النصوص تحمل شهادات شهود العيان من مؤرخى الحملة الأولى على هذه الأحداث .

* * *

هيو الكبير الأمير الفرنسي
رواية أنا كومنينا (*)

« وثمة شخص يدعى هوف، شقيق ملك الفرنجة، بدافع من التفاخر بنبل مولده والثروة والسلطة، قرر أن يترك موطنه كما لو كان ذاهبًا في رحلة إلى الضريح المقدس. وعندما توصل إلى هذا القرار أرسل رسالة غير معقولة للإمبراطور أنه يجب استقباله بمزيد من التمجيد وأعلن في عبارات تفيض وقاحة وإهانة إلى الإمبراطور:

« فلتعلم أيها الإمبراطور أنني ملك الملوك ، أعظم من عاش تحت السماء. أن مشيئتي اقتضت أن تلقاني عند وصولي وأن تستقبلني بما يليق من الاحتفالات بشخصي النبيل » وعندما وصل هذا الخطاب إلى اليكسيوس، كان حنا ابن اسحق السباستوقراطور هو دوق تراقيا ، وكان نيكولاس مافر وكاتالون هو قائد الأسطول. وكان يرسي بأسطوله من حين لآخر في الميناء. ومن هذه القاعدة كان يقوم برحلات تفتيشية ليمنع سفن القراصنة من الإبحار خلسة. وفي ذلك الوقت أرسل الإمبراطور تعليمات إلى هذين الرجلين بأن يراقب الدوق البر والبحر ترقبًا لوصول هيو وأن يبلغ اليكسيوس حالما يصل؛ وأن يستقبله أيضًا الاستقبال اللائق، كما الزم قائد الأسطول بأن يبقى في حال من اليقظة الدائمة – إذ لا يجب حدوث أي استرخاء أو إهمال مهما كان بسيطًا. وصل هيو إلى ساحل لمباريا بسلام ومن هنا أرسل مبعوثيه إلى دوق تراقيا – وكان عددهم أربعة وعشرين ، مسلحين بالدروع على الصدور، والدروع الذهبية لحماية الرسل ومعهم الكونت وليم النجار والياس (الذي كان قد هرب من الإمبراطور إلى تسالونيكا) . وخاطبوا الدوق على النحو التالي :

« ليكن معلومًا لديك أيها الدوق ، أن سيدنا هيو على وشك الوصول. وقد أحضر معه من روما البيرق الذهبي للقديس بطرس [أعطاه البابا للجنود الذاهبين لمحاربة المسلمين]. ولتفهم أيضًا، أنه هو القائد الأعلى للجيش الفرنجي. ومن ثم فإنه يجب أن يعد له الإستقبال الذي يليق بمقامه، وأستعد أنت نفسك لمقابلته» . وبينما كان الرسل يسلمون هذه الرسالة، وصل هيو إلى لمباردبا عن طريق روما، كما قلت ، وأبحر من باري إلى إيلليرا، ولكن عاصفة هوجاء داهمته أثناء العبور. وخسر كثيرًا من سفنه وبحارته . ونجت سفينة واحدة هي سفينته التي

(*) Alexiad, pp. 313 - 315.

ألقتها رياح العاصفة على الشاطئ فيما بين تراقيا ومكان يدعى باليس، وقد جنحت وكادت أن تغرق. وبينما كان اثنان من حرس السواحل يرقبون وصوله شاهدا ما حدث وأنقذاه بمعجزة. وناداه قائلين : «إن الدوق ينتظر وصولك بشغف، وإنه متلهف على لقائك». وفى الحال طلب فرسًا فترجل أحدهما وأعطاه فرسه دون تردد. وعندما رآه الدوق، وقد تم إنقاذه بهذه الطريقة، وبعد أن حياه، سأله عن الرحلة وسمع منه عن العاصفة التى أغرقت سفنه. وشجع هيو بالوعود الحسنة ، وعمل على تسليته فى صحبة طيبة رائعة . وبعد الاحتفال سمح لهيو أن يستريح ، ولكنه لم يكن مطلق الحرية . وفى الحال قام الدوق حنا بإبلاغ الإمبراطور عن مغامرات الفرنجة وظل ينتظر التعليمات الجديدة. وبمجرد أن تلقى اليكسيوس هذه الأنباء أرسل بوتو ميتيس إلى إبيدامنوس (التى أسميناها تراقيا فى عدة مناسبات) لكى يحضر هيو فى حراسته، ليس عن الطيق المباشر، ولكن عن طرق آخر عبر فلبيوبوليس إلى العاصمة. وكان خائفًا من الجيوش الكلتية المسلحة القادمة وراءه . ورحب الإمبراطور بهيو وأسبغ عليه مظاهر التشريف ولم يلبث أن أقنعه بالهبات الكريمة وبكل دلائل الصداقة على أن يصبح تابعًا له، وأن يقسم بذلك على الطريقة اللاتينية» .

جودفرى البويونى
رواية المؤرخ المجهول (*)

« بعد هذا كان الدوق جودفرى هو أول من وصل من زعمائنا إلى القسطنطينية بجيش كبير، وقد وصل قبل عيد الميلاد بيومين، وعسكر خارج المدينة حتى يأذن الإمبراطور الشرير بتخصيص مكان له فى الضواحى. وعندما استقر الدوق، كان يرسل قواته يوميًا، فى ثقة تامة، للحصول على القش وغيره من الأشياء الضرورية للخيول؛ ولكن حينما ظنوا أنهم يستطيعون الخروج فى حرية إلى أى مكان يرغبون أمر الإمبراطور الشرير اليكسيوس قواته من التركبولى[1] والبشناق لمهاجمتهم وقتلهم. ولذا فإن بلدوين شقيق الدوق، عندما سمع بهذا، أعد كمينًا، وعندما وجد رجال العدو يقتلون رجاله هاجمهم بشجاعة وهزمهم بمساعدة الرب. وأخذ منهم ستين أسيرًا، قتل بعضهم وساق الآخرين أمام أخيه. وعندما سمع الإمبراطور بهذا

(*) Gesta Francorum. pp. 6 - 7.

(١) من المرتزقة الأتراك الذين جندهم اليكسيوس فى جيشه.

استشاط غضبًا، وعندما أدرك الدوق هذا قاد رجاله إلى خارج المدينة حيث أقام معسكره خارج أسوارها. وفي وقت متأخر من ذلك المساء أمر الإمبراطور البائس رجاله بمهاجمة الدوق والجيش المسيحي[١]. ولكن قائدنا المظفر والفرسان المسيحيين أجبروا القوات الإمبراطورية على التقهقر، بعد أن قتلوا سبعة وأرغموا الباقين على اللجوء إلى بوابات المدينة. وبعد ذلك عاد إلى معسكره حيث مكث خمسة أيام، حتى توصل إلى إتفاق مع الإمبراطور الذي طلب منه عبور مضيق البسفور ووعده بإمداده بالإمدادات الجيدة بنفس القدر الذي كان متاحًا في القسطنطينية؛ بالإضافة إلى ما وعده به الإمبراطور من إعطاء الهبات للفقراء حتى تساعدهم على العيش ».

جودفرى البويونى
رواية ألبرت الأيكسى (*)

« انسحب جودفرى إلى داخل مدينة القسطنطينية نفسها ومعه كل جيش الحجاج الذى يقوده. وهناك ، بعد أن ضربوا خيامهم، أقاموا كجيش قوى كبير، جيد التسليح. وفى المقابلة ، كان كل من هيو ودروجو ووليم النجار وكلاريبولد الذين أطلق الإمبراطور سراحهم حاضرين وقد غمرهم السرور بسبب وصول الدوق وقواته الكثيرة العدد، وأخذوا الدوق بالأحضان والقبلات هو والآخرين. كذلك فإن الرسول الذى أرسله الإمبراطور قابل الدوق، ودعاه إلى الحضور إلى قصر الإمبراطور مع بعض رؤساء جيشه، حتى يجرى محادثات مع الإمبراطور نفسه. وتعين على بقية جيشه أن يبقوا خارج أسوار المدينة. ولم يكد يتسلم الرسالة حتى وصل بعض الغرباء القادمين من أرض الفرنجة ليظهروا خلسة فى معسكره. وحذر الغرباء الدوق بشدة من أن ينخدع بالسلوك الظاهرى للإمبراطور ، وألا يذهب إطلاقًا لمقابلة الإمبراطور بناء على وعود خلابة، ولكن أن يبقى خارج الأسوار ويستمع بحذر إلى كل ما يقترحه الإمبراطور عليه. ومن ثم لم يذهب الدوق إلى الإمبراطور بعد أن حذره الغرباء ولمس خداع اليونانيين.

« ولهذا السبب، فإن الدوق الذى حركته مشاعر السخط العنيف ضد الدوق وجيشه كله،

---

(١) يتحدث المؤرخ المجهول بهذه الصيغة كما لو كان البيزنطيون من غير المسيحيين.

(*) Peters, pp. 125 - 131.

رفض أن يمنحهم امتياز البيع والشراء، ولكن عندما عرف بلدوين، شقيق الدوق، بغضب الإمبراطور ورأى حاجة الناس وافتقارهم الشديد للضروريات، توسل إلى الدوق والقادة أن يقوم مرة أخرى بنهب الإقليم وأراضى اليونانيين، وأن يجمع الأسلاب والطعام حتى يضطر الإمبراطور تحت وطأة الدمار إلى منحهم امتياز البيع والشراء مجدداً. ومن ثم ، فإن الإمبراطور عندما رأى التخريب والأذى يلحق بأراضى مملكته، أعاد امتياز البيع والشراء للجميع.

« وكان ذلك وقت الاحتفال بعيد ميلاد الرب. وكانت تلك الأيام التى شغلتها الأعياد والسلام والفرح طيبة تستوجب الشكر، وكان إعادة السلام بين الإمبراطور وحاشيته والدوق وكبار رجال جيشه أمراً يرضي الرب. وهكذا، عندما تم إقرار السلام، كفوا أياديهم عن كافة أعمال السلب والأذى. وتبعًا لذلك، استراحوا خلال تلك الأيام الأربعة المقدسة فى هدوء وسعادة قبالة أسوار مدينة القسطنطينية.

« وبعد ذلك بأربعة أيام، ذهب مندوب الإمبراطور إلى الدوق، وسأل باسم الإمبراطور ومعاهديه، بأن يحرك جيشه ومعسكره إلى شاطئ المضيق، حتى لا تتمزق خيامهم أو تتعرض للبلل بسبب برد الشتاء وثلوجه، التى كانت مصدر تهديد فى ذلك الفصل الممطر. وأخيراً، استسلم الدوق والقادة الآخرين لإرادة الإمبراطور، وبعد أن حركوا خيامهم تحركوا مع الجيش المسيحى ليقيموا فى القلاع والمبانى ذات الأبراج على طول الشاطئ لمسافة ثلاثين ميلاً. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً كانوا يجدون ويشترون بوفرة كل الطعام والضروريات بناء على أمر الإمبراطور.

« وبعد ذلك بوقت قصير، مثلت سفارة أخرى من الإمبراطور بحضرة الدوق، تحثه على الذهاب لمقابلة الإمبراطور والاستماع إليه. وقد رفض الدوق تماماً أن يمتثل لهذا الطلب، بسبب تحذير الغرباء له من مكر الإمبراطور. ولكنه أرسل له مبعوثين هم كونون كونت مونتيجور وبلدوين البورجي، وجودفرى الآشى، بقصد أن يقدموا العذر عنه، وتكلموا كما يلي : « من الدوق جودفرى إلى الإمبراطور؛ الثقة والطاعة. كنت أود أن أحضر بكل سرور للمثول أمامك، ولأمتع ناظرى برؤية الثروة والمجد فى قصرك لولا أن هناك إشاعات شريرة كثيرة ترامت إلى سمعى بخصوصك، وجعلتنى أخاف، وعلى أية حال، فإننى لست أدرى ما إذا كانت هذه الروايات قد اخترعت وذاعت عنك بدافع الحسد أم بدافع من روح الشر». وعندما سمع

الإمبراطور هذا دافع عن نفسه بحرارة مبينا براءته من هذه التهم، وقال إنه لم يكن ينبغى أبداً للدوق، أو أى فرد غيره من أتباعه، أن يخاف من أى خداع من جانبه، بل إنه سوف يرعى شرف الدوق كما لو كان إبنه، ورفاق الدوق كأصدقائه. وعندما عاد رسل الدوق أخبروه بكل ما سمعوه على لسان الإمبراطور من وعود طيبة مخلصة ولكن الدوق ، كان ما يزال قليل الثقة فى وعود الإمبراطور المعسولة، ورفض أن يجتمع به مجدداً . وهكذا مضت خمسة عشر يوما فيما بين غدو الرسل ورواحهم.

« ومن ثم ، فإن الإمبراطور حين تيقن من ثبات الدوق، وأنه لا يمكن أن يغرر به، عاد إلى عدوانيته وسحب امتياز شراء الشعير والسمك ثم الخبز حتى يجبر الدوق على المثول فى حضرة الإمبراطور. وإذ فشل الإمبراطور فى حمل الدوق على تغيير موقفه، جعل خمسمائة من التركبولى المسلحين بالأقواس والدروع يعبرون المضيق على ظهور السفن. وذات صباح بدأوا يقذفون جنود الدوق بالسهام؛ وقتلوا بعضا منهم، وجرحوا البعض الآخر، وحالوا بينهم وبين الشاطئ؛ بحيث لا يستطيعون شراء شيء من طعامهم المعتاد.

« ووصلت أنباء هذه الحادثة القاسية إلى مسامع الدوق فى الحال. فأمر بدق الطبول لاستنفار الجميع لحمل السلاح والرجوع إلى مدينة القسطنطينية نفسها، حيث يضربون خيامهم مرة أخرى. وبعد أن دوت الطبول بناء على أوامر الدوق، اندفع الجميع إلى أسلحتهم. وأخربوا المبانى والأبراج التى كانوا يسكنونها، وأضرموا النيران فى بعضها، ودمروا البعض الآخر، وبهذا ألحقوا بالقسطنطينية دمارا يستعصى على الإصلاح.

« وأخيراً، عندما وصلت أخبار هذه النيران والدمار الفظيع إلى القصر، اتخذ الدوق أهبته وبات فى منتهى الحذر، خوفًا من أن تسبب الضجة الناجمة عن المبانى المشتعلة وضجة الجيش المتحرك فى أن يقوم فرسان الإمبراطور ورماة السهام فى جيشه بالاستيلاء على القنطرة التى جاءوا عليها من القسطنطينية إلى هذا المكان الذى أقاموا به. ومن ثم ، أرسل أخاه بلدوين بسرعة على رأس خمسمائة فارس مدرعين للاستيلاء على الجسر، لئلا تستولى عليه أية قوة من جيش الإمبراطور ، وتدمره بحيث تمنع الحجاج من التقدم أو الرجوع.

« ولم يكد بلدوين يستقر فى منتصف الجسر، حتى اندفع التركبولى (جنود الإمبراطور الذين أحضرتهم السفن) عن يمينه ويساره وهاجموه هو ورجاله بوحشية. وإذ لم يستطع بلدوين أن يقاوم وهو على الجسر، أسرع بعبور الجسر هربًا من سهامهم. وبحذاء الساحل

اليابس وضع نفسه على الجانب الآخر من الجسر، على أمل أن يستولى عليه ويراقب أسوار المدينة حتى يعبر الجيش كله فوق الجسر، على حين تولى الدوق حراسة المؤخرة. وفى الوقت نفسه، خرجت من البوابات المقابلة لسان أرجنتيوس أعداد لا تحصى من التركبولى والجنود من شتى الجنسيات، مسلحين بالقسى وكافة أنواع الأسلحة، وأقبلوا مسرعين لمهاجمة بلدوين والجيش المسيحى بأسره. ولكن بلدوين صمد أمامهم فى المكان المذكور، وصد كل هجماتهم من الصباح الباكر حتى المساء حتى تم عبور الجسر وأقاموا فى المعسكر الكائن أمام أسوار المدينة. وتقدم بلدوين بفرسانه الخمسمائة صوب أولئك التركبولى الذين خرجوا من البوابات لمهاجمة الناس، وأشتبك الجانبان فى معركة مهولة، وسقطت أعداد كبيرة من القتلى على الجانبين، وهلكت أعداد كبيرة من خيول الفرنج بسبب السهام. ولكن بلدوين انتصر فى النهاية، وأجبر الإمبراطور على الهرب والفرار إلى داخل المدينة. ولم يلبث التركبولى وجنود الإمبراطور، الذين أخزاهم أن يفروا بعد هزيمتهم فى الحرب، أن اندفعوا مرة أخرى خارج بوابات المدينة بأعداد أكبر لمهاجمة الجيش.

« ثم وصل الدوق، ولما كان الليل قد أسدل ستاره، فقد أوقف القتال، ونصح أخاه بالرجوع إلى المعسكر بكل قواته وأن يبعد رجاله عن القتال أثناء الليل. وبالمثل خشى الإمبراطور نفسه من احتدام ضراوة القتال أكثر من ذلك، كما خشى على جنوده من الهلاك فى عتمة المساء، فأمر بإقرار السلام ، وقد سره أن يكون الدوق مستعداً لسحب قواته من المعركة.

« ولكن بعد أشرقت الشمس فى اليوم التالى، نهض القوم بأمر الدوق، وأخذوا يتجولون فى المناطق المحيطة سعيًا وراء السلب والنهب فى أراضى الإمبراطور على مدى ستة أيام، مما أدى إلى إتضاع مكانة الإمبراطور وهيبته هو ورجاله. وعندما شاع ذلك، بدأ الإمبراطور يحزن وييأس لأن أراضيه قد خربت على هذا النحو . وعقد مجلسًا استشاريًا فى الحال، ثم أرسل رسالة إلى الدوق يطلب منه وقف أعمال السلب والنهب والإحراق ، وأنه شخصيًا سوف يقدم الترضية الكافية للدوق. وكانت الرسالة على النحو التالى: «فلنطرح العداوة بيننا. وليقم الدوق عندما يتسلم الرهائن منى، بالتقدم دون شك فى أنه سيأتى ويعود دون أن يلحقه ضرر، وليتأكد من أنه سينال كل الشرف والمجد التى سيكون بوسعنا أن نسديه له ولشعبه». ووافق الدوق شاكراً ، بشرط أن يعطى الرهائن لمن يستطيع أن يثق فى أنه سيحافظ على شرفه وسلامته؛ وحينئذ فإنه سوف يحضر إلى الإمبراطور دون شك، لكى يحادثه.

« ولم يكد مبعوثو الإمبراطور يرحلون بعد هذه الإستجابة من جانب الدوق ، حتى وصل مبعوثون آخرون إلى الدوق نفسه من بوهيموند، يحملون تحيته وتكلموا على النحو التالى: «بوهيموند أغنى أمير فى صقلية وكالابريا، يسألكم ألا تدخلوا فى سلام مع الإمبراطور ، وإنما تنسحبوا إلى أدرنه وفليبوبوليس، وهما مدينتان بلغاريتان وتمضى الشتاء هناك. وتأكدوا أن بوهيموند نفسه سيأتى إلى مساعدتكم بكامل قواته فى شهر مارس، لمهاجمة الإمبراطور وغزو مملكته». وبعد أن استمع الدوق إلى رسالة بوهيموند أرجأ الإجابة عليها حتى اليوم التالى. ثم أجاب بعد مشاورة رفاقه، بأنه لم يترك بلده وذويه من أجل المكسب أو تدمير المسيحيين، وإنما غادرها فى سبيل اسم المسيح على الطريق إلى القدس. وهو يرغب فى تحقيق هذه الغاية ومحاربة خطط الإمبراطور، بشرط أن يستعيد ويحافظ على رضاه والعلاقة الطيبة معه. وعندما عرف رسل بوهيموند رد الدوق، وعلموا قصده عادوا إلى بلاد أبوليا بعد أن لقوا معاملة طيبة جداً من الدوق، وهناك قدموا تقريرهم بكل ما سمعوه من شفتى الدوق.

وإذْ عرف الإمبراطور بأمر هذه السفارة الجديدة وباقتراح بوهيموند، بادر إلى حثّ الدوق وأصدقائه على عقد اتفاقية معه؛ وكان يعتزم تقديم ابنه الحبيب هنا رهينة ، بشرط إقرار السلام، والمرور بسلام عبر البلاد، وأن يقابلوه فى مؤتمر وجهًا لوجه. وفضلا عن ذلك فإنه سوف يخص جودفرى وأتباعه بامتياز شراء كل الضروريات. وعندما عرف الدوق أن هذه الوعود الإمبراطورية قد صيغت فى شكل مرسوم، حرك معسكره من تحت أسوار المدينة بناء على نصيحة مجلسه الاستشارى، وانسحب مجددا عبر الجسر للإقامة فى المساكن الحصينة على شاطئ المضيق. وأمر رجاله جميعًا بالحفاظ على السلام، وأن يشتروا ما هو ضرورى دونما شقاق أو نزاع.

« وفى اليوم التالى، أمر كونون كونت مونتيجو، وبلدوين البورجى، وهما من أنبل الرجال وأكثرهم فصاحة، بالمثول بين يديه. ووجههما بثقة لاستقبال ابن الإمبراطور كرهينة، وهو ما تم بالفعل، فعندما تم احضار ابن الإمبراطور ، ووضع رهن الاعتقال تحت سلطة الدوق ورجاله، سافر الدوق فى الحال على متن قارب عبر المضيق إلى القسطنطينية. وتقدم بجسارة إلى بلاط الإمبراطور ووقف أمامه برفقة الرجال البارزين مثل ورنر الجريزى وبطرس الدامبييرى، وغيرهما من القادة، لكى يتبادلا الحديث. ولكن بلدوين لم يدخل قصر الإمبراطور، ولكنه بقى مع الجيش على الشاطئ.

« وعندما رأى الإمبراطور عظمة الدوق ورجاله جميعاً، أعجب بهيبتهم وفخامتهم؛ فقد كانوا يرفلون فى أزيائهم الفخمة الثرية من الأرجوان والذهب، والموشاة بالفرو الأبيض مثل الثلج، وغيره من أنواع الفراء، مثل أمراء بلاد الغال. وفى البداية استقبل الدوق بحرارة وترحاب، ثم استقبل جميع قادته ورفاقه الذين شرفهم بقبلة السلام. وفضلا عن ذلك، جلس الإمبراطور فى جلال علي عرشه، وفقًا لعادته، ولم يقم ليعطى القبلة للدوق، أو أى شخص آخر. ولكن الدوق ورجاله انحنوا، وقد ثنى كل منهم ركبته لتقبيل مثل هذا الإمبراطور العظيم المجيد. وعندما انتهت نال الجميع قبلاتهم، كل حسب مكانته ، خاطب الدوق بهذه الكلمات : «سمعت أنك أعظم فارس وأكبر أمير فى بلادك، وأنك رجل فطن وأهل للثقة. وأننى فى وجود هذه الكثرة، ومن يأتى غيرهم، أعلن أننى أتبناك إبنًا لى؛ وكل ما أملكه أضعه تحت سلطانك حتى يمكن إنقاذ إمبراطوريتى وأملاكى وتحريرها على يديك».

« وابتهج الدوق بهذه الكلمات اللينة الودودة على لسان الإمبراطور ، الذى لم يكتف بالاعتراف به إبنا له، حسب العادة الجارية فى البلاد، وإنما أعطاه يده أيضًا، وأعلن نفسه تابعًا إقطاعيا للإمبراطور هو والأمراء الحاضرون الذين حنوا حنو الإمبراطور فى الاحتفال. ولم يحدث أى تأخير. وتم إحضار هدايا من كافة الأنواع من خزانة الإمبراطور، من الذهب والفضة، والأرجوان والبغال والخيول، وكل ما له قيمة. وهكذا ارتبط الإمبراطور والدوق حقًا برباط لا ينفصم من الإيمان والصداقة، منذ عيد المسيح عندما تم الاتفاق ، حتى قبل أيام قليلة من عيد الخمسين. ففى كل أسبوع يحضر أربعة رجال يحملون العملات البيزنطية الذهبية، وعشر قطع نقدية تسمى تارتون، قد أرسلهم القصر الإمبراطورى إلى الدوق لكى يوفر المؤن للجنود. ومن المدهش أن كل ما كان الدوق يفرقه على رجاله من هدايا الإمبراطور كان يرجع إلى الخزانة الإمبراطورية ثمنا للطعام. وتتبدد الدهشة إذا علمنا أنه لم يكن هناك غير متاجر الإمبراطور (مثل الخمور ، والزيت ، والغلال ، والشعير، وكل أنواع الطعام) فى المملكة بأسرها. وهكذا كانت خزانة الإمبراطور عامرة دائمًا بالذهب ولم يكن ممكنا أن تصبح خاوية بسبب التبذير.

« وبعد اقرار السلام والنظام بين الإمبراطور والدوق وفقا للشروط التى ذكرناها، فإن الدوق الذى كان ما يزال واثقًا من إيمان الإمبراطور وصداقته عاد للإقامة فى المساكن على شاطئ المضيق، وأعاد ابن الإمبراطور معززًا مكرمًا، بعد أن ظل كرهينة حتى ذلك الحين. وفى

اليوم التالي، أعلن للجيش كله، بناء على أوامر الدوق، أنه يجب إظهار السلام والشرف للإمبراطور وكل من يخضعون لأوامره، وأنه يجب أن تتم عمليات التبادل والبيع والشراء على أساس من العدل. وأعلن الإمبراطور أيضًا في شتى أنحاء مملكته، أن من يلحق أذى بالجيش الصليبي سيقع تحت طائلة عقوبة الإعدام، وأن الواجب أن يبيعوا بأوزان ومقاييس عادلة للحجاج، وأن يخفضوا لهم الأسعار.

« وبعد هذه الحوادث، ومع بداية الصوم الكبير، استدعى الإمبراطور الدوق في حضرته ورجاه بحكم الصداقة، أن يعبر البحر ليضرب خيامه في قبادوقيا، بسبب المباني التي كان رجاله التواقون للشغب يدمرونها. ووافق الدوق على هذا، وبعد عبور النهر وضرب الخيام مكث هو ورجاله في سهول قبادوقيا.

« بعد ذلك ، ارتفع سعر كل شيء يباع للحجاج، ولكن على الرغم من ذلك، استمرت هبات الإمبراطور إلى الدوق، لأنه كان يخافه كثيرًا. ولكن الدوق الذي رأى صعوبة شراء اللوازم الضرورية ولم يستطع تحمل غضب قومه، غالبًا ما كان يذهب إلى الإمبراطور ليشكو له من ارتفاع أسعار الطعام. ومن ثم أمر الإمبراطور بتخفيف العبء عن جميع الحجاج، كأنه لم يكن يدري بارتفاع الأسعار، ولم يكن يريد ذلك».

جودفري البويوني

رواية آنا كومنينا (*)

« في ذلك الوقت عبر الكونت جودفري البحر ومعه بعض الكونتات الآخرين يقودون جيشا قوامه عشرة آلاف فارس وسبعين ألفًا من المشاة. وعندما وصل إلى العاصمة عسكر بجيشه قرب المضيق، وكان معسكره يمتد فيما بين الجسر المقابل لكورميديون حتى سان فوكاس. وعندما حثه الإمبراطور على عبور مضيق البسفور، أخذ يومًا بعد يوم ينتحل الأعذار وأرجأ الموضوع. وكان السبب الرئيسي، ببساطة، هو أنه كان ينتظر وصول بوهيموند وغيره من

(*) هذه الرواية البيزنطية المقابلة للروايات اللاتينية التي أوردناها ، وهي تحمل وجهة النظر البيزنطية التي يمكن للباحثين مقارنتها بالرؤية اللاتينية للأحداث وتفسيرها.

Alexiad, pp. 318 - 323.

الكونتات. ذلك أنه على الرغم من أن بطرس قد أنشأ هذه الحملة العظيمة فى البداية للتعبد فى الضريح المقدس، فإن الكونتات الآخرين ، وعلى رأسهم بوهيموند، كانوا يحتفظون فى عقولهم بأحقادهم القديمة ضد الإمبراطور وكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لكى يثأروا منه بسبب النصر الرائع الذى أحرزه ضد بوهيموند عندما اشتبك الأخير معه فى معركة عند لاريسا. وكانوا يَحلمون أنهم إذا اتفقوا جميعًا سوف يكون بوسعهم الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وقد ربطوا بين هذه الفكرة نفسها والغرض الذى ذكرناه كثيرا من قبل. وهكذا، كان الظاهر أنهم يقومون بحملة إلى بيت المقدس؛ ولكن الحقيقة أنهم كانوا يريدون خلع الإمبراطور عن مملكته والاستيلاء على القسطنطينية. ولكن الإمبراطور ، الذى كان قد خبر شرورهم منذ زمن طويل وعرفها، أرسل خطابات يأمر فيها القوات المساعدة بالتحرك مع ضباطها من أيثرا حتى فيليا فى حشود كبيرة (وفيليا مكان على شاطئ البحر الأسود). وكان عليهم أن يكمنوا انتظارًا للرسل الذين أرسلهم جودفرى إلى بوهيموند وغيره من الكونتات القادمين وراءه، أو العكس؛ وبذلك يمكن قطع جميع الاتصالات. وفى الوقت نفسه حدثت الحادثة التالية. ذلك أن بعض الكونتات المرافقين لجودفرى تلقوا دعوة من الإمبراطور لمقابلته. وكان قصده أن يمدهم بالنصيحة ؛ بأنهم ينبغى أن يحثوا جودفرى على أن يقسم يمين الولاء. وعلى أية حال ، فإن اللاتين أضاعوا الوقت بسبب ثرثرتهم وحبهم للخطب المطلوبة، حتى سرت شائعة لدى الفرنج تقول إن كونتاتهم أسرى لدى اليكسيوس. وفى الحال ساروا فى صفوف قتال صوب بيزنطة، وبدأوا بالقصور الكائنة قرب البحيرة الفضية، فخربوها تمامًا. وشنوا هجوم آخر أيضًا على أسوار المدينة، ليس بالمنجنيقات (لأنهم لا يملكونها) ، وإنما أغرتهم كثرتهم ودفعتهم وقاحتهم لمحاولة اضرام النيران تحت القصر، بالقرب من ضريح سان نيقولاس. ولم يكن رعاع البيزنطيين، الذين كانوا غاية فى الجبن ، والذين لم تكن لديهم أية خبرة قتالية ـ هؤلاء الرعاع لم يكونوا هم الوحيدين الذين بكوا وناحوا وضربوا صدورهم خوفًا وجزعًا عندما رأوا الفرق العسكرية اللاتينية؛ وإنما فاقهم فى الخوف أكثر رعايا الإمبراطور إخلاصا. وإذ تذكروا يوم الخميس الذى سقطت فيه المدينة [١]، غشيهم الخوف فى ذلك اليوم أيضًا [٢] (بسبب ما حدث آنذاك) من أن تصيبهم نيران الانتقام. وهرول كل الجنود المدربين مسرعين إلى القصر فى

---

(١) هذه إشارة إلى سقوط القسطنطينية فى يد آل كومنين بعد نجاحهم فى الإنقلاب الذى قاموا به.
(٢) وكان يوم ٢ أبريل ١٠٩٧م. و كان يوم الخميس أيضًا.

فوضى، ولكن الإمبراطور ظل رابط الجاش: فلم يحاول أن يحمل السلاح ولم يرتد الصديريات، ولم يتقلد سيفه، ولكنه ظل يرفل فى العباءة الإمبراطورية. وكان جالسا بثبات على العرش الإمبراطورى، وتفحصهم جيداً، وهو يشجع الناس ويمدهم بالثقة، وفى الوقت نفسه أخذ يشاور رجاله المقربين وقادته العسكريين حول العمل الذى ينبغى أن يتم فى المستقبل. وقبل كل شىء أصر على ألا يترك أحد الأسوار لمهاجمة اللاتين لسببين: أولاً الطبيعة المقدسة لهذا اليوم (فقد كان خميس الأسبوع المقدس، أسمى أسبوع فى السنة، وفيه عانى المخلص الموت فى سبيل العالم بأسره)، وثانيًا لأنه أراد أن يتجنب إراقة الدماء بين المسيحيين. وفى مناسبات عديدة أرسل المبعوثين إلى اللاتين ينصحهم بألا يقوموا بمثل هذا الهجوم. وقال «إرجعوا إلى الرب الذى ضحى فى هذا اليوم بنفسه من أجلنا جميعًا، ولم يرفض الصليب أو المسامير ولا الحربة ـ وهى كلها أدوات تلائم عقاب الخطاة والمذنبين ـ وذلك لكى ينقذنا . وإذا كان عليكم أن تقاتلوا، فنحن أيضًا سنكون مستعدين للقائكم ولكن بعد عيد قيامة المخلص». ولكنهم أبوا أن يستمعوا إلى هذه الكلمات، وإنما بدأوا يضغطون بقواتهم، وقد وصلت كثافة سهامهم أن سهما أصاب أحد خدم الإمبراطور فى صدره وهو واقف بجوار العرش. واصطف معظم الآخرين على جانبى الإمبراطور ، وعندما شاهدوا ذلك بدأوا ينسحبون، ولكنه بقى ثابتًا غير هياب، وأخذ يواسيهم ويشجعهم بكلمات لطيفة ـ وهو ما أثار دهشة الجميع.

« وأخيراً ، فإنه عندما شاهد اللاتين يقتربون من الأسوار فى وقاحة، واحتقروا نصيحته المفيدة، استدعى زوج ابنته نيقفورس، وأمره بأن يأخذ معه أقوى رجاله وأمهرهم فى الرماية بالأسلحة ويصعد على قمة الأسوار، ونصحهم فى الوقت نفسه، بأن يقذفوا على اللاتين بالأسلحة بأسرع ما يمكنهم، وذلك بقصد تخويفهم لا قتلهم. لأن الإمبراطور، كان يحترم المغزى الدينى لليوم كما ذكرنا من قبل ولم يكن يريد أن يشتبك فى حرب أهلية بين المسيحيين. وفى الوقت نفسه، أمر بعض قادته المختارين (كل منهم على رأس قواته المسلحين بالقسى، وبعضهم بالحراب الطويلة)، لكى يشنوا هجمة مفاجئة من البوابة القريبة من سان رومانوس، حتى يظهروا للعدو القدرة على العنف. وتم ترتيب صفوف القتال على أساس أن يكون كل رجل يحمل حربة تحت حماية رماة الأقواس المدرعين على الجانبين. وإذ تم ترتيبهم على هذا النحو، صدرت إليهم الأوامر بالتقدم صوب العدو ببطء، كما صدرت الأوامر لرماة السهام بأن يدوروا كثيراً هنا وهناك وأرسلوا مباشرة لضرب الغال (الفرنج) من مسافة قريبة. وعندما صار الصفان قريبين من بعضهما، صدرت الأوامر لحاملى الأقواس الذين يحميهم حاملو الحراب

من الجوانب بأن يستخدموا قسيهم بحذر، وأن يصوبوا على خيول العدو، دون أن يقتلوا راكبيها؛ كما صدرت الأوامر لحاملى الحراب بأن يهجموا على اللاتين بقوة وأن يطلقوا لخيولهم العنان. وقد أعطى هذا الأمر وفى ذهنه أنه حين تجرح خيول اللاتين ستنكسر حدة عنف هجومهم وبذلك لن يكون من السهل على الفرسان اللاتين مطاردة الرومان؛ وفى ذهنه أيضًا أن هذا سيوافق رغبته الخاصة فى أنه يجب تقليل الدم المسيحى المراق فى هذا القتال بقدر الإمكان. وقد فعل هؤلاء الرجال فى شجاعة ما أمرهم به الإمبراطور ، وبعد أن فتحت البوابات فجأة اندفعوا ضد العدو، وأطلقوا العنان لخيولهم حينا، وتحكموا فيها حينًا آخر. وهكذا قتلوا كثيرين من أفراد العدو، وجرح عدد ضئيل من رجالنا فى المعركة التى جرت فى ذلك اليوم. وسوف نتركهم ونعود إلى سيدى القيصر. فقد أخذ رماة السهام المدربين من رجاله، ورتبهم فى الأبراج وبدأوا يطلقون سهامهم على البرابرة. وكان لكل رجل قوس مضبوط وبعيد المدى. وكانوا جميعًا شبابا، ومهرة، فى الرمى بالقوس مثل توسر الذى ذكره هوميروس. وكان قوس القيصر جدير بأبللو حقا. وعلى عكس الإغريق المشهورين الذين تحدث عنهم هوميروس، لم يكن يجذب خيط القوس حتى يلمس صدره ويشد السهم حتى يكون النصل المعدنى قرب القوس؛ ولم يكن يستعرض مهارة الصيادين مثلهم. ولكنه كان مثل هرقل ثان يطلق سهامًا قاتلة من أقواس غير قاتلة ويصيب الهدف كما يحلو له. وفى أوقات أخرى، عندما يشارك فى الرماية أو فى معركة لم يخطئ أبدًا أى هدف: ففى أى مكان فى جسم الإنسان كان يصوب سهمه فيصيبه فى الحال. وكان يثنى قوسه بقوة ويطلق سهامه بسلاسلة لا يضارعه فيها توسر والأجاكس. ومع هذا ، وبالرغم من مهارته فإنه فى هذه المناسبة احترم قدسية اليوم والتزم بأوامر الإمبراطور وتعليماته، لدرجة أنه عندما رأى الفرنج يتقدمون صوب الأسوار فى طيش وتهور، تحميهم الدروع والخوذات، ثنى قوسه ووضع السهم ثم صوب دون إحكام عن عمد، وكان يصوب بعد الهدف أحيانا، وقبله أحيانا أخرى. وعلى الرغم من أنه كان يحجم عن التصويب إلى اللاتين مباشرة، إكراما ليوم العيد، فإنه مع ذلك حين كانت حماقة أحد اللاتين تدفعه إلى ضرب المدافعين عن أسوار المدينة، ولا يكتفى بهذا وإنما يصبُّ سيلا من الإهانات بلغته، كان القيصر يستخدم قوسه فعلا. ولم يكن السهم يطيش من يديه ولكنه كان يخرق الدرع الطويل ويشق طريقه فى صديرية الزرد، حتى يشتبك الذراع بالجنب. «ويخر صريعًا على الأرض دون أن ينبس ببنت شفة» كما يقول الشاعر (*) وتصعد صرخة إلى

(*) فى هذه الأجزاء تستخدم آنا كومنينا بعض أبيات هوميروس من الإلياذة.

السماء على حين يطلق الرومان صيحات التحية لقيصرهم وينعى اللاتين مقاتلهم الصريع. واندلعت المعركة من جديد وكان فرسانهم ورجالنا يقاتلون عند البوابة فى شجاعة؛ وكان نضالاً مريراً وعنيفا من الجانبين. وعلى أية حال ، فإن الإمبراطور بعث حرسه فهرب اللاتين. وفى اليوم التالى نصح هيو جودفرى بالاستسلام لإرادة الإمبراطور، ما لم يكن يريد أن يتعلم للمرة الثانية مدى خبرة اليكسيوس فى قيادة القوات. وقال إن عليه أن يقسم بأن يدين له بالولاء. ولكن جودفرى عارضه بصراحة قائلاً : « لقد تركت بلادك ملكًا بكل الثروة والجيش القوى؛ والآن نزلت بنفسك من العلا إلى مرتبة العبد. فإذا حققت أى نجاح كبير، فلتأت إلى وتخبرنى أن أفعل مثلك»، وأجابه هيو : «كان ينبغى علينا أن نبقى فى بلادنا وأن نكف أيادينا عن الشعوب الأخرى، ولكن طالما أننا جئنا إلى هذا المكان البعيد ونحتاج إلى حماية الإمبراطور، فإننا لن نجد خيراً ما لم نطع أوامره». ورحل هيو دون أن يحرز شيئًا. وبسبب الأخبار المؤكدة بأن الكونتات القادمين خلف جودفرى قد اقتربوا فعلاً، أرسل الإمبراطور بعض أفضل ضباطه بقواتهم لكى ينصحوه مرة أخرى، أو حتى ليجبروه على عبور المضيق. ولم يكد اللاتين يشاهدونهم، حتى شنوا هجوما عليهم وبدأوا يقاتلونهم دون أن يترددوا لحظة واحدة، ودون أن ينتظروا ليسألوهم عن غرضهم. وفى هذه المعركة الوحشية سقط كثيرون من الجانبين وجرح رجال الإمبراطور الذى هاجموا بجسارة متناهية. وعندما أظهر الرومان بأسًا وقوة هرب اللاتين. وهكذا خضع جودفرى بعد ذلك بوقت قصير وجاء إلى الإمبراطور وأقسم بأن أى مدن أو بلاد أو قلاع يستولى عليها فى المستقبل، وكانت من أملاك الإمبراطورية الرومانية قبل ذلك، تُسلَّم إلى الضابط الذى يعينه الإمبراطور لهذا الغرض. وعندما أدى اليمين تلقى هبة كريمة، ودعى إلى مشاركة اليكسيوس على المائدة الامبراطورية، واستمتع بصحبة مجموعة من كرام القوم، وبعد ذلك عبر المضيق حيث أقام معسكره. وعند ذلك أمر الأمبراطور بتوفير كميات الطعام لرجال جيشه.»

بوهيموند

رواية المؤرخ المجهول (*)

«حين سمع الإمبراطور أن بوهيموند، الرجل اللامع قد وصل، أمر بأن يتم استقباله بالتكريم اللائق، ولكنه حرص على أن يقيم خارج المدينة. وبعد أن استقر بوهيموند، أرسل الإمبراطور يدعوه إلى اجتماع سرى. وكان الدوق جودفرى وأخوه حاضرين أيضًا، وكان

Gesta Francorum. pp. 11 - 13. (*)

كونت سان جيل بالقرب من المدينة. وحينئذ كان الإمبراطور الذى كان مشوش الذهن وقد امتلكه الغضب الشديد، يخطط لطريقة يوقع بها هؤلاء الفرسان المسيحيين بالمكر والخديعة، ولكن بفضل الرب لم يجد هو أو رجاله المكان أو الوقت للإضرار بهم. وأخيراً، تشاور كبار القسطنطينية الذين خشوا ضياع بلادهم، واتفقوا على خطة ماكرة لجعل الدوقات والكونتات وجميع قادة جيشنا يقسمون يمين الولاء للإمبراطور[١]. وقد رفض زعماؤنا هذا صراحة وقالوا «حقا إن هذا لا يليق بنا، ويبدو من الظلم أن نقسم له بشيء على الإطلاق[٢].

« وعلى أية حال فربما كان مقدراً لنا أن نضلل على أيدى زعمائنا، لأنه ماذا حدث فى النهاية؟ ربما يقولون إنهم اضطروا تحت وطأة الحاجة، وإنهم اضطروا لتحقير أنفسهم طواعية لكى يفعلوا ما كان يريده ذلك الإمبراطور البغيض.

« والآن كان الإمبراطور خائفًا للغاية من بوهيموند الجسور، الذى طالما طارده هو وجيشه من ميدان المعركة. ولذا أخبر بوهيموند أنه سوف يعطيه الأراضى الواقعة وراء أنطاكية، ومساحتها مسيرة خمسة عشرة يومًا طولاً وثمانية أيام عرضًا، بشرط أن يقسم يمين الولاء دون تحفظ، وأضاف هذا الوعد، بأنه إذا حافظ على بوهيموند على قسمه بإخلاص فإنه لن يحنث بوعده أبداً. ولكن لماذا ينبغى على الفرسان الشجعان القادرين أن يفعلوا شيئًا كهذا؟ ربما يكون السبب هو شدة حاجاتهم. وضمن الإمبراطور من جانبه السلامة والأمن لرجالنا جميعا، وأقسم أيضا على أن يأتى معنا، ومعه جيش وأسطول، وأن يمدنا بالمؤن والإمدادات بحراً وبراً، وأن يهتم بأن يعيد لنا الأشياء التى فقدناها. وفضلاً عن ذلك وعد بأنه لن يسبب لنا ولن يسمح لأحد بأن يسبب لنا المتاعب أو يضايق حجاجنا على الطريق إلى الضريح المقدس.».

---

(١) كان اليكسيوس يريد أن يجبر الصليبيين على الإعتراف بأنهم يستردون مناطق فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى لحساب الإمبراطورية البيزنطية التى كانت تحكمها قبل الفتح الإسلامى. وقبل ظهور الأتراك السلاجقة.

(٢) كانت مشاعر الغرب الأوربى تجاه الإمبراطور البيزنطى عدائية وازدادت حدة العداء نتيجة للإنشقاق بين الكنيستين البيزنطية والكاثوليكية سنة ١٠٥٤م. وكان هجوم روبرت جويسكارد والد بوهيموند على الإمبراطورية البيزنطية بمثابة الخطوة الأولى لغزو الإمبراطورية الشرقية رغم أنه تم دحره سنة ١٠٨٥.

بوهيموند

رواية آنا كومنينا(*)

« وصل بوهيموند إلى أبروس مع الكونتات الآخرين، وكان يعرف أنه هو نفسه ليس نبيل المولد، وليست معه قوات كبيرة بسبب قلة موارده، ولذا فإنه أراد أن يكسب رضاء الإمبراطور، ولكنه فى الوقت نفسه أراد أن يخفى مقاصده العدائية تجاهه، وأسرع مع عشرة فقط من الكلت لكى يصل إلى العاصمة قبل الآخرين. وكان اليكسيوس يفهم مشروعاته وخططه ـ فقد خبر منذ زمن طويل طبيعة بوهيموند التى جبلت على الخداع والخيانة ـ وأراد أن يحادثه قبل أن يصل رفاقه؛ وأراد أن يسمع ما يريد بوهيموند قوله قبل أن تكون لديه الفرصة لإفساد الباقين (الذين كانوا قد اقتربوا حينئذ)، وكان يأمل فى إقناعه بالعبور إلى آسيا. وعندما مثل بوهيموند فى حضرته. ابتسم له اليكسيوس فى الحال واستفسر عن رحلته. أين ترك الكونتات؟ وأجاب بوهيموند فى صراحة وذكر كل ما يعرفه رداً على هذه الأسئلة، على حين ذكره الإمبراطور فى أدب بأعماله الجسورة فى لاريسا «وديراخيوم»؛ كما أعاد تذكير بوهيموند بعداوته السابقة. وقال بوهيموند: «كنت بالفعل عدواً لدوداً آنذاك، ولكن الآن جئت بمحض إرادتى صديقًا لجلالتك». وتحدث اليكسيوس معه حديثاً مطولاً، بطريقة ملتوية إلى حد ما محاولاً أن يستكشف مشاعر الرجل الحقيقية، وعندما أيقن أن بوهيموند سيكون مستعداً لأن يقسم يمين الولاء قال له : «أنت الآن متعب من رحلتك. أذهب لتستريح، وغداً يمكننا أن نناقش الأمور التى تهمنا سوياً» . وذهب بوهيموند إلى الكوزميديون حيث تم تجهيز جناح له، وأعدت مائدة حافلة بالأطعمة الفاخرة من كل نوع. وفيما بعد أحضر الطباخون لحوم الحيوانات والطيور غير مطهية. وقالوا : «إن الطعام كما ترى قد تم إعداده بطريقتنا المعتادة.، ولكن إذا لم يكن هذا يناسبك فهذا لحم يمكن طهيه بالطريقة التى تحبها»، وكانوا ينفذون تعليمات الإمبراطور فى أقوالهم وأفعالهم هذه. فقد كان اليكسيوس خبيراً بشخصيات الرجال لا يخطئ الحكم عليهم، ويستطيع أن يقرأ بمهارة الأفكار الداخلية التى تعتمل فى قلوب الرجال، وكان يعرف طبيعة بوهيموند الشريرة والمرتابة، وقد كان تخمينه صحيحاً حول ما قد يحدث . ولكى لا يثير شكوك بوهيموند أمر بوضع اللحم غير المطهى أمامه فى الوقت نفسه، وكانت تلك حركة ممتازة ولكن الفرنجى الماكر لم يكتف برفض تذوق أى نوع من الطعام، وإنما رفض أيضاً أن يلمسه بأطراف

(*) Alexiad, pp. 326- 329.

أصابعه. وأزاحه كله ولكنه قسمه بين جميع الحاضرين، دون أية بادرة من جانبه على سوء النية. وبدا الأمر وكأنه يسدى إليهم صنيعًا، ولكن ذلك كان ستاراً ظاهريا فقط؛ ففى الحقيقة، إذا ما فكر المرء فى الأمور بشكل سليم، كان يجهز لهم كأس الموت. ولم يقم بأية محاولة لاخفاء خيانته، لأنه كان معتاداً على معاملة الخدم بلا مبالاة قاسية. وعلى أية حال، فإنه طلب من طباخيه أن يجهزوا له اللحم على الطريقة الفرنجية المعتادة، وفى اليوم التالى سأل الحاضرين عما يشعرون به وأجابوا بأنهم لم يعانوا أى أذى من الطعام. وعند هذه الكلمات كشف عن خوفه الدفين وقال « من جانبى أنا ، فإننى حين تذكرت الحروب التى حاربتها ضده، دعك من المعركة الشهيرة، خشيت أن يدبر لقتلى بوضع جرعة من السم فى الطعام». هكذا كانت أفعال بوهيموند. ويجب أن أقول أننى لم أر أبداً رجلاً شريراً مثله. فى كل شىء، فى كلماته وأفعاله، لم يكن يختار المسار الصحيح أبداً، وعندما ينحاز أى إنسان عن الفضيلة، فسيكون الفرق بين أى من الطرق التى يسلكها ضئيلاً، لأنه سيكون دائمًا بمنأى عن الصواب.

« واستدعى الإمبراطور بوهيموند، مثل الآخرين، وجعله يقسم يمين الولاء المعتاد لدى اللاتين. ولأن بوهيموند كان يعرف موارده جيداً، وكان مدركًا لكونه من غير النبلاء وأنه لا يملك ثروة تعينه على أن يكون له جيش كبير، وإنما عدد متوسط من الغال (الفرنج)، ولأنه كان أيضًا غير أمين، سارع بإخضاع نفسه لإرادة الإمبراطور.

وبعد إنتهاء الاحتفال ، أفرد اليكسيوس حجرة بالقصر وأمر بأن تغطى أرضيتها بكل أنواع الثروات،، الملابس والذهب والفضة، والعملات وأشياء أقل قيمة ملأت المكان تماما لدرجة أنه كان يتعذر على أى إنسان أن يمشى فيها. وأمر الرجل المعين لهذا الغرض بأن يجعل بوهيموند يرى هذه الكنوز بأن يفتح الباب فجأة. وذهل بوهيموند لهذا المشهد وقال «إذا كانت لدى مثل هذ هذه الثروة لكنت أصبحت سيداً على بلاد كثيرة منذ زمن طويل مضى». وقال الرجل: «كل هذا ملك لك اليوم ـ هدية من الإمبراطور»، وغمرت بوهيموند فرحة طاغية. وبعد أن قبل الهبة وشكر الرجل عليها، ذهب ليستريح فى المكان المخصص لإقامته. ومع ذلك فعندما أحضرت الأشياء إليه، وعلى الرغم من أنه كان قد عبر عن إعجابه بها من قبل فإنه تغير، إذ قال: «لم يخطر على بالى قط أن يهيننى الإمبراطور هكذا. خذ هذه الأشياء بعيداً، وأعدها لمن أرسلها .» وإذ كان اليكسيوس معتاداً على هذا التقلب وتبدل الأطوار عند اللاتين، اقتبس مثلاً شعبيًا يقول : «إن الضرر الذى سببه سيعود على رأسه» . وسمع بوهيموند عن هذا، وعندما

رأى الخدم يجمعون الهدايا بحرص لأخذها، غير رأيه مرة أخرى، وبدلاً من أن يطردهم غاضباً ابتسم لهم، مثل سمك الحبار الذى يغير نفسه فى دقيقة. والحقيقة أن بوهيموند كان معتاداً على الغش والنصب وسريع الإستجابة للظروف المتغيرة؛ وكان يفوق اللاتين الآخرين الذين مروا عبر القسطنطينية آنذاك فى نذالته وشجاعته، ولكنه كان أقلهم فى الثروة والموارد. كان هو الشرير الأكبر. وفيما يتعلق بتقلب الأحوال والأطوار بشكل تلقائى – فقد كانت تلك سمة عامة لدى جميع اللاتين. ولم يكن مما يثير الدهشة آنذاك أن يفرح كثيراً عندما تلقى الأموال التى كان قد رفضها. فعندما ترك وطنه، كان رجلاً متكدراً، لأنه لم يكن يملك أية إقطاعيات. وكان الظاهر أنه رحل لكى يتعبد فى الضريح المقدس، ولكن الحقيقة أنه كان يريد أنه يحوز لنفسه السلطة والقوة – أو يستولى على الإمبراطورية الرومانية نفسها إذا كان ذلك ممكنا، مثلما كان والده يريد من قبل. وكان مستعداً للذهاب إلى أى مدى، مثلما يقولون، ولكنه كان بحاجة إلى مبلغ كبير من المال. وإذ كان الإمبراطور واعيا لغدر الرجل، وأغراض بوهيموند الشريرة ، فإنه عمل بحرص على إزالة أى شىء يمكن أن يساهم فى خطط بوهيموند السرية. ومن ثم فعندما طلب بوهيموند منصب حاكم الشرق لم يجبه إلى طلبه؛ إذ لم يكن فى إستطاعته أن يخدع اليكسيوس الذى كان يخشى من أن امتلاكه للسلطة قد يدفعه إلى استخدامها فى إخضاع الكونتات الآخرين ثم يحولهم بعد ذلك إلى السياسة التى يختارها بسهولة. وفى الوقت نفسه ، فقد أخذ يمنيه ببعض الآمال بقوله «لم يحن الوقت بعد لذلك، ولكن بطاقتك وإخلاصك لن يمر وقت طويل حتى تنال هذا الشرف». وبعد محادثة مع الفرنج أظهر خلالها صداقته لهم بكل أنواع الهدايا ومظاهر التكريم، جلس فى اليوم التالى على العرش الإمبراطورى. وتم إرسال بوهيموند والآخرين بعد أن تلقوا تحذيراً بالأمور التى قد تحدث لهم أثناء الرحلة. وأسدى لهم نصيحة قيمة. فقد أعلمهم بوسائل الأتراك فى القتال؛ وأخبرهم كيف ينظمون صفوف قتالهم، وكيف يعدون كمائنهم؛ ونصحهم ألا يطاردوهم بعيداً إذا ما لجأوا إلى الفرار. وبهذه الطريقة ، ومن خلال المال والنصيحة الطيبة، بذل الكثير لكى يهذب من طبيعتهم الشرسة. ثم اقترح عليهم عبور المضيق ...»

ريمون أمير تولوز وأديمار أسقف لوبوى
رواية ريمون الأجويلرى (*)

« على الرغم من أن الأحداث قد صحبت الكاتب بخطوات سعيدة محببة إلى هذا المدى، فإنها الآن تتبعه بثقل كبير الوطأة من المرارة والأسف الذى يجعلنى أحزن لأننى بدأت ما أقسمت على أن أنجزه. فما هو حقًا الموضوع الأهم الذى ينبغى أن اذكره؟ هل أذكر خداع الإمبراطور الشرير؟ أم الفرار المشين المخزى والياس المزرى فى صفوف جيشنا؟ أم أترك أثراً من الأسف السرمدى حين أحصى القتلى من كبار الأمراء؟ فليبحث من يريد هذه المعلومات عنها لدى الآخرين وليس عندى. فهذه حادثة لا تمحى ذكراها واعتبر أنها تستحق الذكر. -فعندما فكر رجالنا فى ترك المعسكر، وولوا الأدبار، وتخلوا عن رفاقهم، وتركوا كل ما حملوه معهم من هذه الأقاليم البعيدة، عادوا مرة أخرى بفعل أعمال التوبة والتكفير والصيام التى جددت صبرهم وجلدهم بدرجة أن الخزى من يأسهم السابق وهربهم كان الأمر الوحيد الذى يحز فى نفوسهم. وهناك الكثير الذى يمكن قوله عن هذا الموضوع.

« وبناء عليه، فعندما استقبل الإمبراطور وأمراؤه الكونت استقبالاً مشرفًا للغاية، طلب الإمبراطور من الكونت الولاء وقسم التبعية الذى أداه له بقية الأمراء. وأجاب الكونت بأنه لم يأت إلى هذا المكان لكى يتخذ لنفسه سيدا آخر غير الرب الذى من أجله ترك بلاده وممتلكاته. ومع هذا ، فإذا كان الإمبراطور سيذهب إلى القدس بجيشه، فإنه هو ورجاله وما يملكه سيكونون جميعًا تحت تصرفه. ولكن الإمبراطور تنصل من الرحلة بالقول بأنه يخشى أن يقوم الجرمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب المتوحشة بنهب إمبراطوريته، إذا ما قام بالرحلة مع الحجاج. وفى الوقت نفسه، فإن الكونت عندما سمع عن هروب رجاله وموتهم، اعتقد أنه وقع ضحية الخيانة، وبسبب عدد من أمرائنا اتهم الإمبراطور صراحة بارتكاب الخيانة. ولكن اليكتسيوس قال إنه لم يكن يعلم أن رجالنا عاثوا فسادا فى مملكته، وأنه هو ورجاله عانوا كثيراً من الأذى؛ وأنه لا يحق للكونت أن يشكو من شىء، سوى أنه بينما كان جيش الكونت ينهب القرى والمدن على مألوف عادته، رأى جيش الإمبراطور فولى الأدبار

(*) Peters, pp. 140-142.

هارباً. ومع هذا ، وعد بأنه سوف يقدم الترضية للكونت وعرض بوهيموند رهينة لهذه الترضية. وذهبوا للمحاكمة؛ ووفقاً للقانون اضطر الكونت إلى تقديم رهائنه.

« وفى الوقت نفسه وصل جيشنا إلى القسطنطينية؛ وبعد هذا تبعنا الأسقف الذى كان الجيش قد تركه فى درازو مع أخيه. وطلب اليكسيوس يمين الولاء عدة مرات ووعد بأنه سيعطى الكثير للكونت إذا أقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل بقية الأمراء. وعلى أية حال، فإن الكونت كان يفكر باستمرار فى كيفية الإنتقام لما حل برجاله من أذى، وكيف يغسل عن نفسه وعن أتباعه مثل هذا العار البغيض. ولكن دوق اللورين، وكونت الفلاندروز، وغيرهما من الأمراء، استنكروا مثل هذا التصرف، وقالوا إنه سيكون حماقة بالغة أن يحارب ضد المسيحيين على حين يطل خطر الأتراك ويتهددهم جميعاً. والواقع أن بوهيموند وعد بأنه سوف يساعد الإمبراطور إذا قام الكونت بأية محاولة ضد الإمبراطور، أو إذا ظل على رفضه ليمين التبعية والولاء. وعند ذلك، عقد الكونت مجلساً استشارياً مع رجاله وأقسم أنه لن يمس شرف الإمبراطور بشخصه أو عن طريق الغير. وعندما طلب منه يمين الولاء والتبعية ، قال إنه لن يفعل ذلك حتى لو كلفه حياته، وعندئذ منحه الإمبراطور بضعة هدايا قليلة ....».

ريمون كونت تولوز
رواية المؤرخ المجهول (*)

«كان كونت سان جيل قد عسكر خارج المدينة فى الضواحى، وبقى جيشه بالخلف، ولذا أمره الإمبراطور بأن يقسم يمين الولاء والتبعية مثلما فعل الآخرون، ولكن عندما أرسل الإمبراطور هذه الرسالة له كان الكونت يخطط للطريقة التى ينتقم بها لنفسه من الجيش الإمبراطورى. وعلى أية حال، فإن الدوق جودفرى، وروبرت كونت الفلاندرز والقادة الآخرين، أخبروه أنه سيكون من الخطأ أن يقاتل إخوته فى المسيحية وقال بوهيموند الجسور إنه إذا قام الكونت ريمون بأى الخطاء فى حق الإمبراطور أو رفض أن يقسم له يمين الولاء والتبعية، فإنه سيقف فى صف الإمبراطور. ومن ثم فإن الكونت عمل بنصيحة أصدقائه وأقسم على احترام

(*) Gesta, p. 13.

حياة أليكسيوس وشرفه وأنه لن يدمرها أو يسمح لأحد آخر بأن يفعل؛ ولكن عندما طلب منه أن يقدم آيات الخضوع والتبعية أجاب بأنه لن يفعل حتى ولو كان الثمن هو حياته.(١) وبعد ذلك جاء جيش سيدى بوهيموند إلى القسطنطينية»..

ريمون كونت تولوز
رواية آنـا كومنينا (*)

«وبالنسبة لأحدهم، وهو ريمون كونت سان جيل (٢)، كان اليكسيوس يكن له إعجابًا عميقًا لعدة أسباب : ذكاء الكونت الخارق، وسمعته الناصعة، ونقاء حياته. فضلاً عن أنه كان يعرف كيف يقدر ريمون الحقيقة تقديراً كبيراً؛ فمهما كانت الظروف، كان يفضل الحقيقة على ما عداها. والحق أن السانجيلى كان يتفوق على اللاتين فى كل خصاله، مثلما تسطع الشمس على جميع النجوم. وهكذا، فإنه عندما تركه الآخرون جميعًا وعبروا البسفور إلى الشاطئ الآسيوى (٣)، وعندما استراح من وجودهم المتعب، أرسل له فى عدة مناسبات. وشرح بمزيد من التفصيل المغامرات التى يجب على اللاتين أن يتوقعوها فى مسيرتهم؛ كما كشف عن شكوكه فى خططهم. وخلال محادثات كثيرة جرت حول هذا الموضوع فتح قلبه بلا تحفظ للكونت وصارحه بما يختلج فى نفسه، وحذره دائمًا أن يكون متيقظًا ضد خداع بوهيموند بأية وسيلة. وأوضح السانجيلى أن بوهيموند ورث الغدر والعدوانية عن أسلافه ـ إذ كان ذلك نوعا من الأمراض الوراثية. وقال «ستكون معجزة إذا حافظ على اليمين إذا أقسم به، وعلى أية

---

(١) كانت رحلة ريمون السانجيلى عبر الأراضى الإمبراطورية بجيشه رحلة عاصفة دون سائر الجيوش التى كونت الحملة الأولى. وعلى الرغم من تشدده فإنه كان الوحيد بين زعماء الصليبيين الذى أخذ يمينه وقسمه مأخذ الجد ويلاحظ هنا التشابه الشديد (حتى فى الصياغة) بين كلمات المؤرخ المجهول وبين ريمون الأجويلرى مؤرخ حملة ريمون السانجيلى أسقف تولوز. ويرى البعض أنه اعتمد فى هذا الجزء على المؤرخ المجهول.

(*) Alexiad, pp. 329-331.

(١) تسميه آنا ايسانجيليس Isangeles ، وهو تحريف يونانى للإسم اللاتينى. والجدير بالذكر أنه كان كونت تولوز وماركيز البروفانس، وكان يأمل فى قيادة الصليبيين فى المعركة ضد المسلمين، كما كان منافسًا خطيرًا لبوهيموند كما سيتضح من النصوص التالية.

(١) أبريل ١٠٩٧م.

حال، فإنه فيما يخصني سأبذل قصارى جهدى لمراعاة أوامرك». وبهذا رحل عن الإمبراطور وذهب للحاق بالجيش الكلتى كله. وكان أليكسيوس يود لو شارك فى الحملة ضد البرابرة أيضًا، ولكنه كان يخاف تلك الأعداد الضخمة من الكلتين (الصليبيين). ولم يكن يظن أن من الحكمة أن يتحرك إلى البلقان. فإذا ما جعل مقر قيادته الدائم بالقرب من نيقية سيكون بوسعه الحصول على معلومات عن تقدمهم، وعن نشاط الأتراك خارج المدينة فى الوقت نفسه، كما سيكون قادرًا على معرفة أحوال السكان داخل المدينة. وسيكون من العار، كما كان يعتقد، إذا لم يحرز هو نفسه بعض النجاح العسكرى فى الوقت نفسه. وعندما واتته فرصة مناسبة، خطط للإستيلاء على نيقية بنفسه؛ لأن ذلك سيكون أفضل من أن يتسلمها من الكلتيين (وفقًا للمعاهدة التى أبرمت بالفعل معهم). ومع هذا احتفظ لنفسه بالفكرة. فإن أى مشاريع كان يقوم بها، وأسبابها، لم يكن يعرفها أحد سواه، على الرغم من أنه كان يثق فى بوتوميتيس الذى عهد إليه بهذه المهمة (وكان هو الوحيد الذى يثق به) . وكانت لدى بوتوميتيس تعليمات بأن يستميل البرابرة فى نيقية بكل الضمانات والوعود بالأمان الكامل وأن يهددهم أيضًا بالمخاطر التى تتهددهم ـ بما فى ذلك المذابح ـ إذا استولى الكلتيون على المدينة. وكان متأكدًا من ولاء بوتوميتيس وكان يعرف أنه سيقوم بنشاط مكثف فى مثل هذه الأمور..»

حصار نيقية وسقوطها
(مايو ـ يونيو ١٠٩٧م)

فى السادس من شهر مايو سنة ١٠٩٧م وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى أمام مدينة نيقية فى آسيا الصغرى، والتى كانت فى ذلك الحين عاصمة للدولة السلجوقية التى كان يحكمها قلج أرسلان. وكانت المدينة تتحكم فى الطريق الأساسى عبر الأناضول. وفرض الصليبيون حصارهم على المدينة، وفى الحادى والعشرين من الشهر نفسه صدوا هجوماً قام به جيش قلج أرسلان ـ وكان ذلك أول انتصار يحرزه الصليبيون فى أرض المعركة . وفى التاسع عشر من يونيو استسلمت المدينة لقوات الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس بدلاً من أن تواجه الهجوم النهائى الذى كان الفرنج يعتزمون شنه على المدينة. وكان النصر الذى تم فى نيقية حافزاً للصليبيين على طول الطريق إلى القدس. وفى هذه الصفحات نورد بعض الروايات المختلفة حول حصار نيقية وسقوطها تحمل كلا من وجهة النظر اللاتينية ووجهة النظر البيزنطية.

١ـ رواية المؤرخ المجهول (*)

« بقى بوهيموند مع الإمبراطور ليتشاور معه بشأن إمدادات الطعام للناس الذين ذهبوا إلى ما وراء نيقية، وهكذا كان الدوق جودفرى هو أول من ذهب إلى نيقوميديا، وأخذ معه تنكرد والآخرين جميعًا. وبقوا هناك ثلاثة أيام، وعندما رأى الدوق أنه لا يوجد طريق يمكنه أن يقود قومه بواسطته إلى نيقية (لأن عددهم كان كبيراً جداً بحيث لا يمكنهم السير على نفس الطريق الذى سار عليه الصليبيون الآخرون) أرسل قبله ثلاثة آلاف رجل مسلحين بالبلط والسيوف حتى يمكنهم فتح طريق لحجاجنا حتى مدينة نيقية. وكان هذا الطريق يؤدى إلى جبل شاهق الإرتفـــاع (١) وشديد الإنحدار، لدرجة أن الباحثين عن الممر كانوا يصنعون الصلبان من الخشب والمعادن ويضعونها على أعمدة خشبية حتى يراها حجاجنا. ولم نلبث أن وصلنا إلى نيقية، التى كانت عاصمة الروم، وذلك فى يوم الأربعاء السادس من شهر مايو، وعسكرنا

(*) Gesta, pp. 13 - 15.

(١) يرتفع هذا الجبل أكثر من أربعة آلاف قدم.

هناك. وقبل أن يحضر سيدى بوهيموند الجسور إلينا كنا نعانى نقصا شديداً فى الأقوات لدرجة أن رغيف الخبز كان يساوى ما بين عشرين إلى ثلاثين بنسًا، ولكن بعد أن جاء أمر بإحضار كميات وفيرة من الأطعمة عن طريق البحر، وهكذا جاءتنا البضائع براً وبحراً، ونعمَ جيش المسيح كله بهذه الوفرة والكثرة فى الطعام.

« وفى عيد الصعود [1] بدأنا فى فرض الحصار على المدينة، كما بدأنا فى بناء آلات الحصار والأبراج الخشبية التى يمكننا عن طريقها ضرب الأبراج القائمة على أسوار المدينة، وضغطنا فى حصارنا بشجاعة وقوة على مدى يومين وعقدنا العزم على تقويض أسوار المدينة، ولكن الأتراك الذين كانوا داخل المدينة أرسلوا رسائل إلى الآخرين الذين جاءوا لنجدتهم، وأخبروهم أن بوسعهم الدخول بلا خوف وسلام عن طريق البوابة الجنوبية، لأنه لم يكن هناك أحد يعترض طريقهم أو يهاجمهم. وعلى أية حال فقد تم سد الطريق إلى هذه البوابة فى هذا اليوم نفسه (وهو يوم السبت التالى للعيد) بقوات الكونت السانجيلى وأسقف لوبوى. وقد وجد الكونت، الذى جاء من الطرف الآخر للمعدية بجيش قوى جداً، وهو يثق فى حماية الرب ويعتز بأسلحته الأرضية ـ وجد الأتراك قادمين تجاه البوابة لملاقاة رجالنا. وإذ كانت علامة الصليب تحمى فى كل اتجاه، شن هجوما عنيفًا على الأعداء وهزمهم هزيمة نكراء أرغمتهم على الفرار بعد أن سقط منهم قتلى كثيرون. واستنجد الناجون بمساعدة الأتراك الآخرين وجاءوا بروح معنوية عالية، وهم واثقون من النصر، ومعهم الحبال التى سيسوقوننا مقيدين بها إلى خراسان. وأقدموا مرحين وبدأوا ينزلون مسافة يسيرة من قمة الجبل، ولكن كل من نزل من الجبل أطاح رجالنا برأسه، وقذفوا رءوس المذبوحين داخل المدينة بالمقاليع لكى يبثوا الرعب فى أوصال الحامية التركية.

« وبعد هذا تشاور الكونت السانجيلى وأسقف لوبوى سويًا حول الوسيلة التى يمكنهما بها تقويض البرج الذى كان قائمًا قبالة معسكرهما، ومن ثم أرسلا الرجال لتخريبه ومعهم النبالة لحمايتهم. وحفر الجنود حتى أساسات الأسوار ووضعوا الألواح والقطع الخشبية، وأشعلوا فيها النيران، ولكن هذا كله تم فى المساء ومن ثم كان الليل قد أرخى سدوله حين سقط البرج، ولم يستطع رجالنا قتال المدافعين بسبب الظلام. وفى تلك الليلة هرع الأتراك وأعادوا بناء السور بقوة بحيث لم يكن ممكنا هزيمتهم فى هذه النقطة عندما بزغ النهار.

---

(١) ١٤ مايو سنة ١٠٩٧م.

« وبعد ذلك مباشرة وصل روبرت كونت نورماندى والكونت ستيفن ومعهم كثيرون آخرون، ثم جاء روجر البارنفيللى فى أعقابهم. ثم أقام بوهيموند معسكره فى مواجهة المدينة، يليه تنكرد، ثم الدوق جودفرى وكونت الفلاندرز، ويليه روبرت كونت نورماندى، ثم كونت سان جيل وأسقف لوبوى. وهكذا تم إحكام الحصار حول المدينة أرضًا بحيث لم يكن أحد يجرؤ على الخروج منها أو يدخل إليها. ولأول مرة، كان رجالنا جميعًا يتجمعون سويًا فى هذا المكان، ومن ذا الذى يستطيع أن يحصى جيشًا مسيحيًا كبيرًا مثل هذا؟ إننى لا أظن أحدًا رأى من قبل، أو سيرى من بعد، مثل هذه الكثرة من الفرسان الشجعان.

« وعلى أحد جوانب المدينة كانت ثمة بحيرة كبيرة، وضع الأتراك القوارب فوق مياهها، وكانوا يذهبون ويجيئون يحضرون الأخشاب والأعلاف وأشياء أخرى كثيرة، ولذا تشاور قادتنا سويا وأرسلوا الرسل إلى القسطنطينية يطلبون من الإمبراطور إحضار القوارب إلى كيفيتوت، حيث يوجد ميناء، وأن تجمع الثيران لسحب هذه القوارب على الجبال وخلال الغابات حتى تصل إلى البحيرة. وأمر الإمبراطور بعمل هذا فى الحال وأرسل قواته من التركبولى معهم. ولم يكن من المفروض أن يضع رجاله القوارب فى البحيرة بمجرد وصولهم، وإنما وضعوها تحت جنح الليل فى نظام بديع وأبحرت عبر البحيرة فى اتجاه المدينة. وعندما رآها الأتراك تملكتهم الدهشة، ولم يعرفوا ما إذا كانت قواربهم أم قوارب الإمبراطور، ولكنهم عندما أيقنوا أنها قوارب الإمبراطور غشيهم خوف مميت، وبدأوا ينوحون ويندبون، على حين أخذ الفرنج يفرحون ويمجدون الرب. ثم أيقن الأتراك أن جيوشهم لن تستطيع له نفعًا، فأرسلوا رسالة إلى الإمبراطور يخبرونه باستعدادهم لتسليم المدينة إذا تركهم يذهبون بزوجاتهم وأولادهم فى سلام دونما خوف؛ وأمر باحضارهم سالمين إليه فى القسطنطينية، واحتفظ بهم حتى يمكنه استخدامهم فى إيذاء الفرنج واعتراض حملتهم الصليبية.

« حاصرنا هذه المدينة سبعة أسابيع وثلاثة أيام، واستشهد كثيرون من رجالنا هناك وأعطوا أرواحهم المباركة إلى الرب فى فرح وسرور، ومات فقراء كثيرون من الجوع فى سبيل اسم المسيح. وهؤلاء جميعًا دخلوا السماء تحت راية النصر، وهم يلبسون ثوب الشهادة الذى تلقوه، وهم يقولون فى صوت واحد « انتقم يا سيدنا لدمائنا التى أريقت فى سبيلك، لأنك مُبارك ومستحق للمجد أبدًا. آمين».

« وعندما استسلمت المدينة، أخذ الأتراك إلى القسطنطينية ، وانتاب الإمبراطور فرح عظيم لأن المدينة خضعت لسلطانه، وأمر بتوزيع الصدقات على حجاجنا الفقراء فى سخاء...»

رواية فوشيه الشارترى (*)

«عندما سمع أولئك الذين كانوا على حصار نيقية بوصول قادتنا، كونت نورماندى وستيفن أمير بلوا، خرجوا وهم مسرورين للقائنا ورافقونا إلى مكان جنوب المدينة حيث ضربنا خيامنا.

« وحدث من قبل أن جمع الأتراك قواهم على أمل طرد المحاصرين بعيداً عن المدينة قدر الإمكان، أو على أمل الدفاع عنها بجنودهم بفعالية أكثر. ولكن رجالنا دحروهم تمامًا وقتلوا منهم حوالى مائتين. وفضلاً عن ذلك، فإنهم حين رأوا مدى قوة وشجاعة الفرنج فى القتال تقهقروا مهرولين داخل أراضى رومانيا حتى تواتيهم فرصة مناسبة لمعاودة هجومهم.

« وكان الأسبوع الأول من يونيو، حين وصل آخر القادمين إلى قوات الحصار(١). »

« وفى ذلك الوقت تم تشكيل جيش موحد من تلك الجيوش الكثيرة التى كانت هناك. وقدره العارفون بالحساب بحوالى ستمائة ألف جندى. ومن بينهم كان حوالى مائة ألف تحميهم معاطف الزرد والخوذات. وفوق ذلك كان هناك من لا يحملون أسلحة مثل القساوسة والرهبان والنساء والأطفال.

« فما الذى حدث إذن؟ إذا كان كل الذين رحلوا من ديارهم للقيام بالرحلة المقدسة حاضرين هناك فلاشك أن عددهم كان سيصل إلى ستة ملايين محارب (٢). ولكن من روما ، ومن أبوليا، ومن المجر، أو من دلماشيا رجع البعض ممن لم يكن لديهم الاستعداد للتعرض للصعاب. وفى أماكن كثيرة لقى آلاف مصرعهم، كما أن بعض المرضى الذين استمروا معنا ماتوا فى نهاية الأمر. وكان بوسعك أن ترى مقابر عديدة على طول الطريق وفى الحقول التى دفن فيها حجاجنا.

(*) Fulcher of Chartres, pp. 81 - 83.

(١) كان ذلك فى الثالث من يونيو ١٠٩٧م.

(٢) تبدو المبالغة الشديدة واضحة فى كلمات هذه الأسقف الذى صحب قوات الحملة الأولى. وربما كان دافعه إلى ذلك الرغبة فى تصوير الحملة الصليبية فى صورة أخاذة مبهرة.

« ويجب أن أشرح أنه طوال مدة حصارنا لنيقية كانت السفن تحضر لنا الطعام بموافقة الإمبراطور . ثم أمر زعماؤنا بصنع آلات القتال، مثل المنجنيقات والكباش (١) والأبـــراج الخشبية وغيرها وقاتل رجالنا ورجال العدو كراً وفراً بكل قوة، وغالبا ما كنا نهاجم المدينة بآلاتنا ، ولكن الأسوار المنيعة التى كانت قائمة أمامنا كانت تجعل هجومنا غير ذى جدوى، وغالباً ما كان الأتراك الذين تصيبهم الأقواس أو الحجارة يهلكون، وكان الفرنج يلقون نفس المصير.

« حقًا كان لا بد أن تحزن وتأسى عندما كان الأتراك يقتلون أيا من رجالنا بأية وسيلة قرب الأسوار، لأنهم كانوا ينتشلون الأجساد بالخطاطيف المدلاة بالحبال لكى ينهبوها . ولم يكن أى من رجالنا يجرؤ أو يستطيع أن يمنع عنهم هذه الجثث، وبعد أن يجرد الأتراك الموتى مما يحملون كنوا يقذفون الجثث خرج السور.

« ثم سحبنا بعض السفن الصغيرة بمساعدة الثيران والحبال من كيڤيتوت برا حتى نيقية ووضعناها فىَ البحيرة لمنع الاقتراب من المدينة حتى لا تصل إليها المؤن والامدادات.

« ولكن بعد أن أرهقنا المدينة بحصار استمر خمسة أسابيع، وأوقعنا الرعب كثيراً فى نفوس الأتراك بهجماتنا . عقدوا مؤتمراً فى الوقت نفسه، وسلموا المدينة سراً إلى الإمبراطور من خلال وسائطه. بعد أن كانت قد أرهقت بالفعل تحت وطأة قوتنا ومهارتنا .

« بعد ذلك، سمح الأتراك لقوات التركبولى التى أرسلها الإمبراطور بدخول المدينة. وقد استولى هؤلاء على المدينة وكل ما بها من أموال بإسم الإمبراطور وتنفيذاً لأوامره. وبعد أن تم الإستيلاء على هذه الأموال، أمر الإمبراطور بتقديم الهدايا إلى زعمائنا؛ وهى هدايا من الذهب والفضة والنفائس، ووزع على الجنود المشاة عملات نحاسية يطلقون عليها إسم التارتون.».

---

(١) آلات لتقويض الأسوار وحماية الحفارين الذين يعملون تحتها.

٣ـ رواية ريمون الاجويلرى (*)

« وبعد ذلك عبرنا البحر وسرنا حتى نيقية. إذ كان الدوق ، وبوهيموند والأمراء الآخرون قد سبقوا الكونت وكانوا مشغولين فى أعمال الحصار. ومدينة نيقية محصنة تحصينًا قويا بالطبيعة وبالعمل الإنسانى أيضًا. فمن ناحية الغرب توجد بحيرة كبيرة تصل حتى أسوار المدينة؛ والنواحى الثلاث الأخرى يحيط بها خندق تملؤه مياه المجارى المائية الصغيرة؛ وبالإضافة إلى ذلك تحيط بها أسوار بلغت من الارتفاع حدًا يجعل المدينة بمأمن من أى هجوم بشرى أو بآلات الحصار. والواقع أن أماكن القتال فى الأبراج المتجاورة قد حورت بشكل جعل من العسير على أى شخص أن يقترب دون أن يعرض نفسه للخطر. وعلى أية حال، إذا أراد أى إنسان أن يقترب من الأسوار فإنه يقع بسهولة تحت سيطرة الأبراج دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه،

« وبناء عليه فإن المدينة، بالوصف الذى شرحناه، حوصرت بقوات بوهيموند من الشمال، وقوات الدوق [جودفرى] والألمان من الشرق، ومن الوسط حاصرتها قوات الكونت [ريمون السانجيلى] وأسقف لوبوى، ولم تكن قوات كونت نورماندى قد انضمت إلينا بعد. ولكننا نعتقد أنه لا يجب إغفال ذكر هذه الحادثة : ــ ذلك أنه بينما كان الكونت على وشك أن يعسكر بقواته هناك، نزل الأتراك من الجبل فى كتيبتين وهاجموا جيشنا . وكانت خطتهم فى الواقع تقوم على أنه بينما تهاجم الكتيبة الأولى من الأتراك الدوق والألمان الذين معه فى الشرق، يقوم الجزء الآخر من الجيش التركى بالدخول من البوابة الوسطى للمدينة ويخرج من بوابة غيرها بحيث يمكنه بسهولة أن يدفع رجالنا من المعسكر فى وقت لا يتوقعون فيه مثل هذا الهجوم. ولكن الرب الذى شاء أن يحبط خطط الكفار، بدل استعداداتهم، بحيث أرسل الكونت الذى كان يستعد ليعسكر بقواته ليدهم كتيبة الأتراك التى كانت على وشك الدخول إلى المدينة، وكأن ذلك كان أمرًا مبيتًا . وقد أجبرهم على الفرار فى الهجوم الأول، وبعد أن قتل عددًا كبيرًا منهم، طارد الآخرين حتى قمة الجبل. أما الجزء الآخر من الأتراك الذين كانوا يريدون مهاجمة

(*) Peters, pp. 147 - 148.

الألمان، فقد ارغموا على الفرار بالطريقة نفسها وتم تدميرهم. وبعد هذا، تم بناء الآلات وبدأ الهجوم على أسوار المدينة دون طائل، لأن الأسوار كانت صامدة للغاية فى مواجهتنا، ودافع الأتراك عنها ببسالة مستخدمين السهام والآلات. وهكذا حاربنا خمسة أسابيع دونما نتيجة. وأخيراً، وبمشيئة الرب، اقترب بعض الرجال من أتباع الأسقف والكونت من الركن الذى يقع فيه البرج الشرقى بصورة خطيرة، وبعد أن كونوا ستارة بأجسامهم وناضلوا، ثم بدأوا يقوضون أحد الأبراج بالحفر فى أساساته حتى الأرض. وهكذا، كان يمكن الاستيلاء على المدينة لو لم يسدل الليل ستاره مما حال دون ذلك. وعلى أية حال فقد أعيد بناء السور خلال ساعات الليل، وهو ما جعل جهدنا يذهب سدى. وأخيراً أجبرت المدينة التى هزها الرعب على الاستسلام. وكان من أسباب هذا الاستسلام أن سفن الإمبراطور التى كانت قد سحبت على الأرض وضعت فى البحيرة. ولهذا سلموا أنفسهم للإمبراطور، لأنهم لم يتوقعوا أن تأتيهم أية مساعدة ورأوا أن جيش الفرنجة يتزايد عدده يومًا بعد يوم، كما أن الاتصالات مع قواتهم قد انقطعت. وكان كونت نورماندى قد جاء بجيشه. وكان أليكسيوس قد وعد الأمراء وعامة الفرنج بأن يعطيهم كل الذهب، والفضة والخيول، والأمتعة الموجودة بداخل المدينة، وأنه سيؤسس بها ديرًا لاتينيا ومنزلاً للفرنج الفقراء ؛ كما وعدهم بأن يعطى لكل فرد فى الجيش من أملاكه ما يجعل الجندى يرغب فى أن يقاتل من أجله إلى الأبد. وبناء على ذلك، وافق الفرنج على الإستسلام بسبب ثقتهم فى وعوده. وهكذا، عندما تسلم اليكسيوس المدينة جاء اعترافه بالجميل على نحو جعل كل فرد فى الجيش يلعنه ويعلن أنه خائن طالما بقى على قيد الحياة.

« وحينذاك تحققنا من أن الإمبراطور قد خان بطرس الناسك الذى كان قد جاء إلى القسطنطينية منذ زمن طويل ومعه عدد ضخم من الناس. لأنه أجبره ، وهو يجهل بالأحوال المحلية ولا يعرف فى المسائل العسكرية، على عبور المضيق برجاله ويعرضهم للأتراك. وفضلاً عن ذلك فإن أتراك نيقية عندما شاهدوا هذا الجمع من غير المحاربين ، مزقوهم إربا إربا دون جهد أو تأخير وقتلوا منهم ستين ألفا. والواقع أن الباقين فروا إلى مكان محصن هرباً من سيوف الأتراك. أما الأتراك الذين زادهم هذا الحادث شجاعة وجسارة، فقد أرسلوا الأسلحة والأسرى الذين أخذوهم من هناك إلى المسلمين والنبلاء من بنى جلدتهم وكتبوا إلى الشعوب والمدن النائية أن الفرنج لا يصلحون للقتال ».

٤ـ رواية آنا كومنينا(*)

« تقابل بوهيموند والكونتات الآخرون في مكان قصدوا أن يبحروا منه إلى كيفيتوس، وانتظروا مع جودفرى حتى وصل السانجيلي مع الإمبراطور . وهكذا استعدوا للإنطلاق صوب نيقية وقد اتحدت قواتهم. وعلى أية حال، فقد وصلت قواتهم من الكثرة درجة كان يستحيل معها أى تأجيل ــ إذ كانت إمدادات الطعام غير كافية. وهكذا قسموا جيشهم إلى قسمين: سارت مجموعة عبر بيثينيا ونيقوميديا صوب نيقية؛ على حين عبرت المجموعة الأخرى المضيق إلى كيفيتوس واجتمعوا سوياً هناك مرة أخرى. وعندما وصلوا إلى نيقية قسموا الأبراج ووزعوا المسئوليات القتالية على عدة أقسام. وكانت الفكرة أن يشنوا هجومهم على الأسوار من هذه المواقع؛ حتى تلتهب المنافسة بين مختلف الكتائب ويتخذ الحصار قوة ضغط أكبر. وقد تركت المنطقة التي تحددت للسانجيلي خالية حتى وصل. وفي هذه اللحظة وصل الإمبراطور إلى بليكانوم، وعينه على نيقية (كما أشرنا من قبل). وفي الوقت نفسه كان البرابرة داخل المدينة يرسلون الرسل تباعًا إلى السلطان [(١)] طلبا للمساعدة، ولكنه كان ما يزال يهدر الوقت على حين كان الحصار قد فرض فعلاً منذ عدة أيام من الشروق حتى الغروب، وصارت أوضاعهم خطيرة جداً وأوقفوا القتال، وقرروا أن من الأفضل الإتفاق مع الإمبراطور بدلاً من الكلت. وفي ظل هذه الظروف استدعوا بوتوميتيس، الذى لم يتوقف من خلال فيض من الخطابات عن وعدهم بأن الإمبراطور سيمنحهم شروطًا طيبة إذا استسلموا له فقط. وحينئذ شرح بقدر أكبر من التفصيل مقاصد الإمبراطور الودية وقدم لهم ضمانات مكتوبة. واستقبله الأتراك بفرح بعد أن يئسوا من الصمود أمام قوة أعدائهم الكاسحة؛ وفكروا أن من الحكمة أن يسلموا نيقية اختيارا إلى أليكسيوس وينالوا عطاياه، والمعاملة الكريمة، بدلاً من أن يصبحوا ضحايا حرب بلا هدف. ولم يمض يومان على قدوم بوتوميتيس للمكان حتى جاء السانجيلي بقواته، وصمم على أن يحاول اقتحام أسوار المدينة في الحال؛ وكانت لديه آلات الحصار الجاهزة للقيام بالمهمة. وفي هذه الأثناء سرت شائعة بأن السلطان في طريقه إلى المدينة. وعندما سمع الأتراك هذه الأنباء، استردوا شجاعتهم من جديد، وطردوا بوتوميتيس. أما

(*) Alexiad, pp. 333-341

(١) هو السلطان السلجوقي قلج أرسلان الذى كان في الشرق يحارب الدانشمند في ملطية. وربما يكون قد استهان بقوة الفرنج، وعول على قصص الخلاف بينهم وبين اليكسيوس. ولما كانت زوجته وأطفاله وخزائنه بالمدينة، فلابد أنه كا يعتقد أن الخطر ليس جسيما.

السلطان، فقد أرسل فصيلة من جيشه لمراقبة الفرنج فى هجومهم، وصدرت إليهم الأوامر بالقتال إذا صادفوا أى فرنجى. ورآهم رجال السانجيلى ودارت معركة بين الجانبين ـ ولكن الدائرة دارت على الأتراك، لأن الكونتات الآخرين وبينهم بوهيموند نفسه عندما علموا باشتعال القتال، جردوا مائتى رجل من كل مجموعة بحيث كونوا جيشا قويا وأرسلوه فى الحال للمساعدة. وتغلبوا على الأتراك وطاردوهم حتى هبوط الليل، ومع هذا فإن السلطان كان بعيداً عن اليأس بسبب هزيمته؛ فعند شروق شمس اليوم التالى كان مستعدا فى ملابسه العسكرية واحتل برجاله السهل الواقع خارج أسوار نيقية. وسمع الكلتيون بهذا واستعدوا هم أيضا للقتال وانقضوا على أعدائهم مثل الأسود. وكان الصراع الذى اندلع حينذاك عنيفًا مرعبًا. وطوال النهار لم يحسم القتال لصالح أحد الطرفين، ولكن الأتراك لاذوا بالفرار عندما مالت الشمس للمغيب . وحين خيم الليل انتهت المعركة. وسقط كثيرون من الجانبين وقتل معظمهم؛ وجرح غالبية المقاتلين. وهكذا أحرز الفرنج نصراً مؤزراً. ووضعت رؤوس القتلى الكثيرين الذين سقطوا من الأتراك على أسنة الرماح وعاد الفرنجة يحملونها كما لو كانت أعلامًا وبيارق، وحينئذ أدرك البرابرة مدى فداحة ما حدث، وخافوا من مغبة هذه الهزيمة التى نالتهم عند المواجهة الأولى. وربما صرفوا النظر عن الأشتراك فى أية معركة فى المستقبل. وقد انعكس هذا أيضًا على تصرفات وأفكار اللاتين. أما السلطان، فقد أدرك مدى كثرتهم العددية بعد هذه المعركة، وتحقق من ثقتهم بنفسهم وجسارتهم فأرسل إلى الأتراك فى نيقية يقول لهم «منذ الآن فصاعدا اعملوا ما ترون أنه الأحسن». وكان يعلم بالفعل أنهم يفضلون تسليم المدينة إلى اليكسيوس بدلاً من أن يصيروا أسرى لدى الفرنج. وفى الوقت نفسه فإن السانجيلى انكب على المهمة المنوطة به، وأخذ يبنى برجاً خشبياً، مستدير الشكل؛ وغطاه من الداخل والخارج برقاع الجلد وملأه من الداخل بأعواد الخيزران المتشابكة. وعندما تم تقويته تمامًا اقترب من البرج المسمى جوناتاس[1]. وتم شحن هذه الآلة بالرجال الذين كان عملهم دك الأسوار، كما ملأه بالنقابين المهرة المجهزين بأدوات حديدية لتقويض الأسوار من أسفل. وفى مكان الأحجار التى نزعوها وضعوا كتلاً خشبية، وعندما يصير الفراغ الذى أحدثته قد وصل إلى مدى اختراق السور تقريبًا بحيث يظهر الضوء من الجانب الآخر من السور، يشعلون

---

(١) نتيجة لأعمال عسكرية سابقة تعرض هذا البرج لحرق جزء منه وغاصت قاعدته بحيث أصبح يبدو كما لو كان راكعاً يثنى ركبتيه ، وسمى جوناتاس (الراكع).

الكتل الخشبية ويحرقونها. وبعد أن تحولت الكتل إلى رماد، مال البرج الراكع واستحق اسمه أكثر من ذى قبل. وأحيطت بقية الأسوار بآلات دك الأسوار والكباش، وفى غمضة عين ملأ الخندق بالتراب، وتساوى مع الأماكن المسطحة على جانبيه. ثم استمروا فى الحصار قدر طاقتهم.

« وكان الإمبراطور قد تفحص نيقية جيداً، وحكم فى مناسبات عديدة بأن اللاتين لا يمكنهم أن يستولوا عليها، بغض النظر عن أعدادهم الغفيرة. وبنى بدوره أنماطًا متعددة من آلات الحصار، ولكنها كانت مصممة بشكل غير عادى بحيث أذهلت الجميع. وأرسل هذه الآلات إلى الكونتات. وكان، كما ذكرنا بالفعل ، قد عبر بالقوات المتاحة وأقام فى بليكانوم قرب ميسابيلوى، حيث بنيت كنيسة فى الزمن القديم كرست لجريجورى الشهيد الكبير. وكان أليكسيوس يود لو أنه رافق الحملة ضد الأتراك الذين ليس لهم رب يعبدونه، ولكنه نحى المشروع جانباً بعد أن وزن الأمور جيداً: فقد وجد أن الجيش الرومانى كان أقل من جيوش الفرنج بشكل يدعو إلى اليأس؛ إذ كان يعلم من خلال تجربته أيضًا أن لا يثق بالفرنج. ولم يكن ذلك هو كل ما فى الأمر: ذلك أن اضطراب أحوال اللاتين وتقلباتهم وطبيعتهم الغادرة قد تكتسحهم بين آن وآخر، مثل موجات المد فى إيريبوس [١]، من طرف إلى الطرف الآخر، ولحبهم للمال كانوا على استعداد لبيع زوجاتهم وأطفالهم مقابل أى مبلغ تافه من المال. كانت هذه هى الأسباب التى منعته من الإنضمام للحملة. وعلى أية حال، ومع أن حضوره كان غير حكيم، فإنه أدرك ضرورة مساعدة الفرنج كما لو كان معهم. وكان متأكداً من أن قوة أسوار نيقية تجعلها منيعة؛ وأن اللاتين لن يستولوا عليها إطلاقًا. ولكن عندما وردت الأنباء بأن السلطان يحضر قوات قوية، وأنه يحضر مؤن الغذاء عبر البحيرة [٢]، دونما صعوبة على الإطلاق، وأن هذه القوات والمؤن كانت تشق طريقها إلى داخل المدينة، قرر أن يفرض سيطرته على البحيرة. وتم بناء القوارب الخفيفة التى تستطيع الإبحار فوق مياهها وحملت فوق العربات وحملت إلى جانب كيوس، وركبها جنود مسلحون تسليحًا كاملاً تحت قيادة مانويل بوتوميتيس. وأعطاهم اليكسيوس أعلامًا وبيارق أكثر من المعتاد ـ حتى يبدو عددهم أكثر مما كانوا فى الحقيقة ـ كما زودهم بالطبول . ثم حول انتباهه إلى الأرض الرئيسية. وأرسل إلى تاتيكيوس،

---

(١) قنال داخلى يربط بين جزيرة ايبويا وبقية الأراضى اليونانية واشتهر بعنف تياراته.
(٢) بحيرة أسكانيا غرب مدينة نيقية.

وتزتيباس بقوة من المقاتلين الشجعان قوامها ألفين من الرجال وجهها صوب نيقية؛ وكانت أوامره إليهم بأن يحملوا المدد الوفير من السهام التي جاءوا بها فوق البغال بمجرد نزولهم ويستولوا على قلعة سان جورج؛ وكان عليهم أن يترجلوا عن خيولهم على مسافة معقولة من نيقية، وأن يذهبوا سيرًا على أقدامهم إلى برج جوناتاس ويأخذوا مواقعهم هناك ؛ وكان عليهم أن يشكلوا خطوطهم مع اللاتين ويهاجموا أسوار المدينة تحت إمرتهم . وأطاع تاتيكيوس أوامر الإمبراطور، وأخبر اللاتين أنه وصل مع جيشه، وفي الحال حمل كل رجل سلاحه وأخذوا يهاجمون وهم يصيحون صيحات القتال. وأطلق رجال تاتيكيوس موجات كبيرة من السهام بينما كان اللاتين يحدثون ثغرات في الأسوار ويواصلون دكها بالحجارة من منجنيقاتهم. ومن ناحية البحيرة انتابت العدو حال من الذعر بسبب الأعلام الإمبراطورية والطبول التي حملها بوتوميتيس، الذي اختار هذه اللحظة لكي يخبر الأتراك بوعود الإمبراطور. وقد ملك الخوف على الأتراك قلوبهم لدرجة أنهم لم يجرؤوا حتى أن يطلوا من شرفات أسوار نيقية. وفي الوقت نفسه فقدوا كل أمل في قدوم السلطان . وقرروا أن من الأفضل تسليم المدينة وبدء المفاوضات مع بوتوميتيس حتى النهاية. وبعد المجاملات المعتادة أظهر لهم بوتوميتيس المرسوم الذي أعطاه له اليكسيوس وفيه لا يكتفي بضمان سلامتهم فحسب، بل يضمن لهم هبات من المال ومظاهر التشريف لأخت السلطان وزوجته. وشملت هذه الشروط كل البرابرة في نيقية دون استثناء. وإذ وضع سكان المدينة ثقتهم في وعود الإمبراطور سمحوا لبوتوميتيس بدخول المدينة. وفي الحال أرسل رسالة إلى تاتيكيوس يقول فيها : « إن الأمور بأيدينا الآن. يجب الاستعداد لشن هجوم على الأسوار. ويجب أن يعهد للفرنج بهذا العمل أيضًا، ولكن لا تترك لهم سوى القتال على الأسوار حول الاستحكامات. حاصر المدينة في كل المواقع، وقم بالمحاولة عند شروق الشمس». وكانت هذه في الحقيقة خدعة لجعل الفرنج يعتقدون أن بوتوميتيس استولى على المدينة بالقتال، وكان لا بد من كشف الخديعة التي دبرها اليكسيوس بإحكام، لأنه لم يكن يريد للاتين أن يعرفوا بأمر المفاوضات التي أجراها بوتيميتس. وفي اليوم التالي تردد صوت النداء للمعركة على كلا جانبي المدينة: فمن ناحية البر اشتد الفرنج في الحصار، ومن ناحية أخرى صعد بوتوميتيس على شرفات السور ورفع الأعلام والبيارق الإمبراطورية، وأعلن ملكية المدينة للإمبراطور بدقات الطبول وأصوات النفير. وهكذا، دخل الجيش الروماني كله المدينة بهذه الطريقة. ومع ذلك ، فإن بوتوميتيس الذي كان يعرف طبيعة الفرنج الطائشة وتهورهم، واندفاعهم الهائج، رأى أنهم قد يستولوا على القلعة إذا ما دخلوا المدينة. فضلاً عن

أن القوات التركية فى الداخل كانت تستطيع، لو شاءت، إغلاق الأبواب، وذبح قواته. وفى تلك الأثناء كانت هناك بوابة واحدة فقط يخرج منها الناس ويدخلون ، وكانت البوابات الأخرى قد أغلقت خوفًا من الفرنج الذين كانوا خارج الأسوار مباشرة.. وإذ أخذ مفاتيح هذه البوابة فى يده،، قرر أن يخفض عدد أفراد الحامية التركية بخدعة. فقد كان من الضرورى أن يضعهم تحت رحمته، إذ كان يريد أن يجنب نفسه الكارثة. فأرسل إليهم ونصحهم بزيارة الإمبراطور إذا كانوا يريدون أن يأخذوا منه مبالغ كبيرة من المال وأن ينالوا مكافأة سامية وأن يجدوا أسماءهم فى قائمة من ينالون العطايا السنوية من الأمبراطور. واقتنع الأتراك، وتم فتح البوابة فى أثناء الليل، وأطلق سراحهم، على أن يخرجوا على دفعات فى كل مرة عدد صغير، وأن يسلكوا طريقهم عبر بحيرة صغيرة إلى رودومر وموناستراس اللذين كانا يعسكران فى قلعة سان جورج. وكانت تعليمات بوتوميتيس تقضى بتوجيه الحامية التركية فوراً إلى الإمبراطور دون أن يتأخروا لحظة واحدة حتى لا يتحدوا مع الأتراك القادمين خلفهم ويحيكوا مؤامرة ضد الرومان. والحقيقة أن هذا كان نوعًا من التنبؤ والتوقع البسيط، وملاحظة ذكية لا يمكن أن يدركها سوى من كانت له تجربة هذا الرجل الطويلة لأنه طالما كان الوافدون الجدد يرسلون إلى اليكسيوس كان الرومان آمنين بمنأى عن أى خطر يتهددهم، ولكن عندما ركن رودومر وموناستراس للراحة وجدا نفسيهما فى خطر من البرابرة الذين احتجزاهم. ذلك أن الأتراك عندما تزايدت أعدادهم قرروا أن يفعلوا أمرًا من اثنين؛ إما أن يهاجموا الرومان ويقتلوهم تحت ستر الليل، أو أن يأخذوهم أسرى إلى السلطان. واستقر رأيهم على الخطة الثانية. وبالفعل، هاجموهم ليلاً وأخذوهم أسرى . وساروا إلى قمة تل أزالا على مسافة من أسوار نيقية. ولما وصلوا إلى هناك كان من الطبيعى أن يترجلوا ليريحوا خيولهم. وكان مونستراس يفهم لهجة الأتراك؛ وكان رودمر أيضًا، الذى كان قد وقع فى أسر الأتراك منذ وقت طويل وعاش معهم زمنًا طويلاً ، يفهم لهجتهم . وحاولا جاهدين أن يقنعا الأتراك بالمجادلات المقنعة بأن يتحركوا ... وتم تبادل التعهدات بين الطرفين وسار الفريقان قاصدين اليكسيوس. وعندما وصلوا إلى بليكانوم استقبلوا جميعًا بابتسامة فرح وسرور (على الرغم من أن الإمبراطور كان غاضبًا جداً من رودومر وموناستراس فى داخله). وأرسلوا لكى ينالوا حظهم من الراحة ولكن فى اليوم التالى تلقى الأتراك الذين رغبوا فى خدمة الإمبراطور هدايا عديدة؛ أما الذين رغبوا فى العودة إلى أوطانهم فقد سمح لهم بذلك ـ وأولئك أيضًا رحلوا محملين بهدايا غير قليلة...

« ولنعد إلى بوتوميتيس ، فعندما رقاه الإمبراطور فى ذلك الوقت إلى منصب دوق نيقية طلب منه الفرنج الإذن بدخول المدينة؛ إذ كانوا يريدون زيارة الكنائس المقدسة وأن يتعبدوا هناك. وكان بوتوميتيس ، كما ذكرت من قبل، واعيًا تمامًا بطباع الفرنج فرفض أية زيارة جماعية. وعلى أية حال، فتح أبواب المدينة لهم على أن يدخلوا فى جماعات تضم كل منها عشرة أفراد.

« وكان الإمبراطور ما يزال فى جوار بليكانوم. وكان يريد من أولئك الكونتات الذين لم يقسموا بعد يمين الولاء له أن يعطوا مواثيقهم له شخصيًا. وأرسل تعليمات مكتوبة إلى بوتوميتيس بأن ينصح الكونتات بأن لا يبدأوا السير إلى أنطاكية قبل أن يؤدوا يمنين الولاء للإمبراطور ؛ وأن هذه ستكون فرصة لهم لنيل المزيد من الأموال والعطايا. وكان بوهيموند أول من أطاع نصيحة بوتوميتيس حين سمع عن الأموال والهدايا. وأشار عليهم جميعًا بالرجوع فى الحال. وكانت هذه هى أخلاق بوهيموند ــ إذ كان به هوى قوى نحو المال. واستقبلهم الإمبراطور بترحاب كبير فى بليكانوم . فقد كان سخيًا جيدا فى تحسين أحوالهم. وأخيراً استدعاهم سنويًا وخاطبهم قائلاً : «تذكروا القسم الذى قطعتموه لى جميعًا وإذا كنتم راغبين حقا ألا تحنثوا فيه، فانصحوا الآخرين الذين تعرفونهم، والذين لم يقسموا بأن يقطعوا على أنفسهم هذا القسم » . وفى الحال أرسلوا إلى أولئك الرجال، واجتمعوا جميعًا، باستثناء تنكرد، لأداء يمين الولاء. وإذ كان تنكرد رجلاً مستقل الشخصية، احتج بأنه لا يدين بالولاء سوى لرجل واحد هو بوهيموند، وأنه سيحافظ على الولاء له حتى فى مماته. وتعرض لضغوط الآخرين، بما فى ذلك رجال الإمبراطور. وبدون مبالاة ركز عينيه على الخيمة التى اتخذها الإمبراطور مقرا له (وهى خيمة أكبر من أية خيمة أخرى تعيها الذاكرة) وقال: « إذا ملأت هذه الخيمة بالمال وأعطيتموه لى، فضلاً عن المبالغ التى أعطيتها للكونتات الآخرين، فإننى سأقسم أيضًا يمين الولاء لك». وانبرى باليولوجوس، غيرة منه على الإمبراطور ولأنه وجد كلمات تنكرد غير معقولة ونفاقًا، ودفعه جانبًا فى احتقار. واندفع تنكرد نحوه فى تهور، فقام اليكسيوس عن عرشه وتدخل بينهما. وقام بوهيموند من جانبه بتهدئة ابن أخته، وقال له إن من غير اللائق أن يتصرف مع أقارب الإمبراطور بدون احترام. أما تنكرد الذى خجل من تصرفه كرجل سكير فظ إزاء باليولوجوس، والذى اقتنع بكلام بوهيموند والآخرين فقد أقسم يمين الولاء. وعندما استأذن الجميع من الإمبراطور للرحيل، صدرت الأوامر لتاتيكيوس وقواته بالإنضمام إلى الفرنج؛ وكان واجب تاتيكيوس أن يساعدهم ويحميهم فى كل الأحوال، وأن يتسلم منهم أية مدينة يستولون عليها، إذا مَنَّ الرب عليهم بهذا الفضل ».

رسائل الصليبيين حول سقوط نيقية (*)

رسالة الإمبراطور أليكسيوس إلى مقدم دير مونت كاسينو

« كم كتبتم إلى امبراطوريتي، أيها الخادم المبجل للرب، ومقدم دير مونت كاسينو! لقد قرأت خطابك الذي يطرى امبراطوريتي ويثني عليها. والواقع أن الرب الرحيم العظيم أسبغ عليَّ وعلى رعاياي فضلا عظيما، وما أكثر بركاته. ومن خلال فضله ورحمته أسبغ الشرف والرفعة على إمبراطوريتي. وليس لأنني لا أحمل شيئًا طيبًا بداخلي فحسب، وإنما لأن خطاياي أيضًا تفوق خطايا الآخرين، وإنني أصلي كل يوم كي يكلأني الرب برحمته وحلمه حتى أتغلب على ضعفي، ولكنك تمتلئ خيرا وفضيلة ، تحكم على أنا الخاطئ بأنني رجل طيب، والحق أنك تأسرني بهذا الفضل. إن إمبراطوريتي، على الرغم من أنها نالت مديحًا لا تستحقه، تأخذ المديح على أنه إدانة لها.

« لقد جاء في خطابكم البالغ المجاملة «إنني أرجوكم بإلحاح أن تقدموا المساعدة للفرنج». ولتتأكد قداستك من ذلك، لأن إمبراطوريتي تظللهم بجناحها وسوف تساعدهم وترشدهم في كافة الأمور؛ والواقع أنها فعلا تعاونت معهم في حدود قدراتها، ليس كصديق ، أو قريب، وإنما باعتبارها أبا لهم. لقد انفقت عليهم أكثر ما يمكن لأحد أن يحصيه. ولو لم تتعاون إمبراطوريتي معهم على هذا النحو وتساعدهم، فمن غيرها كان سيقدم لهم المساعدة؟ ولا يضير إمبراطوريتي أن تساعدهم مرة أخرى. وبفضل رحمة الرب، فإنهم ينعمون حتى اليوم في الخدمة التي بدأوها، وسوف يستمرون في هذا النعيم مستقبلاً طالما كانت الأغراض الطيبة هي التي تقودهم. وقد قضى عدد كبير من الفرسان والجنود المشاة نحبهم وذهبوا إلى الحياة الخالدة ، وقتل بعضهم؛ على حين توفي الآخرون. والواقع أن البركة قد نالتهم، لأنهم لاقوا الموت في سبيل غاية طيبة! وفضلا عن ذلك، فإننا لا ينبغي اطلاقًا أن نعتبرهم موتى، ولكن أحياء انتقلوا إلى الحياة الأبدية غير الفاسدة. ودليل على صدق عقيدتي وحسن نواياي تجاه ديرك، أرسلت إمبراطوريتي إليك عباءة مطرز ظهرها بالذهب الوهاج.

أرسل في شهر يونيو (١٠٩٨) في الفترة السادسة، من مدينة القسطنطينية المقدسة».

(*) Peters, 150 - 151.

حصار أنطاكية وسقوطها
(يونيو ١٠٩٧ ـ يوليو ١٠٩٨)

كانت معركة ضوروليوم التى انتصر فيها الصليبيون على الأتراك السلاجقة فى أول يوليو ١٠٩٧ هى أول انتصار كبير يحرزه الصليبيون ضد المسلمين فى الشرق. وقد نظر المؤرخون الصليبيون لهذا الإنتصار باعتباره معجزة إلهية. ثم كان حصار انطاكية الطويل بما تخلله من أحداث، والإرهاق والإعياء الذى حل بقوات الصليبيين داخلها بسبب الحصار الإسلامى، ثم الخلافات التى نشبت بين زعماء الصليبيين، من أهم فصول قصة الحملة الصليبية الأولى. ففى تلك الأثناء تجلى الإفلاس الإيديولوجى للحملة الصليبية، وهرب بطرس الناسك وستيفن بلوا، ونسى الصليبيون القدس، هدف رحلتهم الأعظم، وكانت هذه هى أعظم الصعاب التى جابهت الحملة. فبعد استيلائهم على مدينة أنطاكية مباشرة عرف الصليبيون بالهجوم المضاد الذى يقوده كربوغا أتابك الموصل (وأسم كربوغا تنطقه المصادر بطريقة مختلفة كما سيتضح من النصوص التى اخترناها) وقد استنفد الحصار الإسلامى كل موارد الصليبيين، كما استنفد قواهم. ثم جاءت خدعة اكتشاف الحربة المقدسة (التى اخترقت جنب المسيح أثناء الصلب) فى يونيو ١٠٩٨ لتبعث الإيديولوجية الصليبية مرة أخرى ولتساعد الصليبيين على استرداد معنوياتهم، فى الوقت الذى دب فيه الخلاف بين كربوغا والأمراء العاملين تحت إمرته، فيلقى جيشه الهزيمة. وعلى الرغم من هزيمة جيش كربوغا، فإن الحصار الذى فرضه جيشه كلف الصليبيين ثمنا فادحًا ؛ فقد مات أديمار المندوب البابوى؛ وهرب ستيفن بلوا عائدًا إلى بلاده. وقد تسبب المرض والصعاب الأخرى إلى جانب المنازعات الجديدة بين الصليبيين على إبقاء الجيش الصليبى فى أنطاكية سنة كاملة . ولم يستأنف الصليبيون سيرهم إلى القدس سوى فى نوفمبر ١٠٩٨م . والنصوص التى نقدمها تحاول أن ترسم صورة كاملة لقصة حصار أنطاكية وسقوطها فى أيدى الصليبيين.

* * *

١ـ الطريق إلى أنطاكية (*)
(معركة ضورليوم ١/٧/١٠٩٧)

« فى اليوم الثالث [بعد سقوط نيقية] شن الأتراك هجوما عنيفا مفاجئًا على بوهيموند ورفاقه[١] وبدأ أولئك الأتراك جميعًا فى وقت واحد يهللون ويصيحون، ويقولون بصوت عال بلغتهم كلمات شيطانية لا أفهمها [٢] ورأى بوهيموند الجسور أن هناك أعدادا تفوق الحصر من الأتراك على مسافة يسيرة ، يهللون ويصيحون كالشياطين، فأمر الفرسان بالترجل فورا وإعداد معسكرهم. وقبل أن يقام المعسكر قال للفرسان جميعًا : «أيها السادة يا جنود المسيح الجسورين ، بوسعكم أن تروا أننا محاطون وأن المعركة ستكون قاسية ، ولذا ينبغى على الفرسان أن يقاتلوا بشجاعة، على حين يسرع الجنود لإقامة المعسكر فى حذر».

« وبعد أن نظمنا أنفسنا فى خطوط القتال أقبل الأتراك علينا من كل صوب يناوشون، ويقذفون التراب والرماح الخفيفة فى تنسيق مدهش. وعلى الرغم من أننا لم ننل الفرصة للصمود أمامهم أو نستوعب هجمة أولئك الأعداء، مضينا إلى الأمام كرجل واحد. وكانت النساء فى معسكرنا عونا كبيرا لنا فى ذلك اليوم. لأنهن كن يحضرن الماء للرجال المقاتلين لكى يشربوا، كما كن يشجعن بحماسة أولئك الذين كانوا يحاربون دفاعًا عنهن. وأسرع بوهيموند الجسور لكى يرسل رسالة إلى الآخرين (كونت سان جيل والدوق جودفرى ، وهيو الكبير، وأسقف لوبوى، وبقية الفرسان المسيحيين)، وطلب منهم أن يسارعوا إلى ميدان المعركة بأقصى سرعة قائلا : «إذا كان بينكم من يريد القتال اليوم فليأت ويثبت معدنه كرجل». ومن ثم وصل أولا الدوق جودفرى الذى كان شجاعًا مقداما ومعه هيو الكبير بقواتهما، ثم تبعهم أسقف لوبوى بقواته، وبعدها وصل كونت سان جيل بقوة كبيرة.

« ولم يكن بمقدور رجالنا أن يفهموا من أين أتت هذه الأعداد الغفيرة من الأتراك والعرب والمسلمين [٣] وغيرهم من الشعوب التى لا أعرف أسماءها، ذلك أن كل الجبال والتلال

(*) Gesta, pp. 18 - 20.

(١) جرت هذه المعركة فى سهول ضورليوم، كما تقول آنا كومنينا.

(٢) يقول رالف الكاينى إن المسلمين كانوا يستخدمون صيحة الرب Allachibar ، وهى تحريف لعبارة «الله أكبر».

(٣) استخدم المؤلف هنا كلمة Saracens للدلالة على المسلمين، على اعتبارهم أنهم أبناء «سارة».

والسهول تقريبًا، وكل البلاد المنبسطة داخل التلال وخارجها، كانت مغطاة بهذا الجنس الملعون. ومن ناحيتنا مررنا رسالة سرّية عبر خطوطنا تمتدح الرب وتقول : «اثبتوا سويا جميعا، وضعوا ثقتكم في المسيح، وفي انتصار الصليب المقدس فإنكم اليوم بمشيئة الرب ستحصلون على أسلاب كبيرة» (١).

« وتشكل خط قتالنا في الحال. وفي الميسرة كان بوهيموند الجسور، وروبرت النورماني، وتنكرد الشجاع وروبرت الآنسي وريتشارد الأمير. أما أسقف لوبوي فقد استدار حول جبل آخر حتى يمكنه أن ينقض على أولئك الأتراك الملصدين من الخلف، على حين انضم ريمون أسقف سان جيل، وهو فارس مقدام للغاية، إلى الميسرة. وفي الميمنة كان الدوق جودفري، وكونت الفلاندرز، الذي كان يتحرق شوقًا للقتال، وكذلك هيو الكبير ومعه آخرون كثيرون لا أعرف أسماءهم.

« وبمجرد أن شن فرساننا هجومهم استدار الأتراك والعرب والمسلمون والأجولاني (٢) وبقية البرابرة على أعقابهم وهربوا عبر ممرات الجبال والسهول. كان هناك ثلاثمائة وستون ألفا من الأتراك والفرس والبيالصة (٣) والمسلمون والأجولاني، وغيرهم من الوثنيين، فضلاً عن العرب، لأن الرب وحده يعرف عددهم. وهربوا بسرعة إلى معسكرهم، ولكنهم لم يمكثوا هناك طويلاً ، وإذا واصلوا الهرب وطاردناهم ، وأعملنا فيهم سيوفنا طوال اليوم، وأخذنا أسلابًا وغنائم كثيرة وذهبًا وفضة، فضلاً عن الخيول والحمير والجمال والثيران والماشية وأشياء أخرى كثيرة لا نعرف عنها شيئًا، ولو لم يكن الرب معنا في هذه المعركة وأرسل لنا جيشا آخر بسرعة، لما استطاع أحد منا أن ينجو بنفسه، لأن القتال استمر من الساعة الثالثة حتى التاسعة، ولكن الرب القدير الرحيم الكريم، خلص فرسانه من الموت ومن الوقوع في أيدي الأعداء وأرسل لنا النجدة بسرعة ومع ذلك قتل فارسان بارزان هما ، جودفري أمير مونت سكاجليوز ووليم ابن الماركيز، أخو تنكرد ، وغيرهم من الفرسان والمشاة لا أعرف أسماءهم.

« ومن هو الرجل الذي يستطيع ، مهما كانت تجربته وتعليمه، أن يكتب عن مهارة وقوة وشجاعة الترك، الذين ظنوا أنهم سيلقون الرعب في قلوب الفرنج، مثلما فعلوا بالعرب

---

(١) هذا مثال طيب على كيفية ربط الصليبيين بين مظاهر التدين وبين في المكاسب الدنيوية.

(٢) ربما يقصد الألبان القوقازيين.

(٣) فرقة مسيحية منشقة من اتباع بولس من سميساط Samosata

والمسلمين والأرمن والسوريان واليونان بفضل سهامهم؟ ولكن ، بمشيئة الرب، لن يكون رجالهم أبداً مثل رجالنا. ولديهم قول شائع بأنهم والفرنج من أصل واحد، وأنهم فقط والفرنج خلقوا لكي يكونوا فرسانا. وهذا حقيقي ، ولا يستطيع أحد أن ينكره ...»

١ـ رواية فوشيه الشارترى (*)

« عندما تلقى رجالنا الإذن من الإمبراطور بالرحيل قبل ثلاثة أيام من شهر يوليو، تركنا نيقية لنتوغل فى الأجزاء الداخلية من رومانيا (١) . ولكن بعد أن مضينا فى رحلتنا لمدة يومين، أعلن أن الأتراك، بعد أن أعدوا الكمائن فى السهول التى توقعوا أن نمر بها، ينتظرون خوض المعركة.

« وعندما سمعنا بهذا لم نفقد شجاعتنا. ولكن فى ذلك المساء ، عندما رأى كشافونا الكثير منهم على مسافة، وحذرونا فى الحال؛ ولذا وضعنا حراسة على خيامنا من جميع الجوانب فى تلك الليلة. وفى الصباح الباكر، فى بداية شهر يوليو، بعد أن أخذ كل سلاحه، وتم ترتيب الجيش فى أجنحة لمواجهتهم ، بقيادة قادة السرايا والكتائب، ومعهم بوق للتحذير وراية ترفرف، وبدأنا التقدم فى تشكيل قتالى.

« وفى الساعة الثانية من اليوم اقتربت مقدمتهم من كشافتنا ! وعندما سمعنا بهذا، ضربنا خيامنا قرب أحد المستنقعات، حتى إذا ما تحففنا من أحمالنا أصبحنا أكثر استعداداً للقتال.

« وبعد أن تم هذا، كان هناك الأتراك الذين كان أميرهم هو سليمان (٢) الذى كان حاكما على نيقية ورومانيا. وكان معه الأتراك والفرس والوثنيون الخاضعون له والذين قاموا برحلة استمرت ثلاثين يومًا أو يزيد لمساعدته! كذلك كان معه كثيرون من الأمراء، منهم أدمير كاراجيوم ومير باتوس (٣)، وكان أولئك جميعاً ثلاثمائة وستين ألفًا من المحاربين، من رماة

(*) Fulcher, pp. 83 - 87.

(١) ليست رومانيا الحديثة وإنما المقصود هنا آسيا الصغرى.

(٢) هو سليمان الثانى سلطان قونية أو سلاجقة الروم (١٠٩٢ - ١١٠٧).

(٣) يقصد الأمير قراجا ، والأمير أتسين.

السهم، لأن من عاداتهم أن يستخدموا مثل هذه الأسلحة. وكانوا كلهم من الفرسان. أما نحن فقد كنا من الفرسان والمشاة.

« وفى ذلك الوقت لم يكن دوق جودفرى وكونت ريمون وهيو الكبير معنا . وعلى مدى يومين، ولا أدرى السبب فى هذا، افترقوا عن جيشنا عند مفترق الطرق ومعهم عدد كبير من رجالنا. وبسبب هذا حل بنا أذى لا يمكن إصلاحه، فقد ذبح رجالنا، ولم يجد الأتراك من يقتلهم أو يصدهم، ولأنهم تلقوا رسالتنا فى وقت متأخر فقد جاءت مساعدتهم لنا متأخرة.

« وأطلق الأتراك السهام كالمطر وسط صليل أسلحتهم وصياحهم. وإذا أصابتنا السهام وكدنا نموت بعد أن جرح الكثيرون ، لذنا بالفرار. ولا غرابة فى هذا لأن هذا النوع من القتال مجهول لدينا جميعا .

« ومن جزء آخر من المستنقع، جاءت عصبة كبيرة منهم تشق طريقها بعنف حتى وصلوا إلى خيامنا . وحين دخلوا انتزعوا أشياءنا وقتلوا بعض قومنا، ثم حدث بترتيب من الرب أن أطبقت قوات المقدمة فى جيوش هيو الكبير، والكونت ريمون، والدوق جودفرى على هذه الكارثة من الخلف. وعندما كان رجالنا قد تقهقروا إلى خيامنا، رحل الأتراك، لأنهم ظنوا أن رجالنا قد عادوا لقتالهم، ولكن ما ظنوه جسارة وشجاعة، كان فى الحقيقة خوفًا عظيمًا لو أنهم يعلمون.

« ترى ماذا أحكى بعد ذلك؟ إننا جميعًا تراكمنا مثل قطيع من الماشية فى حظيرة، نرتعش ونرتجف خوفًا ورعبًا، وقد أحاط بنا العدو من كل جانب ، لدرجة أننا لم نكن قادرين على التحول إلى أى اتجاه. وكان من الواضح أن هذا حدث لنا بسبب خطايانا . لأن الإسراف أفسد البعض، كما أفسد الجشع وبعض الشرور الأخرى غيرهم. وكانت هناك صيحة عظيمة تستغيث بالسماء، من الرجال والنساء والأطفال الصغار، وأيضًا من الوثنيين الذين اندفعوا نحونا، ولم يبق أمل فى الحياة.

« ثم اعترفنا بأننا مذنبون خطاة، وتوسلنا فى طلب رحمة الرب. وكان أسقف لوبوى حامينا هناك ومعه أربعة آخرون من الأساقفة. وكان هناك كثير من القساوسة، فى مسوحهم البيضاء وتوسلوا إلى الرب أن يرفع قوة العدو ويصب هبات رحمته علينا . وغنوا وهم يبكون، وبكوا وهم يغنون، وإذ خاف كثيرون من الموت العاجل، جروا إليهم واعترفوا لهم.

« وقاوم قادتنا ، روبرت كونت نورماندى، وستيفن كونت بلوا، وروبرت كونت الفلاندرز، وبوهيموند أيضًا، وبذلوا فى المقاومة كل ما فى وسعهم، وناضلوا كثيراً لضربهم. وقد تلقى أولئك ضربات عنيفة من الأتراك أيضًا .

« إن الرب لا يعطى النصر لنبالة المولد أو التفوق فى استخدام السلاح، ولكنه يساعد من يحمل قلبًا نقيًا والذى يتقوى بالقوة الربانية ساعة الحاجة. ومن ثم فإن الرب، وربما أرضاه تضرعنا وتوسلاتنا، أعاد لنا الشجاعة والقوة رويداً رويداً ، وأضعف الأتراك شيئًا فشيئًا. فعندما شوهد حلفاؤنا الذين هرولوا لمساعدتنا، وهم يمجدون الرب، استعدنا شجاعتنا ونظمنا أنفسنا فى فرق وكتائب وناضلنا فى سبيل المزيد من المقاومة.

« واأسفاه! كم قتلوا من رجالنا الذين كانوا قد تخلفوا وراءنا فى ذلك اليوم ! بل إنه منذ الساعة الأولى فى اليوم، حتى الساعة السادسة ، أحاطت بنا المتاعب ولكن حينئذ، ورويداً رويداً وبعد أن تحفزنا وتقوينا بالاتحاد مع بعض حلفائنا، حلّت بنا النعمة الربانية بشكل إعجازى. وفجأة رأينا ظهور الأتراك بعد أن ولوا هاربين.

« وطاردناهم ونحن نصيح بوحشية فوق الجبال وخلال الوديان. ولم نتوقف عن استئصالهم حتى وصل أسرع رجالنا إلى خيامهم. وهناك، حمَّل بعضهم الجمال والخيول الكثيرة بمتاع الأتراك وبالخيام نفسها التى تركوها خوفا وجزعا. وتبع الآخرون الأتراك الهاربين حتى هبوط الليل. ولأن خيولنا كانت جائعة ومتعبة ، فقد حافظنا على بعض خيولهم.

« كانت تلك معجزة عظيمة من الرب لدرجة أنهم فى اليوم التالى، وفى اليوم الثالث كانوا ما يزالون سادرين فى هربهم على الرغم من أن أحداً لم يكن يطاردهم سوى الرب نفسه ».

الوصول إلى أنطاكية

١ـ رواية المؤرخ المجهول (*)

« .. بعد ذلك عندما وصلت قواتنا الرئيسية عسكرت على ضفاف نهر العاصى. وعلى الفور قدم بوهيموند الجسور ومعه أربعة آلاف فارس لحراسة بوابة المدينة (أنطاكية) حتى لا يدخلها

(*) Gesta, pp. 28 - 33.

أو يخرج منها أحد متسللا تحت جنح الليل، وفى اليوم التالى، الأربعاء ٢١ أكتوبر ، وصل الجيش الرئيسى إلى أنطاكية حوالى الظهر، وقمنا بفرض حصار صارم على ثلاث من بوابات المدينة، لأننا لم نستطع أن نحاصرها من الجانب الآخر لأن جبلاً شاهقًا شديد الإنحدار كان يسد الطريق إليها. أما أعداؤنا الأتراك، الذين كانوا داخل المدينة، فكانوا أسرى خوف كبير منا لدرجة أن أحدًا منهم لم يحاول مهاجمة رجالنا على مدى أسبوعين تقريبًا. وفى الوقت نفسه، ألفنا المناطق المحيطة بأنطاكية، ووجدنا بها وفرة من المؤن، والكروم المثمرة ، والشون المليئة بالغلال، وأشجار التفاح المحملة بالثمار وأنواع أخرى من الطعام الشهى.

« وكان الأرمن الذين يعيشون فى المدينة يأتون إلينا متظاهرين بأنهم يلجأون وكانوا يتواجدون يوميًا فى معسكرنا، ولكن زوجاتهم كن فى المدينة. وكان هؤلاء الرجال يتجسسون علينا لمعرفة قوتنا، وينقلون كل شىء نقوله إلى أولئك المحاصرين داخل المدينة. وبعد أن عرف الأتراك أحوالنا بدأوا يظهرون بالتدريج ويهاجمون الحجاج حيثما استطاعوا، ليس من الجانب البرى فقط، وإنما فى أى مكان كان بوسعهم أن يعدوا كمينًا فيه لنا، سواء ناحية البحر أو ناحية الجبل.

« وعلى مسافة بعيدة كانت هناك قلعة أريغ، وبها عدد كبير من شجعان الأتراك، وكان هؤلاء غالبًا ما يشنون الهجمات على رجالنا. وعندما سمع زعماؤنا بحدوث مثل هذه الأشياء اضطربوا كثيرا وأرسلوا بعض فرساننا لاستكشاف المكان الذى يقيم فيه الأتراك. وبينما كان فرساننا يبحثون عن الأتراك وجدوا المكان الذى اعتادوا الأختباء فيه، وهاجموا العدو ولكنهم اضطروا للتقهقر إلى المكان الذى كان بوهيموند يعسكر فيه بجيشه. وقتل إثنان من رجالنا هناك فى الهجوم الأول. وعندما سمع بوهيموند بهذا خرج، مثل بطل جسور من أبطال المسيح، وتبعه رجاله. وانقض البرابرة على رجالنا لأن عددهم كان قليلاً ، ومع ذلك فإنهم خاضوا المعركة فى نظام جيد وقتلوا كثيرين من أعدائنا. أما الآخرون الذين أسرناهم، فقد سقناهم أمام بوابة المدينة حيث ذبحناهم، حتى ندخل الحزن فى قلوب الأتراك داخل المدينة.

« وكان هناك آخرون اعتادوا الخروج من المدينة والتسلق على إحدى البوابات، ومن هناك يطلقون سهامهم علينا، وكانت هذه السهام تسقط فى معسكر سيدى بوهيموند، وقتلت إمرأة بسهم من هذه السهام.

« وبعد ذلك اجتمع قادتنا سوياً وعقدوا مجلساً للتشاور. وقالوا « فلنبن قلعة على قمة جبل مالرجارد[١] بحيث يمكن أن نمكث هناك فى سلام دون خوف من الأتراك».

« وشيئًا فشيئًا ، وقبل عيد الميلاد، بدأت الغلال والأغذية تشح، لأننا لم نكن نجرؤ على الخروج والابتعاد عن المعسكر ولم نستطع أن نجد شيئًا نأكله فى أرض المسيحيين. (ولم يكن أحد يجرؤ على الدخول فى أرض المسلمين ما لم تكن بصحبته قوة عسكرية كبيرة). وأخيرا عقد زعماؤنا مجلساً للتشاور ليقرروا كيفية توفير المؤن لمثل هذا العدد الكبير من الناس، وفى هذا المجلس قرروا أنه يجب أن يتوجه جزء من جيشنا ليبذل قصارى جهده للحصول على المؤن ولحماية جانبى الجيش، على حين يبقى الجزء الآخر لحماية غير المقاتلين. ثم قال بوهيموند «أيها السادة الفرسان البواسل، إذ كنتم ترغبون، وإذا رأيتم أنها خطة جيدة، فإننى سأذهب فى هذه الحملة أنا وكونت الفلاندرز» . وهكذا عندما احتفلنا بعيد الميلاد احتفالاً رائعا، ذهب هذان الاثنان فى يوم الاثنين [٢]، وذهب معهما آخرون عددهم أكثر من عشرين ألفا من الفرسان والمشاة، ودخلوا بسلام فى أرض المسلمين. وحدث حينئذ أن جماعة كبيرة من الأتراك والعرب والمسلمين كانوا قد جاءوا سوياً من القدس ودمشق وحلب وأماكن أخرى [٣] بقصد فك حصار أنطاكية، ولذا فإنهم عندما سمعوا بأن قوة مسيحية قد دخلت بلادهم استعدوا فى الحال لخوض المعركة، وعندما بزغ ضوء النهار جاءوا إلى المكان الذى كانت فيه قواتنا مجتمعة به[٤]. وقسم البرابرة قواتهم إلى قسمين، قسم من الأمام وقسم من الخلف، لأنهم أرادوا أن يحيطوا بنا من كل جانب، ولكن كونت الفلاندرز النبيل، الذى تسلح بالإيمان وبعلامة الصليب (التى كان يحملها فى ولاء كل يوم)، هجم على العدو مباشرة وبجانبه بوهيموند، وهاجم رجالنا فى خط واحد. وفى الحال هرب العدو لا يلوى على شىء؛ وقتل منهم كثيرون وأخذ رجالنا خيولهم وغنائم أخرى. أما الآخرون الذين بقوا على قيد الحياة فقد ولوا هاربين ودخلوا فى «آنية غضب مهيأة للهلاك» [٥]، ولكننا عدنا مكللين بنصر كبير، وحمدنا الرب المجيد، الثلاثة فى واحد الذى يحيا ويحكم الآن وإلى الأبد، آمين ».

---

(١) هذا الاسم Mal Regard أطلقه الصليبيون على هذه القلعة التى اقيمت فى الشمال الشرقى من أنطاكية قبالة بوابة القديس بولس. وهى تعنى «قذرة المنظر».

(٢) ٢٨ ديسمبر ١٠٩٧م.

(٣) كانوا بقيادة دقاق أمير دمشق، واتابكه طغتكين ، وجناح الدولة أمير حمص.

(٤) البارة.

(٥) رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية (٩ : ٢٢).

« وأخيرا، عندما عرف الأتراك فى مدينة أنطاكية، أعداء الرب وأعداء المسيحية المقدسة، أن سيدى بوهيموند وكونت الفلاندرز غير موجودين فى الحصار، خرجوا من المدينة وتقدموا فى جسارة للإشتباك فى معركة ضدنا. ولأنهم عرفوا أن أولئك الفرسان البواسل غير موجودين، أكمنوا لنا الكمائن فى كل مكان، ولا سيما فى الجانب الذين لم يكن الحصار فيه محكماً. وفى يوم الأربعاء اكتشفوا أن بوسعهم مقاومتنا وإيذاءنا. وخرج البرابرة الأشرار فى حذر، واندفعوا صوبنا فى عنف، وقتلوا الكثيرين من فرساننا ومشاتنا ممن كانوا غافلين. وحتى أسقف لوبوى فقد كبير خدمه الذى كان يحمل رايته فى هذا اليوم المرير. ولو لم يكن المجرى المائى يفصل بيننا وبينهم، فلربما ألحقوا بنا المزيد من الأذى.

« وفى ذلك الوقت كان بوهيموند الجسور عائداً من أرض المسلمين، ووصل تنكرد يلتمس الفرصة ليجد أى شىء يمكنه أن يأخذه، لأنهم ينهبون الإقليم كله. والحقيقة أن البعض وجدوا شيئًا، ولكن البعض الآخر انصرفوا خاويى الوفاض. وحينئذ قال بوهيموند الحكيم موبخًا إياهم : «أيها الناس التعساء الأشرار، يا أكثر المسيحيين خسة ودناءة . لماذا تريدون الانصراف بهذه السرعة ؟ توقفوا فقط حتى تتجمع كلنا سويًا، ولا تتجولوا هنا وهناك مثل قطيع بدون راعى . فضلاً عن أن العدو إذا وجدكم تتجولون ، فسوف يقتلكم ، لأنهم يترقبون أثناء الليل وأطراف النهار الفرصة التى تكونون فيها وحدكم، أو تتسلخون فى جماعة بعيداً دون قائد ؛ وهم يناضلون يوميا لقتلكم ولأسركم ». وعندما أنهى كلامه هذا عاد إلى المعسكر برجاله ، الذين كانت أياديهم خاوية تقريباً ».

٢ ـ رواية ريمون الأجويلرى (*)

« ولأنه منذ الشهر الثالث فى الحصار كانت واردات الطعام شحيحة للغاية، تم اختيار بوهيموند وكونت الفلاندرز لقيادة جيش داخل أراضى المسلمين للحصول على الطعام، وبقى الكونت [ريمون السانجيلى] وأسقف لوبوى لحراسة المعسكر. لأن كونت نورماندى كان بعيداً فى ذلك الوقت، كما كان الدوق [جودفرى] مريضًا جدا. وعلى كل حال، عندما عرف العدو بهذا، كرروا هجماتهم المعتادة. واضطر الكونت لمهاجمتهم بطريقته المعتادة، وبعد أن شكل

(*) Peters, pp. 153 - 156.

صفوف الجنود المشاة، ومعهم بعض الفرسان، بدأ يطارد المهاجمين، وأسر اثنين منهم وقتلهما على منحدر الجبل الصغير وأجبر جميع الأعداء على الدخول إلى المدينة عن طريق القنطرة. وعندما رأى جنودنا المشاة هذا تركوا أماكنهم وبيارقهم وجروا فى غوغائية إلى الجسور. وعندما وصلوا إلى هناك، وكأنهم فى مأمن وسلام، قذفوا الحجارة والأسلحة على المدافعين عن القنطرة. وبعد أن نظم الترك صفوفهم بدأوا يندفعون ضد رجالنا عن طريق القنطرة والطريق السفلى. وفى الوقت نفسه، طارد فرساننا صوب قنطرتنا جواداً صرعوا راكبه؛ وعندما رأى قومنا هذا المشهد، وظنوا أن فرساننا يولون الأدبار هاربين. أداروا ظهورهم لهجوم العدو فى الحال. وعندئذ قتل الأتراك دون توقف أولئك الذين هربوا. وحتى عندما أراد فرسان الفرنج أن يقاوموا ويحاربوا دفاعاً عن قومهم، أعاقتهم جموع الجنود المشاة المتزاحمين فى سبيل الهرب، حين امسكوا بهم بأيديهم وبذيول خيولهم وبأعرافها، بحيث ألقوهم عن خيولهم، أو اضطروا إلى الفرار غير مبالين بسلامة قومهم. والواقع أن العدو سارع، دون تردد ودونما رحمة، إلى ذبح ومطاردة الأحياء، ونهب ما تحمله جثث القتلى. وفضلاً عن ذلك، لم يكن كافيا لرجالنا أن يتركوا أسلحتهم، ويهربوا ويجلبوا على أنفسهم العار، وإنما اندفعوا إلى النهر تحت رحمة الأحجار والسهام التى يقذفها العدو، أو ليبقوا تحت المياه. وإذا ما نجح أحد بفضل مهارته وقوته فى السباحة عبر النهر، فإنه كان يصل إلى معسكر رفاقه. وعلى أية حال، فإن هروبنا امتد من قنطرتهم حتى قنطرتنا. وهناك قتلوا حوال خمسة عشر من فرساننا فضلاً عن ما يقرب من عشرين من المشاة. كما قتل حامل راية الأسقف هناك واستولى العدو على الراية. ومات شاب نبيل هناك هوبرنارد ريمون البز بيرى.

« ولا ينبغى لخدام الرب أن يشكوا أو يغضبوا منا، إذا ما خلف رجالنا مثل هذا العار الفاضح لذكرى الجيش؛ الذى أراد بهذه الطريقة أن ينبه أذهان الزُناة واللصوص إلى التوبة، فى الوقت نفسه الذى أدخل فيه البهجة على جيشنا فى أرض المسلمين. ذلك أن اشاعة سرت فى معسكرنا بأن بوهيموند ورفاقه يتمرغون فى النعيم، وأن الكونت أحرز إنتصاراً مجيداً. كما أن هذه الأخبار رفعت معنوياتهم كثيراً . وبعد أن حاصر بوهيموند إحدى القرى، سمع فجأة من بعض فلاحيه تهليلاً وصياحاً، وعندما أرسل بعض الفرسان لمقابلتهم، شاهدوا جيشاً من الأتراك والعرب على مسافة قريبة جداً. وفضلاً عن ذلك، كان كونت الفلاندرز من بين أولئك الذين بعثوا لمعرفة سبب الهرج والجلبة، وذهب معه بعض البروفنساليين. ذلك أن كل الذين من

برجاندى، وأوفرين وجاسكونى، وكل القوط يطلق عليهم اسم البروفنساليين، على حين يطلق على الآخرين جميعًا جنس الفرنج [1]؛ على أية حال، فهذا فى الجيش أما الأعداء فإنهم يسمون الجميع (الفرنج). وكونت الفلاندرز هذا كما ذكرنا ، رأى أن من العار أن ينقل خبر وجود الأعداء قبل أن يهاجمهم، فاندفع فى حمية صوب جحافل الأتراك. ولأن الأتراك فى واقع الأمر لم يكونوا معتادين على الالتحام فى المعارك بالسيوف، فقد هربوا طلبا للنجاة. ولم يغمد الكونت سيفه حتى قتل مائة من الأعداء. وعندما كان عائدًا إلى بوهيموند مكللاً بالنصر، شاهد اثنى عشر ألفًا من الأتراك قادمين خلفه، وصعد إلى أقرب تل فشاهدا أعدادًا لا تحصى من الجنود المشاة. وبعد أن أوضح خطته لبقية الجيش، عاد إلى الخلف ومعه بعض رجاله ليهاجموا الأتراك فى عنف . والواقع أن بوهيموند كان يتبعه على مسافة يسيرة لحراسة خطوطه الخلفية. لأن عادة الأتراك فى القتال كانت على النحو التالى: حتى إذا كانوا أقل عددًا كانوا يناضلون لكى يحيطوا بالجيش المعادى. وقد حاولوا أن يفعلوا الشىء نفسه فى هذه المعركة أيضًا، ولكن بعد نظر بوهيموند أحبط مساعى العدو. وعندما كان العرب والأتراك يركضون لقتال كونت الفلاندرز، ورأوا أن المعركة لا يمكن أن تدور بالسهام من مسافة بعيدة، وإنما يجب أن تدور عن قرب، ولوا الأدبار هاربين. وتابعهم الكونت على مدى ميلين، وفى الأرض الفضاء شاهد جثث القتلى ترقد كل منها مثل حزمة من أعواد القمح التى كومت فى الحقل. كما أن الكمائن التى تعرضت لبوهيموند تبعثرت وأجبر أفرادها على الهرب بنفس الطريقة. ولكن الأعداد التى لا تحصى للجنود المشاة، التى تحدثنا عنها من قبل، فرت هاربة عبر الأماكن التى لا يمكن للخيول أن تمر منها. ولولا خشيتى من أن تعتبر هذه غطرسة، لجرؤت على القول بأن هذه المعركة تفوق حروب المكابيين، لأنه إذا كان المكابيون بثلاثة آلاف قد هزموا ثمانية وأربعين ألفا من أعدائهم، فإن أكثر من ستين ألفًا من أعدائنا قد ولوا الأدبار فرارًا من أربعين فارسًا. والواقع أننى لا أقلل من شجاعة المكابيين، كما أننى لا أغالى فى شجاعة فرساننا، ولكنى أقول إن الرب، تجلى إعجازه مع قواتنا أكثر مما تجلى مع المكابيين.

« ونتجت عن ذلك نتيجة غريبة هى أنه بعد فرار العدو تناقصت شجاعة رجالنا، لدرجة أنهم

---

(١) الواقع أن التسمية العامة للصليبيين كانت «الفرنج» ، سواء فى المصادر العربية أو البيزنطية، كما أن المصادر اللاتينية ــ بما فى ذلك ريمون الاجويلرى نفسه ــ دأبت على استخدام مصطلح «الفرنج» بهذا المدلول بسبب غلبة الفرنج على تكوين جيوش الحملة الصليبية الأولى. بيد أن الكتاب اللاتين كانوا يفرقون أحيانا بين الفرنج وغيرهم.

لم يجرؤوا على مطاردة أولئك الذين كانوا يفرون أمامهم. وبناء على ذلك، فعندما عاد الجيش منتصراً خاوى الوفاض، حدثت مجاعة فى المعسكر وصلت قسوتها إلى حد أن المرء كان يحتاج إلى قطعتين من النقود (Solidi) لكى يشترى ما يكفيه من الخبز يومياً، ولم تكن أسعار الحاجيات الأخرى أقل من ذلك»..

٣ ـ رواية فوشيه الشارترى (*)

«فمن شهر أكتوبر[١] ، وبعد عبور النهر الذى يسمونه فيرنوس أو الأورنط [نهر العاصى]، وصل الفرنج إلى أنطاكية فى بلاد الشام، وهى المدينة التى أسسها سليوكوس بن أنطيوخوس[٢] لتصير عاصمة سوريا. وكانت قبل ذلك تسمى ربلانا [٣]. وصدرت الأوامر بضرب الخيام على مسافة قبالة المدينة، حيث جرت مواجهات عنيفة كثيرة فيما بين الجانبين. ذلك أنه عندما كان الأتراك يخرجون من المدينة، كانوا يقتلون عددا من رجالنا. ولكن اتخذت الإجراءات الانتقامية ، مما جعلهم يحزنون على قتلاهم أيضاً.

« ووجدوا بعض القوارب على صفحة النهر المذكور، فاستولوا عليها، وكونوا منها جسراً يعبرون عليه. وكان باستطاعتهم العبور على هذا الجسر لمواصلة عملهم، حيث كان عليهم قبل ذلك أن يخوضوا فى الماء بصعوبة.

« وعندما رأى الأتراك أنهم محاصرون بهذا العدد الكثير من المسيحيين خشوا ألا يمكنهم دفعهم. وبعد أن تم تدبير خطة، قام أوكسيان أمير انطاكية[٤] بإرسال ابنة المدعو سنسادولوس[٥] إلى السلطان [بركياروق ١٠٩٤ ـ ١١٠٤م]، وهو امبراطور فارس ليرسل له

(*) Fulcher, pp. 92 - 94.

(١) ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧م.

(٢) تأسست انطاكية على نهر العاصى حوالى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد على يد سليوكوس نيكاتور (٣١٢-٢٨٠ ق.م) الذى كان واحداً من قادة جيش الإسكندر الأكبر، وسميت انطاكية على إسم انطيوخوس أبيه الذى كان ضابطا فى خدمة فيليب المقدونى.

(٣) ربلانا تقع إلى الجنوب من مدينة حمص السورية وقد اختلط الأمر على جيروم فخلط بين ربلانا وانطاكية ونقل عنه فوشيه هذا الخطأ.

(٤) تحريف الاسم «ياغى سيان» حاكم انطاكية (١٠٨٨ - ١٠٩٨م) والذى كان السلطان ملكشاه قد عينه حاكما عليها.

(٥) يقصد «شمس الدولة» .

نجدة سريعة، لأنهم ليس لديهم أمل فى مساعدة أحد سوى نبيهم محمد، وهكذا قام بسفارته هذه على وجه السرعة.

« وفى الوقت نفسه، فإن أولئك الذين بقوا فى انتظار المساعدة المطلوبة، كانوا يحرسون المدينة، وغالبا ما دبروا لإيقاع صنوف الأذى بالفرنج. ومع هذا فإن الفرنج قاوموا مكرهم بكل قوتهم.

« وحدث ذات يوم أن قتل الفرنج سبعمائة من الأتراك، وانهزم الأتراك الذين أعدوا الكمائن لإيقاع الفرنج عندما داهمهم هؤلاء فى أحد الكمائن. وكانت قوة الرب ماثلة هناك. وعاد جميع رجالنا سالمين باستثناء جريح واحد.

« وا أسفاه، كم من المسيحيين واليونانيين والأرمن والسوريان من سكان المدينة قتلوا ضحية غضب الأتراك المجنون، وبينما كان الفرنج ينظرون قذف الأتراك برءوس القتلى بالقاذفات والمقاليع. وقد تسبب هذا فى حزن قومنا. ذلك أن الأتراك كانوا يكرهون أولئك المسيحيين فخافوا أن ينقلوا إلى الفرنج المعلومات عن ما يقصدون عمله.

« وعندما مر بعض الوقت على حصار الفرنج للمدينة، ونهبوا المناطق المحيطة للحصول على الطعام اللازم لهم، وخربوا كل النواحى، لم يكن ممكنًا شراء الخبز من أى مكان، وعانوا من الجوع المتزايد. ونتيجة لهذا تسرب اليأس إلى الجميع وبدأ كثيرون فى الانسحاب سرًا من الحصار سواء عن طريق البر أو عن طريق البحر.

« ولم تكن لديهم المؤن التى تكفى للمعيشة، وبدأوا يبحثون عن الطعام فى أماكن بعيدة وقد غشيهم خوف شديد ، وبدأوا يبتعدوا لمسافة أربعين أو خمسين ميلاً عن مكان الحصار، فى الجبال حيث كان مصيرهم غالبا القتل بأيدى الأتراك الذين كانوا يعدون لهم الكمائن.

« واعتقدنا أن هذه الكوارث حلت بالفرنج وأنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة بسبب خطاياهم. ذلك أنهم فسدوا بسبب الإسراف والجشع والكبرياء والطمع.

« وبعد عقد اجتماع استشارى، طردوا النساء من الجيش ، سواء المتزوجات أو غير المتزوجات حتى لا يغريهن الطمع فتغضبن الرب. وحينئذ ذهبت أولئك النسوة للبحث عن أماكن لإقامتهن فى المعسكرات المجاورة..

« وكان الغنى والفقير على حد سواء مكتئبين من الجوع ومن القتل اليومى. وبدا أنه لو لم

يقم الرب ، مثل الراعى الطب، بجمع قطيعه سويا ، فلا شك فى أنهم سيهربون جميعًا حتى ولو كانوا قد أقسموا على البقاء فى الحصار. لأن نقص الخبز على مدى عدة أيام جعل الكثيرين يبحثون عن ضروريات الحياة فى القلاع المجاورة، ولم يعودوا بعد ذلك للجيش لأنهم تخلوا عن الحصار نهائيًا.

« وفى هذا الوقت، رأينا وهجًا مدهشًا فى السماء، وفى الوقت نفسه، شعرنا بحركة عظيمة فى الأرض جعلتنا نهتز جميعًا. وكثيرون رأوا فى هذا الوقت أيضًا علامة معينة على شكل صليب، ذات لون مائل إلى البياض، تتقدم صوب الشرق فى مسار مستقيم...».

معاناة الصليبيين

١ـ رواية المؤرخ المجهول (*)

«عندما رأى الأرمن والسوريان أن رجالنا عادوا دون مؤن تقريبًا، تشاوروا سويًا وذهبوا إلى الجبال عن طريق الممرات التى يعرفونها، وبدأوا يستفسرون بحرص ويشترون الغلال والمؤن التى أحضروها إلى معسكرنا الذى كان يعانى من مجاعة رهيبة، وبدأوا يبيعون لنا بضائعهم بأسعار عالية، إذ كانوا يبيعون حمولة الحمار بما يعادل مائة وعشرين شلنا فى عملتنا. ومات كثيرون من قومنا هناك ، لأنهم لم يقدروا على الشراء بهذه الأسعار المرتفعة.

« وبسبب هذا البؤس والشقاء الذى حاق بنا هرب وليم النجار وبطرس الناسك [1] سرًا. وذهب تنكرد فى أثرهما وقبض عليهما وأعادهما بطريقة مهينة. وأقسما له أنهما على استعداد للرجوع إلى المعسكر وترضية الزعماء . وقضى وليم الليل بطوله فى خيمة سيدى بوهيموند، راقدًا على الأرض مثل كومة من النفايات. وفى اليوم التالى، عند شروق الشمس ، جاء للمثول أمام بوهيموند، وقد أحمر وجهه خجلاً . وقال له بوهيموند: «لقد جلبت العار على جيش الفرنج كله ـ أنك وصمة عار لشعب الغال! أنت يا أكثر أهل الأرض إثارة للإشمئزاز، لماذا هربت بهذه الطريقة المخزية؟ إننى اعتقد أنك أردت أن تخون هؤلاء الفرسان والمعسكر المسيحى مثلما

(*) Gesta, pp. 33 - 38.

(١) كان بطرس هو الداعية الشعبى الأول للحركة الصليبية ، والملهم الذى حرك جموع العامة فى الحملة الشعبية التى كان زعماؤها من تلاميذه، ولكن «نبى الحركة الصليبية» فشل فى تحمل مشاق «المهمة المقدسة» التى كان يدعو لها.

خنت الآخرين في أسبانيا؟» (١). ولم ينبس وليم ببنت شفة وظل صامتا. واجتمع كل الفرنج تقريبًا، وأخذوا يتوسلون إلى سيدى بوهيموند بألا يعرضه لعقوبة أشد. ووافق على طلبهم دون أن يغضب، وقال : «إنني سأمنح هذا بسبب الحب الذى اكنه لكم، بشرط أن يقسم الرجل، بكامل قلبه وعقله، أنه لن يحيد عن الطريق إلى القدس، سواء لخير أو لشر، وسوف يقسم تنكرد بأنه لن يلحق به أذى ، هو أو رجاله» . وعندما سمع تنكرد هذه الكلمات وافق وأطلق بوهيموند سراح وليم النجار؛ ولكنه فيما بعد تسلل هاربًا فى أول فرصة، بسبب العار الكبير الذى لحق به.».

« وكان من فضل الله أن عانينا هذا الفقر والبؤس بسبب خطايانا. فلم نكن تستطيع أن تجد في المعسكر كله ألف فارس يمكنهم الحفاظ على خيولهم في حالة طيبة.

« وبينما كان هذا كله يجرى، فعندما سمع عدونا تاتيكيوس(٢) أن الجيش التركى قد هاجمنا اعترف أنه خائف وقال إننا كلنا هالكون وقد أصبحنا تحت رحمة العدو. ولذا أخبرنا بشتى صنوف الأكاذيب وقال : «أيها السادة والفرسان البواسل، إنكم ترون أننا هنا نعانى ضغوطًا رهيبة، ولا يمكن أن تصلنا أية تعزيزات من أى إتجاه. فدعونى إذن، أن أعود إلى بلاد الروم وسوف أضمن لكم حالاً إرسال سفن عن طريق البحر تحمل الغلال والنبيذ والشعير واللحم والدقيق والزبد وكافة أنواع المؤن التى تحتاجون إليها؛ وسوف أقسم بإخلاص على هذا كله، وسوف أشرف على ذلك بنفسي. وفى الوقت نفسه سيبقى أهل بيتى وجناحى فى المعسكر كضمان قوى لعودتى بأسرع ما يمكن».

« هكذا أنهى عدونا خطبته. وترك كل ممتلكاته فى المعسكر؛ ولكنه كاذب، وسوف يكون كذلك دائمًا. وهكذا تركنا فى مسيس الحاجة، لأن الأتراك كانوا يحيطون بنا من كل جانب، بحيث لم يكن يجرؤ أحد من رجالنا على الخروج من المعسكر. وكان الأتراك يهددوننا من ناحية، على حين كان الجوع يمزقنا من ناحية أخرى، ولم يكن هناك أحد لمساعدتنا أو لإحضار النجدة لنا. وكان الجنود يهربون زرافات ووحدانا بصحبة الفقراء المعوزين إلى قبرص أو بلاد الروم أو يهربون إلى الجبال. ولم نكن نجرؤ على الذهاب إلى البحر خوفًا من شراسة الأتراك، ولم يكن أمامنا طريق آخر».

---

(١) كان وليم النجار قد شارك في إحدى الحملات ضد المسلمين في الأندلس، ولكنه هرب أثناء الحملة.

(٢) كان تاتيكيوس هو الممثل الرسمي للإمبراطور البيزنطي في المعسكر الصليبي.

« وحينئذ عندما عرف سيدى بوهيموند شائعات بأن قوة هائلة من الأتراك [١] قادمة لمهاجمتنا، فكر فى الأمر ثم جاء إلى الزعماء الآخرين قائلاً، «أيها السادة والفرسان البواسل، ماذا نحن فاعلون؟ ليست لدينا قوات كافية للقتال على جبهتين. هل تعرفون ما ينبغى علينا عمله؟ يمكننا أن نقسم قواتنا إلى قسمين؛ المشاة ويبقون هنا سويًا لحراسة الخيام وأن يتصدوا لأهل المدينة قدر طاقتهم. والقسم الثاني هو الفرسان، يجيئون معنا ضد أعدائنا الذين يعسكرون غير بعيد عنا فى قلعة أريغ خلف نهر العاصى».

« وفى ذلك المساء خرج بوهيموند ومعه آخرون من الفرسان البواسل، واتخذ لنفسه موقعًا فيما بين النهر والبحيرة. وفى الفجر أمر كشافته بالتقدم لكشف أعداد الجيوش التركية، ومكان تواجدهم ، ومعرفة ما يفعلونه.. وخرج الكشافون وقاموا باستطلاعات دقيقة عن المكان الذى كان الجيش التركى يختبئ فيه، ورأوا أعدادًا هائلة من الأعداء قادمة من النهر فى فرقتين، يتبعهما الجيش الرئيسى. وهكذا عاد الكشافون بسرعة وهم يقولون «انظروا انظروا إنهم قادمون، استعدوا جميعًا لأنهم على وشك أن يطبقوا علينا » وقال بوهيموند الجسور للقادة الآخرين: «أيها السادة أيها الفرسان المظفرون ، اصطفوا للقتال» وأجابوه «أنت أيها الشجاع الماهر فى الحرب، أيها الرجل العظيم الذائع الصيت، أيها المحظوظ الموفق، إنك تعرف كيف تعد خطة المعركة وكيف تجهز قواتك، ولذا تول القيادة وتحمل المسئولية. وافعل ما تراه خيرا من أجلك ومن أجلنا». وعندئذ أصدر بوهيموند أوامره بأن يجهز كل قائد قواته لخوض المعركة. وتم هذا، وبدأوا يتقدمون فى ستة صفوف. وهاجمت خمسة منها جيش العدو؛ بينما بقى بوهيموند برجاله رصيدًا احتياطيًا . وخاض جيشنا المعركة بنجاح وقاتل يدًا بيد؛ وارتفع الضجيج إلى السماء. وبعد هذا ، شن الجيش التركى الرئيسى، الذى كان احتياطى القوات المهاجمة ، هجوما عنيفا على رجالنا ، لدرجة جعلتهم يتقهقرون قليلاً . وعندما رأى بوهيموند، الذى كان رجلا واسع الخبرة، هذا، زمجر وأصدر أوامره إلى مساعده روبرت فيتز – جرارد قائلاً : «اهجم بأقصى سرعة، أيها الفارس الشجاع، وقاتل ببسالة من أجل الرب والضريح المقدس، لأنك تعلم الحقيقة وهى أن هذه الحرب ليست حرب أجساد وأنما هى حرب أرواح. ولذا تجمل بالشجاعة، وكن بطلاً من أبطال المسيح. إذهب فى سلام، وليتولى الرب حمايتك». وهكذا شن بوهيموند هجومه على الأتراك وشارة الصليب مرفوعة من كل اتجاه،

---

(١) بقيادة رضوان أمير حلب، وسقمان بن ارتُق.

مثل أسد عانى الجوع لمدة ثلاثة أيام أو أربعة، ثم خرج من عرينه وهو يزأر متعطشًا لدماء الماشية، وينقض على القطيع الغافل عن سلامته ليمزق الأغنام التى تحاول الفرار هنا وهناك. فقد كان هجومه قاسيا وعنيفا لدرجة أن رايته كانت تطير فوق رءوس الأتراك مباشرة.

« وحين رأت القوات الأخرى راية بوهيموند تندفع بهذا الشكل المشرف، كفت عن التراجع فى الحال، وهاجم رجالنا الأتراك هجمة رجل واحد، وملكت الدهشة عقول الأتراك فلاذوا بالفرار. وحين علم الأرمن والسوريان بهزيمة الأتراك، خرجوا ليضعوا الكمائن فى طريقهم، فقتلوا وأسروا كثيراً من رجالهم.

« وهكذا ، قهرنا أعداءنا فى ذلك اليوم بمشيئة الرب. وغنم رجالنا كثيرا من الخيول وغيرها من الأشياء التى كانوا فى أمس الحاجة إليها، وأحضروا معهم مائة من رءوس القتلى الأتراك إلى بوابة المدينة، حيث كان يعسكر سفراء أمير القاهرة [١] (وكان قد أرسلهم إلى زعمائنا[٢]). أما الرجال الذين مكثوا فى المعسكر، فقد قضوا اليوم كله يحاربون ضد حامية المدينة أمام البوابات الثلاث. وقد جرت هذه المعركة فى يوم الثلاثاء التاسع من فبراير بقوة سيدنا الرب يسوع المسيح الذى يعيش ويحكم مع الأب والروح المقدس، إله واحد، يحكم العالم إلى ما لا نهاية. آمين».

٢- رواية ريمون الأجويلرى (*)

«.. وهكذا بدأ الفقراء يرحلون ، ومعهم كثيرون من الأغنياء الذين خافوا الفقر. وإذا كان هناك من بقى فى المعسكر، حبا فى الشجاعة، فإنهم عانوا من فقدان خيولهم يوميًا بسبب الجوع. والواقع أن التبن لم يكن متوافراً، وكذلك كان العلف نادراً لدرجة أن سبعة أو ثمانية صوليدى لم تكن تكفى لشراء طعام حصان واحد فى ليلة واحدة. وحلت مصيبة أخرى بالجيش؛ ذلك أن بوهيموند، الذى صار رفيع المقام فى الشرق قال إنه سوف يترك الجيش؛

---

(١) كانت القاهرة آنذاك عاصمة الخلافة الفاطمية الشيعية التى كانت منافسا لدودا للخلافة العباسية السنية فى بغداد (التى كانت واقعة تحت سيطرة الأتراك السلاجقة)، وكان الفاطميون يحاولون التحالف مع الصليبيين ضد الخلافة العباسية وحماتها من الأتراك السلاجقة. وقد كان هذا التصرف نتيجة لعدم إدراك الفاطميين لحقيقة الغزو الصليبى وحقيقة أهدافه، وعندما أدرك الفاطميون هذا كان الوقت قد فات.

(*) Peters, pp. 159 - 163.

وإنه جاء سعيا وراء المجد والشرف، وهو الآن يرى رجاله وخيوله يهلكون بسبب الحاجة، وقال أيضاً إنه ليس رجلا غنياً تكفيه موارده لفرصة حصار طويل الأمد. وقد اكتشفنا فيما بعد أنه كان يقول هذا لأنه كان يطمح إلى أن يصبح سيداً على مدينة أنطاكية.

« وفى الوقت نفسه، حدث زلزال كبير قبل ثلاثة أيام من شهر يناير، وشاهدنا علامة إعجازية كبرى فى السماء. ذلك أنه أثناء نوبة الحراسة الأولى فى الليل كانت السماء حمراء فى جهة الشمال لدرجة تشبه شروق الشمس. وعلى الرغم من الرب أدب جيشه بهذه الطريقة، لدرجة أننا ركزنا اهتمامنا على الضوء الذى بزغ فى الظلام، ومع هذا فإن عقول البعض قد عميت لدرجة أنهم لم يتخلوا عن الرفاهية أو عن السرقة التى نهاهم الرب عنها. وفى هذا الوقت، أمر الأسقف بصيام ثلاثة أيام ونصح بالصلاة والإحسان، ومع وجوب القيام بموكب كنسى بالتراتيل، كما أمر القساوسة بأن يكرسوا أنفسهم للقداس والصلوات، وأمر رجال الاكليروس بتلاوة المزامير، وعند ذلك ، تذكر الرب الرحيم عذابه، فرفع العقاب عن أبنائه حتى لا يتزايد طغيان أعدائهم».

« وإلى جانب هذا، كان فى جيشنا أحد أهل بيت الإمبراطور قد جاء معنا نيابة عنه وإسمه تاثيوس، مشوه الأنف ومجرد من الفضيلة. وكدت أنساه لأنه يستحق أن يترك فى طى النسيان إلى الأبد. وعلى أية حال، فإن هذا الرجل، كان يهمس يومياً فى آذان الأمراء بأنهم يجب أن يتفرقوا فى المعسكر المجاور ثم يهاجمون أهل أنطاكية بشكل متواصل وبالكمائن. وعندما تم توضيح ذلك للكونت ريمون السانجيلى (الذى كان مريضاً منذ اليوم الذى أرغم فيه على الفرار فوق الجسر)، ونادى أمراءه وأسقف لوبوى وجمعهم سويا. وبعد أن عقد مجلسا استشارياً ، أعطاهم خمسين ماركاً من الفضة على شرط أنه إذا كان أحد فرسانه قد فقد فرسًا يجب تعويضه من هذه الماركات الخمسين ومن موارد أخرى أعطاها لهم. وفضلاً عن ذلك آتى هذا النمط من التعاون ثماراً طيبة فى ذلك الوقت، إذْ أن الفقير فى جيشنا الذى كان يريد عبور النهر لجمع الأعشاب كان يخاف الهجمات الكثيرة التى يشنها أعداؤنا، ولأن الخروج لملاقاة العدو لم يكن يحدث إلاّ نادراً، بسبب ضعف الخيول وهزالها، فضلا عن أن أعدادها كانت ضئيلة بحيث لا تكاد تجد مائة من الخيول فى جيش الكونت والأسقف كله. وقد نزلت ببوهيموند والأمراء ضائقة مشابهة. وبناء عليه ، ولهذا السبب لم يعد فرساننا يخشون مواجهة العدو، لاسيما أولئك الذين كانت خيولهم سقيمة أو هزيلة، لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا فقدوا خيولهم فسوف يحصلون على خيول أفضل منها. بالإضافة إلى ذلك، حدث شىء آخر، هو أن

جميع الأمراء ، فيما عدا الكونت، وعدوا بوهيموند بأن تكون المدينة من نصيبه إذا ما تم الإستيلاء عليها. ولذا أقسم بوهيموند والأمراء الآخرون على هذا الاتفاق، وتعاهدوا على أنهم لن ينسحبوا من حصار أنطاكية لمدة سبع سنوات ما لم يتم الإستيلاء على المدينة.

« وبينما كانت هذه الأمور تحدث في المعسكر، سرت شائعة أيضًا بأن جيش الإمبراطور قادم في الطريق. وقيل إن الجيش مؤلف من عدة أقوام هي، السلاف، والبشناق، والكومان والتركبولي لأنهم يطلقون اسم التركبولي إما على أولئك الذين نشأوا بين الأتراك، أو من أب تركي وأم مسيحية. وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء الناس لأنهم آذونا أثناء المسير اعترفوا بأنهم كانوا يخشون مقابلتنا. وعلى أية حال، فإن كل هذا دبره تاتيوس الموصوم، وأشاع مثل هذه الأمور حتى يمكنه الرحيل. وقد تسلل هذا الرجل هاربًا، بعد أن تراكمت بسببه كل هذه الشائعات والإهانات الفادحة، وخيانة رفاقه، ومنح بوهيموند ثلاثة مدن قبل رحيله هي طرطوس، المصيصة، وأذنه . وبناء على ذلك، وبعد أن جلب على نفسه وعلى قومه العار الأبدي بهذه الطريقة ، تظاهر بأنه راحل إلى جيش الإمبراطور، وترك خيامه وخدمه، وانطلق تصاحبه لعنة الرب.

« وأعلن علينا في ذلك الوقت نبأ قدوم قائد جيش الخليفة لنجدة أنطاكية بجيش كبير، كان يقوده من خراسان. وعلى هذا الأساس. وبعد اجتماع عقد في بيت الأسقف ، تقرر أن يقوم الجنود المشاة بحراسة المعسكر على أن يقوم الفرسان بالخروج ضد العدو؛ لأنهم قالوا إن الكثيرين من المقاتلين الخائفين الموجودين بمعسكرنا إذا شاهدوا كثرة أعداد الأتراك، سوف يبثون روح الخوف والفزع في نفوس الباقين. ومن ثم انطلق رجالنا تحت جنح الليل، حتى لا يلاحظ أهل المدينة رحيلهم وينقلون خبر ذلك إلى القادمين لنجدتهم، واختبأوا بين الجبال الصغيرة على مسافة من معسكرنا.

« وعلى أية حال أشرق الصباح ، وظهر العدو حين سطعت الشمس. فليسمعوا ، ولينصتوا، إنني أرجو أن يسارع أولئك الذين حاولوا ذات مرة أن يسببوا الأذى للجيش، إلى العودة للحق عندما يعرفون أن الرب يمد ظلال رحمته علينا. وبعد أن نظم الفرسان أنفسهم في ستة فيالق، وقد زاد الرب في أعدادهم كثيرًا لدرجة أن أولئك الذين كانوا يبدون أقل من سبعين بعد التشكيل، صاروا بعده أكثر من ألفين في كل فيلق. ترى ما الذي يمكن أن أقوله حقًا عن جسارتهم وشجاعتهم؟ بل إنه حينما أنشد الفرسان الأغاني العسكرية بطريقة احتفالية ظهر أنهم اعتبروا المعركة القادمة كما لو كانت مباراة! وفضلاً عن ذلك، كان مقدرا للمعركة أن تجرى

فى المكان الذى تضيق فيه المسافة بين النهر والمستنقعات إلى ميل واحد. وعلى أية حال، تسبب هذا فى منع العدو من الإنتشار، حتى لا يمكنهم أن يحيطوا بنا على طريقتهم المعتادة. ذلك أن الرب، الذى منحنا أشياء أخرى، أعطانا ستة وديان متتالية، تقدمنا منها إلى المعركة. وفى غضون ساعة واحدة وصلنا إلى ميدان المعركة، وعندما اشتد ضوء الشمس، بدأت المعركة بالأسلحة والدروع. وفضلاً عن ذلك، فإن رجالنا تقدموا قليلاً فى البداية، بينما تبعثر الأتراك لكى يقذفوا بسهامهم ، إلا أنهم تحركوا لكى يتقهقروا . ولكن رجالنا عانوا كثيرا حتى دفع أول صف من الأتراك إلى الخلف، لأنه كان هناك ما لا يقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان فى المعركة، كما أخبرنا الهاربون من جيشهم. وعندما اختلط الصف الأول من الأتراك بالصفوف التالية، استعان الفرنج بالرب ثم قاموا بالهجوم، ولم يتوانوا عن الهجوم ؛ ذلك أن الرب القوى القادر كان بجانبهم فى المعركة. وقد تولى حماية أطفاله، ونكل بالعدو. وهكذا طاردهم الفرنج إلى معسكرهم الحصين الذى يبعد حوالى عشرة أميال عن مكان المعركة، ولكن المقيمين فى المعسكر حين شاهدوا ذلك، أضرموا فيه النيران ثم ولوا هاربين. وكنا غاية فى الفرح والسرور لهذا، لدرجة أننا اعتبرنا إحراق المعسكر نصراً ثانياً.

« وهكذا كان الضوء فى المعسكر قويا فى ذلك اليوم لدرجة أنه لم يكن هناك مكان باتجاه المدينة يخلو من القتال. ذلك أن العدو كان قد رتب أنه بينما نكون نحن مشغولين بالقتال العنيف ضد المحاصرين يطبق علينا القادمون للنجدة بغتة من الخلف. ولكن الرب الذى رتب النصر لفرساننا، كان يحارب بين جنودنا المشاة أيضاً. وفى ذلك اليوم كان النصر الذى حققناه على المحاصرين لا يقل عن النصر الذى أحرزه الفرسان على القادمين للنجدة. وبناء على ذلك، بعد إحراز النصر وأخذ الغنائم، أحضرت رءوس القتلى الكثيرين إلى المعسكر. ولكى نبث الخوف فى نفوس العدو بتقديم الدليل على المصير السىء الذى لقيه حلفاؤهم المبعثرون، رفعت الرءوس التى تم إحضارها على الأعمدة الخشبية. وفيما بعد اعتقدنا أن هذا كان بترتيب من الرب. ذلك أنه عندما تم الإستيلاء على راية مريم المباركة مرغوها فى الأرض، كما لو كانوا يريدون وصمنا بالعار. وهكذا منعوا من التهكم علينا ومعايبتنا عندما رأوا رءوس قتلاهم مرفوعة.

« وفى ذلك الوقت كان فى معسكرنا مبعوثون من قبل ملك بابيلون (مصر) ، وعندما رأوا العجائب التى فعلها الرب من خلال خدامه ، مجدوا يسوع المسيح (١)، ابن مريم العذراء الذى

---

(١) يتحدث هنا عن السفارة الفاطمية التى أشار لها المؤرخ المجهول فى النص السابق، ولكنه يضيف هذه العبارات من لدنه بما يوافق عقليته باعتباره أسقفا ورجل كنيسة متعصباً.

جعل بفقره أعتى طغاتهم يتمرغون فى تراب الأرض. وفضلاً عن ذلك ، فإن أولئك المبعوثين وعدونا بالخير والمصلحة عند مليكهم، كما تحدثوا عن أعمال طيبة كثيرا أتاها ملكهم نحو المسيحيين المصريين ونحو حجاجنا. وعلى ذلك تم إرسال مبعوثينا معهم فى العودة لكى يعقدوا معاهدة صداقة وتحالف مع الملك».

٣ـ رواية فوشيه الشارترى (*)

« فى سنة سيدنا ١٠٩٨، بعد أن نهبت المنطقة المحيطة بأنطاكية تمامًا وأجدبت بسبب عددنا الكبير، تعرض الشباب والشيوخ على السواء لوطأة الجوع المتزايد.

« عندئذ التهم الناس الذين كانوا يتضورون جوعاً أعواد الفول التى كانت ما تزال تنمو فى الحقول، كما أكلوا أنواعًا كثيرة من الأعشاب بدون الملح، بل أكلوا الأشواك التى لم يتم طهوها جيداً بسبب نقص أخشاب الوقود مما جعلها تسبب أذى لألسنة الذين أكلوها. كما أنهم أكلوا الخيول والبغال والجمال، والكلاب ، وحتى الفئران. بل إن الناس الأشد فقراً أكلوا جلود الحيوانات وبذور الغلال التى وجدوها فى القمامة والسباخ.

« وفى حب الرب تحمل الناس البرد، والحرارة ، وهطول الأمطار الغزيرة. فقد صارت خيامهم بالية ممزقة وعفنة من الأمطار المستمرة وبسبب هذا لم يكن لدى البعض ما يغطيهم غير السماء.

« ومثل الذهب الذى عولج بالنار . وتمت تنقيته سبع مرات ، أعتقد أن المختارين جربهم الرب وتطهروا من خطاياهم بهذه المعاناة . فعلى الرغم من أن سيف القتلة لم يتوقف يوما، فإن كثيرين من الناس عانوا من العذاب الطويل استشهدوا وهم فرحون . وربما أخذوا العزاء من المثال الذى ضربه لهم أيوب المقدس الذى طهر روحه بمعاناة الجسد وعذابه وكان يذكر الرب دائمًا . فإنهم عندما كانوا يناضلون ضد الوثنيين، إنما كانوا يعملون من أجل الرب.

« وعلى الرغم من أن الرب الذى يخلق الجميع، يأمر جميع من خلقهم، ويحفظ ما أمر به، يحكم بقدرته ، وقادر على أن يدمر أو يصلح ما يريد، فإننى أشعر أن ثمن معاناة المسيحيين سيكون تدمير الوثنيين، لأنهم كثيراً ما وطئوا بأقدامهم فى حماقة كل ما ينتمى إلى الرب على الرغم من أن ذلك كان بإذنه ولأن الناس كانوا يستحقونه. والحقيقة أنه سمح بأن يذبح

(*) Fulcher, pp. 95 - 98.

المسيحيون لزيادة خلاصهم، وسمح بذلك للأتراك من أجل لعنة أرواحهم . ولكن أولئك الأتراك الذين قدر لهم سلفًا أن ينالوا الخلاص ، فرح الرب حين نالوا المعمودية على أيدى قساوستنا.

« والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضًا، والذين بررهم فهؤلاء مجدهم أيضًا» [١].

« وماذا بعد ؟ انسحب بعض رجالنا كما سمعتم من الحصار الذى كان صعبًا للغاية، بعضهم بسبب العوز والحاجة، والبعض انسحب بسبب الجبن، على حين انسحب البعض خشية الموت، وكان الفقراء أولا، ثم تبعهم الأغنياء».

« ثم ترك ستيفن ، كونت بلوا، الحصار وعاد إلى موطنه فى فرنسا عن طريق البحر. وقد حزنا جميعًا لأنه كان رجلاً نبيلاً كما كان بارعًا فى استخدام السلاح. وفى اليوم التالى لرحيله استسلمت مدينة أنطاكية للفرنج . ولو أنه بقى لفرح كثيرًا مع الآخرين ، لأن ما فعله كان عارًا عليه، لأن البداية الطيبة لا تناسب المرء إذا لم ينته نهاية طيبة. وفى الأمور التى تتعلق بالرب سوف اختصر لئلا أشرد أو أضل ، لأنه فى هذه الأمور ينبغى أن أكون حريصًا حتى لا أبتعد عن الحقيقة .

« ومن شهر أكتوبر هذا، كما ذكرنا ، استمر حصار المدينة طوال الشتاء التالى والربيع حتى شهر يونيو [٢]. وتبادل الأتراك والفرنج عدة هجمات واشتبكوا فى مصادمات كثيرة، وانتصروا وهزموا . وعلى أية حال، كنا نكسب غالبًا أكثر منهم. وحدث ذات مرة أن غرق عدد كبير من الأتراك فى نهر العاصى وهم يحاولون الهرب. وعلى كلتى ضفتى النهر حارب الناس مرات عديدة.

« وشيد أمراؤنا قلاعًا فى مواجهة المدينة [٣]. وقد تمكن رجالنا من صد الأتراك بعدد من الهجمات العنيفة. ونتيجة لهذا كانوا يمنعون حيوانات العدو من المرعى.

« ولم يكن شىء يجلب إلى الداخل بأيدى الأرمن فى المناطق التى تقع خارج المدينة، ومع ذلك فإنهم غالبا ما كانوا يتصرفون وفق ما نريد».

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى رومية ٨ : ٣٠.

(٢) من ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ حتى يونيو ١٠٩٨م.

(٣) هى برج ماريجارد فى شرق أنطاكية ، وبرج لا ماهومرى فى الشمال، وبرج تنكرد فى الغرب.

سقوط أنطاكية وهجوم كربوقا الفاشل

١ - رواية المؤرخ المجهول (*)

« فى هذا الوقت كانت كل الممرات قد أوصدت فى وجه الأتراك ما عدا ناحية النهر حيث كانت هناك قلعة ودير. ولو كنا قد استطعنا أن نقوى هذه القلعة، لما جرؤ أحد من الأعداء على الخروج من بوابة المدينة. ولذلك عقد رجالنا اجتماعًا للتشاور، واتفقوا بالإجماع قائلين «لنختر واحداً منا يستطيع أن يحكم القلعة بقوة، ويمنع أعداءنا من التحرك فى الجبال والسهول، ويمنعهم من دخول المدينة أو الخروج منها». ثم كان تنكرد أول من تقدم وقال «إذا عرفت المكافأة التى سأنالها سأتولى حراسة القلعة بيقظة وحرص برجالى فقط، وسأمنع أى فرد من المرور فى الممر الذى غالبا ما يشن أعداؤنا هجماتهم القاسية من خلاله». وفى الحال قدم له المجلس أربعمائة مارك من الفضة، وإذا فإنه أسرع فى الحال بخيرة فرسانه وأتباعه، وأوصد الممر فى وجه الأتراك، لدرجة أن أحداً منهم لم يجرؤ على الخروج من بوابة المدينة، سواء من أجل الحصول على الأعلاف أو الأخشاب أو غير ذلك مما يحتاجون، لأنهم كانوا يخافونه كثيراً. ومكث تنكرد هناك برجاله وبدأ يحكم الحصار حول المدينة. وفى ذلك اليوم نفسه جاءت أعداد كبيرة من الأرمن والسوريان بثقة من الجبال، وهم يحملون المؤن للأتراك، لمساعدة أولئك المحاصرين داخل المدينة. قابلهم تنكرد وقبض عليهم واستولى على حمولاتهم من الغلال والخمر والشعير والزيت وما شابه ذلك من حاجيات. وكان قويا ومحظوظا لدرجة أنه قرر أن يوصد جميع الممرات أمام الأتراك حتى يتم الإستيلاء على أنطاكية.

«ولست بقادر على أن أخبركم عن كل ما فعلناه قبل سقوط المدينة، لأنه لا يوجد فى هذه الأرض قسيس أو رجل علمانى يمكنه أن يكتب كل القصة أو يصفها كما حدثت، ولكننى سوف أحكى لكم طرفًا منها.

« كان هناك أمير من الأتراك يدعى فيروز[1]، كان قد أقام صداقة وطيدة مع بوهيموند. وكان من عادة بوهيموند أن يرسل إليه الرسل، ويحادثه فى شأن استقباله فى المدينة باسم

(*) Gesta, pp. 43-71.

(١) كان مسيحيًا ثم أسلم ظاهريًا، وكان يعمل فى خدمة الأتراك السلاجقة، وهو ما يفسر سبب خيانته.

الصداقة، ويعده في مقابل ذلك أن يجعل فيروز يعتنق المسيحية، وأن يمنحه مالا وفيراً ويسبغ عليه مظاهر التشريف. ووافق فيروز، وتقبل المكاسب الموعودة، قائلاً «إنني مسئول عن ثلاثة أبراج، أعد بها بوهيموند، وسوف استقبله في أي وقت يشاء». ولذا عندما تأكد بوهيموند أنه يستطيع دخول المدينة غمره السرور، وجاء منشرحاً، يبدو عليه الفرح، إلى مجلس القادة، وقال لهم ممازحًا «أيها الفرسان البواسل، إنكم ترون أننا جميعًا، العظيم منا والأقل قدراً، يعاني العوز الشديد والبؤس، ولا نعلم متى سيحل بنا حظ أفضل. ولذا إذا رأيتم أن هذه خطة مناسبة، فليرأس أحدنا الآخرين، بشرط أنه إذا تمكن من الإستيلاء على المدينة، أو يدبر لسقوطها بأية وسيلة، سواء بنفسه، أو عن طريق الآخرين، نوافق جميعًا على إعطائها له». ورفض الزعماء الآخرون جميعاً وأنكروا موقفه قائلين «هذه المدينة لن تمنح لأحد، ولكننا سوف نقتسمها جميعا بالتساوي؛ كما بذلنا فيها جميعا جهدنا متساوياً، ولذا يجب أن يكون الشرف قسمة بيننا بالمساواة». وعندما سمع بوهيموند هذه الكلمات بدا أقل انشراحًا، ومضى في حال سبيله.

« ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا عن أن جيشًا من أعدائنا يتكون من الأتراك والبيالصة والأجولاني، والأرمن، وأقوام أخرى كثيرة. واجتمع زعماؤنا جميعًا في الحال وعقدوا مجلسًا للتشاور وقالوا: «إذا كان بوسع بوهيموند أن يستولي على هذه المدينة، سواء بنفسه أو عن طريق الآخرين، فإننا سوف نعطيها له بسرور، بشرط أنه إذا جاء الإمبراطور لمساعدتنا، وأوفى بكل التزاماته التي التي أقسم عليها، فإننا سنعيد المدينة له كما يقضي الحق. وإذا لم يحدث فإن بوهيموند سوف يأخذ المدينة تحت سيادته». ولذا بدأ بوهيموند يلح في الطلب على صديقه يوميًا، مستخدما أقصى أساليب المداهنة والنفاق، وملوحًا بالوعود للبراقة المغرية، قائلاً: «انظر، إن لدينا الفرصة لعمل أي خير نريده الآن فالآن يا صديقي فيروز قدم لي مساعدتك». وابتهج فيروز بالرسالة، وقال إنه سيعطي لبوهيموند كل المساعدة التي وعد بتقديمها، وفي الليلة التالية أرسل إبنه سراً إلى بوهيموند، رهينة حتى يمنحه الثقة في دخول المدينة. كما أرسل رسالة فحواها أنه يجب جمع كل الجيش الفرنجي في الغد، بأن يتظاهر بأنه خارج لنهب أراضي المسلمين، على أن يعود مسرعًا عن طريق الجبال الغربية. وقال «وسوف أقوم بمراقبة هذه القوات بحذر شديد، وسوف أسمح لها بدخول البرج والاستيلاء عليه». ثم أرسل بوهيموند إلى أحد أتباعه على وجه السرعة، وكانت كنيته «التاج الردئ»،

وطلب منه أن ينادى لجمع قوة كبيرة من الفرنج لكى يستعدوا للخروج إلى أرض المسلمين، وقام «التاج الردئ» بتنفيذ ذلك. وأفضى بوهيموند بخطته إلى الدوق جودفرى وكونت الفلاندرز وكونت سان جيل وأسقف لوبوى ، وأخبرهم بقوله «بمشيئة الرب، سوف يتم تسليم انطاكية بالخيانة لنا هذه الليلة».

« وهكذا تم وضع كل الترتيبات. وذهب الفرسان عن طريق السهل، على حين ذهب المشاة عن طريق الجبال، وظلوا يسيرون طوال الليل حتى اقتراب الفجر، عندما بدأوا يقتربون من الأبراج التى يحرسها فيروز الذى تولى الحراسة طول الليل.

« وعندئذ ترجل بوهيموند فى الحال وقال لرجاله «استمروا فى السير، بقلوب شجاعة، وحظ سعيد، وارموا بالسلالم داخل انطاكية لأننا بإرادة الرب سوف نكون سادتها فى لمح البصر». وجاء الرجال إلى السلالم، التى كانت مثبتة بقوة فى شرفات المدينة، وصعد عليها حوالى ستين منهم واحتلوا البرج الذى كان فيه فيروز يحرسه. ولكن عندما رأى فيروز هذه الفئة القليلة من رجالنا قد صعدت، بدأ يعتريه الخوف، خشية أن يقع هو وإياهم فى أيدى الأتراك وقال باليونانية: إن معنا عددا قليلاً من الفرنج. أين البطل بوهيموند ؟ أين هذا الجندى المظفر؟». وفى هذا الوقت هبط جندى من جنوب إيطاليا على السلم وجرى بأقصى سرعة وهو يصيح «لماذا تقف يا سيدى إذا كان لديك ذرة من عقل؟ ما الذى جئت تسعى إليه؟ انظر؟ لقد استولينا على ثلاثة أبراج بالفعل». فتحرك بوهيموند والآخرون وأقبلوا على السلالم فى فرح وسرور. وعندما رآهم أولئك الذين كانوا بالأبراج، بدأوا ينادون فى بهجة «إرادة الرب» ورددنا نحن نفس العبارة وحينئذ بدأت أعداد كبيرة من الرجال فى التسلق وصعدوا ثم جروا بسرعة إلى الأبراج الأخرى. وقتلوا كل من وجدوه فى التو واللحظة، وكان شقيق فيروز بين القتلى. وفى الوقت نفسه حدث أن انكسر السلم الذى صعد عليه رجالنا، فانتابنا يأس وحزن عميق. وعلى أية حال، فعلى الرغم من انكسار السلم كانت هناك بوابة على القرب منا جهة اليسار، ولكنها كانت مغلقة ولم يكن بعضنا يعرفون مكانها، لأن الظلام كان سائداً. ومع هذا عثرنا عليها ونحن نتخبط ونتحسس الطريق بأيادينا، واندفعنا جميعًا صوبها، فكسرناها ودخلنا.

«وفى هذ اللحظة تعالت صيحات أعداد لا تحصى من الناس، لتحدث ضجة عجيبة فى سائر أنحاء المدينة ولم يضع بوهيموند الوقت، وإنما أمر برفع رايته المجيدة على تل فى مواجهة القلعة. وصاح جميع أهل المدينة مرة واحدة . وفى الفجر، سمع رجالنا الذين كانوا

بالخارج فى الخيام جلبة شديدة فى المدينة، ولذا هرولوا ليشاهدوا راية بوهيموند وقد رفعت فوق التل. وأقبلوا جميعا مسرعين ودخلوا بوابات المدينة، ليقتلوا كل الأتراك والمسلمين الذين وجدوهم هناك ما عدا أولئك الذين هربوا إلى القلعة. والبعض الآخر من الأتراك خرجوا من البوابات وهربوا ناجين بحياتهم. أما قائدهم ياغى سيان، فكان خائفًا من الفرنج للغاية، ففر مع عدد كبير من رفاقه، وفى هروبهم دخلوا أرض تنكرد غير بعيد عن المدينة. وكانت خيولهم مرهقة، ولذا دخلوا إحدى القرى واختبأوا فى أحد المنازل، عندما عرف أهل الجبل (وكانوا من السوريان والأرمن) بهوية الهارب. قبضوا عليه فى الحال وقطعوا رأسه وأخذوها إلى سيدى بوهيموند ثمنا لحريتهم. وكان حزامه وخنجره يساويان ستين بيزنت.

« حدث هذا كله فى الثالث من يونيو ، وكان يوم خميس. وكانت كل شوارع المدينة مغطاة على الجانبين بالجثث، لدرجة أن أحداً لم يكن يتحمل التواجد هناك بسبب رائحة العفونة، ولم يكن أحد يستطيع أن يمشى فى الممرات الضيقة دون أن يمر على جثث الموتى».

« فى ذلك الحين كان كربوقا[١] هو قائد جيش السلطان فى فارس[٢]. وبينما كان ما يزال فى خراسان، أرسل ياغى سيان أمير أنطاكية إليه رسولا على جناح السرعة يطلب منه النجدة العاجلة (لأن جيشا قويا من الفرنج كان يحاصره حصاراً شديداً داخل انطاكية) مع وعد بإعطائه مدينة أنطاكية أو مبالغ هائلة من المال. ولأن كربوقا كان معه جيش كبير من الأتراك الذين كان قد جمعهم منذ زمن طويل، وأخذوا الإذن من الخليفة (وهو البابا عند الأتراك[٣]) بقتل المسيحيين، ثم انطلق كربوقا فى رحلة طويلة صوب أنطاكية. وخرج أمير القدس [٤] لمساعدته بجيشه، وكذلك خرج ملك دمشق [٥] الذى أحضر عدد كبيرا من الرجال. كذلك جمع

---

(١) كان كربوقا (أو كربوغا) ، هو أمير الموصل. وكان أول قائد يرسله السلطان فى محاولة ليحسم المنازعات والمنافسات المحلية بين الحكام المسلمين فى سوريا وفلسطين، ولكى يقضى على الصليبيين ومن ثم كان تدخله أخطر من أى شىء آخر جربه الصليبيون.

(٢) بركياروق ابن ملكشاه.

(٣) يقصد الخليفة ـ العباسى ، ولأن هيمنة البابوية وسلطانها الروحى كان وراء الحركة الصليبية، كما كانت البابوية سلطة هامة فى أوربا آنذاك ـ ظن الكاتب اللاتينى أن الخليفة مثل البابا، وهى إحدى صور الخلط لدى مؤرخى الحملة الصليبية بشأن المسلمين.

(٤) سقمان بن أرتق.

(٥) دقاق.

كربوقا قوة ضخمة من الوثنيين [١] ـ من العرب والأتراك، والمسلمين، والبيالصة، والأكراد ، والفرس ، والأجولاني وأقوام كثيرة غيرهم لا يمكن حصرها . وكان عدد الأجولاني ثلاثة آلاف. ولم يكونوا يخافون الحراب أو السهام أو أية أسلحة أخرى. لأنهم يغطون أنفسهم وخيولهم برقائق الحديد.

« وجاء كل أولئك لكى يرفعوا الحصار عن أنطاكية، حتى يمكنهم تمزيق جيش الفرنج، وعندما اقتربوا من المدينة قابلوا شمس الدولة بن ياغى سيان أمير أنطاكية، وجرى إلى كوبوقا باكيا ومتوسلاً وقال: «أيها الأمير المظفر إننى تابع أرجوك المساعدة، لأن الفرنج يحاصروننى من جميع النواحى فى قلعة أنطاكية، وقد استولوا على المدينة، ويريدون إخراجنا من بلاد الروم وبلاد الشام بل ومن خراسان. وقد نفذوا كل خططهم، وقتلوا أبى، وسوف يقتلوننى ويقتلونك وبقية قومنا . لقد انتظرت المساعدة زمنًا طويلاً ، حتى يمكنك أن تساعدنى فى هذا الشأن». وأجاب كربوقا « إذا كنت تريد مساعدتى الحقة فإننى سوف أساعدك فى هذه المحنة بإخلاص، ويجب أن تسلم القلعة لى أولاً ، وسوف أضع رجالى فيها لحراستها . وعندها سوف ترى مدى مساعدتى لك» عندئذ أجاب شمس الدولة : «إذا استطعت أن تقتل جميع الفرنج وأرسلت لى رؤوسهم ، سوف أعطيك القلعة ، وسأكون رجلك المخلص الأمين» [٢]. أجاب كوبوقا «هذا لن يكون . يجب أن تسلمنى القلعة فى الحال». ولذا أعطاه شمس الدين القلعة متذمراً.

« وفى اليوم الثالث بعد دخولنا المدينة [٣]، وصلت طلائع قوات كربوقا أمام أسوار المدينة لأن جيشه الرئيسى كان يعسكر على جسر نهر العاصى حيث داهم إحدى القلاع على الجسر وقتل الحامية الموجودة فيه. ولم ينج أحد من رجالنا هناك سوى القائد الذى وجدناه مقيداً بالسلاسل الحديدية عندما خضنا المعركة الكبرى. وفى اليوم التالى تحرك جيش الوثنيين الرئيسى واقترب من المدينة وعسكر فيما بين النهرين وبقى هناك يومين. وعندما تسلم كوبوقا

---

(١) يستخدم الكاتب هذه الكلمة بشكل غامض، لاسيما وأن بعض من يذكرهم كانوا من المسيحيين الشرقيين، وهو يستخدم كلمة «الوثنيين» أيضًا للدلالة على المسلمين.

(٢) استخدم الكاتب هنا المصطلحات الإقطاعية الأوربية، وهو ما يشى بأن الحوار كله محض خيال أو تخيل وعلى أية حال فإن حوليات ومؤرخات العصور الوسطى فى أوربا، وفى الشرق العربى، درجت على نسيج مثل هذا الحوار فى مناسبات عديدة كوسيلة صياغة الخبر التاريخى. وربما يكون الحوار شرحًا أو تفسيراً لواقع تاريخى محدود.

(٣) ٥ يونيو ١٠٩٨م.

القلعة نادى أحد أمرائه ممن يثق فيهم، وقال «أريدك أن تحكم هذه القلعة كتابع لى ؛ لأننى أعرف منذ وقت طويل أنك أجدر الناس بالثقة. ولذا أرجوك أن تحفظها بأقصى ما يمكنك من حرص» وأجاب الأمير «كنت أفضل ألا أقوم بهذه المهمة، ولكنى سأقوم بها بشرط أنه إذا هزمك الفرنج هزيمة ساحقة، سوف أسلم القلعة لهم فى الحال» فقال له كربوقا « إننى أعرفك أنك رجل شريف وشجاع ولذا فإننى أوافق على أى أمر تراه مناسباً».

« بعد ذلك عاد كربوقا إلى جيشه، وفى الحال أخذ الأتراك يسخرون من القوات الفرنجية، فأحضروا له سيفا حقيرا يغطيه التراب، وقوساً خشبياً رديئاً، وحربة لا نفع فيها على الإطلاق، كانوا قد سرقوها من الحجاج الفقراء، وقالوا : «انظر إلى الأسلحة التى أحضرها الفرنج ليحاربونا بها». فبدأ كربوقا يضحك ثم قال لكل الحاضرين : «هل هذه هى الأسلحة الحربية الفاخرة التى أحضرها المسيحيون إلى آسيا ضدنا، وبهذه يثقون فى أن يدفعونا إلى آخر حدود خراسان، وأن يقذفونا بأسمائنا وراء أنهار الأمازون[1]؟ هل هؤلاء الناس الذين طردوا أسلافنا من بلاد الروم [إشارة إلى حروب نقفور فوقاس وحنا تزمسكس فى القرن العاشر] ومن مدينة أنطاكية الملكية وهى العاصمة المجيدة لكل بلاد الشام؟».. [يستطرد الكاتب هنا فى صياغات خيالية حول مراسلات كربوقا وأمه حتى صفحة ٥٦].

« وفى اليوم الثالث بعد وصوله إلى أنطاكية استعد كربوقا للمعركة، وقدمت معه قوة كبيرة من الأتراك واقتربوا من المدينة من ناحية القلعة. وفكرنا أن بمقدورنا أن نقاومهم، فتجهزنا للقتال، ولكن قوتهم كانت أكبر من أن نستطيع الصمود أمامهم، وهكذا أجبرنا على التقهقر داخل المدينة. وكانت البوابة ضيقة لدرجة أن عددا كبيرا من رجالنا سقطوا وماتوا تحت الأقدام وهم يتزاحمون لدخول المدينة. وبعض رجالنا ظلوا يحاربون طوال ذلك اليوم (الذى كان يوم خميس) حتى المساء خارج أسوار المدينة، على حين كان غيرهم يقاتل من داخلها. وبينما كان ذلك يحدث، فإن وليم جراند مسينل وأخاه أوبرى، وجاى تروسو ولامبرت الفقير، الذين ارتعدوا خوفا من المعركة التى جرت فى اليوم السابق، والتى استمرت حتى المساء، تسللوا بليل وهبطوا أسوار المدينة وهربوا سيرا على الأقدام حتى البحر، لدرجة أن أياديهم وأقدامهم

(١) ليس المقصود هنا نهر الأمازون المعروف فى أمريكا الجنوبية بطبيعة الحال، وإنما نسبة إلى جنس أسطورى من النساء المحاربات. وهى كلمة ذات أصل يونانى تستخدم أحيانا للدلالة على الخطاة. ومن الواضح أن المؤرخ هنا يكتب الحوار من خياله تحت تأثير ثقافته الخاصة.

تمزقت حتى العظام، وهرب معهم كثيرون ممن لا أعرف أسماءهم، وعندما وصلوا إلى السفن التى كانت راسية فى ميناء القديس سمعان قالوا للبحارة : «أنتم أيها الشياطين المساكين، لماذا تبقون هنا؟ إن رجالنا ماتوا وقد نجونا بأعجوبة من الموت ، لأن الجيش التركى يحاصر الآخرين فى المدينة». وعندما سمع البحارة هذا انتابهم الهلع والرعب، واندفعوا مذعورين إلى سفنهم وأبحروا. وفى تلك اللحظة وصل الأتراك وقتلوا كل من استطاعوا الإمساك به، وأحرقوا السفن التى كانت ما تزال فى مصب النهر واستولوا على حمولتها».

« أما نحن الذين بقينا بأنطاكية ، فلم نكن قادرين على الدفاع عن أنفسنا ضد الهجمات من القلعة، ولذا بنينا حائطًا بيننا وبينها، ورتبنا عليه الحراسات ليلاً ونهارًا . وفى الوقت نفسه كنا نعانى من نقص شديد فى الطعام لدرجة أننا أكلنا خيولنا وبغالنا».

« وذات يوم، بينما كان زعماؤنا جالسين فى أعالى المدينة قبالة القلعة، مهمومين ومتعبين، جاءهم أحد القساوسة، وقال: «أيها السادة ، قد يسركم أن تستمعوا إلى قصة رؤيا رأيتها. ذات ليلة، بينما كنت أرقد فى كنيسة القديسة مريم أم السيد يسوع المسيح، ظهر لى مخلص العالم ومعه أمه والقديس بطرس أمير الحواريين، ووقف تجاهى وقال «هل تعرفنى» قلت «لا». وعندما قلت هذا ظهر صليب صحيح خلف رأسه [1]. وسألنى السيد مرة أخرى « هل تعرف من أنا؟» . وأجبته« لم أكن لأعرفك لولا أننى أرى حول رأسك صليبا مثل صليب منقذنا» وأجاب «أنا هو» . ومن ثم جثوت عند قدميه ، وتوسلت إليه فى ذلة أن يساعدنا فى المتاعب التى حلت بنا. وأجاب السيد «لقد منحتكم مساعدة عظيمة، وسوف أساعدكم. لقد منحتكم مدينة نيقية، والنصر فى جميع المعارك، وقدتكم إلى هنا وعانيت معكم كل المتاعب التى عانيتموها فى حصار أنطاكية. تأملوا ، فقد منحتكم المساعدة العاجلة وأدخلتكم إلى مدينة أنطاكية سالمين معافين، بيد أنكم ترضون نزواتكم الطائشة مع النساء المسيحيات والوثنيات والمنحلات لدرجة أن رائحة خبيثة جدًا تصاعدت إلى السماء». ثم جثت العذراء الرحيمة وبطرس المبارك عند قدميه يصليان ويرجوانه أن يساعد شعبه فى هذا المأزق، وقال بطرس المبارك : «سيدى إن الوثنيين استولوا على بيتى [2] منذ أمد بعيد، وقد فعلوا أفعالاً شريرة لا

(١) كان المسيح يرسم فى القرن الحادى عشر ومعه صليب تحيط به هالة، وهو ما يوضح أن كلام المؤرخ يتوافق مع التراث الأدبى والفنى فى أوربا آنذاك.

(٢) كانت كاتدرائية أنطاكية مكرسة للقديس بطرس.

يمكن الكلام عنها فى هذا البيت. والآن أيها الرب، إذا تم طرد أعدائك ، سينتشى الملائكة فى السماء فرحًا ». وقال لى السيد «إذهب وقل لشعبى أنهم سيعودون إلى، وسوف أعود إليهم، وفى خلال خمسة أيام سوف أرسل لهم مساعدة عظيمة. دعهم يغنون يوميا «لأنه هو ذا الملوك اجتمعوا» (١) مع الترانيم الدينية» . أيها السادة، إذا كنتم لا تصدقونى، فدعونى أتسلق هذا البرج وألقى نفسى من شاهق؛ فإذا لم أصب بأذى ، تصدقون أن ما قلته هو الحق، ولكن إذا ألحق بى أذى، فاقطعوا رأسى أو القوا بى فى النيران».

« عندئذ أصدر أسقف لوبوى أوامره باحضار الأناجيل والصليب لكى يقسم الرجل عليها أن قصته حقيقية؛ وتشاور كل زعمائنا سويا فى تلك الساعة على أن يقسموا جميعًا بألا يهرب أحد منهم طالما بقى أحدهم على قيد الحياة، خوفا من الموت أو أملا فى الحياة. ويقال إن بوهيموند كان أول من أقسم، وبعده كانت سان جيل، وروبرت النورمانى، والدوق جودفرى، وكونت الفلاندرز. ولكن تنكرد أقسم أنه طالما كان تحت إمرته أربعون فارسًا ، فلن يحيد عن هذه المعركة أو عن السير إلى بيت المقدس. وعندما سمع المسيحيون عن هذا القسم تشجعوا كثيراً.

« وكان فى جيشنا حاج يدعى بطرس. وقبل أن نستولى على مدينة انطاكية ظهر له القديس أندرو الرسول وقال «أيها الرسول ، ما الذى تفعله؟» فأجاب «من أنت؟» أجابه الحوارى «أنا أندرو الحوارى. إعلم يا بنى، أنك إذا ذهبت إلى كنيسة بطرس المبارك، عندما تدخل المدينة، ستجد هناك الحربة التى اخترقت جسد مخلصنا يسوع المسيح حين كان معلقا على الصليب». واختفى الحوارى بعد أن قال هذا .

« وخاف بطرس أن يكشف كلمات الحوارى، ولذا لم يخبر الحجاج، لأنه ظن أنه رأى أضغاث أحلام وقال للقديس : «سيدى ، ترى من سيصدق هذا؟. وفى الساعة نفسها أخذه القديس أندرو إلى المكان الذى كانت الحربة مدفونة فيه تحت الأرض.

« وفيما بعد ، وعندما كنا نواجه المشكلات التى تحدثت عنها، ظهر القديس أندرو مرة أخرى، وقال لبطرس : «لماذا لم تأخذ الحربة من الأرض كما أخبرتك؟ إعرف إنه حقا أن من يحمل هذا الحربة فى المعركة لن ينهزم أبدًا على يد الأعداء». وفى الحال كشف بطرس لرجالنا

---

(١) مزامير : ٤٨ ـ ٤.

السر الذى أخبره به الحوارى ولكنهم لم يصدقوه، وانصرفوا عنه قائلين: «كيف يمكن أن نصدق شيئًا كهذا؟» لأنهم كانوا خائفين جميعًا، واعتقدوا أن هذا باب يؤدى إلى الموت. ولذا جاء بطرس وأقسم بأن القصة كلها حقيقية تمامًا، لأن القديس أندرو تجلى له مرتين فى الحلم، وقال له : «إنهض، إذهب وأخبر شعب الرب بألا يخافوا. وإنما يثقوا بكل قلوبهم فى إله واحد حق، وسوف ينتصرون فى كل مكان، وفى غضون خمسة أيام سوف يرسل الرب لهم علامة سوف تملؤهم فرحًا وثقة، فإذا ما حاربوا ، سينهزم أعداؤهم بمجرد خروجهم للقتال، ولن يصمد أمامهم أحد». وعندما سمع رجالنا أنه من المقدر أن يندحر أعداؤهم جميعًا، ارتفعت معنوياتهم مرة أخرى، وبدأوا يشجعون بعضهم بعضًا قائلين : «فلننهض، ولنكن أقوياء وشجعانًا، لأن الرب سيخف لنجدتنا، وسوف يكون ملاذا حصينا لشعبه الذى رأى معاناة أفراده».

« فى الوقت نفسه هاجمنا الأتراك الذين كانوا بالقلعة بعنف وفى جميع النقاط لدرجة أنهم فى يوم واحد تصيدوا ثلاثة من فرساننا فى برج قبالة القلعة، فقد شن الوثنيون هجوما عنيفا جعل قواتنا تعجز عن تحمله. وجرح اثنان من الفرسان، ولكن الثالث دافع عن نفسه برجولة ضد الأتراك لدرجة أنه قذف باثنين منهم اقتربا من السور وكسر رماحه. وفى ذلك اليوم تكسرت فى يديه ثلاث حراب ولكن التركيين لقيا حتفهما. وكن اسمه «هيو المجنون»، وكان من رجال جودفرى أمير مونت سكاجليوزو.

« وعندما شاهد بوهيموند المجد أنه غير قادر على إخراج رجاله إلى القلعة ليقاتلوا (لأنهم قبعوا فى مساكنهم جبنا وخوفا، بعضهم بفعل الجوع والبعض الآخر خوفا من الأتراك)، غضب بشدة وأصدر أوامره فى الحال بأن تضرم النيران فى ذلك الجزء من المدينة الذى يضم قصر ياغى سيان. وعندما شاهد الناس فى المدينة هذا تركوا المساكن وممتلكاتهم بداخلها وهربوا، بعضهم صوب القلعة وبعضهم صوب البوابة التى يسيطر عليها كونت سان جيل، وفر فريق ثالث نحو البوابة التى يسيطر عليها الدوق جودفرى - أى أن كل رجل فر نحو قومه. وفى هذه اللحظة هبت فجأة ريح عاصفة، بحيث لم يكن بمقدور أحد أن يشق طريقه على نحو سليم. وكان بوهيموند الجسور قلقًا للغاية خوفا على سلامة كنيسة القديس بطرس وكنيسة مريم العذراء وغيرهما من الكنائس. واستمر الخطر فى الساعة الثالثة حتى منتصف الليل، واحترق ألفان من الكنائس والبيوت تقريبًا، ولكن النار خبت فجأة وانتهى عنفها عند منتصف الليل.

« وبهذه الطريقة كان الأتراك المسيطرون على القلعة يحاربون رجالنا ليلاً ونهاراً، ولم يمنعهم عنَّا سوى أسلحتنا. وعندما رأى رجالنا أنهم لن يتحملوا أكثر من ذلك (لأن الرجل الذى كان يحمل الطعام لم يكن يجد الوقت ليأكله، ومن يحمل الماء لم يكن يجد وقتا ليشرب) بنوا سورا من الحجارة والملاط يفصل بيننا وبين الأتراك، وأقاموا برجا ومجانيق، حتى يكونوا فى أمان. وكانت هناك عصابة من الأتراك تسيطر على القلعة، وتهاجمنا، على حين كانت هناك عصابة أخرى تعسكر فى وادى قريب من القلعة.

« وفى تلك الليلة ظهرت نار فى السماء ، قادمة من جهة الغرب ، واقتربت ثم سقطت على الجيش التركى، مما أذهل رجالنا وأدهش الأتراك أيضًا. وفى الصباح ، هرب الأتراك الذين خافوا النيران مذعورين وذهبوا إلى البوابة التى يسيطر عليها بوهيموند، وعسكروا هناك؛ ولكن أولئك الذين كانوا فى القلعة قاتلوا رجالنا ليلا ونهاراً، وقذفوهم بالسهام ليقتلوا منهم البعض ويجرحوا بعضا آخر. وكان بقية الأتراك يحاصرون المدينة من جميع النواحى لدرجة أن أحدًا من رجالنا لم يجرؤ على الخروج والدخول إلا خفية وتحت جنح الليل. وهكذا حوصرنا وأرهقنا بأيدى أولئك الوثنيين الذين كانت أعدادهم تفوق الحصر. إن أعداء الرب الكفار هؤلاء، حاصرونا بشدة فى مدينة أنطاكية لدرجة أن الكثيرين منا ماتوا جوعًا، لأن رغيف الخبز الصغير كان يساوى بيزنت، ولا أستطيع أن أتحدث عن ثمن الخمر. وأكل رجالنا لحوم الخيل والبغال، وكانوا يبيعونه لبعضهم البعض، وكانت الدجاجة تباع بخمسة عشر شلنا، والبيضة باثنين، كما كان كل شىء غاليا. وكانت المجاعة مرعبة لدرجة أن الناس كان يطبخون ويأكلون جذور التين، والكروم والأشواك، وكل أنواع الأشجار. وكان البعض يطبخون جلود الخيول الجافة وكذلك جلود الجمال والبغال والثيران والجاموس ويأكلونها. هذه المتاعب والمشاق وكثير غيرها مما لا أستطيع أن أحكى عنه، قاسيناها فى سبيل اسم المسيح ولكى نحرر الطريق إلى القدس؛ وتحملنا هذا الجوع والبؤس والخوف على مدى ستة وعشرين يوما.

« وحدث قبل الاستيلاء على انطاكية أن ستيفن الجبان، كونت شارتر، الذى كان كل قادتنا قد انتخبوه قائدا عاما، تظاهر بالمرض الشديد، وتسلل هاربا بطريقة مخزية إلى قلعة أخرى تسمى الإسكندرونة. وعندما حوصرنا فى المدينة، نحتاج إلى النجدة لإنقاذنا، كنا ننتظره يوميا لكى يحضر لنا المساعدة. ولكنه حين سمع أن الأتراك أحاطوا بنا وحاصرونا، ذهب سرا إلى جبل مجاور لمدينة أنطاكية، وعندما رأى خيام الأتراك كثيرة تملكه الفزع وتقهقر بجيشه هاربا

بسرعة. وعندما وصل إلى معسكره أخذ متاعه وعاد أدراجه بأسرع ما يستطيع. وفيما بعد، عندما قابل الإمبراطور بالقرب من فيلوميليوم، طلب أن يقابله على انفراد وقال «إننى أخبرك بحق أن أنطاكية قد أخذت، ولكن القلعة لم تسقط، ورجالنا محاصرون بشدة، وأتوقع أن يكون الأتراك قد أجهزوا عليهم الآن. ولذا، ينبغى أن ترجع بأسرع ما تستطيع ، وإلا عثروا عليك وعلى جيشك». وعندئذ خاف الإمبراطور خوفا شديدا، ودعا جاى، أخا بوهيموند إلى اجتماع سرى، ومعه عدد آخر من الرجال، وقال لهم «أيها السادة ماذا نحن فاعلون؟ إن كل حلفائنا محاصرون، وربما فى هذه اللحظة بالذات يكونوا قد لقوا حتفهم أو وقعوا فى أسر الأتراك، وفقا لرواية هذا الكونت اللعين الذى هرب على هذا النحو المشين. فإذا كنتم توافقون، فلنرجع بسرعة، وإلا تعرضنا نحن أيضًا للموت المفاجئ ، مثلهم تمامًا».

« وعندما سمع جاى ، الذى كان فارسًا مجيدًا للغاية، هذه الأكاذيب بدأ يبكى وينوح بصوت عال هو والرجال الآخرون... [يستطرد الكاتب فى وصف حال جاى ورفاقه، ثم عودة الإمبراطور البيزنطى وجيشه].

« أما نحن الذين سمعنا كلمات الرجل الذى أحضر إلينا رسالة المسيح من خلال كلمات أحد حوارييه فقد أسرعنا فى الحال إلى المكان الذى تم تحديده فى كنيسة القديس بطرس، وحفر ثلاثة عشر رجلاً من الصباح حتى المساء. وهكذا وجد ذلك الرجل الحربة، كما سبق وأخبرنا، وأخذوها جميعا فى فرح وسرور، وسرى فى المدينة كلها فرح لا يوصف. ومنذ تلك الساعة اتفقنا على خطة للهجوم، وعقد جميع قادتنا مجلسا للتشاور لكى يرسلوا مبعوثا إلى الأتراك أعداء المسيح، لكى يسألهم من خلال أحد المترجمين، لماذا كان صلفهم وغرورهم فيما يتعلق بدخولهم أرض المسيحيين وإقامة معسكرهم هناك ولماذا يقتلون ويعذبون خدام المسيح. وعندما أنهوا مشاوراتهم، جاءوا برجلين هما بطرس الناسك وهيرلوين وقالوا لهما «إذهبا إلى جيش الأتراك الملعون ، وأبلغاهم هذه الرسالة كاملة . وأسألاهم عن السبب فى أنهم مندفعون بهذا الصلف لدخول أرض المسيحيين وأرضنا» وذهب المبعوثان بهذه الرسالة حتى وصلا إلى معسكر الكفار، حيث أبلغا رسالتهما إلى كوربوقا والآخرين على النحو التالى : «إن قادتنا وزعماءنا صدمتهم جسارتكم واندفاعكم لدخول هذه الأرض التى هى ملك للمسيحيين ولهم. وربما (كما نفكر ونعتقد) تكونوا قد جئتم هنا بغرض اعتناق المسيحية. أم أنكم جئتم إلى هنا لمضايقة المسيحيين بأية وسيلة تقدرون عليها؟ وعلى أية حال، فإن قادتنا جميعا يطلبون منكم

أن تنسحبوا بسرعة من أرض الرب والمسيحيين، لأن بطرس المبارك كان قد حولها منذ زمن طويل إلى دين المسيح. ولكنهم يمنحونكم الإذن بأن تأخذوا متاعكم، وخيالكم وبغالكم، وحميركم وجمالكم، وأن تأخذوا معكم كل أغنامكم وثيرانكم وكل ما تختارونه من ممتلكاتهم».

«عندئذ ملأ الغرور كربوقا ، قائد جيش سلطان فارس، كما ملأ مستشاريه ، وأجاب فى عنف: نحن لا نريد لا دينكم ولا ربكم، ونحن نبصق عليهما وعليكم. لقد جئنا هنا لأننا أحسسنا بالخزى حين فكرنا فى أن أولئك الزعماء والقادة الذين ورد ذكرهم يزعمون لأنفسهم الحق فى الأرض التى أخذناها من شعب مخنث. هل تريدون أن تعرفوا إجابتنا؟ عودوا إذن بأسرع ما تستطيعون ، وأخبروا زعماءكم أنهم إذا صاروا جميعا من الأتراك[1]، وأدانوا الرب الذى تعبدونه وتركعون له، وتخليتم عن قوانينكم ، فإننا سوف نعطيكم هذه الأرض وغيرها، فضلاً عن القلاع والمدن، بحيث لا يبقى أحد منكم من الجنود المشاة. ولكنكم ستصيرون جميعًا من الفرسان مثلنا؛ واخبراهم أننا سوف نعتبرهم دائما من أصدقائنا المقربين. وإلا ، فليعلموا أنهم جميعا سوف يذبحون؛ أو يساقون فى الأغلال إلى خراسان ، حيث يخدموننا ويخدمون أطفالنا طوال الوقت فى أسر أبدى».

« وعاد الرسولان بسرعة وحكيا كل ما قاله لهم أولئك الناس الغلاظ القساة . (ويحكى أن هرلوين كان يعرف اللغتين وأنه قام بدور المترجم لبطرس الناسك). وبينما كان هذا كله يجرى، لم يكن رجالنا يعرفون ما ينبغى عمله، لأنهم كانوا خائفين، إذ كانوا واقعين ين خطرين: عذاب الجوع والخوف من الأتراك.

« وأخيرا وبعد ثلاثة أيام من الصيام والمسيرات من كنيسة لأخرى، اعترف رجالنا بخطاياهم، وتناولوا القربان جماعة، وأعطوا الصدقات ورتبوا صلوات القداس وتم ترتيب ستة صفوف قتال من بين أولئك الذين كانوا داخل المدينة. وفى خط القتال الأول (مقدمة الجيش) كان هيو الكبير ومعه القوات الفرنسية وكونت الفلاندرز؛ وفى الخط الثانى كان الدوق جودفرى ورجاله ، وفى الثالث كان روبرت النورمانى مع فرسانه؛ والخط الرابع أسقف لوبوى يحمل حربة مخلصنا ، وكان معه رجاله ورجال ريمون كونت سان جيل الذى بقى فى الخلف لحراسة القلعة خوفا من أن ينزل الأتراك إلى المدينة ؛ وفى الصف الخامس كان تنكرد برجاله ؛ أما

---

(١) يخلط الكاتب هنا بين الدين والجنس ولذا يستخدم هذه الكلمة بمعنى «إذا صاروا جميعا مسلمين».

الخط السادس فكان به بوهيموند وجيشه. وارتدى أساقفتنا وقساوستنا مسوحهم المقدسة وجاءوا معنا، يحملون الصلبان، يصلون ويرجون الرب أن ينقذنا ويحفظنا من كل الشرور بينما كان البعض الآخر يقفون فوق البوابة والصلبان المقدسة فى أيديهم ، يرسمون علامة الصليب ويباركوننا، وهكذا قاربنا صفوفنا وخرجنا تحمينا شارة الصليب من البوابة المقابلة للمسجد.

« وعندما رأى كربوقا الفيالق الفرنجية ، على هذا القدر من النظام تخرج الواحدة بعد الأخرى، قال «دعهم يأتون بحيث يكونوا جميعا فى متناولنا تماماً» [١]. ولكن بعد أن خرجوا جميعًا من المدينة، ورأى مدى قوة الفرنج ، غشيه خوف كبير، ولذا أخبر الأمير الذى كان يتولى قيادة الجيش بأنه إذا رأى ناراً فى المقدمة فعليه أن يجمع الجيش فى الحال للانسحاب لأن هذه ستكون علامة على أن جيش الأتراك قد هزم.

« وبدأ قربوقا ينسحب بسرعة صوب الجبل وتبعه رجالنا. ثم انقسم الجيش التركى قسمين: تحرك جناح منهما صوب البحر على حين بقى الجناح الآخر مكانه، لأنهم كانوا يأملون فى محاصرتنا وعندما رأى رجالنا هذا فعلوا مثله، وكونوا خطًا سابعا من قوات جودفرى وكونت نورماندى. وتولى الكونت رينالد قيادة هذا الفيلق الذى أرسل لمواجهة الأتراك القادمين من ناحية البحر. واشتبك الأتراك فى القتال معهم وقتلوا كثيرين من رجالنا بسهامهم. وفى الوقت نفسه تجمعت قوات تركية أخرى بين النهر والجبل الذى يبعد مسافة ميلين، وبدأت القوات تخرج من كلا الجناحين، لكى تحيط برجالنا وتقذفهم بالقذارة، ويرمونهم بالسهام، فيجرحونهم.

« ثم ظهر أيضًا من الجبل جيش لا يحصى من الرجال الذين يمتطون الخيول البيضاء، ويحملون أعلامًا وبيارق بيضاء. وعندما رأى رجالنا هذا ، لم يفهموا ما يجرى ، أو من هم أولئك الرجال حتى أدركوا أن هذه هى النجدة التى أرسلها المسيح، وأن القادة هم القديس جورج والقديس مرقريوس والقديس ديمتريوس [٢]. وهذا أمر حقيقى تماماً لأن كثيرين شاهدوه.

---

(١) يحكى المؤرخ المسلم ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩١ هجرية (الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ١٠٣) قصة الحربة باعتبارها حيلة لعبت على أوتار العاطفة الدينية لدى الصليبيين، ويكشف أن الهزيمة أصابت المسلمين بسبب الخلافات والمنازعات التى دبت بين كربوقا، وقادة الجيوش الإسلامية الأخرى التى كانت تحاصر أنطاكية وكيف أن بعض هذه الجيوش انسحبت دون قتال لتترك كربوقا فى موقف حرج.

(٢) القديسون الثلاثة من طراز القديسين الجنود الذين يعتقد التراث المسيحى أنهم يهبون دائما لنجدة جيوش المسيحيين فى أية ورطة. وتدور حولهم أساطير كثيرة تتوه خلف ضبابية الغموض.

« فى الوقت نفسه ، حين تأكد الأتراك الذين كانوا فى الجناح الممتد ناحية البحر أنهم لن يستطيعوا الصمود أمامنا أكثر من ذلك، أشعلوا النيران فى العشب، حتى يراها رفاقهم فى المعسكر ويهربوا. وعرفوا الإشارة ، فأخذوا ما خف حمله وغلا ثمنه وهربوا . وكان رجالنا يشقون طريقهم بالقتال تدريجيا صوب الجيش التركى الرئيسى فى المعسكر. وركب الدوق جودفرى وكونت الفلاندرز بحذاء النهر حيث كانت تعسكر أقوى عناصر الجيش التركى، وكانوا أول من يشن هجمة مركزة على العدو بفضل حماية شارة الصليب. وعندما رأت قواتنا الأخرى هذا شنت هجومًا مماثلاً ، وبدأ الأتراك والفرس يصرخون. واستعنا بالرب الحقيقى الحى وركبنا ضدهم، وخضنا المعركة باسم يسوع المسيح والضريح المقدس وهزمناهم بمساعدة الرب.

« وهرب الأتراك مذعورين وطاردناهم حتى معسكرهم ، لأن فرسان المسيح كانوا تواقين لمطاردتهم أكثر من ميلهم للحصول على الغنائم واستمرت المطاردة حتى جسر نهر العاصى، وفى الإتجاه الآخر حتى قلعة تنكرد. وترك العدو خيامه، وبها الذهب والفضة ومفروشات كثيرة، كما ترك الماشية والثيران والخيول ، والبغال والجمال والحمير ، فضلاً عن الغلال والخمور والدقيق وغيرها من الأشياء التى كنا فى أمس الحاجة إليها .

« وعندما سمع السوريان والأرمن، الذين يعيشون فى هذه الأرض، بأننا انتصرنا على الأتراك اندفعوا إلى الجبال ليقطعوا عليهم خط الرجعة، وقتلوا منهم كل من طالته أيديهم. وعدنا إلى المدينة فرحين تمامًا ، نحمد الرب ونباركه لأنه منحنا النصر على هؤلاء الناس.

« وعندما رأى الأمير المسئول عن القلعة هرب كربوقا والآخرين من ميدان المعركة أمام جيش الفرنج، غشيه خوف شديد وجاء بسرعة يطلب راية فرنجية [١]. وأمر كونت سان جيل الذى كان يتولى الرقابة خارج القلعة بتسليم رايته للأمير الذى أخذها ورفعها فوق برج قلعته. وقال بعض الحاضرين من أهل الجنوب الإيطالى « هذه ليست راية بوهيموند» وسألهم الأمير «راية من هذه؟» فقالوا «إنها راية كونت سان جيل» . وأعاد الأمير الراية للكونت، وفى لحظتها جاء بوهيموند النبيل وأعطاه رايته، فتقبلها بسرور كبير. واتفق مع سيدى بوهيموند على أن أولئك المسلمين الراغبين فى اعتناق المسيحية ينضمون إلى جيشه، وأن يترك الراغبين فى

---

(١) علامة على استسلام المدينة، وحتى لا يقتحمها أحد لأنها تحت حماية صاحب الراية.

الرحيل يرحلون سالمين. ووافق بوهيموند على شروط الأمير ووضع أتباعه فى القلعة فى الحال. وبعد ذلك بأيام قليلة اعتنق الأمير المسيحية ومعه أولئك الذين فضلوا أن يتقبلوا المسيح. وأمر سيدى بوهيموند بحراسة الذين فضلوا البقاء على دينهم حتى يصلوا إلى أرض المسلمين.

« جرت هذه المعركة فى ٢٨ يونيو ...»

٢ ـ رواية ريمون الأجويلرى (*)

« وفى الوقت نفسه ، بدأ الرسل يفدون كثيرا، ويقولون أن العدو يتلقى المساعدات وفضلاً عن ذلك، لم تكن هذه التقارير ترد إلينا من الأرمن واليونانيين فقط، ولكنها وصلتنا أيضًا من الذين كانوا بالمدينة. فعندما استولى الأتراك على أنطاكية قبل أربعة عشر عاما، حولوا الشباب الأرمنى واليونانى إلى الإسلام، كما لو كانوا خدما، وزوجوهم. وعندما كان أمثال هؤلاء الرجال يجدون الفرصة للهرب، كانوا يأتون إلينا بالخيول والأسلحة. وحين شاع أمر المساعدة القادمة للعدو، بدأ كثيرون من رجالنا ومن التجار الأرمن يهربون خوفًا وفزعًا. وفى الوقت نفسه، حضر الفرسان الطيبون الذين كانوا مبعثرين فى الغابات وأحضروا الأسلحة وأصلحوها. وعندما تخلص جيشنا تدريجيًا من الخوف، وحلت محله الشجاعة ، والاستعداد الدائم لمجابهة الأخطار مع الإخوة ومن أجل الإخوة، بعث أحد النصارى الذين اعتنقوا الإسلام فى أنطاكية برسالة إلى أمرائنا عن طريق بوهيموند يقول إنه سيسلم المدينة لنا.

« وبناء على ذلك ، وعندما تم الاتفاق على الخطة ، أرسل الأمراء بوهيموند ودوق اللورين وكونت الفلاندرز لمحاولة تنفيذها. وعندما وصلوا إلى تل المدينة فى منتصف الليل، وقال لهم مبعوث أرسله من كان سيسلم المدينة «انتظروا حتى يمر الضوء» . لأن ثلاثة أو أربعة رجال كانوا يسيرون على طوال أسوار المدينة وهم يحملون المشاعل طوال الليل لإيقاظ الحراس وتنبيههم. وبعد هذا اقترب رجالنا من الأسوار، ورفعوا سلما، وبدأوا يصعدون عليه. وكان أول من تسلق الأسوار بجدارة رجل من الفرنج اسمه فولجر، وهو شقيق بودللوس الشارترى؛ وتبعه كونت الفلاندرز الذى أرسل رسالة لبوهيموند والدوق لكى يصعدوا؛ ثم بدأ الجميع يهرولون صاعدين، يحاول كل منهم أن يسبق الآخر، مما أدى إلى كسر السلم. ولكن أولئك

(*) Peters, pp. 166 - 168, 174-175, 178-185, 189-194.

الذين كـانوا قد تسلقوا هبطوا داخل المدينة وفتـحوا بوابة صـغيرة، وهكذا دخل رجـالنا، ولم يأسروا أحد ممن وجدوهم. وعندما لاح نور الفجر، صـاحوا بصوت عال. وانزعجت المدينة كلها عند سماع هذه الصيحة، وبدأت النساء والأطفال الصغار فى البكاء. أما أولئك الذين كانوا فى قلعة الكونت فقد انتبهوا عند سـماع هـذه الصيحة الكبرى لأنهم كانوا أقرب إليـهـا، وبدأوا يقولون لبعضـهم «لقد وصلتهم المساعدة» . وأجابهم الآخرون «إن هذا لا يبدو صـوت قـوم فرحين». وعندما انبلج ضـوء النهار ظهرت راياتنا وبيارقنا فـوق التل الجنوبى. وعندما رأى سكان المدينة المنزعجون رجالنا على الجبل من فوقهم، هرب بعضـهم من البوابة، بينما انطلق البعض الآخر مهرولين. ولم يقاوم أحد؛ فالحقيقة أن الرب قد أطاح بهم وهزمهم. وبعد وقت طويل ، تجلى لنا مشهد مفرح ، ذلك أن أولئك الذين دافعوا عن أنطاكية ضدنا زمنًا طويلاً، غير قادرين الآن على الهرب من أنطاكية. وحتى إذا كان بعضهم قد جرؤوا على الهرب، فإنهم لم يتمكنوا من النجاة من الموت. وحدثت حادثة معينة هناك، كانت مبعث فرح وسرور لنا. ذلك أنه حين ناضل بعض الأتراك بين المرتفعات التى تقسم الجبل إلى قسمين من الشمـال، قابلوا رجالنا ، وعندما أرغم الأتراك على العودة ، كان الهاربون يندفعون بسرعة هائلة بحيث سقطوا جميعًا فى الهاوية، ولكن الحزن انتابنا بسبب ثلاثين حصانا دقت أعناقها فى ذلك المكان.

« وكم كانت الغنائم التى غنمناها من أنطاكية كبيرة لدرجة أننا لا نستطيع أن نحصيها، ويمكنك أن تتصورها بأكثر ما يصل إليه خيالك، ثم تضيف إليه. كذلك لا يمكن إحصاء الأتراك والمسلمين الذين هلكوا : فضلاً عن أنه من القسوة أن نشرح الطرق والوسائل المختلفة التى قتلوا بها. وعندما رأى الأعداء الذين كانوا يحرسـون القلعة فى التل الأوسط الدمار الذى حل برجـالهم، وأن رجـالنا عـازفـون عن مـحـاصـرتهم، احـتـفظوا بقلعـتـهم. على أية حـال، فـإن جـراشـيـانوس[١]، الذى كان قد خرج من منفذ فى السور، قبض عليه وفصلت رأسه بأيدى بعض الفلاحين الأرمن الذين أحضروا رأسه إلينا. واعتقد أن هذا بتدبير الرب المحكم، ذلك أن هذا الرجل الذى تسبب فى قطع رؤوس كثيرين من الأرمن، كان قدره أن تقطع رأسه على أيديهم. وتم أخذ مدينة أنطاكية فى الثالث من يونيو، وكان حصارها قد بدأ قبل أحد عشر يوما من شهر نوفمبر..

« فى الوقت نفسه ، بينما كان رجالنا مشغولين بإحصاء وتصنيف غنائمهم، التى غنموها

---

(١) يقصد «ياغى سيان» حاكم أنطاكية.

من حصار القلعة العليا، وبينما كانوا يستمعون إلى البنات الوثنيات الراقصات، وهم يحتفلون احتفالاً فخمًا ورائعًا ، وقد نسوا الرب الذى منحهم هذه البركة الكبرى ، وفرض عليهم العدو حصاراً بعد ثلاثة أيام من أخذ المدينة فى شهر يونيو نفسه. وهكذا حدث أن أولئك الذين حاصروا الأتراك برحمة الرب طويلاً فى أنطاكية، صاروا بتدبير الرب محاصرين الآن بقوات الأتراك . ولكى يزيد خوفنا كان الحصن العلوى، وهو بمثابة قلعة ، بأيدى أعدائنا . ومن ثم، تخلى رجالنا تحت وطأة الخوف عن حصار الحصن.

« وعلى أية حال، فإن كربوقا ، سيد الأتراك، كان يتوقع أن تدور المعركة هناك، فضرب خيامه على مسافة حوالى ميلين من المدينة، ورتب صفوفه ثم تقدم حتى جسر المدينة. وكان رجالنا قد دعموا حصن الكونت فى اليوم الأول، خوفا من أن يستولى عليه الأعداء الموجودون بالقلعة إذا ما خرجوا للمعركة ، أو إذا هجروا الحصن القائم قبالة الجسر واستولى عليه العدو، مما قد يتيح للعدو الفرصة ليقطع علينا خط الرجعة ويسد أى منفذ لخروجنا.

« وكان فى الجيش فارس مشهور جداً وعزيز على الجميع هو روجر البارنفيللى، وقد تم أسره أثناء مطاردته لجيش العدو المتقهقر وقطعت رأسه . وقد خيم الحزن والخوف على رجالنا لدرجة أن الكثيرين منهم لجأوا إلى الهرب أملا فى الحياة. ومن ثم فعندما أجبر الأتراك على التقهقر أثناء القتال مرة بعد أخرى، فرضوا حصارهم على الحصن فى اليوم الثالث، واستؤنف القتال بضراوة وعنف بحيث لم يكن ممكنا الدفاع عن الحصن وصد هجمات الأعداء سوى بقوة الرب وحده. ذلك أنه عندما كان الأتراك قد استعدوا بالفعل لعبور الخندق المليء بالماء حول الحصن وتدمير الأسوار، تملكهم الرعب، ولا أدرى لماذا، وفروا هاربين لا يلوون على شيء. وحينئذ، وعندما أدركوا أنه ليس هناك سبب لهربهم عادوا يفرضون الحصار بعد أن جروا مسافة قصيرة [1] ، وهم يلومون أنفسهم لتخاذلهم ؛ وشنوا هجوما عاتيا كما لو كانوا يريدون تعويض هروبهم، ولكنهم فروا مرة أخرى خوفا من قوة الرب. وبعد ذلك عاد الأعداء إلى معسكرهم فى ذلك اليوم. وفى اليوم التالى، عادوا إلى الحصن ومعهم أعداد كبيرة من آلات الحصار، ولكن رجالنا أضرموا النيران فى الحصن وقذفوا بأنفسهم داخل أسوار المدينة وهكذا، عندما تصاعد خوف الفرنج، تصاعدت جسارة العدو وجرأته؛ حقا لم يعد لنشئ خارج المدينة، كما استولى الأعداء على الحصن الذي كان بمثابة رأس المدينة. وعلى أية حال، فإن

---

(١) كانت هذه إحدى وسائل الأتراك السلاجقة وخدعهم العسكرية، فقد تظاهروا بالفرار حتى تطاردهم قوات الصليبيين وبذلك يسهل استدراجهم خارج الحصن.

رجالنا الذين عولوا على موقعهم الجيد الحصين، حاربوا ضد العدو وردوه على أعقابه فى الهجوم الأول؛ ولكنه نسوا خطر المعركة وفكروا فقط فى الغنائم والأسلاب مما جعلهم يلوذون بالفرار عندما هاجمهم العدو مرة أخرى. ذلك أن أكثر من مائة رجل اختنقوا من الزحام فى بوابة المدينة، ونفقت خيول كثيرة. وعندئذ حاول الأتراك الذين دخلوا الحصن أن ينزلوا إلى المدينة. لأن الوادى الذى كان يفصل بين رجالنا والحصن لم يكن كبيراً، كما كان فى منتصفه خزان مياه وأرض مستوية صغيرة المساحة. ولم يكن أمام العدو من طريق إلى المدينة سوى من خلال الجبل الذى نسيطر عليه، وهناك حاولوا جاهدين وناضلوا بكل قوتهم لكى يطردونا ويزيحونا من الطريق. ودارت معركة ضارية من الصباح حتى المساء بشكل لم يسبق له مثيل. وحلت بنا مصيبة مخيفة لا مثيل لها، ذلك أنه فى وسط الوابل المنهمر من السهام والحجارة، والقذائف المتواصلة من المنجنيقات ، وموت عدد كبير للغاية، فقد رجالنا وعيهم. وإذا سألت عن نهاية هذا القتال، أقول لك إنه انتهى فى الليل...

« وهكذا ، كما قلنا ، عندما انتاب الذعر رجالنا، وبينما كانوا على حافة اليأس، شملتهم الرحمة السماوية، هذه الرحمة التى ردت أطفال الرب إلى الصواب بعد أن ضلوا، هى التى واستهم بعد أن غشيهم الحزن، على النحو التالى. فعندما تم الإستيلاء على مدينة أنطاكية، استخدم الرب قوته ورحمته واختار، فلاحاً فقيرا، من البروفنسال، ليواسينا من خلاله ، وأرسل الفلاح هذه الكلمات إلى الكونت وإلى أسقف لوبوى:

« إن اندرو حوارى الرب وسيدنا يسوع المسيح زارنى حديثا للمرة الرابعة وأمرنى أن آتى إليك وأن أعيد إليك الحربة التى شقت جنب المخلص ، بعد أن يتم الإستيلاء على مدينة أنطاكية. وفضلاً عن ذلك ، فعندما خرجت من المدينة اليوم مع الآخرين لخوض المعركة، وعندما كدت أن أختنق عندما حصرنى فارسان فيما بينهما، جلست حزينا على صخرة، وكدت أفقد حياتى. وعندما كنت اترنح مثل إمرأة ثكلى من الخوف والحزن، جاءنى القديس أندرو مع رفيق له، وهددنى كثيرا إذا لم أعد الحربة لك بسرعة ».

« وعندما سأله الكونت والأسقف أن يحكى بالتفصيل قصة الحلم والأمر الرسولى، أجاب : «عند الزلزال الأول الذى حدث فى أنطاكية عندما كان جيش الفرنج يفرض حصاره عليها، داهمنى خوف شديد لدرجة أننى لم أقو على شىء سوى القول «فليساعدنى الرب» . ذلك أن الوقت كان ليلا وكنت أرقد مسترخيا، ولم يكن فى كوخى أحد يؤازرنى بوجوده، وعندما

استمر اهتزاز الأرض وقتًا طويلاً وازداد خوفى عن ذى قبل، وجدت رجلين يقفان أمامى فى أنصع هيئة. كان أحدهما أكبر سنا ، وشعره أحمر وأبيض، وعيناه سوداوتان، ووجهه ينطق بالرحمة، كما كانت لحيته بيضاء عريضة وكثيفة ، وكان متوسط القامة ، على حين كان الآخر أصغر سنا وأطول قامة ، ووسيما فى هيئة لا يدانيها بنو الإنسان . قال أكبرهما لى: «ماذا تفعل» ؟ وغشينى خوف عظيم لأننى كنت أعرف أنه لا يوجد أحد، وأجبت «من أنت؟» فأجابنى : «قم ، ولا تخف ، وافهم ما أقوله لك. إننى أندرو الحوارى، اجمع أسقف لوبوى وكونت سان جيل وبطرس ريمون الهوبتولى، وقل لهم هذه الكلمات : «لماذا أهمل الأسقف التبشير والوعظ كما أهمل أن يقسم قومه يوميا بالصليب الذى يحمله أمامهم ، ما دام ذلك سيعود عليهم بالخير الكثير ؟» وأضاف « تعال وسوف أريك حربة أبينا يسوع المسيح، وهى التى سوف تعطيها للكونت . لأن الرب أعطاها له منذ يوم مولده».

« ونهضت ، وتبعته إلى داخل المدينة، ولم أكن أرتدى شيئا سوى القميص . وقادنى إلى داخل كنيسة القديس بطرس الرسول عبر البوابة الشمالية، والتى كان المسلمون قد شيدوا مسجدا فى مواجهتها . وفى الكنيسة كان هناك مصباحان، وكان يغمران المكان بالضوء كما لو كانت الشمس هى التى تضيئه. وقال لى : «انتظر هنا » ، وأمرنى أن أجلس على عمود، كان هو الأقرب للدرج التى يصعد بها المرء إلى المذبح من ناحية الجنوب؛ ولكن رفيقه وقف على بعد مسافة من درج المذبح. ثم نزل القديس اندرو تحت الأرض واحضر الحربة وأعطانيها فى يدى،

« وقال لى : تأمل الحربة التى اخترقت جنب المسيح حيث خرج خلاص العالم بأسره ». وبينما كنت أمسك بها فى يدى ، وأنا أبكى فرحًا ، قلت له «سيدى ، إذا شئت ، فإننى سآخذها وأعطيها للكونت ». وقال لى : «ليس الآن ، لأنه سيحدث أن تسقط المدينة. وعندها تعال ومعك اثنا عشر رجلاً وابحثوا عنها هنا حيث أخرجتها وحيث أخبئها الآن» وخبأها.

« وبعد أن جرت هذه الأمور على هذا النحو ، عاد بى عبر الأسوار إلى منزلى؛ وهكذا تركنى الإثنان . وحينئذ فكرت فى فقرى وعظمتكما ، وخفت أن أقترب منكما. وبعد هذا، حينما خرجت سعيا وراء الطعام فى أحد الحصون بالقرب من الرها ، فى أول أيام الصيام ، عندما لاح الفجر، تجلى لى القديس أندرو فى نفس الهيئة ومع نفس الرفيق الذى كان قد جاء معه من قبل، وغمر المنزل ضوء عظيم ، وقال القديس أندرو : «هل أنت مستيقظ ؟».

« وهكذا أفقت ، وأجبته « لا يا سيدى ، لست نائما » . وقال لى « هل أخبرت بهذه الأمور التى أمرتك منذ فترة طويلة أن تخبر الناس بها ؟ » وأجبته «سيدى ألم أتوسل إليك أن ترسل أحداً غيرى إليهم ، لأننى ترددت فى لقائهم خوفا من فقرى؟» . وقال « ألا تعرف لماذا قادك الرب إلى هنا، وكم يحبك ، ولماذا اختارك أنت بالذات ؟ لقد جعلكم تأتون إلى هنا لكى تنتقموا ممن يحتقرونه ولكى تثأروا لشعبه . وهو يحبكم حبا شديداً ، لدرجة أن القديسين الذين يعرفون سلفًا ترتيبات الرحمة الإلهية ، ودوا لو أنهم كانوا بشراً يناضلون معكم. لقد اختاركم الرب من بين جميع الشعوب، كما تجمع حبات الغلال من بين الشوفان. ذلك أنكم تمتازون فى رضاء الرب عنكم، وتتفوقون على كل من يجيئون قبلكم، أو بعدكم، تماما مثلما يمتاز الذهب على الفضة من حيث القيمة» .

« وبعد هذا انسحبا ، وانتابنى المرض لدرجة أننى كنت على وشك أن أفقد نور عينى، وكنت أرتب للتخلص من كل ما أملك. ثم بدأت أتأمل هذه الأمور التى جرت لى بسبب إهمالى للأمر الرسولى. وهكذا، رجعت إلى الحصار بعد أن استرحت . وفكرت ثانية فى فقرى، وبدأت أخشى أننى إذا ذهبت إليكم ، فإنكم ستقولون إننى كنت عبدا وأننى أحكى هذه القصة لكى أحصل على الطعام؛ ومن ثم سكت ولم أبح بشىء. وهكذا بمرور الوقت، وعندما كنت راقداً فى ميناء القديس سمعان فى يوم أحد السعف فى الخيمة مع سيدى ، وليم بطرس ، تجلى لى القديس أندرو مع رفيق له . وكان يرفل فى ثيابه التى جاء بها من قبل ، وكلمنى على النحو التالى : « لماذا لم تخبر الكونت والأسقف والآخرين بما أمرتك ؟ ».

« وأجبته «سيدى ألم أتوسل إليك أن ترسل أحد غيرى يكون أكثر حكمة ويمكن أن يسمعوا له؟ فضلا عن أن الأتراك يترصدوننا فى كل مكان ويقتلون من يخرج أو يدخل». وقال القديس أندرو « لا تخف فإنهم لن يؤذوك. وقل أيضًا للكونت ألا يخوض فى نهر الأردن حين يأتى إلى هناك، ولكن أعبر النهر فى قارب ؛ وبعد أن يعبر يجب أن يكون مرتديا قميصا من الكتان وسروالاً قصيراً ، وبعد ذلك ينبغى أن يرش بماء النهر. وبعد أن تجف ثيابه ، يخلعها ويحفظها مع حربة الرب » . وقد سمع سيدى وليم بطرس هذا ، على الرغم من أنه لم ير الحوارى.

« وعندما استرحت على هذا النحو ، رجعت إلى الجيش . وعندما أردت أن أخبركم بهذا، لم أستطع أن ألقاكما سويا . وهكذا مضيت نحو ميناء المصيصة . وهناك عندما كنت على وشك الإبحار إلى جزيرة قبرص بحثا عن الطعام ، هددنى القديس أندرو بالويل والثبور إذا لم

أرجع بسرعة وأخبركم بما كان قد أمرني به. وعندما فكرت فى كيفية الرجوع إلى المعسكر، لأن ذلك الميناء كان على بعد ثلاثة أيام من المعسكر ، بدأت أبكى بمرارة بالغة ، لأننى لم أجد وسيلة للرجوع . وأخيراً ، وبخنى سيدى ورفاقى فدخلنا السفينة وبدأ نجذف قاصدين قبرص، وعلى الرغم من أن السفينة مضت طوال اليوم بفعل الريح المواتية والتجذيف حتى الغروب، هبت عاصفة مفاجئة ، وفى غضون ساعة أو ساعتين عدنا إلى الميناء الذى كنا قد تركناه. وهكذا، بعد أن عجزنا عن العبور مرتين وثلاث مرات ، رجعنا إلى الجزيرة فى ميناء القديس سمعان. وهناك سقطت فريسة لمرض خطير. وعلى أية حال، فعندما تم الإستيلاء على المدينة، جئت إليكم . والآن ، إذا كان ذلك يسركم ، أرجو اختبار ما أقول ».

« وظن الأسقف أن هذا مجرد لغو فارغ؛ ولكن الكونت صدقه وسلم الرجل الذى قال هذا إلى قسيسه الخاص ريمون ليتولى حراسته .

« وتجلى سيدنا يسوع المسيح فى ذات الليلة التالية لقسيس يدعى ستيفن، كان يبكى خشية موته هو ورفاقه فى ذلك المكان . ذلك أن بعض الذين نزلوا من الحصن زرعوا الرعب فى قلبه، وقالوا إن الأتراك قد بدأوا فعلا فى النزول من الجبل إلى المدينة ، وأن رجالنا يفرون هاربين بعد أن نالتهم الهزيمة . ولهذا السبب فإن القسيس ، الذى أراد أن يشهد الرب على موته ، ذهب إلى الكنيسة المكرسة لمريم المباركة فى ثياب الإعتراف ، وبعد أن نال العفو، بدأ فى إنشاد المزامير مع بعض رفاقه . وبينما كان الباقون يغطون فى النوم ، وبينما جلس هو وحيداً للمراقبة ، بعد أن قال : «ربى من هذا الذى سيسكن فى معبدك ، ومن ذا الذى سوف يستقر عند التل المقدس بك ؟ » كان ثمة رجل يقف تجاهه ، يفوق جماله الآخرين جميعا ، وقال له : «أيها الرجل، من هم القوم الذين دخلوا المدينة ؟ » وأجاب القسيس : «إنهم المسيحيون» فسأله « مسيحيون من أى نوع » .

« إنهم مسيحيون يؤمنون بأن المسيح ولد من العذراء وعانى على الصليب ، ومات ودفن ، وأنه قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء » . وقال ذلك الرجل « إذا كانوا مسيحيين ، فلماذا يخافون كثرة الوثنيين؟ » وأضاف « ألا تعرفنى ؟ » . وأجاب القسيس « إننى لا أعرفك، لكنى أرى أنك أجمل من الجميع » . وقال الرجل « أنظر إلى جيداً » . وعندما تفحصه القسيس عن قرب رأى صليبا أكثر تألقا من الشمس خلف رأسه . وقال القسيس للرجل الذى كان يسأله «سيدى، إننا نقول إن صور المسيح هى التى تأخذ هذا الشكل الذى تتمثل أنت فيه » .

وقال له السيد : «لقد أحسنت القول ، لأنى أنا هو . أليس مكتوبا أننى أنا الرب ، قوى وعظيم فى المعركة ؟ ومن هو السيد فى جيشى؟ » فأجاب القسيس « سيدى ليس فى الجيش سوى سيد واحد لأنهم يثقون فى الأسقف».

« وقال السيد «قل هذا للأسقف ، قل له إن هؤلاء القوم قد أبعدونى عنهم بفعالهم الشريرة، ثم دعه يخاطبهم كما يلى « الرب يقول : إرجعوا لى حتى أرجع إليكم» ، وعندما يدخلون المعركة فليقولوا : لقد اجتمع أعداؤنا والمجد فى شجاعتهم ؛ فلتدمر قوتهم يا ربنا ، ومزق شملهم حتى يعرفوا أنه ليس هناك من يقاتل من أجلنا سواك يا ربنا » . وقال لهم أيضًا «إذا نفذت ما أمركم به ، على مدى خمسة أيام ، فسوف أشملكم برحمتى».

« وفضلا عن ذلك ، بينما كان يقول هذا ، اقتربت منه إمرأة فائقة الحسن ومشرفة الطلعة، ونظرت إلى الرب وقالت له «سيدى ما الذى تقوله لهذا الرجل؟ » فأجاب السيد : «إننى أسأله عمن يكون هؤلاء الناس الذين دخلوا المدينة » وحينئذ أجابت السيدة «ياسيدى هؤلاء هم الناس الذين من أجلهم توسلت إليك كثيراً».

« وعندما هز القسيس رفيقه الذى كان نائمًا بالقرب منه ، حتى يكون شاهدا على هذه الرؤيا كانا قد اختفيا عن ناظريه .

« وعلى أية حال، فعندما جاء الصبح تسلق القسيس التل المواجه لقلعة الأتراك، حيث كان أمراؤنا جميعًا هناك فيما عدا الدوق ، الذى كان يتولى حراسة قلعة على التل الشمالى. وهكذا، بعد أن اجتمعوا حوله، أخبرهم بهذه القصة ، ولكى يظهر أنها قصة حقيقية أقسم على الصليب. وفضلاً عن ذلك، أراد أن يرضى المتشككين ، فأعلن استعداده للمرور خلال النار، أو القفز من فوق قمة البرج . وحينذاك أقسم الأمراء أنهم لن يفروا من أنطاكية أو يخرجوا منها، سوى بموافقة من الجميع ؛ لأن الناس فى ذلك الوقت كانوا يظنون أن الأمراء يريدون الفرار إلى القلعة . وهكذا استراح كثيرون ، بعد أن كان عدد الذين ثبتوا على إيمانهم ولم يفكروا فى الهرب قلة . قليلة فى الليلة الماضية . ولو لم يكن بوهيموند والأسقف قد أغلقا أبواب المدينة ، لما بقى سوى عدد قليل . ومع هذا ، فإن وليم الجراند منسلى قد هرب، وكذلك فعل أخوه ، وكثيرون أخرون من القساوسة ومن العلمانيين على السواء . وكثيرون ممن فروا من المدينة فى ظروف بالغة الخطورة، لاقوا أشد أخطار الموت هولاً على أيدى الأتراك".

« وفى هذا الوقت تجلت لنا أشياء كثيرة من خلال إخواننا ، كما شاهدنا علامة إعجازية فى السماء . ذلك أنه كان هناك نجم كبير جداً يتلألأ فى السماء فوق المدينة طوال الليل، ثم إنقسم بعد وقت قصير إلى ثلاثة أجزاء وسقط فى معسكر الأتراك .

« وإذ هدأت نفوس رجالنا وسكنت إلى حد ما ، قبعوا ينتظرون اليوم الخامس الذى ذكره القسيس. وفى ذلك اليوم، وبعد أن تمت الاستعدادات اللازمة ، تم إخراج الجميع من الكنيسة، ثم بدأ اثنا عشر رجلاً ، ومعهم الرجل الذى تحدث عن الحربة، أعمال الحفر. وكان أسقف أورانج، وريمون قسيس الكونت الخاص وكاتب هذه السطور ، ضمن أولئك الرجال، كما كان هناك الكونت نفسه، وبونتيوس البلازونى، وفيرالوس الثوارسى. وبعد أن حفرنا من الصباح حتى المساء بدأ البعض ييأسون من العثور على الحربة. وانصرف الكونت، لانشغاله بحراسة القلعة، بيد أننا جئنا بآخرين بدلاً منه وبدلاً ممن أرهقهم الحفر. وكان هؤلاء نشيطين بحيث واصلوا العمل بهمة. أما الشاب الذى كان قد تحدث عن الحربة، فإنه حين رآنا منهكين ، تجرد من ثيابه وخلع نعليه، ونزل فى الحفر وتوسل إلينا لكى نصلى للرب حتى يمنحنا حربته من أجل تحقيق الراحة والنصر لشعبه. وأخيراً قرر الرب برحمته أن يظهر لنا الحربة. وأنا ، كاتب هذه السطور قمت بتقبيل الحربة عندما لاح طرفها من تحت التراب . ولست بقادر على وصف الفرح والسرور اللذين غشيا المدينة آنذاك. وقد تم اكتشاف الحربة فى اليوم الثامن عشر قبل شهر يوليو.

« وفى الليلة الثانية، تجلى القديس أندرو للشاب الذى كان الواسطة التى منحنا بها الحربة، وقال له : «تأمل ، إن الرب أعطى الكونت ما لم يشأ أن يعطيه لأحد أبداً ، وجعله حاملاً لراية جيشه طالما بقى حبه للرب.

« وكما قلنا ، عندما هزم رجالنا، وتخلت عنهم شجاعتهم ، وصاروا فى مأزق، ظهرت النجدة الإلهية. وعلمنا أندرو المبارك من خلال الشاب الذى تحدث عن الحربة كيف ينبغى أن نوجه أنفسنا قبل المعركة وأثناءها :-

« لقد هاجمتم جميعا بقوة ، وقد هزمتم هزيمة نكراء. وصرختم تستنجدون بالرب ، وسمعكم الرب. والآن ليتجه كل منكم إلى الرب بسبب خطاياه ، وعلى كل منكم أن يقدم خمس صدقات بسبب الجروح الخمسة فى جسد الرب . وإذا لم يكن قادراً على هذا، فليصل الصلاة الربانية (أبانا الذى فى السماء) خمس مرات . وإذا ما تم هذا، ابدأوا المعركة باسم الرب

سواء فى الليل أو فى النهار ، وفقا لتقدير الأمراء لما هو أفضل ، لأن يد الرب ستكون معكم. وإذا كان هناك من يشك فى النصر، افتحوا له البوابات ، ودعوه يذهب إلى الأتراك، وسوف يرى كيف سينقذه إله الأتراك. كما أن من يرفض القتال، سيقرن بيهوذا الذى خان الرب، والذى تخلى عن الحواريين وباع سيده إلى اليهود. وليحاربوا من أجل القديس بطرس وفى ذهنهم أن الرب وعده بأن يقوم ويتجلى له فى اليوم الثالث ، ولأن هذه هى أرض القديس وليست أرض الوثنيين. ولتكن صيحتكم فى الحرب «ليساعدنا الرب» وسوف يساعدكم الرب حقًا. وكل إخوانكم الذين ماتوا منذ بداية الحملة حاضرون معكم فى هذه الحرب، وما عليكم إلا أن تداهموا القسم العاشر من العدو، لأنهم سوف يهاجمون تسعة أقسام بقوة الرب وبأمره. ولا تنهوا المعركة أو تكفوا عن القتال، لأنكم إذا فعلتم، فإن الرب سيقود لكم أعداء كثيرين من الجانب الآخر مثل أعدائكم فى هذا الجانب ، وسوف يجعلكم محصورين هنا حتى تلتهموا بعضكم بعضًا. ولكن إعلموا علم اليقين أن الأيام التى وعد الرب بها مريم المباركة والحواريين فى متناولنا، إذ قال الرب إنه سوف يقيم مملكة المسيحيين بعد تدمير مملكة الوثنيين وتمريغها فى التراب، لا تتحولوا صوب خيامهم بحثًا عن الذهب أو الفضة.

« وعندئذ، تجلت قوة الرب ، ذلك أن الرب الذى أمر بإبلاغنا هذه الكلمات عن طريق حواريه وتلميذه أراح قلوبنا جميعا لدرجة أن كل امرئ بلغ من إيمانه وأمله أنه بينه وبين نفسه كان كمن انتصر على الأعداء بالفعل . وكانوا يحثون بعضهم بعضا ، واستعادوا شجاعتهم للقتال. كما أن الجموع التى كانت تبدو فى الماضى فريسة للخوف والحاجة، اقتربت آنذاك من الأمراء لتشكو لهم تأخير المعركة ، وعلى كل حال، فعندما تم تحديد يوم المعركة ، أرسل أمراؤنا رسالة مع بطرس الناسك إلى كربوقا قائد الأتراك ، لكى يرفع الحصار عن المدينة ، لأنها كانت من أملاك القديس بطرس والمسيحيين. ولكن القائد المغرور أجابهم بأنه سوف يحكم المدينة والفرنج سواء بالحق أو بالباطل . وأرغم بطرس الناسك على أن يركع له ، بعد أن كان يرفض الإنحناء.

« وثار سؤال فى ذلك الوقت عمن يجب أن يتولى حراسة المدينة ضد أولئك الذين داخل القلعة ، على حين يذهب الآخرون إلى القتال. وبنوا حائطًا حجريًا ومنصات على التل المواجه للعدو؛ ودعموها بصخور كثيرة، وأخيراً تركوا الكونت ريمون الذى كان يعانى من مرض قاتل وتركوا معه مائتين من الرجال.

« وحان يوم القتال. وفى الصباح ، أسلم الجميع أنفسهم للرب ، وللموت إذا كانت هذه هى إرادته ، أو لمجد الكنيسة الرومانية وجنس الفرنج . كما أنهم اتفقوا بشأن المعركة على ما يلى: تشكيل خطى قتال مزدوجين من جنود الكونت والأسقف ، بحيث يذهب الجنود المشاة قبل الفرسان ويقفون فى انتظار أوامر الأمراء ؛ وكان على الفرسان أن يتبعوهم ويتولوا حراسة مؤخرتهم . وتم اتخاذ ترتيبات مماثلة مع جنود بوهيموند وتنكرد ، وكذلك جنود كونت نورماندى والفرنج ، وهو ما حدث أيضًا مع جنود الكونت والبرجنديين. وفضلا عن ذلك سار ضاربوا الطبول فى المدينة يصيحون بأنه يجب على كل رجل أن يبقى مع أمراء قومه. كذلك صدرت الأوامر، بأن يكون هيو الكبير ، وكونت الفلاندرز، وكونت نورماندى أول من يتقدمون للمعركة ، ثم يليهم الدوق ، ومن بعده الأسقف ثم بوهيموند بعد الأسقف. واجتمعوا ، كل تحت رايته ومع بنى جنسه ، داخل المدينة أمام بوابة الجسر.

« كم هو مبارك شعب الرب ، وكم هو مبارك الشعب الذى اختاره الرب وكم كان وجهه ثابتًا! وكيف تبدل الجيش من الحزن إلى التحفز والشغف! فالواقع أنه خلال الأيام الماضية كان الأمراء والنبلاء يجوبون شوارع المدينة يطلبون مساعدة الرب فى الكنائس، وكان عامة الناس يسيرون حفاة الأقدام يبكون ويضربون صدورهم. وكان الحزن قد تملكهم لدرجة أن الأب لم يكن يحيى الأبن، ولم يكن الأخ يوجه تحيته إلى أخيه، عندما يقابل كل منهما الآخر، كما أن أحداً لم يكن يلتفت وراءه. ولكنك الآن تستطيع أن تراهم مثل الجياد السريعة ، يجلجلون بأسلحتهم، ويلوحون بحرابهم ، ولم يستطيعوا إخفاء بسعادتهم قولاً وفعلاً . ولكن لماذا أحزن لهذه الأمور الكثيرة ؟ لقد منحوا القوة على الإنطلاق ، وتم انجاز ما اتفق عليه الأمراء فى نظام.

« وفى الوقت نفسه ، كان كربوقا قائد الترك يلعب الشطرنج فى خيمته. وعند تلقى الرسالة التى تخبره أن الفرنج زاحفون للقتال، اضطرب لأن ذلك كان بعيداً عن توقعاته، واستدعى واحداً من الأتراك كان قد فر من انطاكية ، واسمه ميردالين، وهو شخص نبيل نعرفه لشجاعته وقوته الحربية . وقال له « ما هذا ؟ ألم تخبرنى أن الفرنج عددهم قليل وأنهم لن يحاربونا؟ » وأجابه ميردالين «إننى لم أقل إنهم لن يحاربوا ، ولكن تعال وسوف أخبرك إذا كنت تستطيع أن تتغلب عليهم بسهولة ».

« وفى ذلك الوقت كان الصف الثالث من رجالنا يتقدمون . وعندما رأى كيفية ترتيب

الصفوف قال ميرالدين لكربوقا « يمكن قتل هؤلاء الرجال ، ولكن لا يمكن إجبارهم على الهرب» وعندئذ قال كربوقا : «ألا يمكن أن نجبر أحداً منهم على التقهقر إطلاقاً ؟ » ، وأجاب ميرالدين « إنهم لن يتزحزحوا خطوة واحدة ، حتى لو هاجمهم كل الوثنيين» [١].

« وحينئذ قام بجمع صفوفه ضدنا على الرغم من اضطرابه . ذلك أنهم عندما كانوا يستطيعون منعنا من الخروج فى البداية تركونا نخرج فى سلام. وعلى أية حال، فإن رجالنا، توجهوا بصفوفهم صوب الجبال خوفًا من أن يحيط بهم الأتراك من المؤخرة. وكانت الجبال على مسيرة ميلين من الجسر . وكنا نسير فى تشكيل مفتوح لأن القساوسة أرادوا السير فى مسيرة دينية بالتراتيل. وبالفعل سرنا فى مسيرة دينية. لأن القساوسة والرهبان الكثيرين، الذين كانوا يرتدون المسوح البيضاء ، تقدموا صفوف فرساننا ، وهم ينشدون ويطلبون مساعدة الرب وبركة القديسين. وعلى العكس من ذلك اندفع العدو ضدنا وأطلق السهام. وكان كربوقا مستعداً آنذاك لأن يفعل ما كان قد رفضه منذ وقت قصير ، فقد أرسل رسالة شفوية إلى امرائنا يقترح أن يقوم خمسة أو عشرة من الأتراك بقتال عدد مماثل من الفرنج، وعلى الذين يهزم فرسانهم أن يستسلموا للآخرين. وقد أجاب أمراؤنا على هذه الرسالة «لقد رفضت حين كنا نريد هذا ؛ والآن وقد زحفنا للقتال ، فليقاتل كل عن حقه ».

« وعندما قمنا باحتلال السهل كله ، كما قلنا ، ظل جزء من الأتراك خلفنا وهاجموا بعض جنودنا المشاة . ولكن أولئك المشاة ، تمكنوا من صد الهجمة المعادية ببسالة وقوة. وعندما لم يتمكن الترك من دفعهم ، أشعلوا النيران حولهم ، حتى يتملك الرعب والخوف من النيران أولئك الذين لم يخشوا السيف. وهكذا أجبروهم على الهرب لأن هذا المكان كان به كميات كبيرة من التبن الجاف.

« وعندما تقدمت الصفوف ، وقف القساوسة حفاة الأقدام فى مسوحهم الكهنوتى، فى أسوار المدينة يطلبون من الرب الدفاع عن شعبه ، وأن يقدم شهادة قدسها بدمه، من خلال انتصار الفرنج . وفضلاً عن ذلك ، وبينما كنا نتقدم من الجسر حتى الجبل ، جابهتنا صعوبة كبيرة بسبب رغبة العدو فى الإحاطة بنا. وفى خضم هذا ، انقضت صفوف العدو علينا نحن

---

(١) واضح من صياغة هذا الحوار أنه لم يكن له وجود سوى فى عقل القسيس الكاثوليكى ريمون الذى كتب هذه الرواية، وهى طريقة كانت مألوفة فى صياغة المؤلفات التاريخية آنذاك؛ إذ كان المؤرخ يجعل الشخصيات التاريخية تنطق بأفكاره وآرائه هو ، حتى فى هذه الصورة غير المنطقية.

الذين كنا فى فيلق الأسقف، وعلى الرغم من أن قواتهم كانت أكبر من قواتنا ، فإنهم لم يجرحوا أحداً بفضل حماية الحربة المقدسة التى كانت معنا، كما أنهم لم يصيبوا أحداً منا بسهامهم. وكنت أتأمل هذه الأمور التى أتحدث عنها وأنا أحمل حربة السيد. وإذا قال أحد إن الفيسكونت هيراكليوس، حامل راية الأسقف ، قد جرح فى المعركة ، فليعلم أنه كان قد سلم رايته لغيره وسقط خلف خطوطنا وعلى بعد مسافة منا.

« وعندما تكامل خروج جميع مقاتلينا من المدينة ، ظهرت بيننا خمسة صفوف أخرى. لأن أمراءنا كانوا قد شكلوا ثمانية صفوف فقط، كما ذكرنا ، ولكننا صرنا ثلاثة عشر صفا خارج المدينة . وفى بداية المسير خارج المدينة للقتال أرسل الرب على كل جيشه رذاذاً مقدساً، كان صغيراً ولكنه مُفعم بالبركة. وكل الذين مسهم هذا الرذاذ امتلأوا بالنعمة الإلهية والصبر والجلد، وتقدموا وهم يحتقرون العدو كما لو كانوا دائماً ينعمون بأطايب حياة الملوك. ولم يكن تأثير هذه المعجزة أقل قدراً على خيولنا ، ذلك أن أحدا لم تفشل خيوله حتى انتهى القتال على الرغم من أن هذه الخيول لم تكن قد تذوقت شيئاً سوى العشب أو أوراق الأشجار على مدى ثمانية أيام. وقد أكثر الرب من عدد جيشنا لدرجة أننا كنا نبدو أقل عدداً من العدو قبل المعركة، ولكننا أثناء المعركة صرنا نفوقهم عدداً . وعندما تقدم رجالنا على هذا النحو واتخذوا التشكيل القتالى لاذ العدو بالفرار دون أن يعطينا فرصة الالتحام فى القتال. وطاردهم رجالنا حتى الغروب وهناك تجلت معجزات الرب سواء من خلال الرجال أو من خلال الخيول، ذلك أن الرجال لم يكونوا يتركون المعركة بدافع الجشع والطمع، كما أن خيول الأحمال (الجنائب) التى قادها أصحابها إلى ميدان المعركة، كانت تتابع خيول الأتراك الفائقة السرعة فى سهولة ويسر، وبعد أن نالت حظاً قليلاً من الطعام.

« ولكن الرب لم يشأ لنا أن نحرز هذا الفرح فقط ، لأن الأتراك الذين كانوا يحرسون القلعة استسلموا لليأس عندما رأوا فرار قومهم. وسلم بعضهم أنفسهم إلينا مقابل النجاة بأرواحهم فقط، على حين لاذ البعض الآخر بالفرار. وعلى الرغم من أن هذه المعركة كانت مرعبة ومخيفة، فإن عدد الذين سقطوا من فرسان العدو كانوا قليلين، ولكن الذين نجوا من جنودهم المشاة كانوا قلة قليلة . وفضلاً عن ذلك ، تم الاستيلاء على جميع خيام العدو، وتم الإستيلاء على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، وكميات هائلة من الغلال والماشية والجمال التى تفوق الحصر...».

٣ ـ رواية فوشيه الشارترى (*)

« وعندما شاء الرب، الذى استجاب لصلوات شعبه ، أن ينهى عمل شعبه الذين كانوا يتوسلون إليه يوميا طالبين العون والمساعدة ، منحهم حبه، بحيث تسلم لهم المدينة سراً بفضل خيانة هؤلاء الأتراك أنفسهم ، وتعود ثانية للمسيحيين. فاستمعوا إلى قصة خيانة ، ومع ذلك فهى ليست خيانة.

« فقد تجلى سيدنا لواحد من الأتراك ، اختاره بنعمته[1] ، وقال له : « انهض أيها النائم، فإننى آمرك أن تعيد المدينة للمسيحيين» . وقد صمت الرجل المندهش عن هذه الرؤيا.

« ومرة أخرى تجلى الرب له وقال « أعد المدينة للمسيحيين، لأننى أنا المسيح حقا آمرك بهذا». وحار الرجل فى أمره ولم يدر ماذا يفعل فذهب إلى سيده أمير أنطاكية وأخبره بنبأ الرؤيا ، فأجابه بقوله : «هل تريد أيها الرجل أن تطيع شبحًا ؟ » فعاد الرجل أدراجه وظل على صمته.

« ثم عاود الرب الظهور له قائلاً : «لماذا لم تفعل ما أمرت به ؟ ليس لك أن تتردد لأننى أنا الذى آمر بهذا سيد الجميع» . وإذ تخلص التركى من شكوكه رتب مؤامرة مع رجالنا بحيث يحصلون على المدينة .

« وعندما تم هذا الاتفاق ، أعطى التركى ابنه رهينة للسيد بوهيموند الذى كان أول من عرف بأمر هذه الخطة وأول من تأثر بها . وفى الليلة الموعودة ساعد التركى عشرين من رجالنا على الصعود فوق الأسوار بواسطة سلم من الحبال. وفى الحال تم فتح البوابة دون تأخير. ودخل الفرنج الذين كانوا متأهبين إلى المدينة. وقام أربعون من جنودنا الذين كانوا قد دخلوا المدينة بذبح ستين تركيا وجدوهم يحرسون الأبراج . ثم صاح الفرنج جميعًا بصوت عال «الرب يريدها » . لأن هذه كانت صيحة الحرب التى كنا نطلقها عندما نكون على وشك إنهاء أى مشروع جيد.

(*) Fulcher, pp. 98 - 107.

(١) يشير الكاتب هنا إلى فيروز ، أو بيروس Pirus، الذى تشير المصادر الصليبية إليه باعتباره من الأتراك السلاجقة ، بينما توضح المصادر العربية أنه كان أرمنيا اعتنق الإسلام بعد أن استولى الأتراك السلاجقة على مدينة انطاكية . واسمه الأرمنى فيروز يعنى «المنتصر» ، وكان من عائلة تشتغل بصناعة السلاح. وهذه الرواية الخيالية تناسب أسلوب فوشيه الذى كان من رجال الكنيسة .

« وعندما سمع الأتراك هذه الصيحة غشيهم خوف شديد. وسرعان ما بدأ الفرنج يهاجمون المدينة، وبدأت أنوار الفجر تلوح فى الأفق . وعندما لاحظ الأتراك راية بوهيموند الحمراء أولاً، تخفق عالية ، وسمعوا الضوضاء التى تشق صمت المكان ، وأصوات طبول الفرنج تدوى فوق أسوار المدينة، على حين أخذ الفرنج يجرون فى شوارع المدينة وسيوفهم مشرعة ويقتلون الناس فى وحشية ، تملكتهم الحيرة وبدأوا يحاولون الهرب هنا وهناك. وهرب أكبر عدد ممكن من الأتراك صوب القلعة التى كانت قائمة على تل مرتفع .

« واستولى رجالنا، بلا تمييز على كل ما وجدوه فى الشوارع والبيوت، ولكن الفرسان الذين كانوا على دراية بأمور الحرب، استمروا فى البحث عن الأتراك وقتلهم.

« أما أمير أنطاكية ، المدعو أو كسيانوس [١]، فقد قطعت رأسه بيد فلاح أرمنى وهو يحاول الهرب، وقد أحضر الفلاح رأسه إلى الفرنج.

« وحدث بعد الاستيلاء على المدينة أن رجلاً وجد حربة فى حفرة فى الأرض تحت كنيسة بطرس المبـارك [٢]. وعندما تم اكتشافها أكد الرجل أنها الحربة نفسها طعن بها لونجينوس الجانب الأيمن للمسيح، كما يقول الكتاب المقدس[٣]. وقـال إن سـان اندرو الحوارى هو الذى كشف له عنها.

« وعندما تم اكتشافها وقام الرجل نفسه بإخبار كونت ريمون وأسقف لوبوى، ظن الأسقف أن القصة زائفة، ولكن الكونت كان يأمل فى أن تكون قصة حقيقية.

« وعندما سمع الناس كلهم بهذا مجدوا الرب وعظموه. وعلى مدى مائة يوم تقريباً كانت الحربة تحظى بتبجيل شديد ويحملها كبير قساوسة الكونت ريمون الذى تولى حراستها. ثم حدث أن كثيرين من القساوسة والعلمانيين ترددوا، وظنوا أن هذه ليست حربة الرب ولكنها حربة أخرى لفقها هذا الرجل المعتوه.

« وبعد صيام وصلوات استمرت ثلاثة أيام أشعلوا النار فى كومة من الأخشاب فى الميدان

---

(١) يقصد «ياغى سيان».

(٢) كان فوشيه فى ذلك الوقت فى الرها ، بيد أن كلماته تكشف عن مدى تشككه فى قصة الحربة المقدسة، وكان فوشيه من المعارضين لمحاولة ريمون كونت سان جيل استغلال قصة الحربة لإحراز مكان الزعامة لنفسه.

(٣) جاء فى إنجيل يوحنا ١٩ : ٣٤ «لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة ، وللوقت خرج دم وماء».

الكائن قبالة مدينة أركاس فى الشهر الثامن بعد الإستيلاء على أنطاكية [١]؛ وقام الأساقفة بمباركة النيران، وجرى مكتشف الحربة بسرعة وسط النيران لكى يبرهن على أمانته، بناء على طلبه، وعندما مر الرجل خلال اللهب ثم خرج وجدوه مذنبًا، لأن جلده احترق وعرفوا أنه قد لحق به ضرر مميت داخل جسده، وقد عرف هذا وشاع لأنه مات فى اليوم الثانى عشر مثقلاً بالذنب الذى جناه.

« ولأن الجميع كانوا يبجلون الحربة حبًا وتكريمًا للرب، فإنه عندما انتهت المحاكمة عن طريق المحنة تملك الحزن والريبة أولئك الذين كانوا يعتقدون فيها من قبل، ومع هذا فإن الكونت ريمون ظل يحتفظ بها بعد ذلك لفترة طويلة.

« وفى اليوم التالى للإستيلاء على أنطاكية، كما حكينا من قبل، فرض جمع غفير من الأتراك الحصار على المدينة. ذلك أنه بمجرد بأن عرف السلطان، الذى هو ملك الفرس، أن الفرنج يحاصرون أنطاكية حتى أمر بجمع عدد كبير من الرجال وأرسل جيشًا ضد الفرنج. وكان قائد هؤلاء الناس هو كربوقا.

« وظل ثلاثة أسابيع قبالة مدينة الرها، التى كان يحكمها آنذاك السيد بلدوين. ولكنه حين فشل فى تحقيق شىء هناك أسرع يحث الخطى صوب أنطاكية لكى ينقذ الأمير أوكسيانوس.

« وعندما رأى الفرنج هذه الأمور خارت شجاعتهم من جديد، وكان ذلك عقابًا مضاعفًا لهم بسبب خطاياهم ، لأنهم حين دخلوا المدينة ارتكب الكثيرون منهم جريمة الزنا.

« وحينئذ دخل المدينة حوالى ستين ألف من الأتراك عن طريق القلعة القائمة على جانب التل المرتفع، وبدأوا يطبقون على رجالنا بهجمات متعددة جسورة. ولكنهم لم يبقوا طويلاً لأن الرعب تملكهم وتركوا المدينة لكى يحاصروها من الخارج. وظل الفرنج محصورين داخل أسوار المدينة تحت وطأة متاعب تفوق الخيال.

« وفى الوقت نفسه ، تجلى الرب لكثيرين من الناس، وهى حقيقة ردوها كثيرًا واستراحوا حين وعدهم أنهم سوف يفرحون بالنصر عما قريب. ثم تجلى الرب لأحد القساوسة وكان هاربا خشية الموت وقال له «إلى أين أنت ذاهب أيها الأخ؟ » فقال « إننى هارب حتى لا أهلك».

---

(١) هذه المحاكمة التى جرت على الطريقة الجرمانية وقعت يوم ٨ أبريل ١٠٩٩م، فى مدينة عرقة على مسافة حوالى ثلاثة عشر ميلاً شمال شرق طرابلس.

وهكذا هرب الكثيرون خشية لهلاك بأنياب الموت المرعب (١).

« وأجاب السيد رداً على القسيس « لا تهرب ، ولكن عد بسرعة وأخبر الآخرين أننى سأكون معهم فى المعركة، لأننى استجبت لصلوات أمى وسأكون رحيما بالفرنج، ولكن لأنهم ارتكبوا الخطايا أوشكوا على الهلاك، وليكن أملهم فىَّ دائمًا ، وسوف أجعلهم ينتصرون على الأتراك، وليتوبوا ويكفروا عن خطاياهم وسوف أنقذهم، لأننى أنا السيد الذى أتحدث إليك» . وعاد القسيس أدراجه وحكى ما سمعه .

فى الوقت نفسه كان كثيرون من الفرنج يودون لو نزلوا من الأسوار ليلاً بالحبال وفروا هاربين، خوفًا من الموت بدافع العوز والحاجة أو بحد السيف، وقد ظهر لواحد من هؤلاء الذين كانوا ينزلون على الأسوار، أخوه الذى كان قد مات بالفعل وقال له « إلى أين تهرب يا أخى؟ أبق ولا تخف لأن الرب سيكون معكم فى نضالكم ، كما أن رفاقكم فى هذه الرحلة والذين سبقوكم فى طريق الموت سيحاربون معكم ضد الأتراك» ، واندهش عندما سمع كلمات الميت فكف عن الهرب وأخبر الآخرين عما سمعه.

« ولأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل مثل هذا الكرب، إذ لم يكن لديهم شىء يأكلونه مما جعلهم هم وخيولهم غاية فى الضعف، وعندما شاء الرب أن ينهى شقاء خدامه ، اتفقوا على صيام ثلاثة أيام مع الصلوات على أمل أن تكون هذه الكفارات والصلوات وسيلة لاسترحام الرب واستعطافه.

« وفى الوقت نفسه وبعد أن تشاور الفرنج أرسلوا إلى الأتراك بطرس الناسك يقولون إنهم إذا لم يخلوا الأراضى التى كانت ملكًا للمسيحيين فيما مضى بهدوء فإن الفرنج سوف يهاجمونهم بكل تأكيد، وإذا قبل الأتراك ستكون المعركة بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة من الفرسان يختارون من كل جانب، حتى لا يموت عدد كبير فى القتال الشامل، والجانب الذى ينتصر رجاله على الآخرين تكون المدينة وحكمها من حقهم دون نزاع.

« كان هذا هو الطلب ، ولكن الأتراك رفضوه . إذ إنهم كانوا واثقين فى أعدادهم الكبيرة وفى قوتهم وظنوا أن بمقدورهم أن يهزمونا ويدمرونا .

---

(١) هذه ترجمة لبيت شعر كتبه فوشيه تعليقا على روايته ، وهو أمر يتكرر بين الحين والآخر فى تاريخه.

« وكان عددهم يقدر بحوالى ثلاثمائة ألف من الفرسان والمشاة . وكانوا يعرفون أن فرساننا يعانون من الضعف، وأن مشاتنا لا حول لهم ولا قوة.

« ثم رجع بطرس مندوبنا ومعه إجاباتهم. وعندما سمعها الفرنج أعدوا أنفسهم للمعركة دون تردد، واضعين أملهم كله فى الرب.

« وكان قادة الأتراك كثيرين ويسمون «الأمراء » (١). وكانوا كورباجات، ومالدوكات (٢)، وأميسليمات (٣)، وكثيرون غيرهم لا مكان لذكرهم.

« أما أمراء الفرنج فكانوا: هيو الكبير، وروبرت كونت نورماندى ، وكونت الفلاندرز، والدوق جودرفرى ، والكونت ريمون، وبوهيموند ، فضلاً عن كثير من النبلاء الأقل رتبة. وليمنح الرب بركته إلى روح أديمار لوبوى، الذى كان هو نفسه رجلاً رسوليًا ، وكان دائمًا يواسى الناس ويقويهم فى الرب بعطفه وحنانه.

« يا لها من احتياطات تفيض بالتقوى ! ففى الليلة السابقة أمر أديمار نفسه بأنه ينبغى على كل فارس فى جيش الرب أن يعطى جواده أكثر قدر ممكن من الغلال المخصصة له، ومهما غلا ثمنها، خوفا من أن ينهار الجواد فى اليوم التالى ساعة المعركة، تحت وطأة الضعف والجوع. وصدر الأمر وتم تنفيذه على هذا النحو.

« وهكذا انطلق جميع من كانوا مستعدين للمعركة خارج المدينة مع تباشير النهار فى اليوم الرابع قبل نهاية شهر يوليو (٤) . وتم تنظيم المشاة والفرسان فى جماعات وفيالق تتقدمها بيارقها وأعلامها. وكان بينهم القساوسة فى مسوحهم البيضاء. وكان هؤلاء يبكون من أجل الشعب كله، ويغنون الرب ويصلون كثيراً من أعماق أرواحهم التقية المتدينة.

« ثم شاهد أمير تركى يدعى أمير داليس ، وهو فارس متميز للغاية، رجالنا يتقدمون ضد الأتراك وراياتهم ترفرف عالية فانتابتهم الدهشة. وعندما رأى بيارق قادتنا وتعرف عليها، تتقدم الواحدة تلو الأخرى فى ترتيب ونظام أدرك أن المعركة قادمة لا محالة عن قريب.

---

(١) هذه هى تسمية فوشيه الشارترى لكربوقا أتابك الموصل والقائد العام للجيش الإسلامى فى معركة أنطاكية.

(٢) شمس الملوك دقاق حاكم دمشق

(٣) الأمير سليمان بن إيلغازى على الأرجح.

(٤) ٢٨ يوليو ١٠٩٨م.

« وكان على دراية بأنطاكية كما كان يعرف الفرنج . فأسرع إلى كربوقا وأخبره بما شاهده، وقال : «لماذا تلعب الشطرنج ؟ إنتبه إن الفرنج قادمون» وأجابه هذا : «هل هم قادمون للقتال ؟ » فأجاب أميرداليس « حتى هذه اللحظة لست أدرى، ولكن انتظر قليلاً » (١).

« وعندما تأكد أمير داليس أن رايات أمرائنا كانت محملة فى المقدمة بطريقة عسكرية، وأن صفوف الجيش قد اصطفت للمعركة بذكاء خلف الرايات عاد مسرعًا إلى كربوقا وقال «انظر إلى الفرنج » فأجابه «ماذا تظن؟ » فقال « أظن أنه ستنشب معركة ، ولكن انتظر قليلاً ، فإننى لا أتعرف على الرايات التى أراها ».

« وحين دقق النظر تعرف على راية أسقف لوبوى تتقدم الفيلق الثالث

لم ينتظر أكثر من ذلك فقال لكربوقا.

انتبه فالفرنج قادمون ، فلا تهرب وقاتل بشجاعة.

لأننى أرى راية البابا الجبار تتقدم صوب الأمام (٢).

« فاليوم قد يتملكك الخوف من أن تهزم على أيدى الذين كنت تظن نفسك قادراً على استئصال شأفتهم».

وقال كربوقا : « سوف أبعث برسالة إلى الفرنج، أوافق على طلبهم الذى طلبوه بالأمس». فقال له أميرداليس «لقد جاء كلامك بعد فوات الأوان». ومع ذلك تقدم كربوقا بطلبه، ولكن طلبه قوبل بالرفض. وفى الحال قام أميرداليس.

وانسحب تاركًا سيده، وامتطى صهوة جواده.

وفكر فى الهرب ، ولكنه بقى يحث كل رفاقه.

على أن يحاربوا ويسرعوا فى قذف سهامهم.

« وافرحتاه ! كان هيو الكبير ، والكونت روبرت النورمانى ، وروبرت كونت الفلاندرز، قادة الصف الأول فى الهجوم . وتبعهم الدوق جودفرى فى الصف الثانى مع الألمان واللوثرنجيين. وبعدهم جاء أسقف لوبوى مع رجال الكونت ريمون والجاكسون والبروفنساليين. وبقى الكونت نفسه فى المدينة لحراستها . وكان بوهيموند يتولى بمهارته حراسة مؤخرة الجيش.

---

(١) على الرغم من أن فوشيه نقل هذا الفصل تقريبًا عن ريمون الأجويلرى، فإنه يحاول صياغته وفقًا لأسلوبه الخاص وكأنه نوع من التأليف الأدبى بغض النظر عن الحقائق التاريخية، لاسيما فيما يتعلق بالحوار بين الأمير التركى وكربوقا.

(٢) هذه واحدة من محاولات فوشيه فى صياغة الأحداث شعراً.

« وعندما رأى الأتراك أن الجيش الفرنجي قد اخترق صفوفهم بهجمة قوية، بدأوا يهاجمون فرادى ويطلقون سهامهم مثلما جرت عادتهم. ولكن الخوف الذى سلطته عليهم السماء غشيهم بحيث ولوا الأدبار هاربين فى فزع كما لو كانت الدنيا بأسرها تطاردهم. وطارد الفرنج الهاربين قدر استطاعتهم.

« ولكن لأن الفرنج كانوا يملكون خيولاً قليلة ضعيفة وجائعة، لم يستطيعوا أن يأسروا عدداً كبيرا من الوثنيين كما كان ينبغى. وعلى أية حال، كانت خيام الأتراك ما تزال باقية فى معسكرهم. وفيها وجد الفرنج أشياء من كل نوع ، مثل الذهب والفضة والحبال والملابس والأوانى، وأشياء أخرى كثيرة كان الأتراك قد تركوها أو رموها أثناء هربهم المذعور من معسكراتهم. وعلى سبيل المثال كان يوجد هناك الخيول والبغال والجمال والحمير والعمائم الفاخرة والأقواس والسهام فى جعابها.

« وهرب كربوقا ، مسرعًا مثل الغزال، بعد أن كان يهاجم الفرنج كثيراً بالكلمات المحمومة والتهديدات . ولكن لماذا هرب، وعنده مثل هذا الجيش الكبير المدعم بالفرسان؟ لأنه جرؤ على أن يحتقر الرب فالرب الذى شاهد أبهة كربوقا من بعيد هو الذى دمر قوته تماماً.

« وأولئك الأتراك الذين كانت خيولهم قوية وسريعة تمكنوا من الهرب. ولكن الضعفاء تركوا للفرنج . وتم أسر كثير من المشاة على نحو خاص . ومن ناحية أخرى ، جرح عدد قليل من رجالنا . أما النساء اللاتى وجدن فى خيام الأتراك فإن الفرنج لم يرتكبوا معهم شراً وإنما أدخلوا حرابهم فى بطونهن.

« ثم مجد الجميع الرب بصوت يتهلل فرحا . فإنه برحمته وعطفه حررهم من أقسى أعدائهم، وعلى الرغم من أنهم كانوا فى كرب وعوز، فإنهم وضعوا ثقتهم فى الرب. وبعظمته بعثر الأتراك مهزومين بعد أن كانوا على وشك إلحاق الهزيمة بالمسيحيين. وعاد رجالنا إلى المدينة يرفلون فى الثراء بفضل الغنائم والأسلاب التى غنموها.

عندما تم الأستيلاء على مدينة أنطاكية القديمة

كانت قد مرت ألف ومائة سنة ، تنقص سنتين،

على ميلاد سيدنا من العذراء،

« ثم مات الأسقف أديمار فى شهر أغسطس ، فلتنعم روحه بالسلام الأبدى. آمين . ثم رحل هيو الكبير إلى القسطنطينية ، بموافقة الأمراء، ومن هناك رحل إلى فرنسا ».

خطاب زعماء الصليبيين إلى البابا إربان الثانى حول الأحداث التى مرت بهم حتى سقوط أنطاكية (*)

كتب هذا الخطاب فى ١١ سبتمبر ١٠٩٨م، وهو يدين البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين باعتبارهم هراطقة، ويحث البابا إربان الثانى على أن يجعل أنطاكية مقر الكرسى البابوى ومنها يتولى قيادة الصليبيين صوب الضريح المقدس، وهذه الدعوة الغريبة المدهشة كان يمكن أن تؤدى إلى التضحية بالصداقة مع المسيحيين الشرقيين وهى الصداقة التى سعى إليها البابا فى كليرمون.

ويبدو أن بوهيموند وراء كتابة هذا الخطاب، وربما يكون كاتبه هو المؤرخ المجهول الذى كتب «أعمال الفرنجة» والذى كان معجبًا ببوهيموند. ففى هذا الخطاب تتضح خطة بوهيموند لنقض الإتفاق مع البيزنطيين والاستيلاء على أنطاكية لحسابه الخاص. ولسنا ندرى رد فعل البابا تجاه هذا الخطاب الغريب؛ فقد مات قبل أن يتمكن من القيام بأى عمل.

* * *

« إلى السيد المبجل البابا إربان؛ من بوهيموند ، وريمون كونت سان جيل، والدوق جودفرى أمير اللورين ، وكونت روبرت أمير نورماندى ، وروبرت كونت الفلاندرز والكونت إيستاس البولونى[1]. تحياتنا ، ومثلما يبعث الأبناء إلى أبيهم الروحى : نعلن أننا خدام مخلصون ورعايا حقيقيون فى حب المسيح.

« ونحن نرغب أن نحيطكم علما أنه بفضل رحمة الرب العظيمة وبفضل مساعدته الرائعة استطعنا أن نستولى على مدينة أنطاكية ؛ بحيث أن الأتراك الذين سببوا كثيرا من العار لسيدنا يسوع المسيح ، وقعوا ضحية الأسر والذبح ؛ وأننا حجاج المسيح الذاهبون إلى القديس قد انتقمنا للرب العظيم بكما أننا حاصرنا الأتراك أولاً ثم وقعنا تحت حصار أتراك أخرين قدموا من خراسان ، والقدس ، ودمشق ، وأماكن أخرى كثيرة ، وكيف نجونا بفضل رحمة يسوع المسيح .

(*) Fulcher, pp. 107 - 112.

(١) إيستاس الثالث ، كونت بولونيا والأخ الأكبر للدوق جودفرى وبلدوين الأول. وقد عاد لوطنه بعد الحملة الصليبية.

« فبعد الاستيلاء على نيقية ، انتصرنا على الأعداد الكثيرة من الأتراك الذين قابلونا فى شهر يوليو كما سمعتم ، فى وادى ضوروليوم وهزمنا سليمان القوى وجردناه من كل أراضيه وأملاكه وبعد أن حصلنا على رومانيا [آسيا الصغرى] وأخضعناها كلها ، زحفنا لفرض الحصار على أنطاكية . وفى حصارها كابدنا مصاعب ومشاق عديدة ، لاسيما من جراء الهجمات التى كان يقوم بها الأتراك والوثنيون المجاورون الذين كانوا غالبا ما يندفعون نحونا بأعداد كبيرة لدرجة أننا يمكن أن نقول إننا كنا محاصرين من قبل أولئك الذين حاصرناهم فى أنطاكية.

« وأخيراً كسبنا كافة المعارك وارتقت العقيدة المسيحية بفضل هذا النجاح على النحو التالى: فقد اتفقت أنا بوهيموند مع أحد الأتراك وسلمنى المدينة. فقبل الفجر بقليل فى الثالث من شهر يونيو وضعت السلالم على سور المدينة ، وهكذا استولينا على المدينة التى كانت تقاوم المسيح . وقد ذبحنا كاسيانوس [١] طاغية المدينة ، وكثيرين من جنوده، وأبقينا على زوجاتهم وعائلاتهم وكذلك الذهب والفضة وسائر أملاكهم ، غنائم لنا .

« وعلى أية حال، لم نستطع الإستيلاء على قلعة أنطاكية ، التى كان الأتراك قد دعموا تحصيناتها من قبل . ولكن عندما أتممنا استعدادنا للهجوم عليها فى اليوم التالى ، شاهدنا أعداداً لا تحصى من الأتراك يتحركون خلال كافة أرجاء الريف. وظللنا عدة أيام نتوقع أن يصلوا ويقاتلونا على حين كنا ما نزال خارج المدينة . وفى اليوم الثالث بعد أن أخذنا المدينة ، فرضوا الحصار علينا ، ودخل أكثر من مائة ألف منهم القلعة المذكورة ، وعلى أمل أن يندفعوا من خلال بواباتها إلى ذلك الجزء من المدينة الذى تقع فيه ، والذى كان قسمة بيننا وبينهم.

« ولكننا ، كنا نعسكر على مرتفع آخر قبالة القلعة ، وتولينا حراسة الممر الذى يربط بين الجيشين والذى ينحدر إلى المدينة بحيث لم يتمكن الأتراك بأعدادهم الكبيرة أن يمروا من خلاله. وكنا نحارب داخل الأسوار وخارجها ليلاً ونهاراً وأخيراً أجبرنا أعداءنا على الرجوع إلى معسكرهم، عبر بوابة القلعة التى كانت تؤدى إلى داخل المدينة.

« وعندما أدركوا أنهم لا يستطيعون إيذاءنا من هذا الجانب أحاطوا بنا من جميع النواحى بحيث أن أحداً لم يكن يقدر على دخول المدينة أو الخروج منها. ولهذا السبب انهارت شجاعتنا

---

(١) يقصد ياغى سيان.

جميعًا وتخاذلنا لدرجة أن كثيرين منا، كانوا على وشك الموت جوعًا أو إرهاقًا، ذبحوا خيولهم وحميرهم والتهموها على الرغم من أنها هى الأخرى كانت تتضور جوعًا.

« وفى الوقت نفسه، بفضل رحمة الرب العظيم الذى كان يرعانا ويساعدنا، وجدنا حربة الرب التى اخترقت جنب مخلصنا بيد لونجينوس. وقد تم الكشف عنها ثلاث مرات لواحد من خدام الرب على يد القديس أندرو الحوارى الذى دله على المكان حيث كانت الحربة مدفونة فى كنيسة بطرس المبارك ، أمير الحواريين. وإذ استرحنا لهذا الكشف ، وبفضل عدد كبير من الرؤى والأحلام المقدسة ، قوى ساعدنا لدرجة أننا بعد أن تملكنا التخاذل والتقاعس من قبل، صرنا وقتذاك نحث بعضنا بعضًا على القتال فى شجاعة وإقدام متناهيين.

« وبعد أن ظللنا تحت الحصار ثلاثة أسابيع وأربعة أيام ، اعترفنا بخطايانا ووضعنا أنفسنا تحت تصرف الرب، ثم خرجنا من بوابات المدينة لنخوض المعركة عشية عيد القديسين الرسولين بطرس وبولس . وكنا من القلة بحيث ظن العدو أننا لن نحاربه ، وإنما سنفر هاربين.

« وعلى أية حال، عندما أخذنا أهبتنا جميعًا ، واصطفت مشاتنا وفرساننا فى نظام وترتيب، تقدمنا فى جسارة ومعنا حربة الرب صوب مركز أكبر قوة من الأتراك وأجبرناهم على الهرب من موقعهم المتقدم . وبدأوا ينتشرون فى كل اتجاه جريًا على عادتهم ، واحتلوا التلال والطرق فى كل صوب وحدب ظنًا منهم أن يحكموا الخناق حولنا. وبذلك كانوا يأملون فى ذبحنا جميعًا . ولكننا كنا قد تدربنا على أساليبهم وحيلهم فى عدة معارك. وساعدتنا نعمة الرب ورحمته على أن نقهرهم جميعًا على الرغم من قلة عددنا بالنسبة لهم. وإذ كانت يد الرب اليمنى تقاتل معنا، أجبرنا الأتراك على الهرب وهجران معسكرهم بكل محتوياته.

« وبعد أن تغلبنا على الأتراك وطاردناهم على مدى يوم كامل وقتلنا عدة ألوف منهم، رجعنا إلى المدينة فرحين مسرورين وسعداء. ثم قام أحد الأمراء بتسليم القلعة ، التى سبق ذكرها، إلى بوهيموند وبها ألف رجل . وبفضل بوهيموند سلمهم جميعًا للعقيدة المسيحية . وهكذا قام سيدنا يسوع المسيح بتخليص أنطاكية كلها وتسليمها إلى الديانة والعقيدة الرومانية .

« ولأن شيئًا محزنا يحدث دائما وسط الأفراح ، فإن أسقف لوبوى ، الذى كنت قد أرسلته نائبًا عنك ، مات فى شهر أغسطس . وكان هذا بعد المعركة ، التى كان له فيها دور نبيل، وبعد أن خيم السلام فى ربوع المدينة .

« ولذا فإننا أبناءك ، المفجوعون فى الأب الذى عينته لنا ، نسألك يا أبانا الروحى ما يلى: بما أنك أنت الذى بدأت هذا الحج وبخطبك ومواعظك جعلتنا جميعًا نترك بلادنا وكل ما فيها ، منذ أن حفزتنا على تتبع المسيح بحمل الصليب ، وبما أنك حرضتنا على أن نرفع عاليا اسم المسيح بتحقيق ما ناديت به ، فإننا نرجوك أن تأتى إلينا وأن تحث من يمكنه أن يأتى معك، لأن اسم المسيحية نبع من هنا . فبعد أن توج بطرس المبارك فى الكنيسة التى نراها كل يوم، كان أولئك الذين يسمون الجليليين قبل ذلك أول من تسموا بالمسيحيين. ومن ثم ، فماذا فى الدنيا يمكن أن يكون أصح من أنك، أنت أبو ورأس العقيدة المسيحية، تأتى إلى المدينة الرئيسية وعاصمة الاسم المسيحى وتنهى الحرب ، وهى مشروعك ، بنفسك ؟.

« لقد أخضعنا الأتراك والوثنيين ؛ ولكن الهراطقة من اليونانيين والأرمن والسوريان واليعاقبة لم نستطع التغلب عليهم . ولذا نسألك ونلح فى السؤال أن تأتى أنت أيها الأب العزيز أبا ورئيسًا إلى مكان سلفك ؛ أنت نائب بطرس المبارك ينبغى أن تجلس على عرشه وتستخدمنا أبناء مطيعين فى تنفيذ كل ما هو صحيح ، وحتى يمكنك بقوتك وسلطانك أن تدمر الهرطقات كلها وتقضى عليها أيا كان نوعها. وهكذا تنهى معنا الحج الذى قمنا به إلى يسوع المسيح بعد أن أعلنت عن بدايته ، وسوف تفتح لنا بوابات أورشليم السماوية والأرضية وتحرر ضريح سيدنا وترفع الإسم المسيحى فوق الجميع . لأنك إذا جئت إلينا وأنهيت معنا الحج الذى بدأناه بك ستكون الدنيا كلها رهن إشارتك . فليدفعك الرب الذى يحيا ويحكم إلى الأبد لفعل هذا . آمين ».

الطريق إلى القدس
(أبريل ١٠٩٩ - يوليو ١٠٩٩ م)

بعد أن استولى الصليبيون على قلعة أنطاكية خلصت لهم المدينة تماماً . ولكن المشاكل التى نشبت بين بوهيموند الذى ادعى الحق فى حكم أنطاكية ، وريمون كونت سان جيل الذى رفض الاعتراف له بهذا الحق ، ومحاولات القادة الصليبيين الآخرين للتوفيق بين الجانبين، جعلت الصليبيين يمكثون فى المدينة أكثر من تسعة أشهر . وانتهى الخلاف لصالح بوهيموند عندما انسحبت قوات ريمون من الأماكن التى تحتلها فى المدينة. وقرر الصليبيون جميعاً تجاهل الاتفاق الذى كانوا قد عقدوه مع الإمبراطور البيزنطى أليكسيوس كومنينوس الذى كان يطالب بالمدينة لنفسه . وفى خضم هذا الصراع تفرق الجيش الصليبى. وأخذ القادة والفرسان ذوو الرتب الصغيرة يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لأنطاكية ، وحاول كل منهم أن يحصل لنفسه على بعض الممتلكات. ولم تلبث القرى والمدن والقلاع المجاورة لأنطاكية أن خضعت للصليبيين بسبب ضعف المقاومة المحلية. ووجد الصليبيون أن المساكن مريحة والطعام لذيذ وبدا أن إقامتهم سوف تدوم فى شمال بلاد الشام. وساد انطباع بأن أنطاكية حلت محل القدس، وأن نهر العاصى حل محل نهر الأردن. ولكن فقراء الفرنج الذين كانت أطماعهم لم تتحقق بعد ، ثاروا فى وجه الزعماء وهددوا بحرق أنطاكية .

وأقسم القادة من جديد على عدم نسيان القدس، وبعد أن كفروا عن ذنوبهم وأعلنوا توبتهم تحرك الصليبيون صوب القدس دون مقاومة تذكر ؛ بل إن بعض المدن ساعدت الفرنج بالمؤن والعتاد حتى يتخلصوا من الخطر الصليبى. وهجر المسلمون الذين أخذتهم المفاجأة ميناء يافا والرملة ، مما أوجد للصليبيين منفذاً مباشراً إلى البحر المتوسط فيما بعد. ثم وصل الجيش الصليبى إلى مشارف القدس، واستمر الحصار خمسة أسابيع كاملة (٧ يونيو - ١٥ يوليو ١٠٩٩م) ، ثم سقطت المدينة بأيدى الصليبيين الذين ارتكبوا واحدة من أبشع المجازر فى تاريخ البشرية .

والنصوص التالية تحكى هذه القصة بفصولها المتتابعة ، ووفقاً لطريقة المؤرخين الصليبيين التى ألفناها من خلال متابعتنا لقصة الحملة الصليبية الأولى منذ البداية.

١ـ رواية فوشيه الشارترى (*)

« ... وفى الليلة التالية امتطى مائة من خيرة الفرسان خيولهم ومروا مع ضوء الفجر بالقرب من القدس مسرعين صوب بيت لحم. وكان بينهم تنكرد وبلدوين(١). وعندما اكتشف المسيحيون الذين كانوا يقطنون هناك من اليونانيين والسوريان أن الفرنج قد وصلوا ، غلبهم الفرح تمامًا . وعلى أية حال، فإنهم فى بداية الأمر لم يعرفوا هؤلاء القوم وظنوا أنهم ربما كانوا من الأتراك أو العرب.

« ولكن بمجرد أن أدركوا هويتهم عندما اقتربوا وتأكدوا أنهم من الفرنج غمرهم الفرح ، وفى الحال حملوا الصلبان والرايات وخرجوا لمقابلتهم ، وهم يبكون وينشدون فى تقوى. كانوا يبكون لأنهم خافوا أن مثل هذا العدد القليل من الناس يمكن أن يلقوا حتفهم بأيدى الكثرة من الوثنيين الذين كانوا يعرفون بوجودهم فى البلاد . وكانوا يغنون مرحبين بأولئك الذين كانوا ينتظرون وصولهم منذ زمن طويل والذين كانوا يعتقدون أنهم سيعيدون للديانة المسيحية مكانتها السابقة التى اغتصبها الوثنيون منذ زمن بعيد.

« وبعد أن قام رجالنا بإعلان خضوعهم التقى للرب فى كنيسة مريم المباركة ، وبعد أن زاروا المكان الذى كان المسيح قد ولد فيه وأعطى قبلة السلام للسوريان، عادوا أدراجهم مسرعين صوب المدينة المقدسة ، القدس.

« تأمل ! هناك ظهرت بقية الجيش وهو يقترب من القدس . وعندما رفع حاملو الرايات فى مقدمة الجيش راياتهم عالية ليراها أهل المدينة ، شن هؤلاء هجومًا عنيفًا ضدهم فى الحال. ولكن أولئك الذين خرجوا مسرعين من المدينة سيقوا بسرعة أكبر ليعودوا أدراجهم داخل المدينة.

وكان شهر يونيو يتوهج بحرارة شمس يومه السابع

عندما أحاط الفرنج بالقدس يحاصرونها . (٢)

(*) Fulcher, pp. 115 - 128 .

(١) هو بلدوين البورجى، وهو من مواطنى بلدوين الأول كونت الرها والذى صار ملكا على بيت المقدس سنة ١١١٨م.

(٢) محاولة شعرية أخرى من فوشيه.

« تقع مدينة القدس فى إقليم جبلى عار من الأشجار والمجارى المائية باستثناء بحيرة سليمان التى تقع على مرمى قوس من المدينة. وفى بعض الأحيان يكون بها ما يكفى من المياه، وفى أحيان أخرى يقل ماؤها بسبب تسربه. وهذه العين الصغيرة موجودة فى الوداى تحت سفح جبل صهيون فى مجرى نهر يفيض عادة زمن الشتاء فى وادى يوشيفاط.

« وهناك العديد من خزانات المياه داخل المدينة تحتفظ بأمطار الشتاء بحيث يكون بها ما يكفى من المياه . وهناك أيضًا آبار خارج المدينة حيث يشرب منها الناس والحيوان.

« ومن المسلم به عمومًا أن المدينة قد بنيت فى تناسق بحيث لاتبدو مفرطة فى الصغر أو فى كبر الحجم. وعرضها ما بين السورين يعادل مرمى القوس أربع مرات . وفى ناحية الغرب يوجد برج داود الذى تحيط به أسوار المدينة من الجانبين؛ وإلى جنوب المدينة جبل صهيون على بعد مسافة أقل من مرمى القوس ؛ وفى ناحية الشرق جبل الزيتون على بعد حوالى ألف مسافة من المدينة .

« وبرج داود المذكور مبنى من أحجار صلبة ، ونصف الطريق إليه صاعد من كتل مربعة ضمت سويًا بمواد منصهرة . ويمكن لخمسة عشر أو عشرين رجلاً أن يصدوا عنه كل هجمات الأعداء إذا توفرت لهم المؤن.

« وفى المدينة نفسها معبد الرب ، وهو مستدير الشكل ، وقد بنى حيث كان سليمان قد شاد معبده الفخم فى الزمن القديم . وعلى الرغم من أنه لا يمكن مقارنته من حيث الشكل بالمعبد السابق ، فإن هذا المبنى معجزة فى فن البناء وله مظهر فخم للغاية (١).

« أما كنيسة ضريح الرب فهى أيضًا مستديرة الشكل . ولم يتم إغلاقها من سقفها وإنما تُركت بها فتحات لكى تسمح للضوء بدخولها دائما بفضل تصميمات مهندس ماهر.

« إننى لا أستطيع ، ولا أجرؤ ، ولا أعرف كيف أعدد الأشياء التى تحويها الآن أو التى كانت تحويها فى الماضى حتى لا أخدع أولئك القراء أو المستمعين لهذه الحكاية . وفى منتصف المعبد عندما دخلناه أول مرة ، وعلى مدى خمسة عشر عامًا بعد ذلك ، كانت هناك صخرة [... يستمر فى مناقشة وصف المعبد فى ضوء الروايات الواردة فى الكتاب المقدس].

---

(١) هذا المعبد الذى يتحدث عنه فوشيه باعتباره «معبد الرب» Templum Domini هو مسجد قبة الصخرة الجميل الذى بناه الخليفة عبد الملك بن مروان فوق الصخرة التى يعتقد أن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) قد صعد إلى السماء من فوقها فى رحلة الإسراء. وقد حوله الفرنج إلى معبد (كنيسة) بعد إستيلائهم على المدينة.

« وعندما تأمل الفرنج المدينة وتأكدوا أنه سيكون من الصعب الإستيلاء عليها، أمر قادتنا بصنع السلالم الخشبية . وحملوا هذه السلالم إلى أسوار المدينة حيث أقاموها وصعدوها عليها بهمة شديدة إلى قمة السور على أمل أن يدخلوا المدينة بمساعدة الرب.

« هذه السلالم صنعت فى اليوم السابع بعد أن أصدر زعماؤنا أوامرهم بالهجوم . وعندما دوت أصوات الطبول مع مطلع الفجر هاجم رجالنا المدينة من جميع النواحى بحيوية ظاهرة. بيد أنهم واصلوا الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ولم يتمكنوا من الدخول بواسطة السلالم التى جهزوها لأن عددها كان قليلاً ، أوقفوا الهجوم.

« وبعد المشاورات أمر قادتنا المهندسين بصنع آلات الحرب. وكانوا يأملون أنه عندما يتم تحريك هذه الآلات ناحية الأسوار أن يُحققوا النتائج المرجوة بمساعدة الرب. ومن ثم فعلوا هذا.

« وفى الوقت نفسه ، لم يكن رجالنا يعانون من نقص الخبز أو اللحم. ومع ذلك فبسبب جفاف المنطقة ، وخلوها من المياه ، وعدم وجود مجرى مائى عانى رجالنا وحيواناتهم بسبب نقص مياه الشرب. ولذا ، فإنه عندما كانت الضرورة تقتضى، كانوا يحضرون الماء يومياً إلى الحصار من مسافة تبعد أربعة أو خمسة أميال، ويحملونها بمشقة فى جلود الحيوانات.

« وعندما تم تجهيز الآلات ، وهى منصات الإطلاق والمنجنيقات ، استعد رجالنا مرة أخرى للهجوم على المدينة . وبين هذه الآلات وضعوا برجاً مصنوعاً من قطع الخشب القصيرة لأنه لم يكن بالمنطقة أخشاب طويلة . وعندما صدرت الأوامر نقلوا البرج، مفككاً فى أجزاء ، تحت جنح الليل إلى ركن من أركان المدينة ، ثم أقاموه بسرعة فى الصباح بالقرب من السور فضلاً عن الأسلحة المساعدة الأخرى التى كانوا قد جهزوها . وبعد أن فرغوا من إقامة البرج وحموه جيداً بالأغطية من الخارج ، أخذوا يدفعونه بالقرب من السور ببطء وبالتدريج.

« ثم صعد البرج بعض الجنود ، كان عددهم قليلاً ولكن شجاعتهم فائقة ، عندما صدرت لهم إشارة بالطبول. ومع ذلك كان المسلمون يدافعون ضدهم . وكانوا يرمون كتلاً مشتعلة غمست بالزيت والشحم على البرج والجنود الذين فيه . ومن ثم لقى كثيرون من الجانبين حتفهم بغتة فى هذا القتال.

« وشن الكونت ريمون ورجاله هجوماً عنيفاً بآلاتهم من الجانب الذى كانوا يتمركزون فيه، وهو جبل صهيون . ومن الناحية الأخرى ، حيث كان الدوق جودفرى وكونت روبرت النورماندى، وروبرت كونت الفلاندرز يتمركزون ، ثمَّ شن هجوم أشد عنفاً على الأسوار. وكانت هذه هى حوادث ذلك اليوم.

« وعندما دوت أصوات الطبول فى اليوم التالى كرروا نفس الهجوم ببسالة وعنف أشد، وكانت النتيجة أنهم أحدثوا ثغرة فى السور بآلات النقب، وكان المسلمون قد علقوا لوحين من الخشب قبالة شرفات السور لحمايتهم من الأحجار التى يقذفها المهاجمون، وكانوا يربطونهما بالحبال، ولكن ما فعلوه لحمايتهم تحول إلى نقمة عليهم بفضل العناية الإلهية، لأنه حين حرك الفرنج البرج المذكور إلى السور قطعوا الحبال التى كانت الألواح الخشبية معلقة بها، وبهذه الأخشاب مدوا جسراً فى مهارة ما بين البرج وقمة السور.

« واشتعلت النيران فى أحد الأبراج الحجرية فوق السور ، كان رجالنا العاملون على آلات الحصار قد قذفوه بكتل اللهب، وبالتدريج إلتهمت النيران المواد الخشبية فى البرج، فنتج عنها لهب ودخان كثيف لدرجة أن أحداً من الحراس لم يستطع البقاء هناك.

« ولذا فإن الفرنج دخلوا المدينة فى الحال فى ظهر يوم الجمعة المقدسة Dies Veneris ، وهو اليوم الذى خلص المسيح فيه العالم كله على الصليب [١]. وفى وسط أصوات الطبول، وبينما كان كلْ شيء يزأر عاليًا ، واصلوا هجومهم بجسارة وإقدام، وهم يصيحون « ليساعدنا الرب» . وفى الحال رفعوا راية على قمة السور، وتملك الرعب الوثنيين تمامًا، إذ تخلوا عن شجاعتهم التى تحلوا بها من قبل وفروا هاربين عبر شوارع المدينة الضيقة، وكلما أسرعوا فى الهرب أسرع مطاردوهم خلفهم.

« ولم يلاحظ كونت ريمون ورجاله، الذين كانوا يشنون هجوما عنيفا فى جزء آخر من المدينة، ما جرى حتى شاهدوا المسلمين يقفزون من فوق الأسوار. وعندما لاحظوا ذلك جروا فرحين بأقصى سرعة ممكنة إلى داخل المدينة وانضموا لرفاقهم فى مطاردة وذبح أعدائهم الأشرار دون توقف.

« وهرب بعض هؤلاء ، من العرب والأثيوبيين [٢]، إلى برج داود، وأغلق آخرون على أنفسهم

---

(١) الجمعة التى دخل فيها الصليبيون القدس كانت ١٥ يوليو ١٠٩٩م.

(٢) يشير فوشيه فى هذا المكان من حوليته، وفى أجزاء أخرى منها ، إلى الأحباش (الأثيوبيين) العاملين فى خدمة المصريين، باعتبارهم سود البشرة مرة، وباعتبارهم من المشاة مرة أخرى . والواقع أنه يقصد الجند السودانيين العاملين فى الجيش الفاطمى والذين كانوا يمثلون فرق المشاة الذين قضى عليهم صلاح الدين الأيوبى أثناء محاولته لتوطيد دعائم حكمه فى مصر بعد وفاة الخليفة الفاطمى الأخير، ولم يكن أولئك «السودانيون» من السودان الحديث ، وإنما كانوا من مناطق متعددة من أفريقيا.

معبد الرب ومعبد سليمان ، وتم هجوم وحشى على المسلمين فى فناء هذين المعبدين، ولم يكن هناك مكان يمكن أن ينجيهم من سيوف رجالنا.

« وكثيرون من المسلمين الذين كانوا قد تسلقوا قمة معبد سليمان هاربين أصابتهم السهام فى مقتل فسقطوا من فوق السقف، وتم ذبح حوالى عشرة آلاف فى المعبد، ولو أنك كنت موجوداً هناك لغاصت قدماك حتى العقبين فى دماء المذبوحين، ترى ماذا أقول ؟ لم نترك منهم أحداً على قيد الحياة ، ولم ينج حتى النساء والأطفال.

« كم سيكون المنظر مدهشًا لو أنك رأيت فرساننا ومشاتنا ، بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين، فشقوا بطون الذين ذبحوهم لكى يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية التى كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء، ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيام قلائل بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رماداً حتى يمكنهم أن يجدوا بسهولة الذهب الذى ذكرنا خبره.

« كذلك اندفع تنكرد داخل معبد الرب واستولى على كثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ولكنه أعاد هذه الأشياء ووضعها مرة أخرى داخل المكان المقدس، وكان هذا على الرغم من الحقيقة القائلة من أنه لم تكن هناك أية خدمة مقدسة تؤدى آنذاك، فقد كان المسلمون يمارسون عبادة الأصنام هناك مع الخرافات، كما أنهم لم يكونوا يسمحون للمسيحيين بالدخول[1].

عندما جرى رجالنا وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة،

ولم يبقوا على أحد حتى أولئك الذين كانوا يرجون الرحمة

سقط الجمع كما تسقط التفاحات العفنة جميعًا

من الأغصان المهزوزة وكما تسقط جوزة البلوط من الأشجار المتمايلة.

« وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكان، واستولوا على كل ما وجدوه فيها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من كان يدخل أولاً ، سواء كان فقيراً أو غنيًا ، لا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين، وكان له أن يحتل المنزل أو القصر ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية

---

(١) الحديث هنا عن المسجد الأقصى الذى استولى عليه الصليبيون.

خالصة له. وهكذا اتفقوا جميعًا على هذا النمط من حقوق الملكية . وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أثرياء.

« ثم توجه القساوسة والعلمانيون إلى ضريح الرب ومعبده المجيد، وغنوا ترنيمة دينية جديدة للرب فى صوت يشى بالفرح والبهجة ، وقدموا التقدمات وأعلنوا خضوعهم فى تواضع، ثم زاروا الأماكن المقدسة وهم فرحون لأن هذه كانت رغبتهم منذ أمد بعيد.»

٢ - رواية ريمون الأجويلرى (*)

« فى الوقت نفسه استفسر الكونت والأمراء الآخرون من السكان فى ذلك الإقليم عن الطريق إلى القدس، وما هو أحسن وأسهل الطرق. لأنه كانت هناك جبال لبنان التى كان يسكن بها حوالى ستين ألفًا من المسيحيين. وكان المسيحيون الذين يسكنون قرب مدينة صور يملكون هذه الأرض والجبال منذ زمن بعيد. ولكن عندما ظهر المسلمون والأتراك بحكم الرب، تعرض أهل صور لضغط شديد على مدى أربعمائة سنة ونيف لدرجة أن كثيرين منهم اضطروا للهجرة من أرض أبائهم وتخلوا عن العقيدة المسيحية. وإذا كان منهم من رفض بفضل نعمة الرب، فإن هؤلاء أضطروا إلى تسليم أبنائهم لكى يختنوا ويتحولوا إلى الإسلام؛ أو ينتزعون من أحضان أمهاتهم، بعد قتل الأب والتنكيل بالأم. حقًا ، لقد ألهب الشر نفوس أبناء ذلك الجنس لدرجة أنهم حولوا كنائس الرب وقديسيه ، أو دمروا الصورة ، ومزقوا عيون الصور التى لم يستطيعوا تدميرها لضيق الوقت ، أو رشقوها بالسهام ؛ كما أنهم هدموا كل المذابح. وفضلاً عن ذلك حولوا الكنائس الكبرى إلى مساجد. ولكن إذا أراد أى مسيحى من هؤلاء المقهورين أن يقتنى فى بيته صورة الرب أو أى قديس، كان عليه إمّا أن يفتديها بالمال شهرًا بعد شهر، أو سنة بعد أخرى، أو تُلقى فى القذارة وتكسر أمام عينيه. كذلك ، وهو ما يصعب علينا حكايته، كانوا يضعون الشباب فى بيوت الدعارة ، ولكى يمعنوا فى الخسة ، كانوا يبادلون أخواتهم من البنات بالخمر. ولم تكن أمهاتهم تجرؤن على البكاء علنًا بسبب هذه المصائب أو غيرها . ترى ماذا يمكن أن نقول عنهم أكثر من ذلك ؟ من المؤكد أن الناس قد تآمروا ضد الرب وميراثه ، لولا أن الفرنج كان يمكنهم التصدى لهذه الشرور بأمر من الرب

(*) Peters, pp. 195 - 218.

وتوجيهه، لو لم يكن الرب قد سلح الحيوانات الضارية ضد أعدائهم، كما فعل مرة فى حضورنا. وهناك الكثير ما يُحكى بهذا الشأن.

« وعندما سئل أهل صور، الذين جاءوا إلى الكونت كما ذكرنا من قبل ، عن أفضل طريق، أجابوا : « إن الطريق عبر دمشق مستو وملئ بمصادر الحياة ؛ ولكنكم لن تجدوا الماء على مدى يومين . أما الطريق الآخر عبر جبال لبنان فهو آمن وبه مياه كافية ، ولكنه شاق ووعر بالنسبة لحيوانات الأحمال والجمال . وهناك طريق آخر بحذاء البحر، حيث يوجد ممرات كثيرة وضيقة لدرجة أنه إذا أراد خمسون أو مائة من المسلمين أن يسيطروا عليها، لأمكنهم ذلك فى مواجهة الجنس البشرى بأسره. ومع ذلك فقد جاء بإنجيل بطرس الذى نملكه ، أنكم إذا كنتم القوم الذين سيستولون على القدس فإنكم ستمرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن ذلك يبدو لنا مستحيلاً بسبب الصعوبات التى تكتنفه، وفضلاً عن ذلك، فإنه مكتوب فى الإنجيل الذى نملكه ليس فقط ما فعلتموه، وإنما أيضًا ما ينبغى عليكم عمله إزاء المسيرة وأمور أخرى غيرها».

« وبينما كان البعض يحثوننا بهذه الطريقة ، كان هناك آخرون يعارضون . وعاد وليم هوجو المونتيلى بالصليب الذى ذكرناه من قبل . وفضلاً عن ذلك ، عندما تأمل أصدقاء الكونت هذا الصليب صاروا متحمسين جداً للمسيرة لدرجة أن خدام الكونت كانوا سيحرقون أكواخهم ليكونوا أول من يترك حصار عرقة لولا مشورة الكونت والأمراء الآخرين. وبسبب هذا تضايق الكونت جدا لدرجة البكاء ولدرجة أنه كره نفسه وقومه . ولكن دوق اللورين على نحو خاص كان يرغب فى هذه الرحلة وحثٌ قومه على القيام بها. وبناء على ذلك، تركنا حصار عرقة المضنى والكريه ومضينا حتى وصلنا قبالة طرابلس . وحتى عندما قام الكونت ريمون بالصلوات ومنح الهدايا للنبلاء لكى يحثهم على حصار طرابلس، عارضوه جميعًا.

« وفى هذا الوقت تجلى القديس أندرو لبطرس ديز يديروس الذى ذكرناه من قبل، وقال له:« إذهب وتحدث إلى الكونت وقل له : لا تزعج نفسك أو الآخرين، لأنه ما لم يتم الإستيلاء على القدس أولاً ، فلن تنالوا أية مساعدة. ولا تضايق نفسك بشأن حصار عرقة الذى لم يتم، ولا تثقل على نفسك بأن هذه المدينة أو غيرها من المدن التى ستصلون إليها فى الرحلة، لم يتم الإستيلاء عليها فى الوقت الحاضر، لأنكم ستخوضون حربا تستولون فيها على هذه المدينة وغيرها. وفضلاً عن ذلك، لا تزعج نفسك أو رجالك، ولكن وزع بإسم الرب ما سوف يمنحه لك، وكن رفيقًا وصديقًا طيبًا للأتباع. فإذا فعلت هذا، فإن الرب سوف يمنحك أورشليم

والإسكندرية وبابليون [1]. ولكن إذا لم تفعل ، فإنك لن تحصل على الأشياء التى وعد بها الرب، ولا تصلك رسالة منه، حتى يضعك فى مأزق ومحنة لا تعرف إلى الهرب منها سبيلاً !» وهكذا، تقبل الكونت كلمات القسيس ؛ تقبلها قولاً ولكنه رفضها فعلاً . لأنه حين جاءته ثروة كبيرة من ملك طرابلس، لم يكن لديه أى استعداد لأن يعطى منها شيئًا لأحد، بل إنه كان يثقل على قومه بالضرب والإهانات . ولم يكن هذا هو كل ما أخبرنا به القسيس ولكنه أخبرنا بأمور أخرى كثيرة، أضفنا بعضها إلى هذا الكتاب.

« فذات مرة أردنا أن نرحل عن أنطاكية ، جاء هذا القسيس إلىّ أنا ريمون، وقال إن شخصًا تجلى له فى رؤيا وقال له « إذهب داخل كنيسة سان ليونتيوس، وسوف تجد هناك الرفات المقدسة لأربعة من القديسين ؛ فخذها وأحملها إلى القدس » . وفى تلك الرؤيا أوضح له مكان الرفات وأخبره بأسماء القديسين. وعندما استيقظ هذا القسيس، وهو لا يصدق الحلم الذى رآه تمامًا، بدأ يرجو الرب بالصلوات والتوسلات أن يجعله يتأكد مرة ثانية أنه أوحى له بهذه الرؤيا. وبعد ذلك بعدة أيام كان القديس نفسه يقف أمامه فى الحلم وهدده كثيراً لأنه تجاهل أوامر الرب، وقال إنه إذا لم يأخذ هذه الرفات قبل نهاية اليوم الخامس من الأسبوع، فسيجلب على نفسه وعلى سيده كثيراً من الأذى والضرر وكان سيده الكونت إيسورد أمير دبى، رجلاً مؤمنا بالرب على ما نعرف ، كما كان يساعد الجميع بسبب حكمته واستقامته.

« وعندما حكى القسيس هذه القصة لى ، أنا ريمون ، أخبرت بها أسقف أورانج وكونت سان جيل وبعض الناس الآخرين. وأخذنا الشموع ودخلنا كنيسة سان ليونتيوس. وقدمنا الشموع وأقسمنا بالإيمان للرب والقديسين فى الكنيسة نفسها، وصلينا نرجو الرب العظيم، الذى قدّسهم، ألاّ ينفرط عقد الحجاج والمنفيين فى سبيل الرب وألاّ يفرق شملهم . وعندما أصبح الصباح، ذهبنا مع القسيس إلى الأماكن التى كانت الرفات المقدسة محفوظة بها، ووجدنا كل شىء تماماً مثلما جاء به الخبر فى الحلم. فضلاً عن ذلك كانت هناك أسماء القديسين: كيبريان ، أوميخيوس، ليويتيوس ، وحنا فم الذهب . وكذلك ، وجدنا فى الأماكن التى كانت بها الرفات صندوقا صغيرا مليئًا بالرفات المقدسة . وعندما سألنا القسيس عنها ، ورفات من مِن القديسين تكون ؟ أجاب بأنه لا يعرف . ولكن عندما سألنا السكان إذا ما كانوا

---

(١) يقصد القاهرة . وهذا النص يكشف عن أن هدف الصليبيين منذ البداية كان الإستيلاء على المنطقة كلها وليس على بيت المقدس أو فلسطين فقط .

يعرفون لمن من القديسين هذا الرفات، قال بعضهم إنها رفات القديس مرقيريوس ،، وقال البعض الآخرين إنها لقديسين آخرين. وقلت له أنا، ريمون، بغضب : فى حضور كل من كانوا هناك : «إذا كان هذا القديس يرغب فى المجئ معنا إلى القدس، فليعرفنا باسمه ورغبته ؛ وإلاَّ فليبق هنا. لماذا نتجشم عناء حمل عظام مجهولة على مدى الطريق؟ » . ولهذا تركنا هذه الرفات مكانها فى ذلك اليوم، ولكن عندما انتهى القسيس من جمع الرفات الأخرى ولفها فى القماش والأغطية ، وبينما كان يرقد فى فراشه فى الليلة التالية ، تجلى له شاب فى حوالى الخامسة عشرة من عمره ، فائق الجمال ، وقال له : لماذا لم تأخذ رفاتى مع الآخرين فى ذلك اليوم؟» .

فأجبه القس : « من أنت ؟ » .

فقال : « ألا تعرف من هو حامل راية هذا الجيش ؟ »

وعندما أجابه القس بالإجابة نفسها للمرة الثانية ، هدده الشاب بشكل مرعب وقال له : «قل لى الحقيقة ؟ »

عندئذ قال له القسيس ك« سيدى . يقال إن القديس جورج هو حامل راية هذا الجيش».

فأجابه : «لقد أحسنت القول . أنا هو . ولذا ، خذ رفاتى وضعها مع الآخرين . »

« وعلى أية حال ، فعندما أحجم القسيس عن فعل هذا عدة أيام، جاءه جورج نفسه وأمره بصرامة قائلاً : « لا تتأخر أكثر لما بعد الصباح فى أخذ رفاتى ؛ وبقربها قنينة صغيرة سوف تجد فيها بعض دماء العذراء والشهيد القديس تكلا ، وخذها أيضاً ، وبعد هذا أنشد صلاة القُداس.» ووجد القس هذا كله . وفعل ما أمر به.

« ولكن بعد أن نحكى البقية، لا ينبغى أن نغفل ذكر أولئك الرجال الذين لم يترددوا، حبًا منهم فى الحملة المقدسة ، أن يبحروا عبر مياه مجهولة ولمسافات طويلة جداً فى البحر المتوسط والمحيط. ذلك أنه عندما سمع الإنجليز بأمر انتقام الرب ضد أولئك الذين يحتلون ، دون وجه حق، الأرض التى شهدت ميلاد المسيح وحوارييه، ركبوا سفنهم فى البحر الإنجليزى. ثم داروا حول إسبانيا وعبروا المحيط ثم دلفوا إلى البحر المتوسط ، وبعد جهد جهيد تمكنوا من الوصول إلى أنطاكية وميناء اللاذقية ، قبل أن يصل جيشنا إلى هناك عن طريق البحر. وكانت سفنهم ميزة لنا فى ذلك الوقت، مثل سفن الجنوية، لأننا أثناء الحصار كنا نتبادل التجارة مع جزيرة قبرص وبقية الجزر بفضل هذه الجزر والأمان الذى وفرته لنا. والحق أن تلك السفن

كانت يوميا تمخر عباب البحر، ولهذا السبب كانت سفن اليونانيين آمنة ، لأن المسلمين كانوا يخشون مواجهتها. ولكن عندما رأى الإنجليز أن الجيش قد انطلق صوب القدس، وأن قوة سفنهم قد تضاءلت بسبب الانتصار الطويل (لأنهم كانوا فى البداية يملكون ثلاثين سفينة، ولم يعد لديهم سوى تسع أو عشر سفن) ، تخلى البعض عن سفنهم ، على حين أحرق البعض الآخر السفن وأسرعوا معنا فى الرحلة.

« وعندما تأخر أمراؤنا أمام طرابلس[1] ، سلط علينا الرب رغبة شديدة فى الذهاب إلى القدس بحيث أن أحداً لم يتمكن من كبح جماح نفسه، أو غيره ، ولكنهم انطلقوا فى المساء مخالفين أوامر الأمراء وعادة جيشنا، ومشينا طوال الليل حتى وصلنا فى اليوم التالى إلى بيروت. وبعد هذا ، وبعد أن تم فجأة الإستيلاء على الممر الضيق المعروف باسم «الفم الملتوى»، وصلنا فى غضون أيام قليلة، وبدونما متاع إلى عكا. وإذ خشى ملك عكا [2] أن نفرض الحصار على مدينته، ولأنه كان يأمل فى أن ننسحب، قطع على نفسه عهداً للكونت بأننا لو استولينا على بيت المقدس، أو بقينا فى إقليم القدس عشرين يوما ، ولم يشتبك معنا ملك مصر فى المعركة ، أو استطعنا أن نتغلب على الملك، فإنه سوف يستسلم هو ومدينته لنا ؛ ولكنه فى الوقت نفسه سيكون لنا صديقاً .

« وإذ انطلقنا ساعة الغروب ذات يوم تاركين عكا ، وصلنا إلى المستنقعات المجاورة لقيصرية وأقمنا معسكرنا. وبينما كان البعض يجرون هنا وهناك خارج المعسكر، كما جرت العادة، كلما قضت الضرورة ، وبينما كان البعض الآخر يستفسرون من معارفهم عن الأماكن التى يقيم بها رفاقهم ، سقطت حمامة بتأثير جرح قاتل من صقر فى وسط هؤلاء الرائحين والغادين . وعندما التقطها أسقف أجدى وجد خطاباً كانت تحمله . وكان مضمون الخطاب كما يلى:

« من ملك عكا إلى دوق قيصرية : مَرَّ بى جيش أحمق بلا نظام يسبب المتاعب، كفصيل من الكلاب الشرسة . وبدافع من حبك لدينك حاول بنفسك أو من خلال الآخرين أن تلحق بهم الأذى، وهو أمر سهل إذا أردته . إرسل هذا بدورك إلى المدن والقلاع الأخرى ».

---

(١) كان حاكم طرابلس آنذاك جلال الملك أبو الحسن على بن محمد عمار، وقد توفى سنة ١٠٩٩م.

(٢) كانت عكا خاضعة لحكم الخلافة الفاطمية فى مصر آنذاك، ولم يكن الفاطميون فى بداية الأمر يدركون حقيقة الغزو الصليبى فسعوا لعقد محالفة مع الصليبيين.

« وفى الصباح ، وعندما كانت الأوامر تصدر للجيش بالراحة ، اطلع الأمراء على الخطاب، فانظر كيف أن الرب كان بنا رحيما عطوفا، لدرجة أنه حتى الطيور لم تكن تستطيع أن تعبر الأجواء وهى تحمل لنا الضُرَّ والأذى، وأنه هو أيضًا كشف لنا أسرار العدو. وحينئذ قمنا بإسداء الشكر والصلاة للرب العظيم. ثم انطلقنا آمنين ومتحمسين ، وتقدم الجيش كله بهذه الروح؛ مقدمته ومؤخرته على حد سواء.

« ولكن المسلمين القاطنين فى الرملة تركوا تحصيناتهم وأسلحتهم حين سمعوا أننا عبرنا النهر القريب ، كما تركوا الحقول عامرة بكثير من الغلال والمحاصيل التى جمعناها . وعندما وصلنا الرملة فى اليوم التالى، اكتشفنا أن الرب كان يحارب من أجلنا حقًا . ولذا قطعنا النذور على أنفسنا للقديس جورج لأنه جعل نفسه مرشداً لنا. ووافق الزعماء والناس جميعًا على أن نختار أسقفا فى المدينة ، حيث أن هذه كانت أول كنيسة نجدها فى أرض إسرائيل(١). وكذلك لكى يكون القديس جورج شفيعنا عند الرب، ويقودنا بإخلاص فى الأرض التى لم يكن يُعْبد فيها. وفضلاً عن ذلك كانت الرملة تبعد عن القدس حوالى خمسة عشر ميلا. ولذا عقدنا اجتماعًا هناك» .

« وقال البعض : فلنترك الذهاب إلى القدس الآن، ولنتوجه إلى مصر، سوف لا نحصل على القدس فقط، وإنما سنحصل أيضًا على الإسكندرية وبابليون وممالك أخرى كثيرة. فإذا ذهبنا إلى القدس، وبسبب نقص الماء ، رفعنا الحصار ، فلن نفعل هذا أو غيره فيما بعد ».

« ولكن البعض الآخر قالوا معارضين : لا يوجد فى الجيش سوى ما يقرب من ألف وخمسمائة فارس ، كما أن عدد الرجال المسلحين ليس كبيراً ؛ ومع هذا تقترحون أن نذهب إلى مناطق بعيدة ومجهولة حيث لن نكون قادرين على نيل المساعدة من قومنا ، أو على وضع حامية فى أية مدينة نستولى عليها، فضلاً عن أننا لن نستطيع العودة إذا دعت الضرورة لذلك. فلنسر على طريقنا، وليساعدنا الرب فى الحصار ويعيننا على العطش والجوع وغير ذلك».

« وبناء على ذلك ، تركنا حامية فى قلعة الرملة مع الأسقف الجديد ، ووضعنا الأحمال فوق جمالنا وثيراننا، وكل حيوانات حمل المتاع والخيول، ثم سرنا صوب القدس. وعلى أية حال

---

(١) يتحدث المؤرخ هنا بلهجة التوراة ، ويجب أن نلاحظ أنه كان قسيسًا ، و«إسرائيل» هنا تعنى أبناء داود الذين أقاموا قديما فى هذه الأرض، وكان المسيحيون يعتبرون أنفسهم ورثة هذه الأرض بعد أن فقد اليهود حقهم فيها حين رفضوا المسيح.

نسينا الأمر الذى وجهه لنا بطرس بارثولوميو بالاً نقترب من القدس إلا ونحن حفاة الأقدام، ولم نعرها أى اهتمام، إذا كان إمرىء بدافع من طموحه فى إحتلال القلاع والقرى، يود لو سبق الآخرين . إذ كانت عاداتنا أنه إذا وصل أحد إلى قلعة أو قرية أولاً ورفع رايته عليها مع بعض الحراس ، لا يمسها أحد من بعده . ومن ثم ، كان هذا الطموح دافعهم للنهوض فى منتصف الليل ، دون انتظار لرفاقهم ، لكى يستولوا على كافة الجبال والقرى فى مروج الأرض. ومع ذلك ، كانت هناك قلة تأخذ أمر الرب مأخذ الجد، فساروا حفاة الأقدام وهم يتنهدون فى أسى لأن القوم احتقروا كلمة الرب؛ إلا أن أحداً لم يستدع رفيقا له من هذا السباق الطموح . كذلك حدث عندما اقتربنا من القدس على هذا النحو المتسرع أن خرج أهل القدس لملاقاة أول من وصل من الرجال وجرحوا عدداً كبيراً من الخيول. كما سقط من هؤلاء الرجال أربعة أو ثلاثة فى ذلك اليوم ، وجرح الكثيرون ..

« وكان الدوق جودفرى وكونت الفلاندرز وكونت نورماندى يحاصرون المدينة من الجانب الشمالى، من كنيسة القديس ستيفن القائمة فى وسط المدينة إلى الجنوب من برج متعدد الزوايا يلىْ برج داود. أما الكونت ريمون وجيشه، فكانوا يعسكرون فى الغرب وفرضوا حصارهم على المدينة من معسكر الدوق حتى سفح صهيون. ولكن لأن رجاله لم يستطيعوا التقدم لحصار السور بسبب وجود أخدود طبيعى يحول بينهم وبين السور، أراد الكونت أن يحرك معسكره ويغير مواقعه. وذات يوم، وبينما كان يقوم بالاستطلاع ، وصل إلى جبل صهيون وشاهد الكنيسة القائمة على الجبل. وعندما سمع عن المعجزات التى أنجزها الرب هناك، قال لقادة جيشه ولرفاقه : «إذا تجاهلنا هذا العرض المقدس، الذى قدمه الرب لنا بكرمه ورحمته ، واحتل المسلمون هذا المكان، فماذا سيبقى لنا؟ ماذا لو أنهم دمروا هذا الأشياء المقدسة وقضوا عليها بدافع من كراهيتهم لنا؟ من يدرى أن الرب لا يمتحننا بهذه الفرصة ويختبر مدى احترامنا له؟ إننى أعرف على سبيل اليقين أمراً واحداً وهو؛ أننا إذا لم نتول حماية هذا المكان المقدس بحرص ، فإن الرب لن يعطينا الأماكن الأخرى داخل المدينة» . وهكذا، أمر الكونت ريمون بتحريك خيامه إلى هذا المكان ، ضد رغبة قادة الجيش الآخرين، باستثناء عدد قليل ممن صحبوه. وعلى أية حال، فإن الكونت كان يغدق كثيرا من المكافآت على أولئك الفرسان والمشاة الذين تولوا حراسة معسكره، والكنيسة تحتوى على هذه الكنوز ـ مقبرة الملك داود ومقبرة الملك سليمان، إلى جانب مقبرة أول الشهداء القديس ستيفن. وهناك فارقت مريم المباركة هذا العالم؛ كما أن الرب تناول عشاءه هناك، بعد قيامته من بين الموتى، وظهر لتلاميذه ولتوماس. وفى هذه البقعة أيضاً امتلأ الحواريين بالروح القدس.

«وعلى ذلك ، فإنه حين تم فرض الحصار، حدث ذات يوم أن بعض قادة الجيش قابلوا ناسكا فوق جبل الزيتون، وقال لهم : «إذا كنتم ستهاجمون المدينة غداً حتى الساعة التاسعة فإن الرب سوف يسلمها لكم» . وأجابوه : «ولكننا لا نملك الآلات الضرورية لاقتحام الأسوار» فرد عليهم الناسك بقوله: «إن الرب قوى، فإذا شاء ، فإنه سوف يقتحم الأسوار حتى لو لم تكن هناك سلالم ، إن الرب يساعد من يعملون فى سبيل الحق»، وهكذا تم شن الهجوم فى الصباح بتلك الآلات التى أمكن صناعتها أثناء ساعات الليل. واستمر هذا الهجوم على المدينة حتى الساعة الثالثة. وأجبر المسلمون على التقهقر خلف الأسوار الداخلية، لأن الأسوار الخارجية انهارت على أيدى رجالنا الذين تسلق بعضهم فوق الأسوار الداخلية نفسها . وعندما كانت المدينة على وشك السقوط، فشل الهجوم فى غمار الفوضى والرغبة والخوف، وفقدنا عددا كبيرا من الرجال. وفى اليوم التالى لم تقم بأية محاولة للهجوم.

« وبعد ذلك ، تبعثر الجيش كله فى مناطق الريف المجاورة لجمع المؤن، ولم يرد حتى ذكر ضرورة تجهيز الآلات اللازمة للإستيلاء على المدينة. فقد كان كل رجل يخدم فمه ومعدته؛ أما ما هو أسوأ من ذلك، فإنهم حتى لم يطلبوا من الرب أن يحررهم من مثل هذه الشرور العظيمة المتعددة ، كما أنهم ابتلوا بالموت. فقبل وصولنا مباشرة ، كان المسلمون قد طمروا عيون الماء، وطمروا الآبار، كما سدوا الينابيع . كما أن الرب نفسه قد حول مجرى الأنهار إلى البرية وحول عيون الماء إلى أرض عطشى بسبب شرور السكان هناك. ومن ثم كان الحصول على الماء يتم بصعوبة بالغة. وهناك نافورة عند سفح جبل صهيون تسمى بركة سيلوم(*). وهى فى الواقع ينبوع كبير، ولكن المياه لا تنبثق منه سوى مرة كل ثلاثة أيام، ويقول سكان المنطقة إنها فى الماضى كانت تفرغ ماءها يوم السبت فقط؛ وتظل عامرة بالمياه طوال بقية الأسبوع. ولسنا نعرف كيف نشرح هذا، كما ذكرنا، كانت تستهلك فى سرعة ويتزاحم الناس عليها لدرجة أنهم كانوا يدفعون البعض داخلها، كما نفقت أعداد كبيرة من الحيوانات فيها. ولكن عندما امتلأت البركة بالزحام وجثث الحيوانات الميتة، كان الأقوياء يشقون طريقهم عبر الصخرة التى كانت فتحة المياه تخرج منها، بينما كان الضعفاء لا يحصلون سوى على المياه التى تلوثت. وسقط كثيرون من المرضى بجوار العين، وقد تدلت ألسنتهم الجافة بحيث عجزوا عن أن ينطقوا بكلمة واحدة؛ وكانوا يمدون أياديهم وأفواههم مفتوحة تجاه أولئك الذين كانوا يحملون الماء. وفى

(*) هى «عين سلوان».

الساحة كانت هناك خيول وبغال وماشية كثيرة، ومعظمها قد خارت قواها لدرجة أنه لم تعد تستطيع الحركة. وعندما نفقت بسبب شدة العطش، جافت جثثها بحيث أفسدت الأماكن التى تواجدت بها، وانتشرت فى أرجاء المعسكر رائحة نتنة تجلب المرض. وبسبب هذا الموت لم تعد هناك ضرورة لإحضار الماء من مسافة بعيدة، كما لم تعد هناك ضرورة لأن نسوق الماشية إلى أماكن بعيدة لنسقيها. وعندما لاحظ المسلمون أن رجالنا يذهبون إلى أماكن المياه غير مسلحين عبر الممرات الخطرة فى التلال، كانوا يعدون لهم الكمائن. وقتلوا منهم الكثيرين واستولوا على حيواناتهم وماشيتهم. وقد بلغ من سوء الموقف أنه عندما كان أى أحد يحضر الماء فى الأوعية، كان يمكنه أن يحصل على أى سعر يريده، وإذا أراد أحد أن يحصل على مياه نقية مقابل خمس أو ست نوميسمات، فإن ما يحصل عليه لن يكفى لرى ظمئه يوماً واحداً. كما أن الخمر لمْ تكن موجودة على الإطلاق، أو لا توجد إلاَّ نادراً. وبالإضافة إلى ذلك، كان الحر والتراب والريح تزيد من عطشهم، وكان ذلك لم يكن شيئاً فى حد ذاته. ولكن لماذا نتحدث كثيراً هكذا عن هذه المتاعب؟ فالواقع أنه لم يكن هناك أحد، أو كان هناك عدد قليل، يفكرون فى الرب، أو فى العمل المطلوب للإستيلاء على المدينة، كما أنهم لم يبذلوا جهدا لكى يقف الرب بجوارهم. وهكذا لم نعرف الرب فى خضم البلوى التى حاقت بنا، كما أنه لم يظهر مساندته لمن لم يشكره.

«وفى الوقت نفسه، وصلت الرسل إلى المعسكر، ليعلنوا أن سفننا قد وصلت إلى جوبا (١) وأن البحارة يطلبون إرسال حراسة لحفظ برج جوبا ولحمايتهم فى الميناء، لأن مدينة جوبا قد دمرت كلها باستثناء القلعة، التى كانت قد صارت خراباً تقريباً، فيما عدا أحد الأبراج. وعلى أية حال، فهناك ميناء، وهو أقرب ميناء إلى مدينة القدس، على مسيرة يوم تقريباً. وابتهج رجالنا جميعاً عندما وصلتهم أخبار السفن، وأرسلوا الكونت جالدمار وكنيته كابيللوس، وبصحبته عشرين فارساً وحوالى خمسين من المشاة. وفيما بعد، أرسلوا ريمون بيليتوس يرافقه خمسون فارساً ووليم السابرانى وأتباعه.

«وعندما اقترب جالدمار وفرقته من السهول الواقعة بجوار الرملة، قابلوا قوة قوامها أربعمائة من العرب المختارين وحوالى مائتين من الأتراك. ولأن رجال جالدمار كانوا قلة قليلة، فقد رتبهم على أساس أن يكون الفرسان وحملة الأقواس فى المقدمة، ووضع ثقته فى الرب، ثم

---

(١) يقصد يافا.

هاجم العدو دون تردد. وظن الأعداء أنهم قادرون على سحق هذه العصبة، فاندفعوا صوبهم يرشقونهم بالسهام، وأحاطوا بهم. وقتل ثلاثة أو أربعة من فرسان جالدمار، بينهم أشارد المونتميرلى، الذى كان شاباً نبيلاً وفارساً ذائع الصيت، وجرح آخرون على حين قتل كل رماة السهام. وعلى أية حال، فقد قتل الكثيرون من أفراد العدو أيضاً. ومع هذا، فإن هجوم العدو لم ينجح بسبب هذا، كما أن شجاعة فرساننا، فرسان الرب، لم تخنهم، فعلى الرغم من عبء الجراح التى تعرضوا لها والموت نفسه، صمدوا فى مواجهة أعدائهم، وكلما اشتدت معاناتهم من الأعداء، اشتدت شراستهم فى مواجهتهم. ولكن عندما كان زعماؤنا على وشك الانسحاب، بسبب التعب وليس خوفاً من العدو، ظهرت سحابة من الغبار وهى تقترب. فقد كان ريمون بيليتوس يندفع رأسا إلى المعركة برجاله. كما أن رجاله أثاروا غباراً كثيراً لدرجة أن العدو ظن أنهم كانوا كثرة كثيرة من الفرسان. وهكذا، وبفضل نعمة الرب، تم تخليص رجالنا. وتشتت الأعداء وهربوا، وقتل منهم حوالى مائتين، وتم الأستيلاء على كثير من الغنائم والأسلاب. ومن عادة هؤلاء القوم أنهم إذا هربوا، وضيق عليهم العدو الخناق، يبادرون برمى سلاحهم ثم ملابسهم، ثم سروج خيولهم. وهكذا حدث فى هذا القتال أن استمر فرساننا فى قتل الأعداء حتى بلغ منهم الأرهاق مداه، واحتفظوا بالغنائم التى استولوا عليها من الباقين، حتى أولئك الذين لم يقتلوهم.

«وبعد أن انتهت المطاردة اجتمع رجالنا، وقسموا الغنائم، ثم ساروا إلى جوبا، واستقبلهم البحارة بفرح عظيم وشعروا بالأمان بعد وصولهم لدرجة أنهم نسوا سفنهم وأهملوا فى مراقبة البحر ولكنهم أمدوا الصليبيين بكثير من الخبز والخمور والأسماك التى جلبوها فى سفنهم. ولأن البحارة أهملوا فى تأمين أنفسهم، فلم يضعوا حراسة ليلية، وتحت جنح الليل أحاط بهم العدو بغتة من البحر. وعندما لاح الفجر، أدركوا أن العدو أقوى كثيرا من أن يقاوموه، فهجروا سفنهم حاملين معهم الغنائم فقط. وهكذا، عاد فرساننا إلى القدس بعد أن كسبوا معركة وخسروا أخرى. وعلى كل حال، فإن إحدى سفننا كانت قد خرجت للنهب ولم تقع فى أيدى المسلمين. وكانت عائدة إلى الميناء محملة بقدر كبير من الغنائم عندما شاهدت بقية سفننا يحيط بها أسطول كبير للعدو. واستخدمت المجانيف والشراع فى الهرب إلى اللاذقية وأخبرت أصدقاءنا ورفاقنا فى الميناء بما كان يجرى فى أورشليم. وعرفنا أننا كنا نستحق هذا السوء، لأننا لم نشأ أن نصدق الكلمات التى أرسلها لنا الرب. وإذ تملك اليأس من رحمة الرب قلوب الرجال، ذهبوا إلى وادى نهر الأردن، وجمعوا الصدقات، وتعمدوا فى مياه النهر، وكان

قصدهم الأساسى من هذا أن يتخلوا عن الحصار، فقد شاهدوا القدس وكان قصدهم أن يذهبوا إلى جوبا، ومنها يبحثون عن وسيلة يعودون بها إلى وطنهم. ولكن الرب كان يتولى العناية بسفن من لا يخلصون له.

« وفى الوقت نفسه ، عقد اجتماع عام، لأن قادة الجيش كانوا يتنازعون فيما بينهم. فقد ساد شعور بعدم الرضا لأن تنكرد احتل بيت لحم ورفع رايته فوق كنيسة الميلاد، كما لو كانت منزلاً عاديًا. كما بذلت الجهود أيضًا لإنتخاب أحد الأمراء ملكًا ليتولى حفظ المدينة، وحتى لا يضيع ما تم إحرازه سويًا إذا لم نجد من يهتم بشئون المدينة، وذلك إذا منحنا الرب هذه المدينة. وأجاب الأساقفة والقساوسة على هذا الاقتراح بقولهم «لاينبغى لكم أن تختاروا ملكًا فى المكان الذى شهد معاناة المسيح وتتويجه بالشوك. ذلك أنه لو كان هناك ملك مجرد من الإيمان والفضيلة، لقال فى قلبه : إننى أجلس على عرش داود وأمسك بزمام مملكته» ، وربما قضى عليه الرب بالدمار وحل غضبه على المكان وأهله . وكما أن النبوءة تقول إنه حين يأتى الرب، سيتوقف العمل الردىء لأن الشعوب جميعًا ستعرف أنه أتى. ولكن يجب أن يكون هناك وصى لحراسة المدينة ويقسم الضرائب والإيجارات فى الإقليم بين من يتولون حراسة المدينة». ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، توقفت عملية الانتخاب وتأجلت إلى اليوم الثامن بعد الإستيلاء على القدس. ولم تكن أحوالنا على ما يرام فى هذه المسألة فقط، ولكنها كانت سيئة فى أمور أخرى كثيرة، وكانت متاعب الناس تزداد يومًا بعد يوم. ومع هذا، فإن الرب الرحيم الكريم، تكريما لاسمه، ولئلا يقول أعداؤنا «أين إلههم؟ » ويهينون دينه، أرسل لنا رسالة عن طريق السيد أديمار، أسقف لوبوى [1] تشرح لنا كيف نتقى غضبه ونستجلب رحمته. وعلى أية حال، فإننا دعونا إلى فعل هذا دون ذكر لأوامر الرب، لئلا يتجاهل الناس هذا الأمر من الرب وتحل بهم البلوى، لأنهم حينئذ سيكونون أكثر استحقاقًا للعقاب، ولأن الرب كان رحيمًا بنا كان يرسل لنا هذه الرسائل الكثيرة، بيد أن إخواننا هم الذين لم يكونوا ينصتون إليها .

« فقد ظهر الأسقف أديمار أمام بطرس ديزيدير يوس وقال له : «تحدث إلى الأمراء وإلى الناس جميعًا وقل لهم: جئتم من بلاد نائية لكى تعبدوا الرب سيد الجيوش، فطهروا أنفسكم من آثامكم، وليترك كل منكم طريق الشر الذى يسلكه. ثم سيروا بأقدام حافية حول القدس تحثون الرب، ويجب أيضًا أن تصوموا . فإذا فعلتم هذا ثم قمتم بهجوم كبير على المدينة فى

(١) كان أديمار قد مات فى أنطاكية قبل عدة شهور.

اليوم التاسع، فسوف تسقط بأيديكم. أما إذا لم تفعلوا ، فإن الرب سوف يضاعف لكم الشرور التى عانيتم منها».

« وعندما قال القسيس هذا الكلام لوليم هوجو، شقيق الأسقف، ولسيده الكونت يسورد، ولبعض القساوسة، جمعوا الأمراء وخاطبوهم على النحو التالى: «أيها الأخوة، إنكم تعلمون السبب فى قيامنا بهذه الحملة ، كما تعرفون ما قاسيناه، وأننا نتصرف بإهمال لدرجة أننا لا نبنى الآلات اللازمة للإستيلاء على المدينة. كذلك ، فإننا لسنا حريصين فى استمالة الرب إلينا، لأننا نغضبه بعدة وسائل بأفعالنا الشريرة التى أبعدته عنا. والآن، فإذا كنتم ترون هذا صوابًا، فليصالح كل منكم أخاه الذى كان قد أغضبه من قبل، وليكن الأخ كريما فى العفو عن أخيه. وبعد هذا فلنتواضع أمام الرب، ولنسر حول مدينة القدس حفاة الأقدام، ونطلب رحمة الرب بشفاعة القديسين، فهو الذى من أجلنا ترك شكله الإلهى وتجسد فى اللحم البشرى، وخرج من المدينة فى تواضع على ظهر حمار لكى يعانى الموت على الصليب فداء لخطايانا، فربما جاء لمساعدتنا. وإذا قمنا بهذه المسيرة حول الأسوار من أجل مجد اسمه وشرفه، فسوف يفتح لنا المدينة ويجعلنا حكامًا على أعدائنا وأعدائه، الذين اغتصبوا ملكية مكان معاناته ودفنه، ويدنسونه الآن، وهم الأعداء الذين يسعون لحرماننا من بركة المكان الذى شهد عذاب الرب وخلاصنا».

« وكانت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على الأمراء وعلى الناس جميعًا، وصدرت الأوامر للكافة بأن القساوسة سوف يقودون فى يوم الجمعة التالى المسيرة حول المدينة وهم يحملون الصلبان وذخائر القديسين ورفاتهم المقدسة، على حين يتبعهم الفرسان وكل الرجال الأقوياء حفاة الأقدام، تصاحبهم الطبول والبيارق والأعلام، والأسلحة. وقد فعلنا هذا كله وفقًا لأوامر الرب والأمراء. وعندما وصلنا تلك البقعة التى صعد منها الرب من فوق جبل الزيتون إلى السماء بعد قيامته، قيلت الخطبة التالية للناس «الآن ونحن فوق البقعة التى صعد منها الرب، ولا يمكننا أن نفعل ما هو أكثر من ذلك لكى نطهر أنفسنا ، فليسامح كل واحد منكم أخاه الذى آذاه، حتى يسامحنا الرب» . وماذا بعد ؟ لقد تصالح الجميع مع بعضهم البعض، وسعينا لطلب رحمة الرب بالهبات الكريمة، حتى لا يتخلى عن شعبه الآن، وهو الذى قادهم بهذا الشكل المجيد والإعجازى إلى هذا الهدف. وهكذا، حصلنا على رحمة الرب، إذ تحول كل شىء كان ضدنا لصالحنا.

« وعلى الرغم من أننا أغفلنا ذكر أمور كثيرة، فإن هذا الأمر ينبغى أن نسجله. ذلك أنه بينما كنا نسير حول المدينة التف المسلمون والأتراك على الأسوار ، وسخروا منا بعدة طرق. ووضعوا عدة صلبان على السور فى النّيْر مكان الحيوانات، وسخروا منها بالضرب، وبأعمال أخرى مهينة. وقمنا نحن بدورنا بتشديد الحصار ليلاً ونهارا، على أمل أن يساعدنا الرب فى اقتحام المدينة عن طريق هذه العلامات...».

« وفيما بعد، ذهب قومنا جميعًا إلى ضريح سيدنا، وقد غمرنا الفرح وأخذنا نبكى من السرور، وقام كل منهم بالوفاء بالنذر الذى فى عنقه. وفى الصباح ، صعد رجالنا فوق سطح المعبد بحذر وهاجموا المسلمين، رجالاً ونساءً وأطاحوا رؤوسهم بالسيوف المسلولة؛ وقفز الباقون داخل المعبد حيث لاقوا حتفهم. وعندما سمع تنكرد بهذا امتلأ غضباً.

« وكان الدوق وكونت نورماندى وكونت الفلاندرز قد عينوا جاستون البيرتى مسئولاً عن الصناع الذين كانوا يبنون آلات الحصار. وبنوا أبراجًا ومنصات لمهاجمة الأسوار. وقد أنيطت بجاستون مهمة الإشراف على هذا العمل لأنه كان سيدا نبيلاً للغاية، كما كان محل احترام الجميع لمهارته وسمعته. وبمهارة شديدة استطاع أن يسرع فى إنجاز العمل بتقسيمه بين الناس. فقد انشغل الأمراء بإحضار المواد، على حين كان جاستون يشرف على عملية بناء الآلات. كذلك فإن الكونت ريمون، عين وليم ريكو مشرفا على العمل الذى كان يجرى فوق جبل صهيون وعين أسقف ألبارا مسئولاً عن المسلمين وغيرهم ممن كانوا يتولون إحضار الأخشاب. فقد كان رجال الكونت قد استولوا على عدد كبير من قلاع المسلمين وقراهم، وأجبروا المسلمين على العمل، كما لو كانوا أقنانًا لديهم. وهكذا كان خمسون أو ستون رجلاً يحملون على أكتافهم لوحًا ضخمًا من الخشب لا يمكن لأربعة أزواج من الثيران أن تجره ، وذلك من أجل بناء الآلات عند القدس. ترى ماذا يمكن أن أقوله أكثر من ذلك ؟ لقد كان الجميع يعملون فى سبيل هدف واحد، ولم يكن أحد يتكاسل ، كما أن أحداً لم يبق بلا عمل. كان الجميع يعملون دون أجر، باستثناء الصناع الحرفيين، الذين كان أجرهم يدفع من الأموال التى جمعت من الناس. وعلى أية حال، فإن الكونت ريمون كان يدفع لعماله من خزانته الخاصة. ولا شك فى أن يد الرب كانت معنا تساعد أولئك الذين كانوا يعملون.

« وعندما انتهت جهودنا باستكمال الآلات، عقد الأمراء إجتماعًا وأعلنوا : «على كل الناس أن يعدوا أنفسهم للمعركة يوم الخميس ؛ وفى الوقت نفسه، يجب أن نصلى ونصوم، ونعطى

الصدقات. سلموا حيواناكم وأولادكم للحرفيين والنجارين ، لكى يحضروا ألواح الخشب، والأعمدة، وجذوع الأشجار وفروعها لصناعة المنصات الواقية، ولصناعة سلم لتسلق السور. لا تترددوا فى العمل من أجل الرب، لأن جهودكم سوف تنتهى فى القريب العاجل». وقد سارع الناس إلى عمل هذا. ثم تقرر تخصيص الجزء الذى سيتولى كل قائد مهاجمته، وتم تحديد المكان الذى سيضع فيه كل منهم آلاته.

« فى الوقت نفسه ، عندما لاحظ المسلمون فى المدينة العدد الكبير من الآلات التى بنيناها، أخذوا فى تدعيم الأجزاء الضعيفة فى السور، حتى لا يمكن قهرهم سوى بمجهودات مستميته. ولأن المسلمين أقاموا عددا كبيراً من التحصينات فى مواجهتنا وللتصدى لآلاتنا، فقد أمضى الدوق وكونت الفلاندرز وكونت نورماندى الليلة السابقة على اليوم المحدد للهجوم فى تحريك آلاتهم ومنصاتهم إلى ذلك الجزء من المدينة الذى يقع ما بين كنيسة القديس ستيفن ووادى يوشيفاط. وأنت يا من تقرأ هذا لا يجب أن تظن أن ذلك كان عملاً سهلاً أو هيناً، لأن الآلات حملت أجزاء مفككة لمسافة تقرب من ميل إلى المكان الذى كان سيتم تركيبها فيه. وعندما لاح الصباح ورأى المسلمون أن كل الآلات والخيام قد نقلت أثناء الليل، انتابتهم الدهشة. ولم يكن المسلمون فقط هم الذين أصابتهم الدهشة، وإنما اندهش رجالنا أيضًا، لأنهم أيقنوا أن يد الرب معنا. وقد أجرى هذا التغيير لأن المكان الجديد الذى وقع عليه الإختيار كان مستويا ، ومن ثم كان يسهل عملية تحريك الآلات لمهاجمة أسوار المدينة ، وهو ما لا يمكن القيام به ما لم تكن الأرض مستوية ؛ وكذلك لأن هذا الجزء من المدينة كان يبدو أضعف لعدم وجود أية تحصينات به، لأنه كان بعيداً عن معسكرنا . ويقع هذا الجزء من المدينة فى جهة الشمال.

« وكان رجال الكونت ريمون يعملون أيضًا بجد فوق جبل صهيون، بيد أنهم تلقوا مساعدة كبيرة من وليم ياكو والبحارة الجنويين، الذين بالرغم من فقدانهم لسفنهم فى جوبا، كما أسلفنا القول، تمكنوا من الإحتفاظ بالحبال، والمطارق، والقضبان المسننة، والبلط، والفئوس ، التى كانت ضرورية جداً لنا. ولكن لماذا نؤجل رواية القصة ؟ لقد جاء اليوم الموعود وبدأ الهجوم. وعلى أية حال، فإننى أريد أن أقول هذا أولاً : ذلك أنه وفقا لتقديرنا وتقدير كثيرين آخرين، كان يوجد بالمدينة ستون ألف مقاتل، دون أن نحسب النساء وغير القادرين على حمل السلاح، ولم يكن هؤلاء كثيرين. وعلى أكثر تقدير لم يكن لدينا أكثر من إثنى عشر ألفًا قادرين على حمل السلاح، لأنه كان هناك كثير من الفقراء والمرضى. وكان جيشنا يضم حوالى ألف

ومائتى فارس أو ألف وثلاثمائة فارس، كما أحصيتهم، ولم يكونوا أكثر من ذلك. إننى أقول هذا لعلكم تدركون أنه لا يمكن لشىء يتم باسم الرب، سواء كان عملاً كبيراً أو صغيراً، أن يفشل، كما تكشف الصفحات التالية.

« وبدأ رجالنا يقوضون الأبراج والأسوار. ومن كل جانب كانت القذائف الحجرية تنهمر من المنجنيقات والمقاليع، وكذلك كانت السهام تتساقط بغزارة وكأنها البَرَد يسقط من السماء. وقد تحمل خدام الرب هذا فى صبر، وتجلدوا متمسكين بأهداب دينهم، سواء قتلوا أو كتب لهم أن يتغلبوا على عدوهم. ولم تظهر فى المعركة أية بادرة للنصر، ولكن عندما تم سحب الآلات بالقرب من الأسوار، لم يكتفوا بقذف الأحجار والسهام، وإنما أخذوا يقذفون الأخشاب والقش المشتعل. وكان الخشب مغموسًا فى الشحم والشمع، والكبريت ، ثم يربط بها القش برباط حديدى، وعندما تُشعل تنطلق هذه القذائف النارية من الآلات. وكانت كلها مربوطة سويًا برباط حديدى، كما قلت ، بحيث تظل القذيفة مشتعلة سويًا حيثما سقطت. مثل هذه القذائف التى تشتعل عند إطلاقها لا يمكن مقاومتها بالسيف أو بالأسوار العالية، بل إنه لم يكن من الممكن للمدافعين أن يجدوا الأمان خلف الأسوار. وهكذا استمر القتال منذ شروق الشمس حتى الغروب بطريقة رائعة لدرجة أنه من الصعب أن نصدق أنه قد حدث من قبل شىء مجيد أكثر من هذا . ثم استعنا بالرب العظيم، قائدنا ومرشدنا، وكلنا ثقة فى رحمته. وأسدل الليل ستاره وجلب الخوف للجانبين. فقد كان المسلمون يخافون أن نستولى على المدينة أثناء الليل أو فى اليوم التالى. لأن الأجزاء الخارجية كان قد تم اختراقها، كما ردم الخندق المحيط بالمدينة، بحيث كان يمكن أن نشق لأنفسنا مدخلاً فى السور بسرعة. ومن ناحيتنا ، كنا نخشى فقط أن يشعل المسلمون النيران فى الآلات التى حركناها قريبًا من السور، وبذلك يتحسن موقفهم. ولذا كانت تلك الليلة بالنسبة للجانبين ليلة مراقبة، وعمل، ويقظة لا تتوانى؛ وفى ناحية كان هناك أمل أكيد، وعلى الجانب الآخر كان الخوف ممزوجًا بالشك. وقد عملنا بانشراح للإستيلاء على المدينة تمجيداً للرب، أما هم فكانوا يقاومون جهودنا فى سبيل قوانين محمد، ومن الصعب أن نصدق كم كانت عظيمة تلك الجهود التى بذلت على كلا الجانبين أثناء ساعات الليل.

« وعندما أصبح الصباح ، اندفع رجالنا بحماسة صوب الأسوار وسحبوا الآلات إلى الأمام، ولكن المسلمين كانوا قد بنوا آلات كثيرة لدرجة أنه فى مقابل كل آلة من آلاتنا كان هناك تسع أو عشر آلات للمسلمين. وهكذا أحبطوا جهودنا إلى حد كبير. وكان هذا هو اليوم

التاسع، الذى قال القسيس إننا سوف نستولى فيه على المدينة. ولكن لماذا أؤجل القصة طويلاً هكذا؟ لقد دمرت أجزاء من آلاتنا بسبب الحجارة التى أصابتها، ونال الإرهاق والتعب من رجالنا. ومع هذا، كانت هناك رحمة الرب التى لا يمكن قهرها أبداً أو التغلب عليها، ولكنها نبع الدعم والتأييد فى أوقات الشدة والضيق. ويجب أن تحذف حادثة واحدة. ذلك أن إمراتين حاولتا سحر إحدى القاذفات، ولكن حجر سحقهما، كما سحق ثلاثة من العبيد، وهكذا انتهت حياتهم وتجنبنا التعويذة الشريرة.

« وعند الظهر كانت شجاعة رجالنا قد خارت إلى حد كبير. فقد كانوا متعبين وقد نال منهم الإرهاق مداه. وكان ما يزال هناك عدد كبير من الأعداء يتصدون لرجالنا؛ وكانت الأسوار عالية جداً وقوية ، كما أن الموارد الهائلة والمهارة الكبيرة التى أبداها العدو فى إصلاح دفاعاته ظهرت لنا أكبر من أن نستطيع التغلب عليها. ولكن عندما كنا قد بدأنا نتردد ونتخاذل ، والعدو قد أخذ يعمل على هزيمتنا، ألهمتنا رحمة الرب الغالبة وحولت حزننا وأسفنا إلى سرور، لأن الرب لم يتخل عنا. فبينما كان هناك اجتماع منعقد ليقرر ما إذا كنا سنسحب آلاتنا أم لا ، لأن بعضها كان قد احترق، وتفسخت الآلات الباقية إلى أجزاء، بدأ أحد الفرسان على جبل صهيون يلوح بسيفه لأولئك الذين كانوا مع الكونت والآخرين، وهو يشير لهم بأن يتقدموا. ولم نكن قادرين على التعرف على هوية هذا الفارس. وعند هذه الإشارة، بدأ رجالنا يتشجعون ، وبدأ البعض ينزلون من فوق الأسوار، على حين كان البعض الآخر يصعدون بالسلالم والحبال. وأخذ رماتنا يقذفون القذائف النارية، وبهذا قللوا من قوة الهجوم الذى كان المسلمون يشنونه على الأبراج الخشبية للدوق وكونت نورماندى وكونت الفلاندرز. وكانت القذائف النارية ملفوفة فى القطن. هذا الوابل المنهمر من النيران أبعد المدافعين عن الأسوار. ثم قام الكونت فى سرعة بمد جسر طويل كان يحمى البرج الخشبى المجاور للسور، فارتطم بالسور بعد أن سقط من عل، وتم تثبيته فى منتصف البرج ليصنع جسراً بدأ رجالنا يدخلون منه إلى القدس فى جسارة وإقدام. وكان بين أولئك الذين دخلوا أولا تنكرد ودوق اللورين، وقد أراقوا من الدماء فى ذلك اليوم كمية لا يمكن تخيلها. وصعد الجميع بعدهم. وعندئذ بدأت معاناة المسلمين.

« ومن الغريب على كل حال، أنه حدث فى ذلك الوقت، عندما كانت المدينة قد سقطت فعلاً فى أيدى الفرنج، أن كان المسلمون ما يزالون يقاتلون فى الجانب الآخر، حيث كان الكونت

يهاجم السور كما لو أن المدينة لن تسقط أبداً. ولكن ما أن استولى رجالنا على السور والأبراج، تجلت علامات مدهشة. فبعض رجالنا (وكانت هذه رحمة بالغة) أطاحوا برؤوس أعدائهم؛ بينما رشقهم البعض الآخر بالسهام، بحيث سقطوا من الأبراج، على حين عذبهم البعض فترة طويلة بأن قذفوهم فى النار أحياء. وكانت أكوام الرؤوس والأيدى والأرجل تسترعى النظر فى شوارع المدينة. وكان المرء يشق طريقه بصعوبة بين جثث الرجال والخيول. ولكن هذه كانت أموراً صغيرة إذا ما قورنت بما جرى فى معبد سليمان، وهو مكان تتم فيه عادة الخدمة الدينية. ترى ما الذى حدث هناك ؟ إذا ذكرت الحقيقة ، فإنها ستتعدى قدرتكم على التصديق. ولذا يكفى أن أقول إنه فى معبد سليمان كان الرجال يخوضون فى الدماء حتى ركبهم وحزام ركابهم. والواقع أنه كان حكمًا عادلاً ومحترمًا من الرب أن يمتلئ هذا المكان بدماء الكفار، لأن هذا المكان طالما عانى من دنسهم. وامتلأت المدينة بالجثث والدماء، واحتمى بعض الأعداء فى برج داود، وتوسلوا إلى الكونت ريمون أن يحميهم وسلموا له البرج.

« والآن تم الاستيلاء على المدينة ، وهى جديرة بكل أعمالنا السابقة والمصاعب التى واجهناها لترى إخلاص الحجاج فى الضريح المقدس. كم كانوا سعداء تغمرهم البهجة وهم يغنون للرب أغنية جديدة ! لأن قلوبهم كانت تسدى صلاة الشكر الرب ، وهم ظافرون منتصرون ، وهو ما تعجز الكلمات عن تصوره .....»

رواية الفارس المجهول (*)

« ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى ركب رجالنا ضد طرابلس، وانقضوا على الأتراك والعرب والمسلمين خارج المدينة. وقد أرعبهم رجالنا وأجبروهم على الفرار بعد أن قتلوا كثيرين من أعيان المدينة. وكانت دماء القتلى من الوثنيين من الكثرة لدرجة أن المجرى المائى الذى يدخل المدينة أحمر لونه وأفسد المياه فى خزانات سكان المدينة، وهو الأمر الذى أصابهم بالحزن واللوعة، وتملكهم الخوف بحيث لم يجرؤ أحد منهم على الخروج من بوابة المدينة.

« وفى يوم آخر ساق رجالنا إلى ما وراء سيم، فوجدوا الثيران والماشية والحمير وحيوانات أخرى كثيرة، كما جلبوا معهم ما يقرب من ثلاثة آلاف جمل. وذهبنا لحصار عرقة لمدة شهور ثلاثة تنقص يومًا واحداً، واحتفلنا هناك بعيد الفصح فى ١٠ أبريل . وعندما كان الحصار

(١) Gesta, pp. 84 - 92.

قائماً، أرست سفننا في ميناء قريب (١)، وكانت محملة بالمؤن الوفيرة، من القمح، والنبيذ، واللحم، والزيد والشعير، وهو ما وفر للجيش كله ما يحتاج من مؤن. وقد استشهد كثيرون من رجالنا منهم أنسلم الريبيمونتي ووليم بيكارد وكثيرون لا أعرف أسماءهم. وقد أرسل ملك طرابلس عدة رسائل إلى قادتنا، يطلب منهم رفع الحصار وعقد معاهدة معه. وعندما سمع الدوق جودفري وريمون كونت سان چيل وروبرت النورماندي وكونت الفلاندرز بهذا، ورأوا أن موسم الحصاد قد جاء، لأننا كنا نأكل فول الربيع في منتصف مارس والغلال في منتصف أبريل، تشاوروا سوياً وقرروا أنه سيكون من الأحسن أن يتموا الرحلة إلى القدس في وقت الحصاد.

« ومن ثم رحلنا عن القلعة حتى وصلنا طرابلس في يوم الجمعة الثالث عشر من مارس، وهناك مكثنا ثلاثة أيام. وأخيراً عقد ملك طرابلس معاهدة معنا يطلق بمقتضاها في الحال ثلاثمائة حاج كان قد أسرهم ، وأن يعطينا خمسة عشرة ألف بيزنط وخمسة عشر جواداً أصيلاً. كما أنه باع لنا الكثير من الخيول ، والحمير، والمؤن، بكميات كافية لتموين جيش المسيح كله. كذلك قررت المعاهدة أننا إذا استطعنا هزيمة الجيش الذى كان أمير القاهرة (٢) يجهزه ضدنا، وأن نستولى على بيت المقدس، فإن ملك طرابلس سيقوم عندئذ باعتناق المسيحية، ويحكم بلاده لحساب زعمائنا. كانت هذه هى الإتفاقية القانونية.

« ورحلنا عن المدينة فى أحد أيام الاثنين فى شهر مايو وسافرنا طوال الليل والنهار، عبر ممر ضيق منحدر حتى وصلنا إلى قلعة تسمى بيتلون (٣) ، ومنها وصلنا إلى مدينة على الساحل تسمى جبيلون (٤) ، حيث عانينا كثيراً من العطش لدرجة أننا عندما وصلنا إلى النهر المسيحى برايم (٥) كان الإرهاق قد حل بنا. وبعد هذا قضينا الليل واليوم التالى فى عبور التلال التى يخترقها ممر ضيق للغاية، وكنا نتوقع أن نجد أعداءنا فى كمين، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب منا بفضل الرب. ثم سبقنا فرساننا، لكى يخلوا لنا الطريق، ثم وصلنا

---

(١) كان هذا هو الأسطول الجنوى الذى كان قد وصل من قبل إلى ميناء (القديس سمعان) انطاكية.

(٢) يقصد الأفضل شاهنشاه قائد الجيوش المصرية، والذى كان صاحب السلطة الفعلية فى مصر آنذاك بسبب ضعف الخليفة الفاطمى، وكان قد انتهز فرصة وجود الصليبيين فى بلاد الشام لكى يستولى على بيت المقدس من حاكمها التركى الذى كان تابعاً لأرتق فى يوليو سنة ١٠٩٨م.

(٣) بطرون.

(٤) هى بيبلوس القديمة وجبيل الحالية.

(٥) نهر إبراهيم.

إلى مـدينة تسـمى بيـروت تقع على السـاحل، ومن هناك وصلنا إلى مـدينة أخـرى تسـمى ساجينا[١]، ثم إلى مدينة تسمى حيفا، ثم عسكرنا فيما بعد بالقرب من قيصرية حيث احتفلنا بعيد العنصرة فى ٣٠ مايو. ومن هنا توجهنا إلى مدينة الرملة التى كان المسلمون قد أخلوها خوفًا من الفرنج. وبالقرب من الرملة تقع كنيسة جديرة بالتبجيل والاحترام، لأن بداخلها يرقد جسد القديس چورج، الذى عانى مجد الشهادة المباركة هناك من أجل اسم المسيح على أيدى الوثنيين الخونة . وبينما كنا هناك تشاور زعماؤنا سويا ثم اختاروا أسقفًا لحماية هذه الكنيسة وبنائها، ودفعوا له العشور وأغدقوا عليه الذهب والفضة والخيول وغيرها من الحيوانات ، حتى يمكن له ولأهل بيته أن يعيشوا عيشة دينية هانئة.

« وقد مكث هناك فى سرور ، ولكننا وصلنا فى غمرة الفرح والبهجة إلى بيت المقدس فى يوم الثلاثاء ٦٠ يونيو، وفرضنا على المدينة حصارًا شاملاً للغاية. وقد اتخذ روبرت النورمانى مواقعه فى الشمال، فيما يلى كنيسة القديس ستيفن أول الشهداء»، التى كانت مبنية فى ذلك المكان باسم المسيح ، واستقر روبرت كونت الفلاندرز فى الموقع الذى يليه، وكان الدوق وتنكرد يحاصران المدينة من جهة الغرب. أما كونت سان جيل فكان فى الجنوب، أى فوق جبل صهيون، بالقرب من كنيسة القديسة مريم أم سيدنا، حيث شارك الرب حوارييه العشاء الأخير.

« وفى اليوم الثالث ذهب بعض رجالنا ـ ريمون بيليه وريمون التورنى وكثيرون غيرهم ـ للقتال ووجدوا مائتين من العرب . وحارب فرسان المسيح ضد أولئك الكفار، وهزموهم هزيمة نكراء بفضل الرب، وقتلوا منهم الكثيرين واستولوا على ثلاثين جوادًا . وفى يوم الاثنين [٢] شددنا الضغط على المدينة بهجوم عنيف بلغ من حدته أنه لو كانت السلالم جاهزة لاستولينا على المدينة. وقد قمنا فعلاً بتدمير السور الخارجى، وأقمنا سلمًا على الحائط الكبير، وصعد فرساننا عليه وقاتلوا قتالاً متلاحمًا ضد المسلمين والمدافعين عن المدينة، مستخدمين السيوف والحراب. وفقدنا عددًا كبيرًا من الرجال، ولكن خسائر العدو كانت أكبر. وخلال هذا الحصار لم نكن نستطيع شراء الخبز لمدة تقرب من عشرة أيام، حتى جاءنا رسول من سفننا[٣]. كذلك عانينا كثيرا من العطش لدرجة أننا كنا نضطر لأخذ جيادنا والحيوانات الأخرى مسافة ستة

(١) صيدا الحالية.
(٢) ١٣ يونيو ١٠٩٩م.
(٣) أسطول جنوى.

أميال حيث يوجد الماء، ونتحمل كثيراً من الرعب والمخاطر أثناء الطريق. وكانت بركة سيلوم الواقعة عند سفح جبل صهيون تساعدنا على الإستمرار ، ولكن الماء كان يباع بأسعار غالية جدا فى الجيش.

« وبعد وصول الرسول المبعوث من سفننا، تشاور قادتنا وقرروا إرسال بعض الفرسان لحماية الرجال والسفن التى كانت راسية فى ميناء يافا. وعند الفجر انطلق مائة فارس من جيش ريمون، كونت سان جيل، وكان بينهم ريمون بيليه، وأشارد المونتمبرلى، ووليم السابرانى، وساروا فى ثقة صوب الميناء، ثم انفصل ثلاثون من فرساننا عن الآخرين، وأشتبكوا مع سبعمائة من العرب والأتراك والمسلمين [١] من جيش الأمير. وهاجم الفرسان المسيحيون الأعداء بشجاعة، ولكنهم كانوا قوة ضخمة بالقياس إلى فرساننا بحيث أحاطوا بهم وقتلوا أشارد المونتمبرلى وبعض الجنود المشاة الفقراء، وبينما كان رجالنا محاصرين بهذا الشكل وقد توقعوا الموت جميعًا، وصل رسول إلى الآخرين وقال لريمون بيليه «لماذا تمكثون هنا بفرسانكم ؟ انظروا إن رجالنا جميعًا وقعوا فى فخ نصبه لهم العرب والأتراك، وربما يكونون فى عداد الموتى هذه اللحظة ، انجدوهم» . وعندما سمع رجالنا هذا انطلقوا بأسرع ما يمكن، ووصلوا إلى المكان الذى كان الآخرون يخوضون فيه القتال. وعندما رأى الوثنيون الفرسان المسيحيين، انقسموا قسمين ، ولكن رجالنا استنجدوا باسم المسيح وهاجموا هؤلاء الكفار بعنف شديد لدرجة أن كل فارس أطاح بمن كان يواجهه. وعندما رأى الأعداء أنهم لا يستطيعون الصمود إزاء هجوم الفرنج الجسور، أداروا ظهورهم، وتملكهم الذعر، وطاردهم رجالنا لمسافة تقرب من أربعة أميال، وقتلوا منهم الكثيرين، ولكنهم أبقوا حياة رجل واحد لكى يمدهم بالمعلومات. كما استولوا على مائة وثلاثة خيول[٢].

« وأثناء هذا الحصار، قاسينا كثيراً من العطش لدرجة أننا كنا نخيط جلود الثيران والجاموس ونحمل فيها المياه من مسافات تقرب من ستة أميال. وكنا نشرب المياه من هذه القرب، على الرغم من تغير رائحتها، وقاسينا كثيراً من المتاعب والمخاطر بصورة يومية للحصول على المياه القذرة وخبز الشعير، لأن المسلمين اعتادوا أن يكمنوا لنا الكمائن بالقرب

---

(١) هذه هى الصيغة التى يفضلها الكاتب لتوصيف «الأعداء» . ومن غير المحتمل أن يكون الأتراك ضمن الجيش المصرى فى سنة ١٠٩٩، لأن الفارس المجهول يقصد بكلمة «الأمير» ، الأفضل شاهنشاه قائد الجيش المصرى آنذاك.

(٢) قارن هذه الرواية برواية ريمون الأجويلرى.

من كل نبع وبركة ماء، حيث كانوا يقتلون رجالنا ويمزقونهم إربًا إربًا؛ كما كانوا يأخذون الحيوانات إلى كهوفهم وأماكنهم الخفية بين الصخور.

« وحينئذ قرر زعماؤنا أن يهاجموا المدينة بالآلات، فربما دخلناها لنتعبد في ضريح منقذنا ومُخلصنا . وصنعوا برجين خشبيين من أبراج الحصار وآلات أخرى مختلفة. وملأ الدوق جودفرى برجه بالآلات، وكذلك فعل الكونت ريمون، ولكن كان عليهم أن يحصلوا على الأخشاب من مكان بعيد. وعندما رأى المسلمون رجالنا يصنعون هذه الآلات، بنوا سور المدينة وأبراجها أثناء الليل، بحيث زادوا من قوتها. وعلى أية حال، فعندما عرف رجالنا أضعف نقطة فى دفاعات المدينة، نقلوا إحدى الآلات وأحد الأبراج إلى الجانب الشرقى فى مساء يوم السبت(١). وأقاموا هذه الآلات عند الفجر، وقضوا أيام الأحد والإثنين والثلاثاء فى تجهيز برج الحصار وإعداده على حين كان كونت سان جيل يجهز معداته على الجانب الجنوبى. وفى هذا الوقت كنا نعانى بشدة من نقص الماء لدرجة أن المرء لم يكن يستطيع أن يشترى ما يروى ظمأه مقابل قطعة من النقود.

« وفى يوم الأربعاء والخميس قمنا بشن هجوم عنيف على المدينة، طوال الليل والنهار، ومن جميع النواحى، ولكن قبل أن نقوم بالهجوم ، خطب فينا قساوستنا وأساقفتنا، وطلبوا منا أن نمضى فى مسيرة دينية حول القدس تمجيداً للرب، وأن نصلى ونتصدق ونصوم كما ينبغى للرجال المؤمنين أن يفعلوا . وفى يوم الجمعة، وساعة الفجر، هاجمنا المدينة من جميع الجوانب، ولكننا لم نحقق شيئًا، مما جعلنا جميعًا متخاذلين وغشينا الخوف، ولكن عندما حلت الساعة التى اختار الرب أن يعانى فيها من أجلنا على الصليب، كان عدة فرسان يقاتلون بجسارة فوق برج الحصار، يقودهم الدوق جودفرى وأخوه إيستاس. وفى هذه اللحظة نجح أحد فرساننا، وأسمه ليتولد، فى تسلق السور. وبمجرد أن وصله هرب كل المدافعين على طول السور وعبر أنحاء المدينة، وطاردهم رجالنا، يقتلون ويمزقونهم حتى معبد سليمان (٢) حيث جرت هناك مذبحة بلغ من عنفها أن رجالنا كانوا يخوضون فى دماء أعدائهم حتى أعقابهم.

« وكان الكونت ريمون يقترب بجيشه وبأحد أبراج الحصار من الجنوب لكى يصل إلى

---

(١) ٩ يوليو ١٠٩٩م. ولم يكن المدافعون عن المدينة يتوقعون الهجوم من ناحية الشرق بسبب شدة إنحدار الصخور فى هذه الجهة.

(٢) مسجد الصخرة الذى بناه عمر بن الخطاب.

السور، ولكن ثمة أخدود كان يفصل بين السور والبرج. وناقش زعماؤنا كيفية سد هذا الشق العميق، وأعلنوا أن كل من يحضر ثلاثة أحجار ويلقيها فى الأخدود سيأخذ قطعة من النقود. واستغرق الأمر ثلاثة أيام بلياليها، وعندما امتلأ تم سحب البرج إلى جوار السور. وكان المدافعون يقاتلون رجالنا فى شجاعة مذهلة، ويقذفون الأحجار والنيران. ولكن عندما سمع الكونت أن الفرنج فى المدينة قال لرجاله «لماذا تبطئون هكذا؟ انظروا أن جميع الفرنج الآخرين قد دخلوا المدينة بالفعل» ، ثم استسلم الأمير الذى كان يدافع عن برج داود للكونت ، ثم فتح له البوابة التى كان الحجاج يدفعون الضرائب عندها[1]، وهكذا دخل رجالنا المدينة، وأخذوا يطاردون المسلمين ويقتلونهم حتى معبد سليمان، حيث احتمى به المسلمون وقاتلوا ضد رجالنا بضراوة على مدى يوم كامل، لدرجة أن المعبد كله كان يفيض بدمائهم. وقد قتلوا من اختاروا قتلهم، وأبقوا على حياة من شاءوا إبقاءهم أحياء. وفوق سطح المعبد كان هناك زحام من الوثنيين من كلا الجنسين منحهم تنكرد وجاستون البيرنى رايتهما[2].

« وبعد أن اندفع رجالنا فى أرجاء المدينة كلها، يستولون على الذهب والفضة، والخيول والبغال، والمنازل العامرة بكل صنوف البضائع ، وأقبلوا جميعًا فرحين وهم يبكون من شدة الفرح لكى يتعبدوا فى ضريح يسوع مخلصا، وهناك أوفوا بنذورهم له، وفى اليوم التالى توجهوا بحذر إلى سطح المعبد وهاجموا المسلمين، نساء ورجالاً ، وقطعوا رؤوسهم بسيوفهم. وقذف بعض المسلمين بأنفسهم من أعلى المعبد. وانتاب تنكرد غضب شديد عندما شاهد ذلك.

« ثم تشاور رجالنا وأمروا بأن يتصدق الجميع وأن يصلوا للرب لكى يختار بنفسه من يريده أن يحكم الآخرين ويحكم المدينة. كما أمروا بأن ترمى جميع جثث المسلمين خارج المدينة بسبب الرائحة المرعبة، لأن المدينة كلها تقريبًا كانت ملأى بالجثث. وهكذا قام الأحياء من المسلمين بسحب الأموات إلى خارج المدينة أمام البوابات وكوموهم فى أكوام كبيرة بحجم البيوت. ولم ير أحد من قبل أو يسمع عن قتل مثل هذا العدد من الوثنيين، لأنهم أحرقوا فى أكوام مثل الأهرامات، ولا يعرف أحد غير الرب كم كان عددهم. وعلى أية حال، فإن الكونت ريمون، أمر بأن يذهب الأمير [3] ومن معه أحياء إلى عسقلان سالمين آمنين».

---

(١) هى البوابة التى تؤدى إلى طريق يافا. وكان الحجاج المسيحيون يدفعون رسوما لدخول المدينة عند هذه البوابة.

(٢) أى أنهما فرضا عليهم الحماية بحيث لا يجوز لأحد من الصليبيين أن يتعرض لهم بأذى.

(٣) هو الأمير افتخار الدولة حاكم المدينة من قبل الدولة الفاطمية فى مصر آنذاك.

أهم مصـــادر ومـراجع الكتاب

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

(أ) المصـــادر :

١ ـ ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الواحد الشيبانى):

ـ الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٥م.

ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (تحقيق عبد القادر طليمات) ، القاهرة ١٩٦٣م.

٢ ـ ابن العديم (كمال الدين عمرو بن أحمد):

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزءان (تحقيق سامى الدهن) ، دمشق، ١٩٥٤م.

٣ ـ ابن القلانسى (حمزة بن القلانسى) :

ـ ذيل تاريخ دمشق (نشرة أمدروز) ، بيروت ١٩٠٨م.

٤ ـ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى):

ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٥ ـ طبعة دار الكتب المصرية.

٥ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):

ـ إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. (تحقيق محمد حلمى محمد أحمد)، القاهرة ، ١٩٧١م.

ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ، ١٢٧٠هـ.

(ب) المراجع :

١ ـ اسحق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين ٨٦٩ ـ ١٢٠٤م، القاهرة ١٩٧٢م.

٢ ـ براور ، يوشع ، عالم الصليبيين (ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة) ، القاهرة ١٩٨١م.

٣ ـ بيريل سمالى ، المؤرخون فى العصور الوسطى (ترجمة قاسم عبده قاسم) ، القاهرة ١٩٧٩م.

٤ ـ جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، الإسكندرية ١٩٦٣م.

٥ ـ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، القاهرة ١٩٧١م.

٦ ـ عبد الغنى محمود عبد المعطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور أليكسيوس كومنين ١٠٨١ ـ ١١١٨م، القاهرة ١٩٨٣م.

٧ ـ قاسم عبده قاسم ، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية، الظاهرة ومغزاها»، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الأول، ص ١٣٧ ـ ص ١٦٦، القاهرة ١٩٨٢م.

٨ ـ قاسم عبده قاسم ، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية ، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ ـ ١٠٩٩م، القاهرة ١٩٨٣م.

٩ ـ نورمان ف. كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية (جزءان) ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ٨٠ ـ ١٩٨٤م.

ثانيًا : المصادر الأجنبية :ـ

1. Albert of Aix, "Historia Hierosolymitana", RHC, Oc., IV, (Paris 1879).
2. Alexiad of Anna Comnena, (Transl. by E.R.A. Sewter), Penguin 1979.
3. Baldric of Dol, "Historia Jerosolimitana", RHC, Oc., IV, (Paris 1879).
4. Anonymous, Deeds of the Franks and the other pilgrims to Jerusalem, (ed. R. Hill), (London 1962).
5. Ekkehard of Aura, "Hierosolymitana", RHC., Oc. V, (Paris 1886).
6. Fulcher of Charters, A history of the expedition to Jerusalem, (ed. H. Fink). (Knoxville 1969).
7. Guibert of Nogent, "Historia quae Diciture Gesta Dei per Francos", RHC, Oc. IV. (Paris 1879).
8. Raymond of Aguilers, "Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem", RHC., Oc. III. (Paris 1866).
9. Robert the Monk, "Historia Iherosolimitana", RHC., Oc., III (Paris 1866).
10. William of Tyre, A History of the Deeds done beyond the see, (transl. by: E. A. Babcock and A. C. Krey) (New York 1943 - 47).
11. ALO: Archives de l'Orient Latin, 2 toms. (eds. P. Riant et H. Hagenmeyer) (Paris 1884).

ثالثاً : المراجع الأجنبية :-

1. Alphandery, P., La Chrétienté et l'Idée de Croisade. (Paris 1954).
2. Archer, T. A., The Crusades (London 1919).
3. Atiya, A. S. The Crusades, Historiography and Bibliograhy. (London 1962).
4. Bishop, M., The Penguin Book of the Middle Ages. (London 1971).
5. Bloch, M., Feudal Society (englsih transl. by : Mnyou) 2 vols. (Chicago 1968).
6. Boase, T. S. R., Kingdoms and Strongholds of the Crusaders. (London 1971).
7. Bradford, E., The Sword and the Scimitar _ The Saga of the Crusades. (London 1974).
8. Bréhier, L., Les Croisades. (Paris 1928).
9. Chalandon F., Essai sur la reigne d' Alexie 1er Comnéne, 1081-1118. (Paris 1900).
10. _ Histoire de la Prémiére Croisade, 3 toms. (Paris 1925).
11. Le Duc de Castries, La Conquête de la Têrre Sainte par les Croisées. (Paris 1973).
12. Duggan, A., The Story of the Crusades. (Lodon 1963).
13. Duncalf, F., "The First Crusade, Clermont to Constantinople", in Setton (ed.,), History of the Crusades, Vol. I, pp. 253-79. (Philadelphia 1953).
14. Edward Peters (ed.), The First Crusade - The Chroincle of Fulcher of Chartres and other source materials. (Univ. of Pennsylvania Press 1971).
15. Edward Pognon (ed.), L'An mille - oeuvres de: Luitprand, Raoul Glaber, Ademar de Chabrannes Adelborn, et Helgaud. (France 1974).
16. Frederick H. Russel, The Just War in the Middle Ages. (Combridge 1973).
17. Hans E. Mayer, The Crusades, (transl. from German by: John Gillingham) (Oxford 1972).
18. Painter, S., A history of the Middle Ages (Enland 1955).
19. Runciman, S., A History of the Crusades, 3 Vols. (New York 1964).
20. Riley-Smith, Louise and Jonathan, The Crusades-Idea and Reality. (London 1981).

محتويـــات الكتـــاب

الإهـــداء ٣
تمهيـــد ٥

القسم الأول : ما قبل الحركة

الحج إلى الأراضي المقدسة ـ رودلف جلابير ٤١
* الأخبار والرؤى الإعجازية والأفكار الألفية والأخروية ـ جلابير ٤٣
* الصراع بين الكنيسة والدولة :
ـ البابا نيقولاس الثاني، مرسوم الإنتخاب البابوى سنة ١٠٥٩م. ٤٩
ـ الإملاء البابوى (الإرادة البابوية) سنة ١٠٧٥م. ٥٠
ـ خطاب مجمع ورمس إلى البابا جريجورى السابع، يناير ١٠٧٦م. ٥٢
ـ البابا جريجورى السابع يخلع هنرى الرابع عن عرشه وفبراير ١٠٧٦م. ٥٤
ـ خطاب من جريجورى السابع إلى الأمراء الألمان يصف خضوع هنرى الرابع فى كانوسا، ١٠٧٧م. ٥٥
* النظم والمُثُل الإقطاعية :
ـ ملحمة راؤول الكامبرى ٥٧
* حركة الســلام ٦٦
ـ سلام الرب فى مجمع شارو ٩٨٩م ٦٦
ـ هدنة الرب، أسقفية تيروان ١٠٦٣م. ٦٧
* حياة القن فى العصور الوسطى. ٦٨

القسم الثانى : الدعوة إلى الحملة الصليبية

* البابا إربان الثانى فى مجمع كليرمون، نوفمبر ١٠٩٥م ٧٣
ـ رواية فوشيه الشارترى ٧٣
ـ رواية المؤرخ المجهول ٧٦
ـ رواية روبير الراهب ٧٧
ـ رواية جيوبرت النوجنتى ٨١
ـ رواية بلدريك الدولى ٨٥
* خطابات إربان للدعوة إلى الحملة الصليبية ٨٩
ـ إلى كونتات بيسالو ـ وأمبورياس ، وروسيللون، وسردانيا، وفرسانهم ٨٩
ـ إلى كل المؤمنين فى الفلاندرز ٩٠
ـ إلى أتباعه فى بولونيا ٩٠
ـ إلى جماعة الرهبان فى دير فالومبروسا ٩١
* شاعر مجهول يعبر عن حب الصليبى للرب ٩٢

القسم الثالث : الحملة الشعبية

* بطرس الناسك ٩٨
- رواية جيوبرت النوجنتى ٩٨
- رواية فوشيه الشارترى ٩٩
- رواية وليم الصورى ١٠٠
* والتر المفلس ١٠٣
- رواية وليم الصورى ١٠٣
- رواية آلبرت الآيكسى ١٠٥
* حملة بطرس الناسك ١٠٧
- رواية آلبرت الآيكسى ١٠٧
- رواية وليم الصورى ١٠٩
* فولكمار وجوتشولك ١١٤
- رواية آلبرت الآيكسى ١١٤
- رواية إيكهارد الأورى ١١٦
- رواية وليم الصورى ١١٦
* أميـــكو ١١٨
- رواية إيكارد الأورى ١١٨
- رواية آلبرت الآيكسى ١٢٠
* نهاية الحملة الشعبية ١٢٢
- رواية آنا كومنينا ١٢٣
- رواية المؤرخ المجهول ١٢٥
- رواية آلبرت الآيكسى ١٢٧

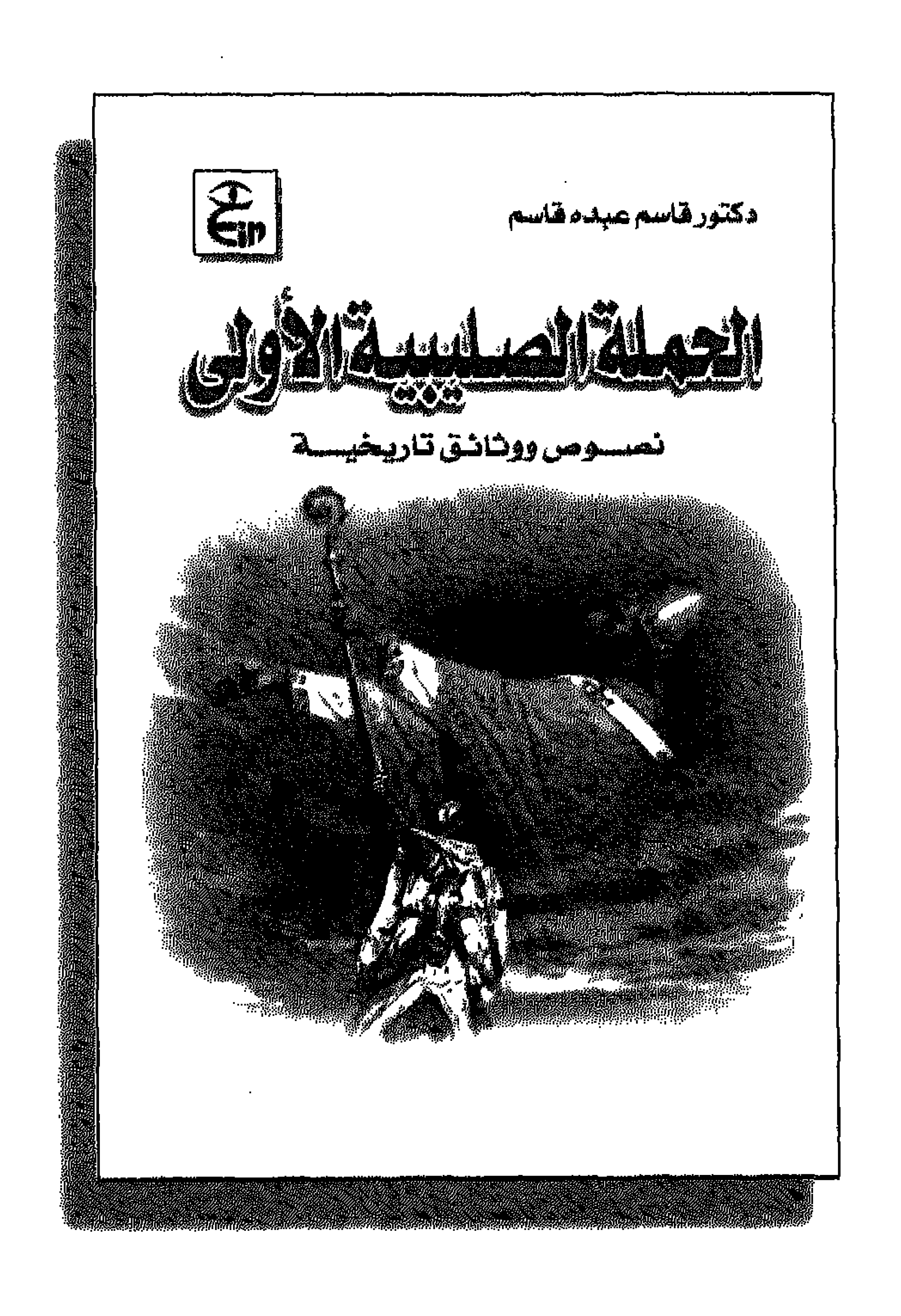
القسم الرابع : حملة الفرسان ـ الطريق إلى القدس

* الرحلة إلى القسطنطينية ١٣٦
- رواية فوشيه الشارترى ١٣٦
- رواية المؤرخ المجهول ١٣٨
- رواية وليم الصورى ١٣٩
* رحلة روبرت كونت نورماندى ـ فوشيه الشارترى ١٤٠
* رحلة بوهيموند النورمانى ـ المؤرخ المجهول ١٤٣
* رحلة ريمون أمير تولوز وأديمار المندوب البابوى ـ ريمون الأجويلرى ١٤٦
* رحلة جودفرى البويونى ـ وليم الصورى ١٥٠
* الصليبيون فى القسطنطينية:
* هيو الكبير الأمير الفرنجى ـ آنا كومنينا ١٥٦
* جودفرى البويونى ـ المؤرخ المجهول ١٥٨
* جودفرى البويونى ـ آلبرت الآيكسى ١٥٨

* جودفرى البويونى ـ آنا كومنينا ١٦٤
* بوهيموند ـ المؤرخ المجهول ١٦٨
* بوهميوند ـ آنا كومنينا ١٧٠
* ريمون أمير تولوز وأديمار المندوب البابوى ـ ريمون الأجويلرى ١٧٣
* ريمون كونت تولوز ـ المؤرخ المجهول ١٧٤
* ريمون كونت تولوز ـ آنا كومنينا ١٧٥
* حصار نيقية وسقوطها (مايو ـ يونيو ١٠٩٧م) ١٧٧
ـ رواية المؤرخ المجهول ١٧٧
ـ رواية فوشيه الشارترى ١٨٠
ـ رواية ريمون الأجويلرى ١٨٢
ـ رواية آنا كومنينا ١٨٤
* رسالة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس إلى مقدم مونت كاسينو حول سقوط نيقية ١٩٠
* الطريق إلى إنطاكية (يونيو ١٠٩٧ ـ يوليو ١٠٩٨م) ١٩٢
* معركة ضوروليوم ـ المؤرخ المجهول ١٩٢
* معركة ضوروليوم ـ فوشيه الشارترى ١٩٤
* حصار أنطاكية
ـ رواية المؤرخ المجهول ١٩٦
ـ رواية ريمون الأجويلرى ١٩٩
ـ رواية فوشيه الشارترى ٢٠٢
* معاناة الصليبيين حول أنطاكية ٢٠٤
ـ رواية المؤرخ المجهول ٢٠٤
ـ رواية ريمون الأجويلرى ٢٠٧
ـ رواية فوشيه الشارترى ٢١١
* سقوط أنطاكية وهجوم كربوقا الفاشل ٢١٣
ـ رواية المؤرخ المجهول ٢١٣
ـ رواية ريمون الأجويلرى ٢٢٧
ـ رواية فوشيه الشارترى ٢٤٠
* خطاب زعماء الصليبيين إلى البابا إربان الثانى حول أحداث أنطاكية ٢٤٧
* الطريق إلى القدس (أبريل ١٠٩٩ ـ يوليو ١٠٩٩م) ٢٥١
ـ رواية فوشيه الشارترى ٢٥٢
ـ رواية ريمون الأجويلرى ٢٥٧
ـ رواية المؤرخ المجهول ٢٧٣
أهم المصـــادر والمراجع ٢٧٩

رقم الإيداع ١٥١١٤ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 067 - 2

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق


دكتور قاسم عبده قاسم
الحملة الصليبية الأولى
نصوص ووثائق تاريخية


Bibliotheca Alexandrina
0354155


للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES